

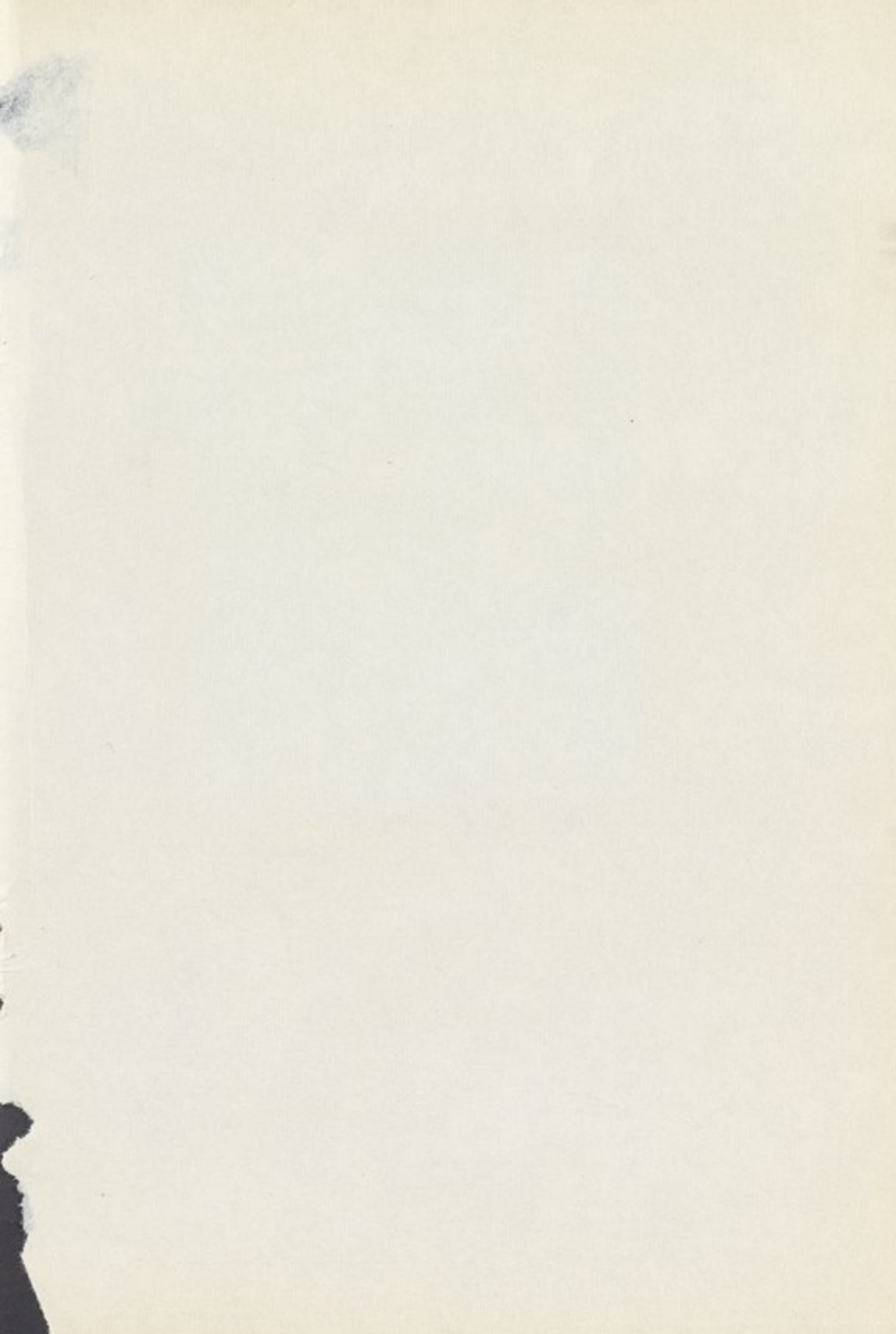
عِظَامٌ وَحَبِيرٌ

تأليف

عبد الحميد العلوشي



عطر و حبر



عِظْمٌ وَحَبْرٌ

تأليف

عبد الحميد العلوي



دار الجمهورية - بغداد
١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

936
A 27
19-20

المتدّة

قوام' هذا الكتاب دراسات' وأبحاث وهو اجس ، فاض بها الخاطر
فطولعت' ، خلال ثماني سنوات ، في رحاب الصحف والمجلات ، وقد تشبث
بها اعجاب' ، وساعفها ثناء ، ٠٠ ولكنها ، مع الايام ، خنعت' لقوّة نابذة
حملتها على الانزواء ، فاخذت' الى دعة ، ونزحت' عن مطارح الاستغلال
الى حيث لا تدري أين تتوجه .

وقد رأيتها ، قبل اليوم ، أجدر' ما كتبت' بالتمرد على العزلة ،
والخروج من نطاق المحنة ٠٠ فجمعت' اشتاتها ، واصطفيت منها الأنفع'
والاطرب' ليتأتى لها الاعتصام بسند' كافل دون ان تستوعر دربا .

وعلى هذا رسخ العزم' ، وعندئذ هبطت' بها اضمامة' الى لجنة الكتب
الحديثة في وزارة الثقافة والارشاد لتقول فيها ما يشد' حياتها بالحياة
او ما يفرغها تياراً في واقعنا الفكري . وبعد شورى واعية أوصت اللجنة
بتنسيق الاضمامة وتبويبها واستصفائها قبل ان تسبكه المطبعة حرفاً بين
دفتين . فليت' الاقتراح ، واحترمت الوصية ٠٠ فطلع هذا الكتاب
دونما صلفٍ او ادعاء - كما هو الآن في اهابه - عطراً وحبراً .

وقد رشّشت' بالعطر بعض الوجوه والقلوب ، ولطخت بالجبس
بعض الانوف والنواصي ، فاذا كان العطر ، عند قوم ، منبع نشوة ،

ومثار غبطة ، فان الجبر .. ينبغي ان لا تخشى منه غائلة ، لانه عطر
الرجال .. ولم يذُني العطر مع الوعد ، ولا الجبر مع الوعيد ..
عن ترويض معطس لا يهدأ ولا يستريح الا اذا دُهِنَ من قارورة عطر
وعلبة جبر .. ومع ذلك فانا - عند الوداع - لا املك الا ان استسمح
من دار حولهم حديثي اعتذاراً عما فرط من الهنات او ما هو قريب منها ..
وعلى الله اعتمد .

المؤلف

٦ آذار ١٩٦٧

دراسات قرآنیہ

النموذج التاريخي للمصحف الشريف

القرآن كتاب عربي أنزله الرحمن الرحيم في بضع وعشرين سنة ،
وفصّل آياته لقوم يعلمون .. وقد ارتدى هذا الكتاب العظيم أسماء كثيرة
كالقرآن والكتاب والتنزيل والذكر والمصحف . وللمستشرقين عناية بالغة في
البحث عن طبيعة هذه الاسماء . فالقرآن كلمة واضحة ، ولكن حرف «الف»
فيها جعلهم يذهبون مذاهب شتى في كتابتها .. حتى خضعت هذه الكلمة ،
في الادب الانكليزي ، للتطور اللغوي التاريخي .. فقد وردت في سنة
١٦٢٥ في مؤلفات صموئيل بورجاس بصيغة Gore ، وفي سنة ١٦٦٥
وجدناها عند السيرت . هربرت بصيغة Currawn ، وكانت في سنة ١٧٣٥
عند بولينكبروك ، وسنة ١٧٨١ عند جيون ، وسنة ١٨١٣ عند بايرون
بصيغة واحدة هي Koran . وفي حدود سنة ١٨٤١ وضع الفنستون
للقرآن صيغة Kurán ، كما وضعت له الليدي هربرت سنة ١٨٦٧ صيغة
Kurán . وتهافت المستشرقون ، بعدئذ ، على هذه الكلمة فوضعوا لها
طائفة من الاسماء ، أشهرها :

Alcoran, Qur'an, Qoran, Qurán, Kuran Alchoran, Al-Koran.

وحام المستشرق هوروفتس حول اشتقاق كلمة القرآن في بحثه النفيس
الذي ظهر في مجلة الدراسات الاسلامية (Islamica XIII, P. 66ff.)

وتصدي للفظ القرآن بالدراسة الأستاذ بول في دائرة المعارف الاسلامية
The Encyclopaedia of Islam, Leiden — London, 1927. Vol. II,
1063-1076.

والمستشرق الانكليزي د. س. مرغليوث في دائرة معارف الدين والاخلاق
(Encyclopaedia of Religion and Ethics, edited by James Hastings,
1918, Vol. X, art. Quran, No. I, pp. 538-539).

وانصرف المستشرق الجيكوسلوفياكي باول كراوس الى تحديد معنى
(المصحف) ، ووقع - أثناء البحث - على معان واستعمالات غريبة تعرض
لها هذا اللفظ خلال تاريخه الاسلامي ، واصطلاح المستشرقون المتخصصون ،
في هذا الشأن ، على ان كلمة المصحف (بضم الميم وفتح وكسره) مع
ورودها في احدي قصائد امرئ القيس :

ات حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

ليست أصيلة في اللغة العربية بل هي معربة من الكلمة الحبشية Mashaf
(راجع : مجلة الثقافة - القاهرة - المجلد الخامس ، ١٩٤٣ ، العدد
٢٢٨) • وما ذهب اليه كراوس ينسجم والرواية الاسلامية ، فمصحف
عثمان يسمى الامام من المصاحف ، لان القرآن الكريم حين تم جمعه ،
قال عثمان : التمسوا له اسما • فقال قوم : الكتاب ، وقال آخرون :
السفر ، وقال قوم : المصحف ، وهو اسم اعجمي معناه جامع الصحف ،
فسماه به (راجع : كتاب الفرقان للخطيب ، ص ٤٦) ، وذهب جلال الدين
السيوطي الى أن أبا بكر هو الذي قال لجامعي القرآن : لتسموا له اسماً ،
فقال بعضهم : السفر ، وقال بعضهم : المصحف فان الحبشة يسمونه المصحف
(راجع : الاتقان في علوم القرآن ، ص ١٢٠) •

اما « الفرقان » كاصطلاح قرآني ، فقد ناقشه محررا مجلة العالم
الاسلامي في بحث عنوانه :

“The Criterion” (The Muslim World, Vol. XLV, No. 2 “1955”
pp. 109).

وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل منه على ما يتيسر لهم من جريد
التخل واصول السعف وصفائح الحجارة والرقاع وعظام الاكتاف
والاضلاع • وقبض الرسول (ص) والقرآن في الصدور وفيما كتب عليه ،
ولذلك لم يجمع في عهده (ص) لما كان يترقبه من نزول ناسخ لبعضه
(راجع : كتاب الفرقان ، ص ٣٦) ، وقد أجمع المستشرقون على تأييد
ذلك بالرغم من الروايات المخالفة التي اكدت على جمع القرآن في عهد
الرسول (ص) ، وهذا هو الامام عبدالحسين شرف الدين يعتقد ان القرآن
كان مجموعا أيام النبي على ما هو عليه الآن من الترتيب والتسيق (راجع
كتابه : أجوبة موسى جارالله ، صيدا ١٩٥٣ ، ص ٣٤) •

ولما نهض أبو بكر بالاسلام مات عدد كبير من القراء في حروب
الفتح ، فهال الامر عمر بن الخطاب ، وبعد مشاورة مع أبي بكر كتب
زيد بن ثابت القرآن في الاكتاف والعصب ، فتداولت هذه النسخة بين أبي
بكر وعمر ، ثم استقرت عند حفصة •• ولكن المستشرق الالمانى بروكلمان
يشك في صحة الرواية القائلة بأن أبا بكر هو الذي أمر بجمع القرآن
(انظر تاريخ الادب العربي ، الترجمة العربية ، الجزء الاول ، ص ١٣٩) ،
وقد شك قبله شفالي في هذا الامر (راجع :

Geschichte des Qorans, Leipzig 1909-1919, II, p. 18.

وهو تاريخ القرآن الذي ألفه نولدكه في طبعته الثانية التي نصح مجلدها
الاول والثاني الاستاذ شفالي) ، في حين أن الرواية الاسلامية تذهب الى
أن نار الحرب لما استعرت بين خالد ومسيلمة في اليمامة مات من المؤمنين
كثير ، منهم سبعمائة من القراء •• فلما رأى عمر ما وقع بأكثر القراء
خشى على من بقى منهم ، فعرض على أبي بكر اقتراحه بجمع القرآن ،
فرأى أبو بكر رأيه (راجع : الفرقان ، ص ٣٤) •

ويرجح بروكلمان ان الخليفة عمر هو الذي أمر زيدا بن ثابت
أن يقوم بجمع القرآن وكتابات الوحي ، وبقى هذا المجموع في حوزة
عمر ثم ورثته ابنته حفصة •• ثم يمضى هذا المستشرق قائلا : ولعل هذا

المجموع الاول كان صحفا متاثرة ، ولذلك قام زيد بعد ذلك بجمع ثان للقرآن رتب فيه السور حسب طولها ، وابتدأ بأطولها بعد الفاتحة النبي وضعها على رأس السور كلها ، وعلى هذا المتوال جمع القرآن أيضا ابي بن كعب والمقداد بن عمر وعبدالله بن مسعود وأبو موسى الأشعري ، وكان هذان الاخيران عاملين على الكوفة والبصرة ، فتبعهما أهل هاتين المدينتين ، وقرأ أهل دمشق على نسخة أبي ، وأهل حمص على نسخة المقداد (راجع : تاريخ الادب العربي ، ص ١٣٩-١٤٠) •

والواقع ان هؤلاء القراء الذين زعم بروكلمان انهم جمعوا القرآن ، لم يجمعوا القرآن ، وانما كتبوا لانفسهم مصاحف خاصة • اما عملية جمع القرآن فقد تمت بتعاون لجنة مؤلفة من اثني عشر صحابيا على عهد عثمان • وكانت المصاحف التي تمتعت بثقة المسلمين يومئذ هي تلك التي جمعها ابن مسعود وابن كعب وابن ثابت • وفي خلافة عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في الامصار ، فأخذ أهل كل مصر يتقلد مصحفا مدعوما بثقة أحد قرائهم • وكانت وجوه القراءة عند أهل الامصار متفاوتة بتفاوت الاحرف التي نزل بها القرآن ، وقد خرج بهم هذا الى الملاحاة ، والى تقييد كل مصر بشعار : « قراءتي وما أخذت به •• وما دون ذلك باطل » •• وكادت أن تقع فتنة •

وقد ضاق حذيفة بن اليمان فاتح نهاوند ذرعا بما رآه من التناحر بين المسلمين (نتيجة لاختلاف نسخ القرآن) في غزواته بآرمينية واذريجان ، فسأل الخليفة عثمان أن يأمر بنشر مصحف واحد ، فأمر عثمان زيادا ، مرة أخرى ، أن يقوم بذلك ، وأعانه ثلاثة من اشراف قريش ، فاستندوا - في ذلك - الى نسخة زيد •• راجعين مع ذلك ، الى الصحف الباقية في حيازة حفصة • فلما تم تسجيل القرآن ومراجعته على هذا النحو ارسلت نسخ منه الى البصرة والكوفة ودمشق ، ثم نسخ الناس عن هذه المصاحف نسخا كثيرة (راجع : بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ص ١٤٠) والرواية الاسلامية لا تذهب الى ما ذهب اليه بروكلمان من ان عثمان أمر

زيدا وان ثلاثة من الاشراف قد أعانوه •• وانما هي تحصر أسماء لجنة كتابة المصحف بزيد وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن الحارث وأبي بن كعب وعبدالله بن عباس •• مع وجوب النظر في الصحف التي كانت عند حفصة •

وقد بلغ هذا المصحف العثماني ، في مدة وجيزة ، مقام الوثوق والاعتماد في الاوساط الاسلامية دونما قوة أو اكراه •• وان روي أن أهل الكوفة وحدهم أصرروا مدة على القراءة بنص ابن مسعود (راجع بروكلمان ، ص ١٤٠) •

ومحاولة عثمان هذه لم تكن رغبة في توحيد النص بل قصدا الى اثبات القراءات المقطوع بصحتها ونسبتها الى الرسول (ص) دون حجر في اختيار احداها •

وقد احرقت مصاحف كثيرة منها مصحف عبدالله بن مسعود •• ومن هنا علق مركليوث أهمية كبيرة - فيما يتعلق بصحة النصوص العثمانية - على التهم المنتشرة عن احراق نصوص أخرى
(The Early development of Muhammadanism, London, 1914, p. 73).

بينما علق المستشرق المجري كولدسيهر ذات الاهمية على مسألة توحيد النص الاصلي للقرآن :

(Katholische Tendenz und partikularismus im Islam, Beitrage zur Religionswissenschaft, (1913-1914)

وذهب المستشرق الفرنسي كازانوفا الى أن اتباع أهل السنة - من دمشق الى سمرقند - يعتقدون الى اليوم ان لديهم مصاحف عثمانية مزعومة في أماكن مختلفة على أنها مخلفات جديرة بالتشريف •

(Mohammed et la fin du monde, Paris, 1913, t. 2., pp. 115-142).

وزعم المستشرق الفرنسي كليمان هوار ان الاستانة تحتفظ بسنجد شريف يشتمل على نسخة من القرآن قيل انها بخط عثمان ، وهناك في

وسط هذه الاغطية نسخة صغيرة من القرآن منسوبة الى عمر (راجع :
دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، مجلد ١٢ ، ص ٢٥٥) .

ان محاولة التوفيق بين نصوص القرآن قد أدت ، في نهايتها ، الى
نشوء حركة القدرية والى تقسيم المصحف ثلاثين جزءاً أيام الحجاج بن
يوسف الثقفي ، وقد رمي الحجاج بتحريف القرآن . . . ولكن عمله على
ما يظهر كان محدوداً ، فقد اقتصر على اعادة كتابة القرآن بالنقط والشكل
حتى يحول دون اللحن في قراءة القرآن (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ،
مجلد ٧ ، ص ٣١٥) ، ولم يصنع الحجاج ما صنع الابداء اجتهاده وبخه
مع القراء والفقهاء المعاصرين له (راجع : الفرقان ، ص ٥٢) ، وقيل ان
أبا الاسود الدؤلي أول من نقط القرآن (راجع : مجلة لغة العرب ، المجلد
الثاني ، ١٩١٣ ، ص ٣٤٨) . وقيل ان أول من أمر بنقطه وشكله هو
عبد الملك بن مروان ، فتصدى لذلك عامله الحجاج فأمر حسن البصري
ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك (راجع : الفرقان ، ص ٤٩) .

كما حدث تلك المحاولة التوفيقية يزيد بن علي الى تنسيق القرآن
بحسب موضوعاته في كتابه (مجموع الفقه) الذي نشره المستشرق الايطالي
كريفيني في ميلانو سنة ١٩١٩ بعنوان : Corpus Luris di Zaid Ibn Ali

وأخيراً ثبت النص القرآني على يد الوزير ابن مقله وابنه عيسى
عام ٩٣٣م بمساعدة العلامة ابن مجاهد الذي أجاز قراءات سبعا كانت قد
نشأت لخلو مصحف عثمان من النقط والشكل (راجع : فيليب حتي ،
تاريخ العرب ، بيروت ١٩٥٢ ، الجزء الاول ، ص ١٧٠) فأصبح القرآن
الكريم منذئذ ينطوي على ١١٤ سورة و ٦٠ حزبا و ٦٢٣٦ آية و ٧٧٩٣٤
كلمة و ٣٢٣٦٢١ حرفاً ، وزيد في المصاحف فواصل الآي وتقسيمه الى
أجزاء وأقسام وأرباع ، ولم تقف الزيادة عند هذا الحد بل وضعت فيه
علامات وإشارات ليست منه كقلى وصلى إشارة الى أن الوقف اولى والوصل
اولى وغير ذلك (راجع : الفرقان ، ص ٦٠) .

واختلف في عدد كلمات القرآن ، ف قيل انها ٧٧ ألف و ٩٣٤ كلمة ،
أو ٤٣٧ أو ٢٧٧ ، وذهب بعض مؤرخي القرآن الى ان حروفه بلغت مليون
و ٢٧٧ ألف حرف •

وانصرف الاستاذ انطون شيتالر الى دراسة عدد آيات القرآن في
بحثه الذي نشره بعنوان Die Verszählung des Koran في محاضر

جلسات المجمع العلمي البافاري SBBA سنة ١٩٣٥ •

هذا ويطمع المستشرقون ، في الحقل القرآني ، أن يكون تقدمهم
للكتب المقدسة ذا أثر عظيم في استنطاق المتن •• ونحن ما زلنا نرى أوساطهم
تنتظر طبعة نقدية لنص القرآن العربي بالرغم من بعض المحاولات المبذولة
- قبل اليوم - في اوربا وامريكا من أجل تشييد جهاز نقدي يستطيع (كذا
يزعمون) أن يبلو نساكنص القرآن ، مثابراً في نموه ، كاتباً لنفسه الانتشار
العريض •• بعيدا بعيدا عن مهبطه ، ولكن تلك المحاولات الجريئة المشبوهة
لم تتجاوز مدى القراءات السبع ومدارس القراء •

ضوء على ترجمات القرآن الكريم

من المشاكل الخطيرة التي جابهت القرآن الكريم في حياته العريضة أن يترجم الى اللغات الاجنبية ، فاذا صح ما روي من أن بعض آي القرآن قرئ بالفارسية في بخارى وسمرقند بحجة تقريب معانيه الى افهام الاعاجم^(١) ، وذلك في صدر الاسلام فانه ضاق بذلك - أبان القرن السادس الهجري - حين صرح جارالله الزمخشري في كشفه : « ان في كلام العرب ، خصوصا القرآن ، من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه لسان » . وفي الربع الاول من القرن العشرين جوز الاستاذ محمد فريد وجدي ترجمة معاني القرآن ، وقد اندلعت - بسبب ذلك - خصومة عنيفة بينه وبين الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار . . . اذ لم يكد المرحوم وجدي ينشر « الادلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن » حتى انبرى له الشيخ رضا ناشرًا رأيه المعاكس في ذلك^(٢) .

ومنذ سنة ١٩٣٦ فكرت مصر في تعريف الاجانب على القرآن من طريق الترجمة ، واتخذت الاهبة لذلك ، ففي السابع من نيسان تلك السنة أفتت جماعة « كبار العلماء » بما سمي بترجمة معاني القرآن ، وفي الاسبوع

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك (ليدن ١٨٨٥ - ١٨٩٣)
١٥٠٧ : ٢

(٢) راجع بحث وجدي في مجلة نور الاسلام الازهرية (العدد ٢ ، ١٩٢٦) ص ١٢٢ - ١٣٢ و (العدد ٧) ص ٧٧ - ١١٢ و ١٢٣ - ١٣٤ .

الثاني وافق مجلس النواب المصري على مشروع تلك الترجمة ، وفي تشرين الثاني ١٩٣٦ قرر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر يومذاك تأليف لجنة لوضع التفسير الذي سيضيء الطريق أمام معاني القرآن عند هجرتها الى اللغات الاجنبية ، وقد خطت اللجنة العمل وبدأته فعلا •• ثم ثار خلاف على ذلك حين أصدر الشيخ محمد سليمان عنارة ، نائب المحكمة الشرعية العليا في القاهرة ، كتابه : « حدث الاحداث في الاسلام ، الاقدام على ترجمة القرآن » فرقد المشروع ، حتى يوم الناس هذا ••

ويبدو أن دعوة « الزمخشري » لا تخلو من اصالة ، فهذا « جان سافاجيه » J. Sauvaget يؤكد أن ليس للقرآن ترجمة مرضية في أية لغة أوروبية^(٣) ، وكذا جيب H.A.R. Gibb الذي يرى ان من المستحيل أن يترجم القرآن بأمانة^(٤) ، ومثله آربري A.J. Arberry الذي سلم في تواضع بتلك الفكرة الاسلامية القائلة بأن القرآن غير قابل للترجمة •

ومهما يكن من شيء فان أوروبا لم تقدم على ترجمة القرآن الكريم الا بعد أن شعرت بخطر الاسلام على مفاهيمها المغلوطة ، وحسبت متوهمة انها ستعثر من وراء ترجمته على مطاعن تصلح أن تكون سلاحا في يدها لتقويض معالم الاسلام التي رسخت في بعض ربوعها ، وكان هذا من أوائل الاغراض التي شجعت على اخراج فكرة الترجمة الى حيز النشر والبعث •• ولما كانت اللاتينية هي اللغة المالوفة في أروقة الاديرة والكنائس والرهبانيات ، آتد ، فمن غير المتوقع أن لا يستقيم القرآن حرفا لاتينيا تتراشق به الألسنة في معرض الجدل والمساجلة •

وهناك من أعماق دير كلوني Glugny بزغت الدعوة الاولى لترجمة القرآن •• فقد حضر (بيدرو) الناسك رئيس ذلك الدير الى اسبانيا عام

(٣) رائد التراث العربي ، ترجمة الدكتور صلاح الدين المنجد (بيروت ١٩٤٧) ص ٨٤ •

(٤) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، ترجمه عن الفرنسية كامل سليمان (بيروت ١٩٤٥) ص ٢٩-٣٢ •

١١٤٢م ، وكلف هرمان الالماني Herman de Carintia وييدرو اليهودي الطليطلي Pedro de Toledo وروبرت الشوستري الانكليزي Robert of Chester بترجمة القرآن ليدحض بها جميع المعتقدات القرآنية ، وقد تمت الترجمة سنة ١١٤٣م^(٥) . ولكنها ظلت مخطوطة حتى سنة ١٥٤٣م حيث قام بنشرها العالم اللاهوتي الزوريخي تيودور بيلياندر Theodor Bibliander في مدينة بازل . وكانت هذه الترجمة ، في رأي بعض النقاد ، أمينة لا ارقام فيها ، وعليها قامت الدراسات القرآنية في الغرب ، كما كانت ينبوع الذي استقت منه الترجمات الايطالية والالمانية .

وقيل ذلك (أي في سنة ١٥٠٩) نشرت للقرآن ترجمة لاتينية أخرى . ولكن السلطات البابوية حرمت على القاريء الاوربي أن يقتنيها ، ومنعت تداولها بين الناس لأنها كانت عاطلة عن الردود المناسبة !! . وفي سنة ١٦٢٤ نقل القرآن الى اللاتينية الاستاذ الهولندي توماس ارينيوس Thomas Erpenius غير أنه لم يكمله ، فقد حالت وفاته دون اتمامه . ولكن الراهب الهولندي الأب بطرس غوليوس سلسينيوس استطاع أن يتبجح بأوفى ترجمة لاتينية للقرآن بعد أن استهلكت جهده وطاقته . وقد رأت اللغة اللاتينية - بعدئذ - ترجمة العلامة الايطالي ماراتشي Ludovico Marrecio (أو Marracci غالباً) التي أصدرها بعنوان Alcorani testus Universus في قسمين يحتضنهما مجلد واحد مع النص العربي^(٦) وكذلك ترجمة ابراهام هنكلمان A. Hinkelmann التي صدرت في همبورغ سنة ١٦٩٤ بعنوان Al-Coranus .

(٥) قصة الحضارة ٤/٦ ص ١٨ ، ومقالة المستشرق الاسباني منندث بيدال Menendez Pidal التي عنوانها :

Espana y introducción de la Ciencia en Occidente

المنشورة في القسم الاوربي من (مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد) المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٥٥ ص ١٩٠ .
(٦) طبعت هذه الترجمة في مدينة بادوا Padoua عام ١٦٩٨ .

ومن ثمة نزعت الحركة الاستشراقية الى تحرير الترجمة القرآنية من رتبة الكنيسة ، والى اضافة الطابع العلمي عليها ، فكان نصيب اللغة الايطالية من القرآن الكريم ما ترجمه الاساتذة : اندريا اريشابين A. Arrivabene سنة ١٥٤٧^(٧) ، وكالزو Calzo سنة ١٨٤٧ (معمدا على ترجمة كزيميرسكي M. Kasimirski الفرنسية المطبوعة في باريس سنة ١٨٤٠) ، وبانزيري Banzeri عام ١٨٨٢ (وقد صدرت لترجمته طبعتان في سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ وكتاهما عيال على ترجمة سافاري M. Savary الفرنسية المطبوعة في باريس عام ١٨٢٩) ، وفيولانتي Violante عام ١٩١٢ (وقد طبعت ترجمته في روما) ، وبرانشي Branchi عام ١٩١٣ (نقلا عن ترجمة كزيميرسكي) ، وفاراشوسي Faracossi عام ١٩١٤ ، وفروجو Frojo عام ١٩٢٨ (وقد نشر ترجمته في مدينة باري Bari) وبونيلي Boneli عام ١٩٢٩ (وصدرت ترجمته في مدينة ميلانو) .

وكان حظ اللغة الالمانية من القرآن ما ترجمه الاساتذة : شفايكر Schweigger عام ١٦١٦ (وقد طبعت ترجمته في نورنبرغ Norenburg في بافاريا ، ثم توالى طبعها في السنوات ١٦٢٣ و١٦٥٩ و١٦٦٤ بعنوان : القرآن المحمدي) ، ولانگه Lange عام ١٦٨٨ (نشرها في هامبورغ ، وترجمته سقيمة لانه نقلها عن ترجمة غلاسيكو الهولندية المنقولة بدورها عن ترجمة دي رير Du Ryer الفرنسية) ودافيدناريتير David Narreter عام ١٧٠٣ (وقد صدرت في نورنبرغ) ، وآرنولد Arnold عام ١٧٤٦ ، وميغرلين Megrilin عام ١٧٧٢ (صدرت في فرنكفورت) ، وبويسين Boysen عام ١٧٧٣ (وصدرت ترجمته في مدينة هاله Halle ، وهي أول ترجمة ألمانية عن النص العربي ، وقد نقحها وطبعها قال Wahl عام ١٨٢٨ بعنوان : Der Koran) واولمان Ullmann عام ١٨٤٠ (صدرت في مدينة كريفلد Grefeld بعنوان der Koran ، ثم طبعت

(٧) طبعت بعنوان : L'Alcorano di Macometto

ثمانى مرات آخرها عام ١٨٩٦ ، وفى سنة ١٩٦٢ أعاد طبعها من جديد
وقدم لها الاستاذ ليو فتر Leo W. Winter بعنوان :

Der Koran Das heilige Buch des Islam

فى مدينة ميونيخ München فجاءت فى (٥٠٦) صفحات ، (وهى ترجمة
بترأء ، ضحلة ، عول فىها صاحبها كثيرا على ترجمة سيل G. Sale
الانكليزية) ، وكلامروث M. Klamroth عام ١٨٩٠ (وهى ترجمة خاصة
بخمسين سورة ، طبعت فى همبورغ ، وجدد طبعها عام ١٩١٠ ، وتعد هذه
الترجمة محاولة ناجحة فى محاكاة الجرس الموسيقى النابض فى القرآن ،
وقد صدرت بعنوان Die fünfzig ältesten Suren des Korans in
(gereimter deutscher übersetzung) ، وهينك Henning عام ١٩٠١ ،
وغيريغول Grigull فى نفس العام (وقد طبعت ترجمة هينك فى ليزك ،
وترجمة غيريغول فى هاله .. وكلا المترجمين قد اعتمد كلياً على ترجمة
جورج سيل الانكليزية ، ولهذا جاءت ترجمتهما كسيحتين ، فهما لم يقيما
وزناً للصعوبات التى واجهتهما أثناء الترجمة ، وانما اندفعا هاويين
مغامرين) ، وگولدشميدت Goldschmidt (وقد أصدر ترجمته فى برلين
سنة ١٩١٦ ، ثم أعاد طبعها عام ١٩٢٣) وگريمه H. Grimme
عام ١٩٢٣ .. ولكن أنفع هذه الترجمات الالمانية هى التى نهض باعبائها
فليشر H. L. Fleischer

ولعلنى أحاول أن أقدم عرضاً موجزاً للترجمات الاوربية الاخرى فى
وقت قريب ..

محاوَلاتٌ مشبُوهةٌ في تصوير القرآن

اتجهت الفنون الاسلامية ، منذ البداية ، الى الزخرفة والنقش زائفة عن النحت وتصوير الكائنات الحية .. ولاسيما بعد أن سيطر على المسلمين الاعتقاد بأن دينهم القويم كسر الاوثان ونهى عن إقامة التماثيل وحرَم عبادة الصور .

وقد برز هذا الحظر فيما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم من انه قال : ان أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون (صحيح البخاري ، بولاق ١٢٩٦هـ ، ٧٠ : ٦٠ - ٦١) ومن هنا نظر الناس بمقت بالغ الى الفن التصويري ، وخاصة بعد أن توسعوا في تفسير هذا الحديث توسعا كبيرا أملاه عليهم التمسك الشديد بفكرة التوحيد القرآنية ، فلا غرو اذا جمد الرسم - عند المسلمين - على بعض الزخارف النباتية والهندسية ، فكان طبيعيا غب الصراع الذي احتدم بين المسجد الفقير والكنيسة المترفة ان تفيض المنارة ويتفجر المحراب بمثل البساطة التي تتحلى بها نسخ القرآن المزخرفة ذات الالوان الواحدة البريئة من التظليل والتجسيم (وقد عالج الاستاذ أ.هـ. كرستي A.H. Christie جانبا من هذا البحث في كتاب « تراث الاسلام » بعنوان : الفنون الزخرفية الاسلامية واثرها في الصناعة الاوربية/٢ : ٤٣٩ - ٤٨٠ .. وهناك مزيد من التفاصيل في كتاب الدكتور أحمد موسى

zur Geschichte der islamischen Buchmalerei in Aegypten.

المطبوع في القاهرة سنة ١٩٣١) •

وعلى الرغم من مذهب سيد قطب الداعي الى أن القرآن الكريم لم يحرم تشخيص الذوق الفني •• الذي حدده بقوله : لعنا اليوم قد صرنا الى المرحلة التي نتاول فيها القرآن الكريم ككتاب أدبي ، وننظر فيه من الوجهة الفنية الحرة ، فلو جرد مؤقنا من قداسته الدينية ومن انه كتاب تشريع ونظام حكم •• لوجدنا فيه بعد هذا وذاك كتابا أدبيا فيه فن وفيه جمال وفي كثير من أساليه سحر خاص وخيال خصب • (راجع العدد الثاني من مجلة المقتطف ، مجلد ٩٤/١٩٣٩ ص ٢٠٦ - ٢٠٧) •• ولو طوب سيد قطب ، في حياته ، بالدليل لاذهله الحيرة ، ولن يسعف مذهبه الا وجود طبعة مصورة من القرآن الكريم كالتي رأينا امثالها في بعض طبعات التوراة والاناجيل •• أقول ذلك بالرغم من وجود مصحف مخطوط مصور عثر عليه الأستاذ المستشرق ر • ه • هوتهيل R.H. Gottheil وشيد حوله دراسة خاصة نشرها بعنوان :

An illustrated Copy of the Koran

في مجلة Revue de Etudes islamiques سنة ١٩٣١ •• لان هذا المصحف المصور لن يقوى على تحديد ما يتقوم به مذهب سيد قطب في تشخيص الذوق الفني ، فهو ليس الا نسخة ملفقة ومدسوسة ، تشير بوضوح الى أن أحد الخبثاء استحوذ على مصحف مخطوط ، وبحرص بالغ ودقة متناهية غسل بعض الآي ، وحين تهاأ له الفراغ المأمول •• ملاء بصور ذات موضوع ، مقلدا فيها أسلوب المدرسة الفارسية ومعالها الفنية المعروفة •• وكانت تلك الصور تمثل النبي موسى يلقي عصاه ، وجبرائيل يزور يوسف في الجب ، والرسول الاعظم على البراق ، وسيدنا ابراهيم يهيم بذبح ابنه ، ونبينا الكريم يفلق القمر •

ذلكم هو محتوى المصحف المصور ، ولا ريب في انه محاولة خائبة حاولها فنان غير مسلم •• ومن هنا عجزنا عن نجدة الذاهين مع الأستاذ سيد قطب •

وفي سنة ١٩٢٤ ظهرت في اوربا رزمة من الاوراق في طبعة محدودة ، استوعبت اثنتين وأربعين منمنمة تمثل بعض المشاهد القرآنية بجانب النص العربي ، نشرها الاستاذ م. لايدس M. Lydis بعنوان : Miniaturen zum Koran ، وقد رأينا مثل هذا في بعض ترجمات المستشرق الانكليزي جورج سيل G. Sale للقرآن الكريم ، كما رأينا سبع صور في ترجمة القرآن الفرنسية التي وضعها الاستاذ مارسيه Marcias .

وهذه المحاولات الطائشة لم يدرسها اولو الاختصاص بالتراث الاسلامي كما ينبغي وبسداد . . لانها ألصق بدراسة الفن الاسلامي منها بالدراسات القرآنية . وعلى هذا الصعيد يجب أن تطرح جميع الدراسات المتعلقة بفن التذهيب التي ائنت حين وقع بعض المستشرقين على عدة نسخ من المصاحف المذهبة الموجودة في خزائن الكتب الشرقية والغربية ، فقد تسنى للاساتذة ميغيون Migeon وديماند Dimand وكونل Kühnel وبلوشيه Blochet وليفى بروفنصال Lévi Provençal وگلوك Glück ودييز Diez أن يعقدوا الدراسات والابحاث على بعض المصاحف المذهبة التي جادت بها القرون الهجرية : الخامس والسادس والسابع والثامن والعاشر والثاني عشر . . الرواقد الآن في مكتبة جامعة بنسلفانيا ومكتبة جامع القيروان ومكتبة مورگان في نيويورك ومجموعة مارتن والمكتبة الاهلية في باريس ومكتبة الدولة في ميونيخ ومكتبة متحف المتروبوليتان ومتحف بلنسية دي دون خوان في مدريد ومجموعة اونهايم ومكتبة الاسكوريال ودار الكتب المصرية ومكتبة جامع الجزائر .

وقد تناولت تلك الدراسات والابحاث شتى الاطرزة الفنية والعناصر الزخرفية التي تفتق عنها الهام الفنان المسلم . . ولاسيما في عصر الممالك أو في ايران ابان القرنين التاسع والعاشر للهجرة .

والذي أعتقده ، في خاتمة المطاف ، ان اقدام أي فنان ، أيا كان مذهبه الاسلامي ، على تصوير المشاهد القرآنية . . لن يكون ، في نهاية

الأمر ، الا محاولة ملعونة أو شهوة مارقة •• لا تصمد ، طويلا ، بوجه
العاطفة المؤمنة التي مكثت ولا تزال في أفئدة المؤمنين رأيا عاما • واذا تهيأ
لها أن تتجسد لوحات عامرة بالظلال والالوان ، فإنها ستال اهتمام النقد
الفني جوازا ، وستبوء بخسار كبير في العالم الاسلامي وجوبا •

مَعَ الصَّحَافِ

مَجَلَّةُ الرِّياحِينِ البَغْدادِيَّةِ

بين محفوظاتي القديمة من المجلات والجرائد العربية .. وقعت على مجموعة بترء من مجلة (الرياحين) البغدادية قوامها خمسة أعداد من سنتها الاولى . وقد رأيت على غلاف عددها البكر ما يشير الى انها (مجلة أدبية ، تهذيبية ، أخلاقية ، فكاهية ، تصدر في الشهر مرة موقتا) . ولقد تعاون على اصدارها أديان بغداديان لامعان ، هما : ابراهيم منيب الباجهجي (وكان صاحبها) ، و ابراهيم صالح شكر (وكان محررها ومديرها المسؤول) . وصدر عددها الاول مثقلا بست عشرة صفحة في (غرة جمادي الاول ١٣٣٢ الموافق مارت ١٣٢٩) .. وهذان التاريخان يومشان الى التقويمين الهجري والرومي ، وهما يكافئان سنة ١٩١٣ الميلادية . وأكد الابراهيمان - على غلاف العدد الاول - أن (الرسائل لا ترد لا صاحبها .. نشرت أو لم تنشر) ، وأن لا عبرة بالوصلات (ما لم تكن ممضية بامضاء صاحب المجلة) ، وان (الاشتراكات لسنة في بغداد وبقية البلاد العثمانية مجيدي واحد وفي البلاد الاجنبية مجيديان) . والمجيدي ، هنا ، انما هو المجيدي الصغير الذي كان يعادل ثمانية قروش رائجة ، وهو ما نسبوه الى السلطان عبدالمجيد الذي ولي السلطنة عام ١٨٣٩ ولم أجد ، في محتوى العدد الاول ، أية اشارة الى ثمن النسخة الواحدة من هذه المجلة .. ولكن العدد الثاني الذي بزغ في غرة جمادي الآخر جعل الثمن عشرين

• پارة

وألزمت (الرياحين) قراءها - في صفحة الغلاف - بأن (من قبل عددا واحدا من المجلة عد مشتركا ويطلب بالاشتراك) •• غير ان المستوى المعاشي المتدهور الذي كان يسود الحياة العراقية يومذاك ، كان يشجع على استهجان هذا الشرط ، ويجب الاستحواذ على المجلة بلا سبب مشروع • وهذا ما قهر ادارة المجلة على أن تعلن في العدد الثاني (رجاء) •• هذا نصه : (على اثر ما وزعنا العدد الاول من الرياحين قدمنا الوصولات الى من قبل المجلة بموجب دفتر الموزع عبدالاحد لاستلام بدل الاشتراك •• الا ان البعض أجابنا بأن العدد المذكور لم يصله ، فعليه اضطرينا الى تأجيل التحصيلات وقدمنا العدد الثاني هذا في البريد الداخلي بموجب ذلك الدفتر رفعا للشك ، فالمرجو ممن وصل اليه العدد الاول وأحب الاشتراك في المجلة أن يرسل بدل اشتراكها الزهيد الى الادارة لتقيده في دفتر الاشتراكات ، ونقدم له الوصول ، ومن لم يحب الاشتراك فيها فعليه أن يعيد المجلة أو يخبر الادارة بعدم اشتراكه كي لا يبقى بعد حق للمطالبة ويجعلنا بذلك من الشاكرين) •

ولتذليل هذه العقبة التي لم تكن في الحسبان ظهر العدد الثاني من المجلة وتحت كلمة (الرياحين) في غلافها عبارة : (بدل الاشتراك يدفع سلفا) •• وترويجا لهذا المنطق الجائع بشرت المجلة قراءها بأنها : (تهدي الى كل مشترك في مجلتها نسخة من ديوان صاحبها تأييدا للولاء بين مشتركها الكرام •• فعلى المشتركين الذين دفعوا بدل الاشتراك ان يراجعوها لاستلام النسخة المذكورة) •

وطبعت باكورة الرياحين في مطبعة الشابندر ببغداد (وهي التي أسسها محمود الشابندر سنة ١٩٥٧) •• ولكن يبدو أن الفكر العراقي ، آنذ ، كان يقاسي كثيرا من أزمة المطابع • ومن الغريب في الامر أن الجريدة أو المجلة لم تكن أليفة مطبعة واحدة ، ولذلك رأينا العدد الثاني من الرياحين يهجر مطبعة الشابندر ليطلع من مطبعة دنگور (التي أسسها الحاخام عزرا دنگور في بغداد سنة ١٩٥٢) ، كما رأينا العدد الثالث يعاف دنگور ليطل

من مسابك مطبعة الآداب (التي أسستها إحدى الشركات العراقية سنة ١٩٠٩) ••• ويبدو - بعد ذلك - أن الرياحين استقرت في هذه المطبعة متمتعة بكفاية مديرتها الفني فرنسيس الموصلية •

وجاء العدد الأول خلوا من الإشارة إلى المكان الذي تشغله إدارة المجلة ، ولكن العدد الثاني جعله (في الشارع الجديد من محلة المربعة) في رصافة بغداد •

وصدرت الرياحين في شهر مارت ١٩١٣ وأحتجبت بعد مدة وجيزة اختلف مؤرخو الصحافة العراقية في مقدارها •• فذهب الأستاذ السيد عبدالرزاق الحسيني إلى أنها احتجبت بعد صدور عددها الثالث مباشرة • وهذا يجانف الواقع ، وقد ألمت في مطلع هذا البحث إلى وجود خمسة أعداد منها بين محفوظاتي • ويعتقد الأستاذ محمود الجندي أن الرياحين توقفت عن الصدور في ٢٧ آذار سنة ١٩١٤ بسبب قيام الحرب العالمية الأولى ، وهذا يعني - إذا كانت هذه الرواية سليمة - أنها ظلت على قيد الحياة طيلة سنة واحدة •

إن الظاهرة البارزة في الرياحين هي كثرة الغلط المطبعي الذي تبرره سيادة الرطانة التركية في مسالك اللهجة البغدادية ، وإلى سذاجة اليد العاملة في شؤون الطباعة • ومحتوى المجلة - جملة وتفصيلا - ليس إلا منتخبات مخطوفة من مجلات وجرائد عربية وعراقية وتركية •• ولا سيما عندما يتعلق الاقتباس بمنازع الفكر الأوربي وبمعالم الحياة الغربية •• وبالرغم من ذلك كانت الرياحين لا تخلو من اصالة وعبارة سليمة وخيال جوال •

أما الغاية من اصدار الرياحين ، فقد كشفها المرحوم ابراهيم صالح شكر في التمهيد الذي استهل به العدد الأول حيث قال : كنت قد أصدرت جريدة من قبل باسم (شمس المعارف) ، وقلت في افتتاح العدد الأول منها انني اصدر هذه الجريدة لاعلم الصحافيين ان الجريدة الادبية ذات الروح الخفيفة تجد رواجاً بين القراء واقبالاً من الادباء •

وبعد أن صدر منها ثمانية عشر عددا ظهر اني مخطيء في هذا الاعتقاد
بين أبناء هذه البلاد .. لذلك وقتها •

أما اليوم ، فقد طلب مني حضرة الفاضل ابراهيم منيب الباجهجي ان
أشاركه بمجلته هذه وتليية لطلبه قد أخذت على عهدي تحريرها
ومسؤولياتها راجيا لهذه المجلة نجاحا يضمن لها التقدم •

أما غايتنا من انشاء هذه المجلة - هي خدمة هذا الوطن العزيز ببث
الفكرة الادبية بين أبنائه لعلنا ان الآداب أول حجر في أساس النقد
والعمران • •

ولقد استوعب العدد الاول طائفة من الخطرات الجريئة التي تعبر عن
النزعة الحرة والايمان بالله لدى صاحبها ومديرها المسؤول • فتحت عنوان
(أيها الفيلسوف) جاء : « هب من رقائك أنت أيها العليل الملقى على فراش
الاجوع • • وانهض من لجة أحزانك أنت أيها المسكين البأس • • وفر
من بين همومك أنت أيها الفيلسوف الجاحد الذي تعب في حل مسألة
الكون المبهمة • • وتعالوا جميعا الى الحقل تنزه الخاطر معا وتتصفح قليلا
كتاب الطبيعة الكبير ، علنا نهتدي منه الى غايتنا المنشودة • •

وبعد أن يأخذ كاتب هذه الكلمة (وهو هنا مجهول • • وربما يكون
ابراهيم صالح شكر !؟) بأيدي هؤلاء الى حيث مراتع الجمال في الحقل • •
يتحدى أباطيل فيلسوفه ، ويستهزى بأوهام دارون • • ثم يتساءل : « من
يدير حركة الحياة فيك ؟ • • ومن يحول طعامك وشرابك الى دم ؟ • •
أنت ، أم أبوك ، أم امك ، أم طبيعة • • أم من • • ؟؟ • • أحب هنا
ولا تهرب !! » •

وتحت عنوان « مثلثات » وجدت : « ثلاثة أسمح الناس بابدانهم ،
وثلاثة تمر مر السحاب ، وثلاثة تهدم البنية ، وثلاثة تجتنب ، وثلاثة تستوى
فيها الخلائق • • • » وقد أعجبتني منها هذا المثلث الجارح : « ثلاثة أخوف
الناس : المحب من هجر حبيبه ، والمختلي من رقيه ، وبعض الصحفيين
من قانون المطبوعات • • • انه ينقد قانون المطبوعات العثماني الذي اضطهد

أصحاب الصحف وأذلهم ، وجعل جرائدهم ومجلاتهم هدفاً للتعتيل
الاداري بقرار يصدره الوالي أو الوزير وفقاً للمادة (٢٣) منه •
أما الصحف الادبية ، ومنها الرياحين ، فكانت تعيش بلا ضمان ولا
رعاية ولا حماية •• وكان الموظف المسؤول يفتال امتيازها ، ويكتم أنفاسها
عندما يريد أن يتعسف ارواء لشهوة التعسف •

وتحت عنوان « الشرقيون والمخدرات » دار الكاتب (وهو مجهول
أيضاً) حول الشرق ليؤكد انه مريض ، متأخر ، حالم •• ومما جاء فيه :
« اليك أمثلة من تلك المخدرات التي يتخذها الاطباء الشرقيون لمعالجة
الامراض : يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي ، فيقال له : اسكت ••
فالعين التي تحارب السهم تفتأ • ويعرض التلميذ عن استظهار مباحث
البصريين والكوفيين اللغوية ، فيقول له استاذة : ان الكسالى المتوازنين يخلقون
لانفسهم اعذاراً أفصح من الذنوب • ويسأل الشاب مستفسراً معاني الزوائد
الفرعية الدينية ، فيقول له العالم : من لا ينظر بعين الايمان لا يرى في
هذا العالم سوى الضباب والدخان •

وهكذا تمر الليالي اثر الليالي والشرق مضطجع على فراشه الناعم ،
يستيقظ دقيقة عندما تلمسه البراغيث ، ثم يعود فيهجع جيلاً بحكم المخدرات
التي تمازج دمه ، وتسير في عروقه •• فاذا قام رجل وصرخ بالنائمين ،
وملاً منازلهم ومعابدهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الابدي ،
ثم يقولون متثائبين : ما أحسنه •• ! •• لا ينام ولا يدع الناس ينامون ••
غداً يقرأ الادباء المفكرون ما تقدم ، فيقولون متضجرين : هو متطرف ،
ينظر الى الحياة من الجهة المظلمة ، فلا يرى غير الظلام •• وطالما وقف
فينا نادبا باكي علينا متأوها لحالنا • فلهؤلاء الادباء المفكرين أقول : أنا
أندب الشرق لان الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق •• أنا أبكي على
الشرقيين ، لان الضحك على الامراض جهل مركب •• أنا أنوح على تلك
البلاد المحبوبة ، لان الغناء أمام المصيبة غباوة عمياء •• أنا متطرف ، لاني
أرى الجيفة المنتنة فتشمثر نفسي ولا أستطيع ان أجلس قبالتها وفي يميني

كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى • فاذا كان هناك من يريد أن يبدل نوحى بالضحك ، واشمئزازي الى الانعطاف ، وتطرفي الى الاعتدال ، فعليه أن يريني طبييا ماهرا في العادات ، ومشرعا مستقيما ، وعالما يعمل بما يعلم ، وزوجا ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه • ان كان هناك من يريد أن يسمعي مطبلا ومزمرا ، فعليه أن يدعوني الى حفلة العرس لا أن يوقعني بين المقابر • أكتب هذا بكل حرية •• حيث ان الاحتشام في اظهار الحقائق هو نوع من الرياء الابيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب •• وما علي من المستسلمين الى الاحلام اللذيذة الذين يسرون على سبل ضيقة مغروسة بالاشواك •• والازهار ، محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة •

وتحت عنوان « أسعار السوق » بلغ النقد مداه من المرارة ، لان « الكذب والنفاق والغش والمداينة والرياء في المائة ٩١ ، وشتم الدين في المائة ٥٣ آخذ بالارتفاع جدا ، والتباغض والتحاسد في المائة ١٦ في تحسين عظيم ، والتربية والآداب وحسن الاخلاق بكساد عظيم للغاية ، والصدق والاستقامة والاخلاص والامانة بالمائة (لا حول ولا •••) والسوق في هبوط دائم •

وفي « عقود ثمينه » تناصر النقد والحكمة على توجيه الرأي العام ، ومما جاء تحتها : « انني افضل الصانع المتفنن على الكويكب البارد والشويعر المتطفل • وان السقوط في الشرك سهل ولكن الخروج منه صعب • أما « أحاسن الاشياء » فقد انتظمت اسئلة وأجوبة دارت بين أحدهم (وهو السائل) وبين فيلسوف اغريقي (وهو المجيب) ، وتناول الحوار بينهما أقدم شيء وأجمل شيء وأكبر شيء وأثبت شيء •• وغير ذلك • وتشققت « الادبيات » عن عناوين فرعية ، منها « الادب خير نسب » وجاء تحته قصيدة لابراهيم منيب الباجهجي تتألف من أحد عشر بيتا ، مطلعها :

كن سيدا بالادب ما بين أهل الحساب

ومنها « فاكهة الادباء » وتحتها قصيدة لابراهيم صالح شكر قوامها اثنا عشر بيتا مطلعها :

حتم هجرك في الهوى ونواك وعلام هذا السخط بعد رضاك

وتحت عنوان « اللطائف الشعرية » نوادير مستملحة ، اخترعها شعرا خليل مطران ومحمد امام العبد وأنيس قربان وفضيل نمر وعبدالغفار خانكان والشيخ اسكندر العازار •

ونسجت ادارة المجلة اقتراحا ، هذا نصه : « نقترح على الادباء الكرام تشطير وتخميس هذين البيتين • والجائزة للمجيد اشتراك سنة في الرياحين • وهما :

تعب يطول مع الرجاء لذي الهوى خير له من راحة بأياس
لولا مجيئكم لما عابتكم ولكتم عندي كبعض الناس

وأنا أجهل الذي استأثر بالجائزة ، ومدى استجابة الشعراء لهذا الاقتراح •• ولكنني وجدت في العدد الثاني تحت عنوان « أجوبة الاقتراح » ما يلي : « ورد الى ادارتنا تخميسان على اليبين اللذين اقترحنا تخميسهما في العدد الماضي ، فادرجناهما تحت هذا الشرح بلا ترجيح انتظارا الى أن تبلغ التخاميس حد اللازم » •

وكان ممن اشترك في تنفيذ هذا الاقتراح الاساتذة الذين أشارت اليهم الرياحين في اعدادها : الثاني والثالث والرابع ، وهم : عبدالرحمن الباء ، و « ب.ت. » ، وفلوجي زاده الحاج مهدي ، وعبدالوهاب ملوكي ، وناجي •

وتناول العدد الاول ايضا « ضلالات الانسان » بعد أن قدم بها قلم التحرير بقوله : « كتب القاضي رتول في لندن ثلاث عشرة ضلالة في الحياة وقال في اخرها : اذا تحامى الانسان هذه الضلالات أمن العثار طول حياته ••• ولما كانت فلسفة رتول جديرة بالدرس ، رأينا ان نتحف بها قراء الرياحين » •

ومن تلکم الضلالات : « ان يحاول سبك الاخلاق كلها في قالب واحد » • ومما يجب أن لا اکتمه هو أن المجلة نشرت انتی عشرة ضلالة وغابت عنها واحدة •

وفي ما أدرجته المجلة تحت عنوان « أيها المزارع » تجلی الروح العلمي ، ونجمت البادرة البکر في علاج الارض •• حيث جاء : « یجمل بنا نحن الکتاب كافة ان نواصل البحث في شأن الزراعة ، لانها المصدر الوحيد للثروة والعامل الاول في جلب الخيرات والبرکات والعلیات من الثمرات •• بل هي السعادة لكل حي •

ان معظم بلادنا - بلاد زراعية ، وأكثر أراضيها مزارع وحقول وبساتين وکروم وبيادر من فضة مدفونة •••

نزرع السنبله ، اليوم ، فتعطينا خمس سنابل •• ونغرس الحبة فتحمل عشر حبات •• ولكن اذا استحضرنآ آلات الزراعة الحديثة ، وحرثنا بها الارض على أصول الفن وقواعد العلم •• نأخذ من السنبله مائتة سنبله وتعطينا الحبة الفا من الجبوب كما هو مشاهد في أوربا وأمیرکا •• في حين أن بلادنا أطيّب تربة ، وأصلح مفرسا ، وأجود کفا ، وأجرى بنانا •

وتحت عنوان « کل من » نفحة رائعة من نفحات الايمان ، ف « کل من له أقل المام بمعرفة الواجب ، وکل من شعر بما له وعليه من الحقوق ، وکل من سعى وراء غاية لا طمع فيها ••• فذلک الشخص مهما كانت معرفته ومنزلته ، أقر أم لم یقر ، رضی أم لم یرض - انه یؤمن بالله ، ویقر بوجود الخالق » •

وتحت « أيها النهر !! » نجوی شاعریة ، تندفق فلسفة •• وهذه أمشاج منها : « کنت ینابع صغيرة ایها النهر •• أوجدتها الامطار المتبحرة على الارض •• تسیر على الحصباء متغلغلة بين الحصى ، یجمعها تارة ، ویفرقها أخرى •• الى أن ضمت الى بعضها قليلا فأصبحت جداول لا تذکر •• بيد أن الجداول الصغيرة اجتمعت واذا بک النهر الکبير ، یهتم بک الجميع •

لقبوك باسمك وسموك في الخرائط ، وزادتك السواقى قوة فوق قوة ..
فجئت تنصب في ابديتك النهائية » .

أما « فكاهات » العدد فكانت اربعا ، أجملها ما يلي :

« الاول - أريد أحيانا أن أتمرن على الكتابة ، ولكنى استصعب انتقاء

الموضوع .

الثاني - أكتب في موضوع : الدهر عدو الادباء » .

وفي المجلة ، غير هذا ، ما يستوقف القارىء ويدعوه الى التأمل ،
فتحت عنوان « يغىظني » سجل الكاتب ما أراد أن يقول بكل ما يملك من
جرأة وشجاعة .. وهذا هو يقول : يغىظني « أن أرى الخداع والغش
يظهرون في أعظم رجال وضعنا بهم الثقة في الامور الحيوية ، والذي يحث
الناس على التبرع لاجل الوطن وهو لا يتبرع بنصف متليك لفقير ، والصحافي
الذي متى شعر بان الكذبة كبيرة يقول بلغنا ذلك من مصدر وثيق ، والصحافة
العربية لانها أصبحت ميدانا لمباراة المتطفلين على موائد الكتابة والصحافي الذي
يملاً جريدته أو مجلته بالمناداة بالدين والوطنية وهو مجرد من الامرين » .
وعلى النقيض من ذلك كان ماتحت عنوان « بهجنى » ، فالذي « يجعل
نشر الحقيقة غرض حياته » انما هو أحد خدمة الحق والخير ، وهذا
حقيق بأن يكون من مصادر البهجة .

واستوعب موضوع « الدواء الشافى » ما يجب أن لا يجهله المرء في
تلاج ضعف السمع ، وألم القلب ، والفشل ، وسوء الهضم .. وغير ذلك
ومما جاء في هذا الصدد : « ان كنت مصابا بداء الكسل ، فليس لك دواء
غير القبر .. وهذا هو الدواء الشافى لمرضك » .

وفي « المنتخبات » الطريف الطريف من الاخبار ، فهنا سؤال عما يحل
بالمملكات فيما لو جار الزمان عليهن وخسرن ازواجهن ومقامهن . وهناك
ما يضارعه عن الملوك . وفي مكان اخر ما يبشر الناس بإمكانية نقل الاطفال
بطرود بريديّة خاصة . كما تضمنت هذه المنتخبات معلومات جديرة بالاهتمام

عن عدد الكلمات القاموسية عند الانكليز ومقارنتها باللغات : الالمانية والفرنسية والاسبانية والايطالية ، وعمما يجب أن تقوم به المرأة الهندية في حياتها الخاصة، فهي مثلا « اذا غاب زوجها وجب عليها أن تصوم وتنام على الارض مدة غيابه » •

أما حكاية العدد الاول من الرياحين فهي قصة فرنسية خفيفة ، استغرقت صفحة واحدة • والقارىء الذي يأتي عليها سيجد في النهاية « اعلانا » عن بيع ديوان ابراهيم منيب الباجهجي بثلاثة قروش صاغ لمن كان في خارج بغداد •• « فليتنهز الراغبون هذه الفرصة » •

ذلكم هو محتوى العدد الاول من الرياحين ، ولا يملك القارىء - بعد أن يعلم انها كانت تصدر أيام الاحتلال العثماني في بغداد - الا أن يتعجب ، ويستغرق في تفكير عميق ، ويحنى رأسه تحية لمن وقف حياته على خدمة العراق •

الصحافة العربية وتولستوي

١٩٠٠ - ١٩١٢

يعتبر الكونت ليو تولستوي شيخ الكتاب الروس في العهد القيصري، وهو اشتهر من أن نقول عنه انه من مبدعي الشوامخ في الادب القصصي او انه من أقطاب الاصلاح الاجتماعي عشية الثورة الفكرية الحديثة التي اجتاحت أوروبا في القرن التاسع عشر . . . فذلك تحصيل حاصل ، ولكن الذي يهمنا - في هذه الدراسة - هو موقف الصحافة العربية منه فجر القرن العشرين . . . أي خلال الفترة الواقعة بين ١٩٠٠ و ١٩١٢ . واني استطيع - قبل استجلاء هذا الموقف - ان أقول بان تولستوي دخل الصحافة العربية ارثوذكسيا مارقا وغادرها حكيما محترما . وهنا لا بد من الاشارة الى أن هذا العملاق كان نصرانيا ، ارتضع تهذيبه الديني في الكنيسة الارثوذكسية خلال طفولته وصباه وشبابه ، ومال - مع الايام - الى استهجان بعض العقائد التي نشأ عليها ، فخاصمها علانية بقلمه . . . معتقدا بان الحقيقة التي كان يعدها قد ربطت بخيوط رفيعة جدا من الخرافة والضلال . ولكنه رغم كل شكوكه لم يقطع صلته بالارثوذكسية . . . حتى اثار ارواه ما يقتضي الحكم بخلها او صوابها بصورة رسمية من الكنيسة . وحين أصدرت هذه الكنيسة قرارها الاخير في صالحه . . . اعلن الرجل ، باباء ، انفصاله عنها ، وهكذا اصبح هدفا لغضبها ، وأصبحت المسألة برمتها في مستوى الشماتة على الصعيد الكاثوليكي . ففي سنة ١٩٠٠ نشرت مجلة (المشرق) البيروتية التي كان

الأب لويس شيخو يشرف على مواظبتها اليسوعية في عددها الثامن عشر ما نصه : « وجد الروسي العلامة تولستوي كتابا قديما ، يتضمن - باللغة الروسية - الليتورجيا اليونانية ، ومما ورد في هذا الكتاب سجود المؤمنين لجسد الرب بعد الكلام الجوهري وقبل الدعاء الى روح القدس . وهذا السجود دليل واضح على أن الكنيسة الروسية كانت توافق الكنيسة الكاثوليكية باعتقادها بخصوص استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم المسيح بقوة الكلام الجوهري لا بقوة الدعاء الى الروح القدس كما زعم بعض المنفصلين » .

تلك كانت الشرارة الاولى للمعركة اللاهوتية التي اندلعت في الصحافة العربية الدينية في الربع الاول من القرن العشرين وعلى ضوئها الصاحب خفقت الأقلام بتولستوي بين ذم ومدح وبين تجرد وموضوعية ، فأصبح الرجل من المغضوب عليهم في الاوساط العربية الارثوذكسية ، ومن المبشرين بالجنة في الدوائر اليسوعية . . . ومن هنا فقدت مجلة (المنار) البيروتية رشدها متطاولة على مجلة (المشرق) بما لم ينزل به سلطان . ومن الجدير بالتويبه ان (المنار) لسان جمعية مساعدة المرضى الارثوذكس ، وكان المطران ارسانيوس والاستاذ رشيد نفاع مديري دفنها في الميدان الجدلي ، ولذلك استنكرت بعدها الاول من سنتها الثالثة (١٩٠٠) على الصفحات ٨-١١ ما ذكرته (المشرق) حول تولستوي فناقشته لاهوتيا ضمن مفهوم (الاستحالة والانبثاق) . . . حتى اذا انتهت من ذلك قالت : « أما ذكر المشرق تولستوي مجردا ، دون ان يذكر اسمه الشخصي ، فهو مغالطة . . . لانه لا يعرف اى تولستوي من التولستويين المتعددين ! . . . ولعله ذاك الذي ترك المعتقد الارثوذكسي . فكيف يصح الاستشهاد به ؟ ونعت المشرق اياه بالعلامة الشهير لا يبرئه من هذه المغالطة . . . لان علمه وشهرته ثابتان عنده . واغرب من ذكر اسم تولستوي مجردا من ذلك . . . الكتاب الروسي القديم العاري من الاسم والشهرة والصفة واسم المؤلف والطابع و . . . و دليل واضح على أن هذا الكتاب لا تعرفه الكنيسة الروسية المقدسة ، ولعله من اعمال اليسوعيين ، فطبع بسعيهم واهتمامهم . . . الخ » .

وهذا الرد لم يشجع (المشرق) على السكوت وانما استأنفت حكايتها عن مفهوم (الابنائق) في العدد ٢٠ لسنة ١٩٠٠ ، مما ساق (المنار) الى طعن نلك الحكاية بعدها الخامس ١٩٠٠ ، فأنار هذا الطعن طائفة من المجلات العربية الاخرى التي تؤيد الرأي اليسوعي ، فصدرت - على الاثر - مجلة (البشير) التي حبسها الاب امبروسيوس مونو على خدمة الطوائف الكاثوليكية في الشرق ، ومجلة (الارز) التي اسسها في بلدة جونبة شمال بيروت الاستاذان فيليب وفريد الخازن ، ومع (البشير) و (الارز) اجتمعت (المشرق) على التنكيل بمفاهيم (المنار) •• ولكن هذه المجلة لم تلتق السلاح ، بسهولة ، أو ترفع المنديل الابيض كما توقع خصومها ، وانما انبرى احد كتابها متواريا خلف توقيع (أرثوذكسي) في عددها السادس (ص٩٢-٩٣) يرد الكيد بمثله الى تلك المجلات • وعندئذ سكنت الجميع ، ونعمت الاقلام بهدنة نسبية ، فارتفع تولستوي فوق جميع الاعتبارات الحاقدة •

وعندما أصدر المجمع الروسي المقدس بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٠١ قراره بحرمان الكونت تولستوي من بركات الكنيسة مشفوعا بمنشوره المرسل الى أبناء الكنيسة الارثوذكسية الجامعة الروسية •• انشغلت الصحافة العربية ، من جديد ، بهذا الحدث الخطير • وتعميما للفائدة وخدمة للثقافة العامة في هذا البلد •• رأيت أن أضع أمام القاريء العربي النصين الكاملين لكلا القرار والمنشور اللذين صاغهما انطوني (مطران بطرسبرج) ، ولادوجسكي ثيوغنوست (مطران موسكو) ، واويرونيموس (رئيس اساقفة خولسكي وفارشافسكي) ويعقوب (مطران كيشيوفسكي) والمطرانان مار كيللوس وبوريس •

لقد اعلن هؤلاء : « ان المجمع المقدس باعترائه الشديد بمصلحة ابناء الكنيسة الارثوذكسية لحفظهم من السقوط في الشكوك المهلكة ولخلاصهم من أضرار المضلين وغواية المغوين •• لما تأمل في زعم الكونت تولستوي وتعاليمه الكاذبة المخالفة للديانة المسيحية والكنيسة الارثوذكسية قد رأى من المناسب معنا لنقض سلام الكنيسة ان يعلن رسميا وينشر في جريدة المجمع

المقدس المشور الاتي :

برحمة الله تعالى :

من المجمع المقدس الروسي الى ابناء البيعة الارثوذكسية الجامعة
الرسولية اليونانية - الروسية •

ايها المحبوبون بالرب !!

انا نطلب اليكم ايها الاخوة أن تلاحظوا الذين يصنعون الشقاكات
والعثرات خلافا للتعليم الذي تعلمتموه واعرضوا عنهم •

ان كنيسة المسيح منذ نشأتها قد احتملت الاضطهاد من قبل كثيرين
من المتدعين والمعلمين التعاليم الكاذبة الذين يحاولون مضادتها ، وضعضة
أركان دعائمها المؤسسة على الايمان بالمسيح ابن الله الحي •• لكن حسب
الوعد الرباني ان كل قوى الجحيم لن تقدر ان تقوى على الكنيسة المقدسة
التي لا تنزعزع ، بل تبقى ثابتة الى الابد •

انه في ايماننا هذه قد ظهر بسماح من الله معلم كاذب هو الكونت
ليو تولستوي الكاتب المعروف من العالم الروسي النشأة والارثوذكسي المذهب
وانتهذب •• هذا الكونت تولستوي بغواية وضلال افكاره وبكبرياء عقله قد
قام على الرب وعلى مسيحه وعلى ميراثه المقدس ، وانكر جهارا - امام
الجميع - أمه الكنيسة الارثوذكسية التي رضع تعاليمها الالهية ونشأ وتهذب
في حجرها ، فكرس مصنفاته الادبية وقريحته الموهوبة له من الله في تشـر
التعاليم المخالفة للمسيح والكنيسة بين الشعب ، وفي اباداة الايمان الابوي في
عقول وقلوب الناس • هذا الايمان المستقيم الرأي ، المثبت مسكونيا الذي
به عاش سلفاؤه وخلصوا به والذي به حفظت وتأيدت - حتى الان - روسيا
المقدسة •

ان الكونت تولستوي في مصنفاته ومراسلاته المنتشرة منه بكثرة وبواسطة
تلاميذه في العالم بأسره وعلى الخصوص في انحاء وطننا العزيز يركز بتعصب
وغيرة في مقاومة جميع عقائد الكنيسة المستقيمة الرأي ، ومخالفة نفس جوهر

الايمان المسيحي •• فانه ينكر اقنوم الرأي الحي الممجذ في الثالوث الاقدس خالق ومبدع البرايا بأسرها ، وينكر ربنا يسوع المسيح الاله والانسان القادى ومخلص العالم الذي تألم لاجلنا نحن البشر و لاجل خلاصنا وقام من بين الاموات • وينكر الجبل بلا زرع وفساد بناسوت الرب يسوع ، وينكر بتولية سيدتنا والدة الاله الطاهرة الدائمة البتولية مريم في الولادة وبعد الولادة ، ولا يعترف في الحياة بعد الموت ونيل المجازاة ، وينكر جميع اسرار الكنيسة المقدسة وقوة حلول نعمة الروح الكلي قدسه عليها ، ويجد على نفس عناصر الشعب الارثوذكسي المقدسة •

ولم يرتعد خوفا من ان يتعرض متجاسرا على اعظم الاسرار اعنى سر الافخاريسنا المقدس • هذا كله يعلمه الكونت ليو تولستوي - بلا انقطاع - لفظا وكتابة لاضلال واغواء جميع العالم الارثوذكسي • فهو نفسه قد فصل ذاته امام الجميع •• لا خفية بل جهارا •• تمعدا وقصدا •• من كل شركة مع الكنيسة الارثوذكسية • ومع هذا كله فان مساعيه ووساوسه في مخيلته لم تتكلم بالنجاح ، فان الكنيسة - بهذا السبب - لا يمكنها ان تحسبه بين اعضائها، ولا تقدر ان تعرفه مالم يتدم تايبا ويصلح علاقته معها. فنحن الآن نشهد بهذا امام الكنيسة باسرها لاجل تثبيت المحافظين على الايمان القويم ، ولاجل تنوير المشككين •• وعلى الخصوص لاجل ردع وتنوير الكونت تولستوي نفسه •

ان كثيرين من المقربين الى الكونت تولستوي المحافظين على الايمان يفكرون - بكل اسف - بهذا : وهو أن الكونت في اخر ايامه يبقى بدون ايمان بالله والرب مخلصنا •• مبتعدا عن بركات وصلوات الكنيسة ، وعن كل شركة معها •

بناء عليه •• انا نقرر فصله عن الكنيسة ، وبالوقت ذاته نطلب الى الله جل جلاله أن يؤهله الى التوبة لمعرفة الحق ، واليك نطلب أيها الاب الرحيم الذي لا يريد موت الخطاة ان تستجيب وترحم ، وترده الى كنيسة المقدسة •• آمين !! ••

هذا هو ما اذاعه المجمع الروسي المقدس حول تولستوي ، وقد انجز ترجمته من اللغة الروسية احد الارثوذكس من مدينة يافا ، ونشره بتوقيع (ن د) في العدد ٢٩ من مجلة المنار الصادر في سنة ١٩٠١ على الصفحات (٤٥٤-٤٥٥) * وكان لهذا الكسب الصحفي صده العميق في البلاد العربية ، فكتبت مجلة (الثريا) القاهرية في عددها السادس الصادر سنة ١٩٠١ مقالا بعنوان (الكونت تولستوي وفلسفته) قالت فيه : « اشتهر هذا الرجل بآرائه وأفكاره حتى لم يبق احد يجهل مقامه .. ولا سيما بعد ان حرمه المجمع المقدس في روسيا ، وشجب تعاليمه وفلسفته .. فلا حاجة بنا لزيادة تعريفه » *

وبعد أن أوردت هذه المجلة بعض العبارات من كتاب (الزواج والحب) لتولستوي الذي عربه الاستاذ نعيم قبعين عن أصله الروسي .. شرعت تنقض آراء تولستوي السوفسطائية ، لتفصح « حبه الشهواني المبني على الميل الفاسد .. وما هو عليه من الغش والخداع وسوء الآداب وخبث النية والظعن القبيح بجميع الاعراض حتى بعرضه وذويه » *

وهذا التجني أثار الاستاذ فرح انطوان ، فطلع على القراء العرب في العدد (١٣) من مجلته (الجامعة) سنة ١٩٠١ بمعلومات قيمة عن الكتب المقدسة ، ومعيشة المسيحيين الاولين ، وصدق نسبة الاسفار الالهية ، ومخالفة تولستوي للانجيل ، وحرمة من المجمع الروسي المقدس * مؤكدا على « ان الفيلسوف تولستوي هو أعجب الروس بلا مرأ » وقد أوصلته فلسفته الدينية الى النتيجة التالية : ان التعاليم المسيحية التي تستحق ان تكون قاعدة للضمير البشري انما هي الانجيل الاربعة فقط ، متى ومرقص ولوقا ويوحنا وما سواها .. فخارج عن الديانة المسيحية الحقيقية ، فعلى من اراد ان يكون مسيحيا حقيقيا ان لا يتمسك بشيء يناقضها ، وان يعيش كما عاش المسيحيون الاولون من حيث البساطة والقناعة والاشترار والحرية » * ثم نشرت المجلة المذكورة رسالة لابسف (أحد مراسلي تولستوي وأتباعه) وجواب تولستوي عليها ، موعيدا سلامة ما ذهب اليه تلميذه * وعقبت ذلك بإيراد نبذة

من رواية (البعث) للتدليل على اعتماد تولستوي على الانجيل الاربعة ،
وتطبيق سيرته على « الديانة المسيحية الحقيقية » •

ويبدو أن فرح انطوان قد أفاض بما ذكره عن تولستوي •• الاستاذ
أمين ظاهر خيرالله الذي انبرى له في العدد (١٢) من مجلة المنار الصادر سنة
١٩٠١ • قائلًا : « أي شيء - ياترى - رأته الجامعة في تولستوي عجيبًا ؟ ••
أبحثه في الحقائق بحثًا دقيقًا •• أم أقدمه على انكار اليقنيات انكارا
غريبًا •• أم تصورده ما ترفع مدارك الاطفال عن القول به ؟ •• ان في ذلك
عجيبًا للمتأملين !! » • واعتبر خيرالله ما جاءت به « الجامعة » مناقضًا للإيمان
المسيحي « فلو كان كلام الرسل لا يصح حجة •• لكان بعض الانجيل
لا يصح حجة ، وهو خلاف ما يدعيه تولستوي من الاقرار بالانجيل كلها »
واستطرد قائلًا : « ان تولستوي في مقاله يحرض الناس ان يعيشوا كما كان
يعيش المسيحيون الاولون من حيث البساطة والقناعة والاشترك والحريّة
• وهذه الامور الاربعة التي يرغب في تعميمها بين المسيحيين لا توجد لها
أمثلة في الكتاب المقدس » •

وفي روسيا نفسها احتدمت معركة عنيفة بين الكونتس صوفيا زوجة
تولستوي وبين انطونينوس مطران بطرسبرج •• على أثر اعلان الفرار
والمشهور - بصدد حرمان تولستوي - في الجرائد الروسية فقد اربع السيدة
تولستوي موقف المجمع المقدس من زوجها •• وعندئذ صفت هذا المجمع
- في ٢٦ شباط ١٩٠١ - برسالة نابية المهجة استهدفت ، قبل ، كل شيء ،
شخصية المطران انطونينوس ، فامعنت فيها تجريحًا •• ولكن هذا المطران
لم يخضع ، ولم يستسلم •• فوجه بتاريخ ٢ آذار ١٩٠١ الى الزوجة الغاضبة
الجواب الذي يقوي على اذلال كبرياتها وهذا من شأنه ان يعزز موقف
الايواسط الارثوذكسية في الشرق العربي تجاه الطوائف المناوئة لها ، ولذلك
قامت احدى معلمات المدرسة الروسية التشيركاسوفية في المصيطبة ببيروت ••
بترجمة رسالة السيدة تولستوي وجواب مطران بطرسبرج عن الاصل الروسي
الى اللغة العربية •• لتشرها مجلة (المنار) في عددها ٣٣ الصادر سنة ١٩٠١

على الصفحات (٥١٦-٥١٨) • وهذا هو النص الكامل لرسالة السيدة
تولستوي •

سيادة المطران انطونيوس ••

ايها السيد الكلي القداسة !!

اني قرأت ، نهار أمس في الجريدة ، قرار المجمع القاسى بافراز زوجي
الكونت نيقولايقتس تولستوي من الكنيسة ، وقد وجدت اسمك بين اسماء
رعاة الكنيسة الذين قضوا بفرزه ، فغضبت من ذلك غضبا لا حد له ، وليس
في امكاني ان اعترف بأن زوجي سيهلك روحيا من هذه الورقة ، فليس لك
حق ان تعرض لهذه الامور •• لان هذا ليس عمل الناس ، بل هو عمل
الله ، وما من احد الا الله يعلم ما هي حياة نفس الانسان النقية • وهذه
النفس سعيدة بأن لا أحد له سلطة عليها البتة • ثم بما ان الكنيسة التي انا لها
والتي لم أنفصل عنها ، والتي تكونت بالمسيح لاجل مباركة جميع الابحاث
الهامة المختصة بحياة الانسان كالولادة والزواج والموت والفرح والحزن ،
والتي يجب أن تعلن جهازا ناموس المحبة للجميع •• حتى الاعداء المبغضين ،
وتصلي لاجل الجميع •• لا أقدر ان أدرك كيف يصدر منها عمل مجمع
كهذا ••

واعلم يقينا •• ان عملك هذا لا يثير في الشعب عاطفة احترام لك وميلا
اليك ، بل يثمر ما هو معاكس لذلك •• أي ازدياد المحبة لزوجي •• وقد
تأكد هذا بأن معظم الشعب يكتبوننا •• ان ميولهم منصرفه الينا ، وان العالم
بأسره معنا • ثم ليس في مكنتي ان أكتب ما شعرت به من الحزن أولا عندما
طرق سمعي نبا تلك الجهالة : وهي اعلان المجمع السري الأمر الكهنة أن
لا يقدموا فروض الصلاة في الكنيسة عن روح زوجي حينما يسلمها لله ••
فيا ترى •• من يريد المجمع أن يجري عليه هذا القصاص؟! ايقاص الانسان
المات الذي لا يشعر بشيء •• أو أقرباؤه المؤمنون المحيطون به؟؟ •• فلماذا
هذا التهديد ولمن؟ العلي لا أقدر ان اجد كاهنا ، متقد العقل ، لا يرهب

الناس ، تكون محبته لله ثابتة ، فيصلي على زوجي في الكنيسة •• او اني
أغر كاهنا بسيطا بدراهم كثيرة ، فيتم هذا العمل !!
ولكن هذا كله لا حاجة لي به ، لان الكنيسة في نظري كلاشي ،
ومن يفهم معنى الكنيسة حقيقة فذاك من أقر به خادما لها • فلو كنت حسب
الاشرار الذين يتجاسرون على نقض الناموس الفائق (أي محبة المسيح) ••
كنيسة ، لكنا تركناها نحن المؤمنين حقيقة جميعا •

ان المذنبين في الابتعاد عن الكنيسة ليس من يدعوهم الرؤساء
المتعجرفون ضالين ، بل هم اولئك الرؤساء الذين يدعون انهم رؤساء الكنيسة
•• وقد عدلوا عن أن يكونوا رسل المحبة والوداعة والمسامحة الى ان يكونوا
سيافين روحانيين لاولئك الذين - بدون شك - سيوليهم الله غفرانه لوداعتهم ،
واعراضهم عن الخيرات الارضية ، ولحجبتهم الناس ، وسعيهم الصالح لاجل
نفعهم • فهم وان اخرجوا من الكنيسة فلا شك أنهم افضل من اولئك المتقلدين
بالحجارة الثمينة ونياشين الشرف •• يؤءنبون ويفرزون من الكنيسة •

وفي الختام أقول ان نقض كلامي هذا بحجج رياضية امر سهل ••
ولكن الوقوف على كنه الحقيقة العميق وادراك مقاصد الناس الاصلية لا يدعان
سيلا يغش أحدا •

تلکم هي رسالة السيدة تولستوي ، وقد تلقاها مطران بطرسبرج بصدر
ضيق ، فعزم على أن يوبخ هذه المرأة الجموح برسالة ألم وأوجع •• فكتب
ليها : « ايها السيدة الكونتس صوفيا اندريفنا !

ان اعلان المجمع بافراز زوجك من الكنيسة ليس أمرا قاسيا •• لا ••
بل ما ارتكبه زوجك هو العمل القاسي ، لانه انكر الايمان بالمسيح ابن الله ،
الحي ، الفادي مخلصنا ، وعلى هذا كان يجب عليك ان تغضبي وبدون شك
ان زوجك لا يهلك من الورقة •• بل ابتعاده عن مورد الحياة الابدية هو
الذي يهلكه • ان المسيحي لا حياة له بدون المسيح كما يقول السيد له المجد
« من يؤمن بي فله حياة أبدية ، وقد انتقل من الموت الى الحياة ، ومن
لا يؤمن فليست له حياة •• ولكن يحل عليه غضب الله » •• فلذلك

استطيع أن أقول ان انتقال زوجك من الحياة الى الموت .. نتيجة خاصة لانكاره المسيح . وعلى هذا يتوقف هلاكه ، وهو وحده المذنب بهلاكه وليس غيره .

ثم ان الكنيسة التي تعدين نفسك منها .. هي مركبة من جماعة المؤمنين بالمسيح ، ولاجل المؤمنين (أي أعضائها) تبارك المواضيع الهامة التي تختص بحياة الانسان باسم الله : وهي الولادة والزواج والموت والاحزان والفرح العالمي . واما من اجل غير المؤمنين أي الوثنيين والمجذفين على الله والذين ينكرونه فليس لهم حظ من الكنيسة البتة ، فلا تمنحهم بركة ، ولا صلاة من أجلهم .. بل ذلك كله محصور في اعضائها . ولذلك اذا أمعنا النظر في هذه الكنيسة - كنيسة الله الحقيقية - نرى ان اعلان مجمعها واضح وضوح الشمس في رائحة الضحى ، ومفهوم من الجميع .. وهو لا ينقض ناموس المحبة ولا الغفران . وان محبة الله مع كونها غير متناهية ، فهي لا تسامح الجميع ولا تصفح عن كل عمل .. كما قال له المجد : « ان التجديف على الروح القدس لا مغفرة له الى الابد ، بل هو مستوجب دينونة أبدية » .

ان الرب يجذب الانسان اليه بواسطة المحبة ، ولكن الانسان كثيرا ما يرفض هذه المحبة ، ويهرب من وجه الله . ولهذا السبب يهلك .

ان الرب صلى على الصليب لاجل اعدائه ، ولكنه تفوه في صلاته الكهنوتية بكلمة مرة ، هي « لم يهلك منهم احد الا ابن الهلاك » . أما نحن فلا تقدر ان تقول ان زوجك هالك ما دام في قيد الحياة .. ولكن الكلمة التي قيلت عنه ، وهي انه سقط من الكنيسة ، ولم يعد عضوا منها الى ان يرجع اليها ويتوب .. هي صادقة وحقيقة محضة .

ان المجمع ، برسالته ، اقتصر على انه شهد بعمل زوجك فقط ، ولذلك لا حق لاولئك الذين لا يعلمون ماذا يعملون ان يفضوا عليه .
انك تقولين : ان العالم اجمع يشترك معك .

انني لا اعجب من ذلك .. ولكنني اظن انه لا يوجد لك بهذا ادنى تعزية ، لانه يوجد مجد علمي ومجد الهي ، فالمجد العالمي هو كزهرة العشب .. اذا يبس العشب سقطت الزهرة لا محالة ، ولكن كلمة الله تثبت الى الابد .
لما اذاعت الجرائد ، في السنة الماضية ، مرض زوجك .. تكاثرت - حينئذ الرسائل من طغمة الاكليروس مستفهمة : هل ان الكونت تولستوي يستحق ان يصلي عليه كمسيحي بعدما انكر ايمانه وقطع علاقته مع الكنيسة ؟

وهذه الرسائل كانت موجهة الى المجمع الذي أصدر امرا سريا الى الكهنة ، مفاده : انه يجب عليهم - متى مات - ان يمتنعوا عن تجنيزه وتجديد علاقته مع الكنيسة . فالمجمع لم يرد ، بذلك ، ان يتهدد احدا ، ولا ان يعطي جوابا غير هذا . واطن انه لا يوجد كاهن - كيفما كانت مبادؤه - يقدر ان يجنز الكونت جنازا مسيحية . ولو فرضنا انه وجد كاهن فعل ذلك ، فيكون جنازه على رجل غير مؤمن دنسا .. ولا أفهم لماذا تريد ان تجري زوجك بقبول ذلك .. ما دامت نفسه - بدون شك - لا تريد ان تجنز جنازا مسيحية .

فاذا كنت انسانا حيا ، وتريد ان تعد نفسك عضوا للكنيسة التي هي حقيقة اتحاد الخلائق الحية باسم الاله الحي .. يكون ، حينئذ ، قولك « ان الكنيسة لاجلك ليس شيئا » قولا ساقطا . فباطلا تؤنبين خدام الكنيسة بدعوى انهم نقضوا ناموس المحبة العظيم .. الناموس ، المعطى لنا باسم الرب يسوع ، لان المجمع لم ينقض هذا الناموس ، بل - بالعكس - عمل حسبما توجهه المحبة باستدعاء زوجك الى الارتداد الى الكنيسة .. حانا المؤمنين على الصلاة لاجله .

ولتعلمي ان الرب ذاته ينصب رعاة الكنيسة وليسوا هم انفسهم يرتقون هذه المراتب بكبرياء كما تقولين .. لانهم يتقلدون الجواهر والاوسمة . ان ما يتقلدون به لا يغير شيئا من جوهرهم . فسلطتهم واحدة سواء كانوا كما تذكرين أو كانوا مرتدين الاثواب الرثة ومضطهدين ومطرودين .

وفي الختام .. أرجو المذرة ، لاني لم أجاب سريعا فقد تمهلت الى ان يخف حزنك الشديد . ليباركك الرب ، وليحفظك ، وليهد الكونت زوجك ! » .

وعلى هاتين الرسالتين وقفت الصحافة العربية ، فالترمت جانب الحذر .. لثلا تنزلق الى ما انزلت اليه صحافة لبنان ، فتتخبط في جدل طائفي لا أول له ولا آخر . ولكن سنة ١٩٠٨ سجلت تقريرا شديدا صبهته مجلة (الكلمة) اللبنانية على تراث تولستوي .. بعد ان افزعته تعاليمه الجديدة التي انتشرت شرقا وغربا بلا تبشير ، وحتى الوطن العربي - في تلك الفترة البعيدة - عرف جيدا ، ان من تعاليم هذا المفكر الروسي اجتناب المسكرات ودخان التبغ ولحم الحيوان ، والتشبث بحياة العزوبة ، وتطبيق مبدأ العصيان المدني في الكفاح السياسي ، وتوزيع أموال الأغنياء على المعدمين ، ومقاومة الحكومات أيا كان نظامها الدستوري ومناوأة الخدمة العسكرية ، ووجوب الجهاد في سبيل تقويض الكنيسة باعتبارها صنعة الشيطان ، والعيش ببساطة ، والاكتفاء بالانتاج اليدوي دون الصناعي .

ولهذا كله .. نارت مجلة (الكلمة) بعدها ١٧ من سنها الرابعة ١٩٠٨ تحت عنوان « تولستوي أمام محكمة عقلاء الروسيين » ، لتناقش تلك التعاليم على ضوء العقيدة الارثوذكسية .. فهي بعد ان ادعت بان تعاليمه ليست جديدة ، حتمت حملتها بهذا التساؤل : « هل يلام المجمع الروسي المقدس ، بعد هذا كله ، اذا كان قد قطع تولستوي كعضو فاسد من جسم الكنيسة القويمة الرأي الارثوذكسية ؟ .. أو هل توجد حماقة اعظم من حماقة تولستوي الذي لا يكف عن التحامل الوقح على المسيح وكنيسته ، وعن الطعن البذيء بأداب رسل المسيح الاطهار .. مدعيا بكونه هو نفسه أكثر طهارة من الاطهار ؟ ! .. ولكن بالرغم من هذا التجني زحفت أفكار تولستوي في ربوع شرقنا العربي زحفا كاد أن يكون مقدسا ، وقد ظهرت طلائعه ، خلال سنة ١٩١٠ على صفحات جريدة (المراقب) التي أسسها ، في لبنان ، الاستاذ جرجي شاهين عطية .. وذلك حين عرض روفائيل أفندي عبدالنور

لقرائها طائفة من آراء تولستوي في المرأة ، فكانت (المراقب) الجريدة الوحيدة التي نشرت هذه الآراء بين أبناء اللغة العربية .

وترويجا لها - على نطاق اوسع - اقتبست مجلة (النفائس) التي كانت تصدر في البرازيل . ما جاء في (المراقب) ، فنشرته في عددها السادس من سنتها الاولى (١٩١٠) على الصفحات ١٧٠-١٧٣ تحت عنوان « رأي تولستوي في المرأة » .

وفي هذه السنة ، بالذات ، فارق تولستوي الحياة ، فاهتزت للمصاب الجلل كبريات الصحف العالمية ، وانعكس على الصحافة العربية ما كان يختلج في قلوب انصاره من اعجاب واحترام ، وما كان يتفجر في أعماق خصومه من حقد وبغض . ولقد ضرب الصحفيون العرب ، على صفحات مجلاتهم وجرائدهم ونشراهم ، بسهم وافر في الاحتفاء بالراحل العظيم ، وتمجيد مثله ، وتبرير مثاله . اعترافا بفضل الكبير على الفكر الانساني . حتى بلغ بهم ذلك الى الاهتمام بما لا يستحق النشر ، فنشروه غير مباليين بتهويشات الساخرين . ومن هذا القبيل ما طلعت به على القراء مجلة (زحلة الفتاة) التي أصدرها ، في لبنان ، الاستاذان ابراهيم الراعي وشكري بخاش ، اذ جعلت ، نصب العيون ، في عددها السابع من سنتها الاولى ١٩١٠ .

•• نأ انتحار حوزي تولستوي على قبر معلمه !! ••

وبعد مضي سنة واحدة على وفاته كتب الاستاذ شكري عاقل (من مدينة حمص) دراسة طريفة ، قارن فيها بين معطيات الاب كانون وبين آراء تولستوي في الفلاحين الروس ، وقد نشرت هذه الدراسة مجلة (الزهور) التي كان الاستاذ انطون الجميل يصدرها في القاهرة ، على الصفحات (١٤-١٨) من مجلدها الثاني ١٩١١ تحت عنوان « الاب كانون وتولستوي ••• أو حكيميا روسيا » .

وفي سنة ١٩١٢ اعتبرت مجلة (المحيط) المصرية تولستوي أنهر المشاهير في العالم ، فكتبت عنه في عددها الاول من سنتها العاشرة ما جعله حديث الصالونات الادبية العربية .

ومن الجدير بالتنويه انني صفحت عن النشاط الادبي الذي سجلته
مجلتنا الهلال والمقتطف ، خلال ١٩٠٠-١٩١٢ حول تولستوي وانا تولستوي
•• لوقوف أغلب القراء العرب على ما كانت تطلع به تلك المجلتان الرائدتان •
• أما الصحافة العراقية فقد ذكرت تولستوي بعد سنة ١٩١٢ بأمد طويل •
ومن الطريف ان تعلن مجلة « العلم » التي كان السيد هبة الدين الشهرستاني
يشرف على تحريرها •• نبأ صدور رائعة تولستوي (انا كارنينا) تحت عنوان
(انا قارنينا) ، وتصف مؤلفها بالحكمة • وفي سنة ١٩٢٧ جاد الكاتب العراقي
المرحوم محمود أحمد السيد بخلاصة شاملة لمذهب تولستوي الاجتماعي ،
نشرتها مجلة (المعرض) البغدادية في العددين ٩ و ١٠ اللذين صدرا في تموز
- آب ١٩٢٧ •

وبما تقدم ذكره استطع ان اقول بان سمعة تولستوي الفكرية قد
أصبحت موثلا واحتراما وتقدير الصحافة العربية منذ ١٩١١ - ١٩١٢ وذلك
تمشيا مع تطور العقل العربي الذي بلغ أشده في مطلع الربع الاول من
القرن العشرين •

الاستشرق

مفهوم الأستشراق

في المؤتمر الخامس والعشرين الذي انعقد في موسكو ألقى المستشرق السوفيتي بوبوجان غفوروف خطاباً فهمت منه أن « ممثلي العلم في بلدان آسيا وأفريقيا يشغلون مكاناً لاثقا في شرفات المؤتمر » .. وبعد ان شرع غفوروف يعدد أسماء الذين شاركوا في المؤتمر ، وبلغ اسم « الأستاذ عبدالرزاق الحسني » نعتة بلقب « المستشرق العراقي » .. وهذا وهم اصطلاحي وخطأً دارج شاع في الغرب والشرق - اليوم وقبل اليوم - وكان غفوروف اخر ضحاياها .

ان الأستشراق « اورينتالزم » اصطلاح تبلورت فيه العناصر الخلقية والمناقبية الشرقية ، والخصائص العامة للفكر الشرقي ولملامحه الاجتماعية . ويعتبر الكاتب الانكليزي « هولذورث » أول من استعمل هذا الاصطلاح في مؤلفاته ، وذلك سنة ١٧٦٩ وسار على خطاه الناقد الادبي الكبير « توماس وارنون » في كتابه « تاريخ الشعر الانكليزي » عام ١٧٧٤ .. ومن ثمة كتب هذا الاصطلاح لنفسه انتشاراً عريضاً استغرق العالم كله .

وسادت أوروبا كلمة مستشرق « اورينتالست » .. او .. اورينتاليان « عام ١٦٨٣ كصفة مميزة اطلقت على اتباع الكنيسة الاغريقية الشرقية ، ثم استعملها الأستاذ « صموئيل كلارك » عام ١٦٦١ بالمعنى الذي ينظر الى من له المام ببعض التراث الشرقي . ثم لم يلبث هذا الاصطلاح ان لازم الواقفين على اسرار اللغة العبرية خلال ١٧١٢ ، واتسع مدلوله - بمرور السنين -

حتى احتضن كل مولع باللغات والآداب الشرقية .. ومن هنا اطلق الاستاذ « جونسون » عام ١٧٧٦ على الدكتور « بوكوك » لقب « المستشرق الكبير » .
وأصبح مألوفاً في الوقت الحاضر ان ينصرف لقب « المستشرق » الى كل عالم غربي يستهلك جهده ووقته في الكشف عما ينطوى عليه الروح الشرقي ، وفي الاهتمام بالشؤون الشرقية ولاسيما في الصعيد الثقافي .

وكلمة « اورينتالست » انحدرت الى اللغة العربية ، منذ عهد بعيد ، متقصة كلمة « مستشرق » ، وولجت أيضا اللغة التركية - العثمانية .. حين ادخلها الاستاذ « ش. سامي » في كتابه « قاموس الاعلام » سنة ١٨٩٦ .
وبرز هذا الاصطلاح على صفحات مجلة المقتطف المصرية عام ١٨٧٥ ، ومجلة المشرق البيروتية عام ١٨٩٨ ، ومجلة لغة العرب البغدادية عام ١٩١١ .
وبعدئذ اطرده استعمالها في مؤلفات المستشرقين أنفسهم ، وفي آثار الشرقيين أيضا .

وانا لا أدري كيف ولماذا وضع الشرقيون كلمة مستشرق في مقابل « اورينتالست » الاجنبية ، أعلمهم وجدوا نجاتنا القدامى يقولون استعرب فلان اذا صار دخيلا بين العرب ، ويقولون استعرب الاعجمي اذا فهم الناس كلامه بالعربية .. فقاسوا وقلدوا ثم جوزوا لانفسهم تخريجا ينبو عنه الاستعمال اللغوي السليم .. فقد طلع يوسف اسعد داغر على الناس في مجاتي - الاطوار والاديب البيروتيين - وفي كتابه مصادر الدراسة الادبية بمهزأة استشرق .. يستشرق : استشرافا فهو مستشرق - .. ومشرق داغر وجدته عند مارون عبود متمشقا . وعجب القارىء سيكون موصولا اذا علم ان معاجمنا اللغوية خلو من الفعل تمشرق - يتمشرق .. اما تخريج داغر فهو اجتهاد ليس الا والمجتهد قد يخطئ ، وقد يصيب فاستشرق - يستشرق لم يلجا حتى معاجمنا الحديثة كالبيستان والمنجد .. بله القاموس العربي - الانكليزي الذي وضعه المستشرق (أدوارد وليم لين) .
وفي اللغة العربية يفصح الفعل (شرق) بتشديد الراء عن معنى الاتجاه الى الشرق وانني اقترح استعمال كلمة مشرق بتشديد الراء استعمالا

مجازيا .. يرتدى المعنى الذي تنظر اليه كلمة مستشرق .
وهناك تفاوت شاسع بين المستشرق والمستعرب ، فلاول يخلع على من
احسن الكلام بلغتين فآكثر من اللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية
والهندية والصينية واليابانية .. الخ .. بينما المستعرب لا ينقطع الا للدراسات
العربية . ويصدق في هذا الحال ان يكون بديع الزمان الهمداني والدكتور
الفرنسية الانسة غواشون والاساذ حميد الله الهندي مستعربين اذ يستوى في
الاستعراب الشرقي والغربي . ولكن الاستشراق وقف على الغربي دون
الشرقي .

وكل مستعرب من الغربيين فحسب مستشرق ، وليس كل مستشرق
مستعربا بآية حال من الاحوال الا اذا كان من المهتمين بالدراسات العربية
الى جانب دراساته اشرقية الاخرى ، اما المستعرب اشرقي كالفارسي
والباكستاني والبورمي والمغولي فيظل مستعربا وان اجاد لغات الشرق كلها ..
وبين المستشرقين من قصر نشاطه العلمي على الدراسات الصينية فقط ،
فأصبح معروفا في الاوساط العلمية باسم « سينولوجست » أو « مستصين »
قياسا على تخريج داغر - ومثله المنكب على الدراسات البابلية والاشورية
والاكديية .. فقد اطلق عليه اسم « اسيرولوجست » أو « متأشور » والمختص
بالدراسات الفرعونية القديمة اشتهر باسم « ايجيتولوجست » أو مستمصر
ودعى المنصرف الى الدراسات الهندية باسم اندولوجست او مستهند .. وهكذا
فيكون بناء على هذا كل مستصين ، مثلا ، من علماء الغرب ، مستشراقا وما
كل مستشرق مستصينا .. ولكن العراقي الذي عقد نشاطه على
الدراسات التبتية لغة وادبا وتاريخا ونلسفة لا يكون مستشراقا التبة وانما
مستتبنا وحسب ، حكمه في ذلك حكم المستعرب لا أكثر ولا أقل .

لذلك بات خروجا على النهج العلمي - منذ أواخر القرن التاسع عشر
وحتى يومنا هذا - ان تطلق الاوساط الاستشراقية في المانيا لقب المستشرق على
الأب لويس شيخو صاحب مجلة المشرق وان يطلق المستشرقون الفرنسيون
نفس اللقب على المهاجر السوري الكونت رشيد الدحداح .. وان تحلج

الواسط الفاتيكانية اللقب بعينه على يوسف سمعان السمعاني وعلى ثلة من ذوي قرباه .

وفات المستشرق السوفيتي كراتشكوفسكي ان اسباغ هذا الاصطلاح على الشرقيين خطأ لا ينبغي اقراره ، فقد رأيت في كتابه (الاستعراب الروسي) المطبوع باللغة الروسية في موسكو ١٩٥٠ يدخل الشيخ محمد عياد الطنطاوي وميخائيل عطايا وانطون خشاب واسكندر مرزا كاظم بك وتوفيق قرما وجرجيس مرقص وبندي جوزي في زمرة المستشرقين الروس . لماذا ؟ لان القياصرة اتدبوهم للتدريس في بطرسبرج وقازان . ولكن ليس معنى هذا ان يسلكوا جلودهم الشرقية بمجرد رحيلهم من مساقط رؤوسهم الى اجواء جامعية لم يألفوها من قبل ، ولا يبرر تسميتهم بالمستشرقين ان بعضهم مات هناك او ان البعض الاخر عمد الى تعديل اسمه الكامل ليصبح مشابهاً لبعض الاسماء السائدة في روسيا . . كما صنع ميخائيل عطايا الذي اشتهر هناك باسم « مركوس لندزمان ميخائيل اوسيوفاش اتايا » وجرجيس مرقص الذي عرف ايضا باسم « جيورجي اوبراموفش مركوس » .

ان اغلب هؤلاء من السريان اللبنانيين والسوريين ومن الارثوذكس اليونان . . باستثناء الشيخ الطنطاوي العالم الازهري ومرزا كاظم بك السياسي الايراني الذي ابعده السلطات القاجارية الى فرنسا .

والذي وجدته عند كراتشكوفسكي وجدته في أغلب المعاجم الجغرافية الصادرة في لندن ونيويورك . . فهذه تحسب أيضا الاستاذ الموصلي الفونس منغنا ، والدكتور فيليب حتي اللبناني ، والاستاذة نبيهة عبود الماردنية ، والامير ميكاسا شقيق امبراطور اليابان . . . تحسب جميع هؤلاء واخرين لا مجال لذكرهم مستشرقين . . لا لشيء الا لان منغنا هاجر الى انكلترا ، ولان حتي وعبود تقمصا الجنسية الامريكية ، ولان ميكاسا يهيم بالانار الاسيوية القديمة . . وسلك النهج نجيب العقيقي في كتابه « المستشرقون - القاهرة ١٩٤٧ » ، فأضفى لقب المستشرق على جماعة كراتشكوفسكي مضيفا اليهم السيدة كلثوم عودة الفلسطينية التي استوطنت الاتحاد السوفيتي ، والمدعو « وهبة الخشاب »

الذي وجدناه عند كراتشكوفسكي « انطون خشاب » .
بل حتى المستشرق الالماني يوهان فك في كتابه « الدراسات العربية في
أوربا - المطبوع بالالمانية في ليبسك ١٩٥٥ » لم يسلم من الوهم ، فغنى لنا
اشودة كراتشكوفسكي من جديد .

وفي نفس الخطأ وقع الدكتور محسن جمال الدين حين تكلم في مجلة
المعلم الجديد على (بندلي جوزي) اتكالا على نجيب العقيقي .

وأخيرا اضاف بوبوجان غفوروف الى قائمة المستشرقين الاستاذ العراقي
عبدالرزاق الحسنسي وذلك في خطابه الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين
الدولى الخامس والعشرين الذي انعقد في موسكو .

وانتي أرى ان جميع الذين ذكرتهم من شرقيين وغربيين قد أسبغوا
لقب « المستشرق » على بعض الشرقيين اعتباطا وهم فيما ذهبوا اليه لا ينجدهم
أي دليل علمي وانتي لاذكر - في هذه المناسبة - ان الدكتور عبد المعيد
خان سكرتير تحرير مجلة الثقافة الاسلامية « اسلاميك كالجرجر » الصادرة في
حيدر آباد - الدكن ، قد سألتني - مرة - في رسالة شخصية : « هل يصح
اطلاق لقب المستشرق على بعض المعينين بالدراسات العربية والاسلامية من
العلماء الهنود ؟ فأجبتة : وهل يستشرق الشرقي ؟ » .

ذلك ذلك وللاستشراق مستقبل لا يبشر بالخلود ، اذ من السخف
ان يجيد احد ابناء لندن او امستردام اللهجة البنغالية قراءة وكتابة وان يعرف
شيئا من ادابها ليختال بلقب مستشرق !! بينما نحن - معشر الشرقيين -
لا نخلو ممن يؤلف ويكتب باللغاب الاوربية ، ومع ذلك ، لم نفكر حتى
الان في دفعهم بلقب المستغرب . . . فهذا أمين الريحاني وجبران وادوار جرجي
والاستاذ مجيد خدوري وجمهرة ضخمة من الاساتذة الهنود والباكستانيين
قد اغرقوا الدنيا بمؤلفاتهم وابحاثهم ودراساتهم الاجنبية . . . وبالرغم من ذلك
فهم هم ، شرقيون . . . لا مستغربون ولا هم يحزنون !!

ان الاستشراق غصن في دوحة العلوم الانسانية ، وليس بعيد ذلك
اليوم الذي سيقال فيه لاي مستشرق انه عالم في اطار تلك العلوم .

معالم الأستشراق السوفيتي

طل الاستشراق الروسي - السوفيتي ميدانا بكرا ، وحال الضباب السياسي دون اسكنتاه واقعه طوال السنوات التي أعقبت النظام القيصري • وهذه الحقيقة قد آلت أكثر من مستشرق، فقد قال مينورسكي (Minorsky) في محاضراته التي ألقاها في الاجتماع الموحد للجمعية الملكية الآسيوية وجمعية آسيا المركزية المعقود في لندن عام ١٩٤٢ : « انه خلال الفترة الواقعة بين الحربين الاولى والثانية انتظمت روسيا سحائب كثيفة من الريبة هجمت عليها من الغرب ... حتى بات مألوفاً أن يقال : لا خير يتوقع من مدينة الناصرة » ، فلا غرو ، بعد ذلك ، اذا عز علينا أن نقع ، كما ينبغي ، على ما يفيدنا وينفعنا من البحوث العلمية التي تمخض عنها نشاط العلماء السوفيت في ميدان الاستشراق •

ومن تهاياً له أن يميظ اللثام عن هذا الميدان لابد أن يتسلح بالعتاد اللازم من المراجع والمصادر لمواجهة الخطورة التي يغمض عليها الاستشراق السوفيتي •

وقد حاول الاستاذ نجيب العقيقي في كتابه (المستشرقون) الذي طبع في القاهرة سنة ١٩٤٧ أن يزود قراءه بما كان يجهلون من اسرار هذا الحقل الافتح •• ولكنه خاب ، وهو بعد اليوم لن يستطيع بكتابه ذلك الحافل بالخطأ والوهم ان يدخل في الروع انه المرجع الوحيد للاستشراق والمستشرقين •

انه يذهب الى ان تاريخ الاستشراق الروسي - العربي يرجع الى تأثر المغول بالحياة الادبية الاسلامية منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، يوم أن سارت جيوشهم الفاتحة في المشرق ، وعادت الى موطنها الاولى حاملة معها التراث الاسلامي - العربي ، وقد ذهب قبله الاستاذ يوسف اسعد داغر الى اعتبار الحروب الصليبية المفتاح الاول لعالم الاستشراق ، والغرض منه يومذاك هو بث الروح الدينية والتبشيرية •

فذاك قصر تاريخ الاستشراق الروسي - العربي على تأثر وتأثير المغول، وهذا جعل الحروب الصليبية المفتاح الاول لعالم الاستشراق ... وهكذا اوقعنا في تهافت لا يؤدي الى نتيج ... فحتى لو سلمنا - جدلا - بأن المغول حين رجعوا الى موطنهم حبالى بالثقافة الاسلامية - العربية أثروا في الحياة الروسية وحام حولهم الاستشراق ، فاننا نعلم ان البلاط المغولى كان مؤثرا للثقافات العربية والفارسية والتركية بله المغولية ، فلا عجب اذا زرع المغول في روسيا الثقافة الشرقية الاسلامية ، وحصدتها اكاديميات روسيا استشرافا (لا استعرابا فحسب) بل حتى لو فرضنا ان التاريخ لم يسجل غزوا مغوليا اجتاح الامبراطورية الاسلامية ، وانما أكد على انهم قبعوا في موطنهم الاولى قانعين بالحياة الوادعة منصرفين الى الرعى واحساء اللبن لا الى تحقيق احلام مارس ، فان ثقافتهم الوثنية بلغتها المحلية وديانتها الشامانية البدائية كانت كافية ، وحدها ، لاندلاع رغبة العلماء الروس في الوقوف على أسرارها ، ومن ثم لقيام الاستشراق (مجرد الاستشراق .. دون وصفه بأنه عربي أو فارسي .. الخ) حقيقة لا تقبل المكابرة ! .. فاذا كان (يوسف داغر) قد جعل من الحروب الصليبية المفتاح الاول لعالم الاستشراق فان ذلك لا يشجع على الاعتقاد بأنه انما كان يقصد الاستشراق الروسي .. لا ، فالرجل قصد الايطالى والفرنسى .. الخ ، أما روسيا - وهي الارثوذكسية - فلم تتصل بأي سبب بأهواء الفاتيكان ، بل ولم تقدم - ولو حبة شعير - الى حمار بطرس الناسك ..! .. وهذا بفضي بنا الى أن الحروب الصليبية في واد والاستشراق الروسي في واد .. وبينهما برزخ لا يلتقيان •

اذن ، فما هي مقومات هذا الاستشراق ؟ •• علمتنا الجغرافيا ان روسيا رقعة فيحاء تتاخم اليابان والصين وايران وتركيا وافغانستان ، وانها تنطوي على ملايين غفيرة من الشعوب والقبائل الفخورة بأصلها الشرقي ، ولذلك ثمن قياصرة الروس الدراسات الشرقية ، بالضرورة ، ثمينا يتناسب واطماع القصر الشئوى • وبعد أن انهارت الامبراطورية المقدسة ، ونهض على انقاضها اتحاد سوفيتي مكون من ست عشرة جمهورية ، وجمهوريات اخرى تتمتع بالحكم الذاتي ، وأقاليم محلية •• أصبحت الحاجة صريع حين لا ينقطع الى فهم عميق للتاريخ والثقافات واللغات الشرقية •

ان الجمهوريات الوطنية الحديثة ترتبط تاريخيا بالثقافة الاسلامية ، ولذلك حامت الدراسات الاسلامية في روسيا حول طشقند وبخاري وسمرقند وعاصمة القبيلة الذهبية وتترقازان والقره قבלاق والامبراطورية المغولية • أما الدراسات العربية فقد بلغت شأوا بعيدا في البحث والاستقصاء ، وكان لذلك ما يبرره ، فقد كانت اللغة العربية - حتى وقت قريب - اللغة الرسمية لداعستان المتعددة اللغات •• بالاضافة الى أن التنقيب قد أسفر عما اهترت له المجامع العلمية الروسية ، وهو بقاء جمهرة من العرب يبلغون ٢٠٠٠٠٠ نسمة قرب بخارى •• يعتقد أن تيمورلنك هو الذي جلبهم ، ووجود جماعات عربية صغيرة في آسيا الوسطى كانت قد تخلفت من أيام الفتوحات التاريخية الكبرى •• وهذه الجماعات تسودها ، اليوم ، لهجتان عربيتان لهجة بخارى ولهجة قشقادريا •

اذن ، فمذهب (يوسف داغر) لا ينهض على أساس علمي ، والا فآين تأثير الحروب الصليبية فيما عرضته قبل الان ؟ •• وماذا عن المغول بعد هذا الاستطراد ؟•

يقول العقيقي : « ارسل بطرس الاول خمسة من الشبان يتعلمون اللغات الشرقية في الشرق » ، ولا أدري ماذا يعني بكلمة « الشرق » ، أما أنا فالذي أعلمه هو أن بطرس الكبير ١٦٧٢ - ١٧٢٥ فوض الى أكاديمية العلوم

الامبراطورية سنة ١٧٠٣ تدرّس اللغات الشرقية مستعينا بالمستشرقين غلوك (Gluck) ١٦٥٢-١٧٠٥ ، وادزاردى (Edzardi) ١٦٢٩-١٧٠٨ وپاوس (Paus) ١٦٧٠-١٧٣٥ ، وان مجد هولندا الاستشراقي الذي بناه فسي القرن السابع عشر المستشرقان : اربينيوس (Erpenius) وغوليوس (Golius) كان المحرك الاول لرغبة بطرس الكبير في تشجيع البحوث العلمية خارج روسيا ، وانه في عام ١٧١٦ صمم على تدريس اللغات التركية والعربية والفارسية في موسكو .

ويستطرد العقيلي قائلا : « وجرت الملكة كثيرين من بعده مجراه » .
ولا يهم بعد ذلك كم من الكاترينات في روسيا ، وأيهن المقصودة بالذات .
ولكن سياق العقيلي يفصح عن أنها أرملة بطرس الثالث ١٧٢٩-١٧٩٦ ، وهي (كبيرة) كبطرس الاول . وقد أسبغت حمايتها ، مثله ، على مستشرفي دهرها ، وشجعت الدراسات الشرقية لكي تتخّن في مواطنها التتر المسلمين اكثر من ذي قبل .

ان العقيلي نشر في كتابه (ص ١٢٥-١٢٦) ما يدعو الى التأمل والعجب حين عقد كلامه على مدارس الاستشراق في الربوع الروسية . . . والذي حام فوقه جاء خليطاً غير متجانس من المجامع العلمية والمعاهد والجامعات والمستشرقين ، فضلا عما قارفه في هذا الصدد من أوهام .

وبوسعي أن أسوق للقارىء نموذجا مما ذكره تدليلا على ما اعتوره من ضلال ، فهذا هو يقول : « مدرسة بطرس سبورج سنة ١٨١٨ حيث درست من اللغات السامية : العربية والفارسية والتركية والمغولية » .
و هذا وهم فاضح ، لاننا نعلم جيدا ان سام بن نوح عليه السلام ليس له موطن . قدم في آسيا الوسطى . وانتي أعجب للعقيلي كيف يقدم على التأليف في ميدان لا يملك له مقال ذرة دراية . . . والا فمن ألهمه أن الفارسية والتركية والمغولية من اللغات السامية؟! . ان اللغة العربية سامية . . . تسكن شمال أفريقيا وأكواخ الجزيرة العربية وقصورها ومضاربها ، وهي شقيقة الارامية والحبشية والفينيقية والعبرية ، وان اللغة الفارسية من فصيلة اللغات

الهندو - ايرانية ، وتفرع عنها اللغة الافستية والفارسية القديمة والفارسية
الوسطى (البهلوية والبارسية) والفارسية الحديثة (ومنها الكردية) . . .
وهناك لغات رئيسة تدعى (اورال - التائية) تفجرت منها التركية القديمة
والمغولية ، وتنازعت التركية القديمة : اللغة الاوزبكية والقرغيزية واليغورية
والتركية المعاصرة التي تعني بها ، اليوم ، معزز هانم في انقرة .

ولمّا ذكره الاستاذ العقيقي أستطيع ان استقصر هذه العصاره : ان
مدارس الاستشراق البطرسي - الكاتريني عبارة عن مجمع واحد وعالم
ومدرسة جامعة وجامعة ومدريتين وكلية ، وبامكان القاريء أن يتحرز من
مغيبه هذا المزيح . . .

ولندع من جديد زميلنا العقيقي يخبرنا عما حدث بعد ذلك « ولما قامت
الثورة الشيوعية ١٩١٧ لم تسن الاستشراق فهضت به مشكورة ووزعت
مراكزه على قازان وموسكو وبتروغراد . . الخ » .

وأنا أقول ان الدراسات الشرقية في الاتحاد السوفيتي قد تركزت
في المجمع العلمية والجامعات وفي المعاهد المنبثقة عنهما ، فموسكو قاعدة
اكاديمية العلوم ، وقد أضيف اليها المتحف الاسوي بمكتبته العامرة التي بلغت
مخطوطاتها عددا لم تبلغه مكتبة مدرسة اللغات الشرقية في باريس ، وبعد
الثورة مباشرة احتضنت الاكاديمية جميع المخطوطات التي كانت موجودة
في مكتبة ليننغراد العامة ، ولهذه الاكاديمية معاهد كثيرة منتشرة في ارجاء
الاتحاد السوفيتي كتفليس وباكو وتركمنيا وتاجيكستان ، وهي منصرفة
في الوقت الحاضر الى دراسة التراث المحلي . وهذه الاكاديمية حذفت من
الوجود أكاديمية العلوم الامبراطورية والمجمع الاسوي . اما جامعة موسكو
فقد شيدت اختصاصها على الشؤون العلمية فكان من فروعها معهد اللغات . .
وفي موسكو تحول معهد لازاريف الى معهد اختص باللغات الشرقية ولا سيما
لغات الشرق الاقصى . وتقمصت جامعة ليننغراد جامعة القديس بطرسبورج ،
ومن فروعها معهد الابحاث التاريخية للمقابلة بين لغات الشرق والغرب
وادابها ، والمعهد الشرقي ، ومعهد جديد للغات النحية . وهناك جامعات اخرى

حدثة وأكاديميات في طشقند وباكو وتفليس وأريوان وستالينباد تتمتع
باساتذة في ميعة الصبا ، تربطهم بترانهم الشرقي أكثر من وشيجة • وفي جامعة
كيبف تدرس لغات الشرق الأدنى تحت اشراف ورعاية الاكاديمية الاوكرانية
•• هذا وتجب الاشارة الى جامعة خاركوف وأكاديميتي اوزبكستان
وجورجيا ، والى الجمعية العلمية لمعهد الشعوب الشمالية •

اما مدارس الاستشراق الروسى - السوفيتي فتضم الشرق القديم
والشرق الاقصى والمغوليات والدراسات التركية والهندية والاسلامية والعربية
والايرانية والفقاسية واللغات السبيرة • وسأقتصر الان على كشف ما لدى
المدرستين الاسلامية والعربية من نشاط وفعاليات •• على وجه الايجاز :
ان الاسلام ، في الاتحاد السوفيتي ، لا يزال يمكث في مسجد وقلب ،
ولذلك استتال ميدان الدراسات الاسلامية هناك ، فنشرت السيدة كاشتاليف
(Kashtalev) الاصطلاحات الفنية في القرآن الكريم ، وقدم الاستاذ شممت
(A.E. Schmidt) دراسة تضىء مباحكة نادر شاه للسنة ١٨٧١-١٩٣٩
والشيعة • وألع وجه في الدراسات الاسلامية هو بارتولد (V.V. Barthold)
١٨٦٩-١٩٣٠ الذي كان آخر ما يذكر له عشاق الحركة الاستشرافية هو
كتاب (حدود العالم) النص الجغرافي الفارسى الوحيد المصنف عام ٩٨٢م ،
وقد نشره محققا مع مقدمة نفيسة • والنقط تلامذته زيمين (Zimin)
وياكوبوفسكي (Yakubovsky) واومنياكوف فضلاته وطوروا أفكاره ، فقد
كان تأثير الرجل على أئداده المعاصرين بليغا بما يمتاز به من دقة اسلوب
وبراعة اقناع •

ودرس ياكوبوفسكي الوضع الاقتصادي في العراق ابان القرن الثامن ،
ونشر برتلز (Berthels) مجموعة قيمة من الوثائق الاقتصادية (من محفوظات
شيوخ بخاري) وكتاب (قابوس نامه) ، كما نشر موريلاند (Moreland)
التاريخ الاقتصادي للامبراطورية المغولية • وكان بتروشيفسكي (Petrushevsky)
قد نشر قبل ذلك جميع المعلومات الاقتصادية التي أدرجها حمد الله مستوفي
في كتابه (نزهة القلوب) •

ودرس المستشرقون السوفيت أثر الفلسفة الأفلاطونية والأفلوطينية في تطور الفلسفة العربية - الإسلامية ، وقد قدموا بحوثهم في هذا الصدد في مهرجان ابن سينا الذي انعقد في طهران .

أما المدرسة العربية فقد كان كراتشكوفسكي قطب الرحى فيها ، وهو تلميذ البارون نكتور روزن . وقد نشرت قائمة مؤلفاته عام ١٩٣٦ بمناسبة العيد السنوي الثلاثين لاستاذيته مستوعبة (٣٤٤) دراسة . والعالم العربي لم ينس ، بعد ، جهوده الطيبة التي بذلها في إصدار (رسالة الملائكة) للمعري و (كتاب البديع) لابن المعتز ، وديوان الواواء دمشقي . وفي عام ١٩٣٩ نشرت تحت اشرافه ترجمة حديثة لرحلة ابن فضلان الى منطقة الفولغا أنجزها كالفيلسكي وفقا للنص الذي اكتشف في مدينة مشهد الإيرانية عام ١٩٢٣ . والمدرسة العربية تعزز ، اليوم ، ببعض الآثار الروائع التي تعاش الاكاديميات في كل مكان ، فقد نشر يوشمانوف الاجرومية العربية الكلاسيكية ، كما نشر قايلنجك الملهجات العربية وفقه اللغة العام . وأسهمت السيدة فيرا كراتشكوفسكي في عدة مؤلفات مهمة لزوجها ، وهي تمتاز بخبرتها الجيدة في النقوش الكتابية الاسلامية ، وهذا ما خولها ان تكون أحد ناشري (الاصول العالمية للخطوط العربية) . وقام الزوجان كراتشكوفسكي بتفسير احدى الوثائق العربية المبكرة ، وكانت رسالة عمر عليها قرب سمرقند ، وفي صدرها باللغة الصغدية المحلية « الى والي خراسان جراح » . وهذه الوثيقة قد سلطت الاضواء الكافية على التاريخ المحلي ، ووثقت بصورة بالغة ونهائية تقديرات ابن جرير الطبري التي شيدها على رواية المدائني .

والمستعرب الاخر الذي قدم خدمات واضحة للدراسات العربية هو كريمسكي الذي صنف مكتبة كاملة للاداب العربية . وهذا الرجل هو الذي نقل ألف ليلة وليلة الى اللغة الروسية وكتب لها مقدمة مسهبة ثم نشرها في موسكو عام ١٩٠٤ . وانقطع يوشمانوف الى وضع الاجرومية العلمية الحديثة للغة العربية . . بينما انجز بارانوف قاموسا مفصلا للاساس اللغوي العربي

بعد دراسة مرهقة صرفها في الخزائن العربية •

وعقد المستعربون السوفيت مؤتمرين في ليننغراد ، الاول في سنة ١٩٣٥
وقد حضره حوالي ٧٠ مستعربا استمعوا فيه الى محاضرة كراتشكوفسكي
(تاريخ الادب العربي ووظيفته في الاتحاد السوفيتي) ومحاضرة ياكوبوفسكي
(العراق في القرنين الثامن والتاسع بعد الميلاد) ومحاضرة لوتسكي (الثورة
الوطنية السورية ١٩٢٥-١٩٢٧) ومحاضرة بوريسوف (بعض المخطوطات
المعتزلية المكتشفة في ليننغراد) • والمؤتمر الثاني سنة ١٩٣٧ وقد كرس لابن
سينا بمناسبة مرور المائة التاسعة على وفاته ، وهم يعتبرون الشيخ الرئيس مفكر
آسيا الوسطى ، وقد حاضر في هذا المؤتمر بوريسوف وغيره •

وما دنا في صدد الدراسات العربية ، فلنستمع قليلا الى الاستاذ
العقيقي •• فهو يقول : « وفي سنة ١٩١٩ انشئت دائرة الاداب العالمية بفضل
الكتاب الروسي الكبير مكسيم غوركي حيث طبعت ونشرت روائع الانار
العربية القيمة » ••

ومهما يكن الامر ، فمكسيم غوركي شيد هذه الدائرة وسماها
(Vsyomirnyaya Literatura) (الاداب العالمية) ، وخلال عمرها الذي دام من
١٩١٩ حتى ١٩٢٥ أنجزت من الترجمات ما لا تزال تحمد عليه الى اليوم •
ويقول العقيقي : « وقامت مجلات خصصت موادها للشؤون الاستشرافية
أهمها مجلة (النار) برئاسة تحرير العلامة كوندورشكين » ••

وانني اعتقد أن مجلة (Ogni) التي تعني « النار » ، كان لها وجود
تاريخي طبعا ، فقد صدرت بعد ثورة اكتوبر ، ودعمها كوندورشكين
(Konduruschkin) . بما انطوى عليه من مواهب •• ولكن اقتصار العقيقي
على ذكر هذه المجلة دون الاشارة الى سواها جناية فظلة على واقع الاستشراق
السوفيتي •• فهناك في موسكو وغير موسكو مجلات •• مئات المجلات تعيشنا ،
وتكتب الكثير عن ثقافتنا - نحن ابناء الشرق الاوسط - وتاريخنا وفولكلورنا
واقصادنا ، وتسلمنا بالادعية والتماثيل التي تردع عنا أشباح الاستعمار ،
ومع ذلك لم يذكر الاستاذ واحدة منها •• ولكنه ذكر « (Ogni) - النار »

التي انتهت رسالتها فجئحت الى المغيب منذ أمد طويل .

ان المجلات ، هناك ، كثيرة . . . والمشهور منها : مجلة الاخبار (Izvestiya) التي تصدرها أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي ، وهي مجلة قسم العلوم الاجتماعية ، وقد تناسلت منها خمس مجلات انفردت كل واحدة منها بقسم خاص كالعلوم الانسانية واللغة والادب والتاريخ والفلسفة والانار والاثنوغرافيا . وقد أصدرت الاكاديمية العلمية خلال ١٩٢٤-١٩٣١ مجلة قرارات الاكاديمية العلمية (Doklady Akademi Nauk) وكانت زاخرة بالمواد الشرقية . أما مجلة (الحوليات) (Zapiski) فقد استغرقت حياتها اربعة أدوار . . اذ عندما الغيت الجمعية الانترية الامبراطورية وحلت محلها أكاديمية الثقافة المادية التاريخية . . احتفظت هذه بمجلة (الحوليات الشرقية - قسم الانار الروسية) المشهورة في الاوساط العلمية باسم (Zvo) وقد صدر مجلدها الرابع والعشرون عام ١٩١٧ والخامس والعشرون عام ١٩٢١ ، ثم دخلت درها الثاني فسميت (الحوليات الجامعية - الشرقية للمتحف الاسوي) واشتهرت باسم (Zkv) ، وكانت وقتذاك موثلا للمستشرقين الجامعيين في أكاديمية العلوم ، وظهرت مجلداتها الخمسة في الاعوام ١٩٢٥-١٩٣٠ ، ثم دخلت دورها الثالث فسميت (حوليات المعهد الشرقي في أكاديمية العلوم السوفيتية) واشتهرت باسم (Ziv) ، وقد صدر منها في الاعوام ١٩٣٢ - ١٩٣٩ سبعة مجلدات . واخيرا أصبحت ، في دورها الرابع ، مجلة (الابحاث الشرقية السوفيتية) (Sovetskoye Vostokovedeniye) وقد طلعت عام ١٩٣٩ . وهناك ايضا مجلة (الحوليات الشرقية) (Vostokoye Zapiski) التي يصدرها معهد اللغات الحديثة في ليننغراد . ولتعريف المطبوعات نشرة خاصة (المكتبة الشرقية) (Bibliografiya Vostoka) وقد صدرت عام ١٩٣٢ وتطبع في ليننغراد مجلة (الشرق) (Vostok) ، وأبرز محتواها الفنون الشرقية والروائع المترجمة من لغات الشرق . وهناك مجلات اخرى كإيران (Iran) والمجموعة اليابثية (Recueil Jephétique) والشرق الحديث

Novy Vostok) والمجامع الشرقية (Vostochniye Sborniki) والعالم الشرقي (Skhidai Svit) والمجامع الفلسطينية (Palestinski Sbornik) •• وغيرها

• مما لا يتسع لذكرها هذا الرد الموجز •

ومما يجب أن لا نمر عليه من الكرام هو أن العقيد حين عقد الكلام على الاستشراق الروسي وزع مادته السمينية على ٣٤ مستشراقاً ، وقد وجدتهم فريقين : فريقاً يجبر وراءه سنتي الولادة والوفاة ، وفريقاً انفرد بعبء سنة الوفاة دون الولادة وانفرد البعض الآخر بالعكس ، وفي هذا مجانفة للنهج العلمي •

والذي يجدر بالتويه ، أخيراً ، أن الاستعراب الروسي - كما قال شرباتوف في كتابه : الاستعراب في الاتحاد السوفيتي - لم يتكون في مدرسة مستقلة الا في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وانه في مطلع القرن العشرين أنجب كوكبة من العلماء والمدرسين الذين شغلوا مكاناً مرموقاً بين مستعربي العالم • وعليه فان أي بحث في قضايا تاريخ الاستعراب الروسي والسوفيتي •• يجب اعتباره محاولة لمواصلة هذا التاريخ ، ولكن لا يجوز - في الوقت نفسه - التوقف عند بعض الظروف والخصائص التي رافقت تطور هذا الاستعراب ، ولذلك لا يستطيع أي بحث أن يستوفي جوانبه كلها •

وما تقدم ليس الا خطوطاً عامة للاستشراق في الاتحاد السوفيتي •• وقد قال كراتشكوفسكي : ان الماضي لا ينبغي له أن يحجب الحاضر والمستقبل ولكن النماء السليم طويلاً وعرضاً غير ممكن الا اذا كانت هناك جذور سليمة وعميقة • وعلى ضوء هذه الوصية طور المستعربون ، في سني الحكم السوفيتي ، مع العلماء الشيوخ تقاليد استعرابهم ودرسوا الادب العربي قديمه وحديثه ، واللغة العربية ولهجاتها ، وتاريخ الشعب العربي وحضارته •• ليعتمدوا ذلك ذريعة الى تعزيز علاقاتهم العلمية والثقافية مع العلماء العرب والفكر العربي المعاصر •

وعلى أية حال فهذا ما وددت أن أسجله تعليقا على محتوى كتاب الاستاذ
العقيقي الخاص بالاستشراق الروسي ، واننى لارجو أن ينتفع به كما أرجو
أن يبسط لنا قد يدا عفورا ...

عَلَّمَ الْكُتُبُ

النشاط الفهرسي في العراق

حركة الفهرسة ، عندنا ، في العراق ، جامدة •• لا ينشطها تحريك ولا حفز ، بالرغم من وفرة الدواعي الى الانفساح والاتساع في رحابها • وهي وان كانت الطريق الامثل الى احياء المخطوطات الانباز في خزائن العراق العامة والخاصة •• فانها ما انفكت تشتهي الحث والاستهواء والتجريس والاستفزاز حيال الباحثين الذين استغوتهم الآثار المخطوطة •

ففي العراق من التراث الفكري الاسلامي والعربي مالو أدركه وعرفه العلامة كارل بروكلمان (Carl Brockelmann) لاداعه في الخافقين ، ولاستكفي به في كتابه «تاريخ الادب العربي» *Geschichte der Arabischen Litteratur* ولكن الآفة التي حبست هذا المستشرق الكبير عن احتطاب مآثرنا الفكرية الرواقد تحت الغبار في خزائنا •• هي انصراف أولى الدرس والتحصيل - فجر القرن العشرين - عن الفهرسة ، وتخلفهم عن الزحف الذي بدأته مصر ، في وطننا العربي ، بالانفاق فيما ينبغي - تنوبها بمحتوى خزائنها - فوق ماينبغي •

على اني لا أريد بقولي هذا أن اجرد بعض الباحثين العراقيين من فضيلة الاقتفاء ، فقد وجدت أغلبهم - وهم قليل - يخوضون ، بعد فوات الاوان ، صعب المزالق والعقبات ، على الصعيد الفهرسي من غير ان تنهياً لهم أداة المنهج العلمي في مواجهة الاستفسار بين أكداس المخطوطات ••

ومن هنا ضاعت الفائدة الفيحاء ، والنفع الاعم . . فباتت مخطوطاتنا شتى ، وفي أماكن مجهولة ، رهينة صناديق وأسفاط ، وطريدة فأر وأرضة ، لاينالها طالب ، ولا يدركها محتاج ، ولا يشير اليها فهرس أو معجم أو ثبت .

وقد يقتضيني الانصاف أن أبارك الجهود التي لم تذهب ضياعا وخسرا في خدمة التراث الفكري المخزون وراء الحواجز والحوائل وخلف الابواب . . ولا سيما تلك التي تجسدت مقالات وكتبا أشار أصحابها فيها الى بعض المخطوطات الدينية في الخزائن البغدادية والمكتبات الخاصة والموقوفة فسي منطقتي الكاظمية والاعظمية ، وفي انحاء مختلفة من العراق ، كما فعل بروكلمان في كتابه الشامخ المعروف ، وجرجي زيدان في تاريخ الاداب العربية وفليب طرازي في خزائن الكتب العربية في الخافقين ، واغا بزرك في الذريعة الى تصانيف الشيعة ، والخاقاني في الاثار المخطوطة في العراق (الذي لم يطبع) .

وكان للخزائن البغدادية القسط الارحب من اهتمام الوُلُع بالفهرسة . ومن التحقيق بالاعجاب تلك المحاولات الناجحة التي سجلها عدد من أفاضل الباحثين في دراسات وكتب تناولت المخطوطات المحفوظة في مكتبات بغداد ومساجدها بالاشارة والوصف والتعريف . . كآلاب استاس الكرملني الذي كتب ما كذب من مقالات متسلسلة عن مخطوطات خزانة الكرملين النصرانية في بغداد في مجلة (نشرة الاحد) الصادرة ببغداد خلال ١٩٢٩-١٩٣١ ضمن مجلداتها (٨-١٠) ، والاستاذ كوركيس عواد الذي وزع جهده اللامع تصنيفا وفهرسة على مخطوطات الكرملين في خزانة المتحف العراقي (مجلة سومر - المجلد السابع ١٩٥١) ومخطوطات مكتبة المتحف العراقي ببغداد (مجلة معهد المخطوطات العربية في القاهرة - المجلد الاول ١٩٥٥) ، وخزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي ببغداد وخزانة الكتب في مشهد أبي حنيفة (مجلة المشرق الموصلية - المجلد الاول ١٩٤٧) ، وأقدم المخطوطات في خزانة الاوقاف العامة ببغداد (مجلة سومر - المجلد الثالث ١٩٤٧ والرابع ١٩٤٨) ، والمخطوطات العربية في مكتبة المتحف العراقي (وقد ظهر من هذا الفهرست

ثلاثة أقسام ، الاول للمخطوطات التاريخية ، والثاني للادبية ، والثالث للطب
والصيدلة والبيطرة ٠٠٠ وكلها نشرت في مجلة سومر - المجلدات ١٣-١٥
خلال ١٩٥٧-١٩٥٩) ، والمخطوطات المتعلقة بمدينة بغداد تاريخا وحضارة
(في كتاب جمهرة المراجع البغدادية الذي أسهمت في تأليفه ، وقد طبع
ببغداد سنة ١٩٦٢) ومخطوطات خزانة يعقوب سر كيس المهدة الى جامعة
الحكمة ببغداد (وصدر عن مطبعة العاني في بغداد سنة ١٩٦٦) .

وسلك هذا الطريق الوعر ، ايضا ، الاستاذ عبدالحميد الدجيلي في
وصفه الرسائل الاسماعيلية القديمة النادرة التي عثر عليها بين تركة الاب
أنستاس الكرملي (مجلة المجمع العلمي العراقي - الجزء الثاني من المجلد
الثالث ١٩٥٥) ، والمخطوطات الثمينة في خزانة المتحف العراقي (مجلة
سومر - المجلد الرابع ١٩٥١) . ومثله كان الاستاذ علي الخاقاني حين تكلم
على الآثار المخطوطة ببغداد (مجلة الغري - المجلد الاول ١٩٣٩) ، والاستاذ
ابراهيم الدروبي في ما انتخبه من مخطوطات المكتبة القادرية ببغداد (مجلة
المجمع العلمي العراقي المجلد السادس ١٩٥٩) ، والاستاذ أسعد طلس في
كشافه عن مخطوطات خزائن كتب الاوقاف (وقد طبع ببغداد سنة ١٩٥٣)
والدكتور حسين علي محفوظ في ما كتبه باللغة الفارسية ،
للمجلد الثالث من مجلد دانس الصادرة في طهران سنة ١٩٥٥ ،
عن المخطوطات الفارسية في مكتبة المتحف العراقي وما كتبه
عن خزائن كتب الكاظمية ، ومنها خزائنه الخاصة ، وخزانه جامعة مدينة
العلم ، وخزائن : السيد حسن الصدر ، والحاج عبدالباقي الطيار ، والسيد
علي الهاشمي ، والشيخ عبدالحسين الاسدي ، والشيخ عبدالرزاق العاملي
والشيخ عبدالصاحب الانصاري ، والشيخ محمد رضا شالجي موسى (مجلة
معهد المخطوطات العربية - المجلد الرابع ١٩٥٨ ، والسادس ١٩٦٠) .
وعلى نفس الدرب مضى الاستاذ ف . هوينر باخ W. Hoenerbach
في ما كتبه عن بعض المخطوطات العربية الموجودة في بغداد على صفحات
مجلة المشرق Oriens (المجلد الثامن ١٩٥٥) ، والاستاذ لويس

ماسينيون Massignon في اشاراته النافعة الى مخطوطات بعض المكتبات البغدادية في مجلة العالم الاسلامي Revue de Monde Musulman (المجلد الثامن ١٩٠٩) ، والاستاذ حسين علي الحاج حسن (بالاشتراك معي) في الكتاب الذي وصفنا فيه مخطوطات مكتبة الخلاني العامة ببغداد (وسيطبع قريبا) ومما يجب التنويه به ، في هذا الصدد ، هو « فهرست مكاتب بغداد الموقوفة » الذي تحتفظ به الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية (وهو لم يطبع ، ويقع في ١٤٧ صفحة اكثرها بخط السيد محمود شكري الألوسي) ، وكذلك (المستدرك) الذي وضعه الاستاذ عبدالله الجبوري على (الكشف عن مخطوطات خزائن كتب الاوقاف) للمرحوم اسعد طلس (وقد طبع ببغداد سنة ١٩٦٥) ، وفهرس مخطوطات حسن الانكرلي المهداة الى مكتبة الاوقاف العامة ببغداد (وقد طبع في النجف الاشرف سنة ١٩٦٧) .

أما مدينة الموصل ، وما في مساجدها ومدارسها الدينية وأديارها وتكاياها ومكتباتها الخاصة من مخطوطات نادرة واعتيادية ، فقد تناولها بالاشارة والوصف والتعليق الدكتور داود الجلبلي في كتابه مخطوطات الموصل (الذي طبع ببغداد سنة ١٩٢٧) . ومما يجدر بالذكر ان الاستاذ سعيد الديوهجي قد فهرس مخطوطات مكتبته الخاصة في الموصل ، ونشر هذا الفهرس في مجلة معهد المخطوطات العربية (الجزء الثاني من المجلد التاسع ١٩٦٣) .

وقيض الله لمدينة كربلاء من يرشد علماء الدنيا والدين الى بعض ما ازدهم في خزائنها من مخطوطات . . وكان اشهرهم الاستاذ منير القاضي حن ألم الماما واسعا بالمصاحف الشريفة المخطوطة التي تختال بها خزانة العتبة الحسينية المقدسة (مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد السادس ١٩٥٩) والاستاذ سلمان هادي الطعمة في ما نوه به من الآثار المخطوطة في كربلاء على صفحات مجلة المكتبة التي تصدرها مكتبة المثنى ببغداد (في بعض اعداد سني ١٩٦٣-١٩٦٦) ، والاستاذ حميد مجيد هذو في كتابه

(مخطوطات مكتبة العلامة السيد عباس الحسيني الكاشاني في كربلاء) الذي فرغ من طبعه في كربلاء سنة ١٩٦٦ •

وتصدى لبعض مخطوطات مدينة البصرة بالإشارة والوصف الاستاذ كوركيس عواد يوم عقد كلامه على مكبات البصرة ومخطوطاتها في مجلة معهد المخطوطات العربية (الجزء الثاني من المجلد الاول ١٩٥٥) والاستاذ علي الخاقاني حين فهرس وصنف مخطوطات المكتبة العباسية في البصرة (وقد نشر فهرسته في ثلاثة اقسام على صفحات مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلدات ٨-١٠ الصادرة خلال ١٩٦١-١٩٦٣) •

اما ما يتعلق بمخطوطات خزائن مدينة النجف الاشرف ، فالذي لست أجهله منه هو ان مجلة (لغة العرب) البغدادية قد اشارت بما فيه نفع كبير ، في مجلدها الثالث ، الى بعض محتوى مكبات النجف الخاصة من نوادير المخطوطات •• وان الدكتور حسين علي محفوظ نظم فهرسا جيدا لمخطوطات الخزانة الغروية ، ونشره في مجلة معهد المخطوطات العربية (الجزء الاول من المجلد الخامس ١٩٥٩) •• وان بعض المجالات الادبية التي صدرت في النجف، كالاعتدال، والغري، والنجف، والبيان، والعدل، كانت تلمع بالوصف الى بعض المخطوطات النفيسة التي ترقد في خزائن النجف • وان بعض الرسائل المتبادلة بين جمهرة كبيرة من أفاضل النجف وطائفة من المستشرقين كانت غنية بالإشارات الحافلة الى ما يحتمل وجوده أو ما هو موجود فعلا في النجف من نفائس الآثار المخطوطة •

هذا ، ولا اكثر من هذا ، هو ما احتوشته عن خزائن الكتب في النجف •• ولطالما مزق ذلك مني الفؤاد ، لان التراث الاسلامي والعربي الذي ارتتهته خزائن النجف لما يبعث على الاعتزاز •• ولكنه مهممل ، منبوذ ، مجهول ، يتطلع الى من سوف يخدمه ويرعاه ويبث خواصه في الآفاق •• وهذا ما يضع في الحلق اكثر من شجي ، ويلوث العين بما هو أدهى من القذى ، ولولا نشاط الاستاذ الشيخ محمد هادي الاميني الذي ما فتىء يبذله في وصف مخطوطات بعض المكتبات العامة والخاصة في النجف

•• لآمنت بأن العقوق انما هو سيد الخصال في مدينة النجف التي لا أتمنى لها
الا الازدهار على الصعيد الثقافي •

لقد ألمع الاستاذ الاميني الى نواذر المخطوطات في مكتبة آية الله الحكيم
العامه (في فهرس طبع بالنجف سنة ١٩٦٢) والى نظائرها في مكتبة السيد
محمد البغدادي (في كتاب طبع في النجف سنة ١٩٦٤) • وفوق ذلك سبق
للإميني أن نشر وصفا لطائفة كبيرة من مخطوطات النجف في مجلة « عالم
المكتبات » القاهرية (خلال ١٩٦٣-١٩٦٤) ومجلة (المكتبة) البغدادية كما
نشر ستة فصول في مجلة (النجف) - المجلد الخامس ١٩٦٢ - عن
مخطوطات (مكتبة الامام امير المؤمنين العامة في النجف) •

ولست أشك - بعد هذا العرض - في ان جهودا اخرى في ميدان
فهرسة المخطوطات العراقية ستظهر ، وستأخذ سيبلها الى المكتبة العربية في
يوم قريب •

الموسوعة العربية الراهنة

إذا قيل ان فلانا ذو عقل انسكلويدي ، فمعنى ذلك انه بصير بكل الثقافات ، عليم بجميع الامتدادات الفكرية للتراث الانساني . وكلمة انسكلويديا Encyclopaedia يونانية الاصل ، تنظر الى ذلك الجهاز الكامل من الثقافة التعليمية التابعة من علوم العصر وفنونه . . . وقد تواتر استعمالها في أوروبا حين اذاعها الاستاذ الدبلوماسي السير توماس اليوت Thomas Elyot في انكلترا ، واطلقت - تخصيصا - على المجاميع الفلسفية . وفي القرن التاسع عشر والرابع الاول من القرن العشرين وضع الادباء العرب مقابلا لها - في لغتنا - اصطلاح دائرة المعارف او المعلمة أو الموسوعة .

لقد سبق العرب الشعوب كافة في التأليف الموسوعي ، وكان ذلك في العصر العباسي . . . وقد ظهرت كتبهم وآثارهم الاولى في الصعيد الموسوعي ضيقة الافق ، محدودة المعارف ، وكان فارس الحلبة - بعد محمد بن حبيب (؟ - ٨٦٠ م) مؤلف (المجبر) - هو عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٠ - ٢٥٥ هـ) فقد زحرت مؤلفاته بعلوم الاوائل وبجميع التيارات الثقافية التي كانت تسود عصر المأمون . . . وعلى خطاه ، وفي نفس الطريق سار ابن قتيبة الدينوري (؟ - ٩٣٤ م) في (المعارف) وبعد هذا الجيل أخذت دوائر المعارف في الظهور والاتساع ، فقد بدأ محمد بن احمد الخوارزمي (؟ - ٩٩٧) بتأليف

(مفاتيح العلوم) ، و ابو حيان علي بن محمد التوحيدي (؟ - ١٠١٠ م) في
(الامتاع والمؤانسة) ، و عبد الملك بن محمد الثعالبي (٩٦١ - ١٠٣٨ م) في
(ثمار القلوب) و (لطائف المعارف) ، و ابو عبد الله الفخر الرازي (١١٥٠ -
١٢١٠ م) في تفسيره للقرآن الكريم الذي قيل عنه انه يحوي كل شيء الا
التفسير .

واستقر التأليف الموسوعي راسخ الكيان بفضل الجهود العلمية
الضخمة التي بذلها احمد بن عبد الوهاب النويري (١٢٧٨ - ١٣٣٣ م) ،
و ابن فضل الله العمري (١٣٠١ - ١٣٤٩ م) و محمد باقر بن تقي المجلسي
(١٦٢٧ - ١٧٠٠ م) في سبيل البعث الثقافي ، فقد عالج هؤلاء وسواهم ، ولا
سيما جلال الدين السيوطي (١٤٤٥ - ١٥٠٥ م) ، اشتاتا من المعرفة استغرقت
الآداب واللاهوت والتاريخ والفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات والجغرافيا
والانثروبولوجي والكيمياء وعلوم الطبيعة والزراعة والصناعة والتجارة
والفن والحيوان ... الخ .

ولكن .. مما يثير الاسف ، ويدعو الى الاسى ان هذا التراث الموسوعي
الخالد لم يجتمع بين دفتي كتاب واحد ، وانما تناثر هنا .. وهناك ، بلا
رابطة عضوية ، وبدون أن تحتضنه وحدة موضوعية . ولا جدادنا العذر في
ذلك ، اذ ما عسانا نأمل منهم اكثر من وضع الحجر الاساس .

لقد ادركت أوروبا ، في القرن الثامن عشر ، ضرورة الانسكلوبيديا
للسعوب ، والوقوف على ثمار الفكر الانساني ، ومنجزات الانسان خلال
تاريخه الطويل .. فاستخدمت - في سبيل اخراجها - جهازا فنيا متكاملا ،
يخضع لبرامج عملية غنية بالخبرة والكفاية ، وجعلت لهذا الجهاز ادارة
خاصة ذات مجلس أعلى وميزانية مستقلة .. لان اصدار دائرة معارف عامة
تصلح ان تكون مرجعا قويا لا يخيب رجاء الباحث .. انما هو مشروع
حيوي ذو مستوى عال من ناحية الشكل والمضمون .

وبعد مرور اكثر من مئة عام على هذا الحدث الاوربي الحاسم تمطى
العالم العربي مثابا ، وأخذ يتطلع ، باهتمام الى ما قدمته أوروبا للعالم من

انسكلوبيديات ... وعلى الاثر تناسلت بعض المحاولات الفردية عن تأليف موسوعات خاصة ثابر في سبيلها افراد يتحلون بعد الهمة وصدق المضاء وقوة العزيمة .. ولكن مما يؤسف له ان موسوعاتهم التي تحتل مكانها اليوم في المكتبة العربية .. لا يجد الباحث فيها ما يطفىء اواره ، لانها ناقصة ، بنراء وغير صالحة لخدمة المراجع العامة ، فدائرة معارف البستاني -مثلا- محاولة فردية ، ومشروع فخم .. تبناه واذاغ مجلداته الستة الاولى خلال الاعوام (١٨٧٦-١٨٨٣) المعلم بطرس البستاني ، ثم استأنف العمل ونشر المجلدين السابع والثامن خلال (١٨٨٣-١٨٨٤) ابنه المعلم سليم .. ولكن المشروع جمد وتوقف بعد ان نشر نجيب ونسيب البستانيان المجلدات : التاسع والعاشر والحادي عشر خلال (١٨٨٧-١٩٠٠) وكانت مادة (عثمانية) هي مسك الختام .

أما دائرة معارف القرن العشرين التي حررها محمد فريد وجدي في عشرة مجلدات ، فتكاد تكون - الآن - مهملة ، لعدم كفايتها في تزويد الباحث بما يحتاج اليه .. واحرزت نفس المصير البائس دائرة المعارف الحديثة التي اصدرها احمد عطية الله ، لانها تجسيد لجهد محدود .. فكانت للناشئين انفع واجدى !

وفي عام ١٩٥٤ سجل (المعجم) الذي وضعه الشيخ عبدالله العلايلي ثورة في جميع الاوساط العلمية سواء في الشرق ام في الغرب ، واقامت لصاحبه الحفلات التكريمية في كل مكان .. لان معجمه موسوعة لغوية علمية فنية ، وقد حدث ذلك بالرغم من توقف العلامة العلايلي عن الاستمرار في اصداره عند نهاية مادة (الس) في القسم الرابع من المجلد الاول .

وغادرت بيروت عام ١٩٥٥ الى المكتبات الموسوعة العربية التي حررها البرت ريحاني وجماعة من الاساتذة .. ولكن المصير الذي انتظرها لم يكن بافضل من المصير الذي انتظر دائرة المعارف الحديثة ، والذي سينتظر دائرة معارف الشعب الصادرة في سلسلة (كتاب الشعب) في القاهرة .. فهي عديمة الجدوى لضحالة مادتها وضيق افقها .

وحيث ظهر (المنجد) المعجم العربي المدرسي المشهور - في سنة ١٩٥٦ بعنوان (المنجد في اللغة والادب والعلوم) اتجه الاب فردينان توتل في القسم الادبي - العلمي منه اتجاها موسوعيا . . ولكنه خائب لكثرة الاوهام التاريخية والجغرافية التي وقع فيها المؤلف ، وهذا ما يجعله فقيرا الى ثقة القاريء .

واوائل سنة ١٩٦٠ نقلت فاطمة محمد محجوب (دائرة معارف الناشئين) من الانكليزية الى العربية ، وازافت اليها ما يحتاج اليه الناشيء العربي في محيطه . . وهذا سعي يستحق الثناء ، ولكنه لا يتسع لكل ما يصبو اليه الاحداث .

وفي سنة ١٩٦٦ اخرجت القاهرة ، باشراف مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر (الموسوعة العربية الميسرة) . . التي اصبحت بمثابة تجميع شامل للمعلومات الموثوقة في كل فروع المعرفة الانسانية ، وقد جندت مؤسسة فرانكلين لها خير الكفايات والخبرات . . ومما لا شك فيه انها سدت بعض الفراغ في المكتبة العربية .

وفي القاهرة ، ايضا . . احتدم ، قبل اليوم ، جدل عنيف بين بعض العقول التي تفكر في اصدار دائرة معارف عربية عامة . . حول المشاكل الفنية والادارية والمالية التي ستجابه هذا المشروع قبل ان ينهض وليدا ، فبعضهم يريد ان يكون للمشروع تقليد ثابت عملي لا يتغير ضمانا لوحدة الاستمرار في الروابط التاريخية التي تحكم دائرة المعارف العامة ، وبعضهم يعتقد ان المشروع لا يمكن ان يكون تجاريا لانه يتعلق بسمعة شعب وحضارة امة ، ومع ذلك فهؤلاء يجهدون تحقيق المشروع واصداره دفعة واحدة وان كان غالي الثمن . ويرى غير هؤلاء ضرورة اصدار طبعة شعبية رخيصة حتى يتسنى لها ان تغزو جميع المكتبات بلا استثناء .

ومهما يكن من شيء ، فان بعض هذه الاراء لا يخلو من وجاهة . . ولكن كان الاجدر برعاة المشروع ان يدخلوا في الحساب حقيقة ضخمة لا يستطيع ان ينكرها الا مكابر . . وهي ان الاستاذ فؤاد افرام البستاني قد

جدد مشروع دائرة البستاني من أصله فأعاد النظر في المجلدات المنشورة منها ، واستحدث أبحاثها وفقاً لما وصلت إليه الدراسات العلمية العصرية ، وأعد العدة لاتمام العمل حتى النهاية بمؤازرة لجنة من الاختصاصيين في مختلف أنحاء العالم ، وقد ظهر المجلد الأول ، في أهاب جديد ، عام ١٩٥٦ ثم الحق به الثاني والثالث ، والرابع وسيكون الخامس في متناول الأيدي بعد وقت قريب .

وانني أرى ان تمد اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية يد العون المادي والأدبي لمشروع البستاني الجليل . . . والاباء بخسار لا يقوم حتى بالمال . . . وفضلاً عن ذلك ، وفي حالة تضافر الجهود . . . يجب الاستفادة من التجربة التي مرت بها دائرة المعارف البريطانية في عمرها الطويل ، فهذه الدائرة ظلت أشكالها تتطور من طبعة الى أخرى حتى استقرت على احسن تقويم . . . فطبعتها الأولى صدرت في الأعوام (١٧٦٨-١٧٧١) بثلاثة مجلدات ، وطبعتها الثانية (١٧٧٧-١٧٨٤) بعشرة مجلدات ، والثالثة (١٧٨٨-١٧٩٧) بثمانية عشر مجلداً . . . وهكذا حتى رأينا طبعتها الحادية عشرة تصدر في تسعة وعشرين مجلداً خلال (١٩١٠-١٩١١) ، وهي تستطيع اليوم ان تباهي موسوعات الدنيا بطبعتها الحديثة .

وعلى أية حال ، فان المكتبة العربية فقيرة . . . جائعة ، وهي احوج ما تكون الى دائرة معارف عربية عامة ، فعسى ان ينجد التوفيق والنجاح المفكرين العرب . . . وهم يتطلعون الى الأفق الموسوعي بجد واهتمام .

المطبوعات العربية في حيدرآباد

يعرف تاريخ الهند من الاسرات الاسلامية الحاكمة ، في غضون القرن السادس عشر ، أسرة قطب شاه التي كان من أفرادها الملك الخامس محمد قلي .

والى هذا الملك يعود الفضل في تشييد حيدر آباد سنة ١٥٩٠م . وفي هذه المدينة ازدهرت ، فجر النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حركة ثقافية ميمونة استأثرت بالتراث العربي والاسلامي الذي ارتهنته خزائن الكتب مخطوطات ، عزيزة المنال ، لا يدرك جدواها الا ذو حظ عظيم . ففي سنة ١٨٥٥م طلعت ، على الدنيا ، احدى المطابع الحجرية في حيدر آباد بأول كتاب عربي .. وهو « العروض والقوافي » لابن المقرئ اليمني المتوفى سنة ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) . وقد أكون في هذا الحكم من الواهمين .. ولعل البحث المتأخر - بين ركام المطبوعات العربية النادرة - سيجرد ، في المستقبل ، كتاب اليمني ، من فضيلة السبق الطباعي .. حين يعثر على كتاب آخر اقدم وأسبق .

ومنذئذ تكاثرت المطبوعات ، وسجلت مطبعة (كنوز العلم) في حيدر آباد ارتفاعا ملموسا في منشوراتها الحجرية .. ولكنها في خريف القرن التاسع عشر خارت قواها ، وبس نشاطها ، وذلك حين سخرت جمعية دائرة المعارف العثمانية مطابعها ذات الحروف المسبوكة لاجياء نوادر المخطوطات العربية وفق تخطيط هادف .. ومن هنا جعلت هذه الجمعية

في تناول الايدي ، خلال اكثر من سبعين عاما ، كتباً نافعة كانت ، قبل ذلك ، رهينة خط وسجينة قبر . ولما يدعو الى التفاؤل البالغ ان تستوعب مطبوعاتها الادب والتاريخ والتفسير والحديث والرجال والاسانيد واصول الحديث واللغة والنحو والمناقب والمعاني والشعر والفقه والكلام والعقائد والتصوف والفلك والطب والفيزياء والرياضيات والكيمياء والفلسفة . وقد رأيت ان أعد ثبنا ينتظم جميع ما نشرته حيدر آباد من النتاج العربي والاسلامي ليكون في عون الذين آمنوا بان طلب العلم فريضة . وانني أكون سعيدا اذ يتاح لهذا الثبت من يكمله ويردم ثغراته بما فاتني ، ولم أدركه . وهذا هو :

١ - الاتحافات السنية في الاحاديث القدسية .

لمحمد المدني المتوفى سنة ١٢٧١هـ - ١٨٥٤م (الطبعة الثانية ، ١٩٣٩ ،

١٩٥ ص) .

٢ - اتحاف الاكابر .

لابي علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٥هـ - ١٨٣٩م (١٩١٠ ،

١١٩ ص) .

٣ - أحسن السبك في شرح قفا نيك .

لمحمد يارجنك المتوفى سنة ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م (١٩٤١ ،

٢٢٤ ص) .

٤ - أحكام الوقف .

لهلال البصري المتوفى سنة ٢٤٥هـ - ٨٥٩م (١٩٣٦ ، ٣٤٤ ص) .

٥ - الاربعين في اصول الدين .

لفخرالدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م (١٩٣٤ ،

٤٩٨ ص) .

٦ - الاربعين في التصوف .

لابي عبدالرحمن السلمي المتوفى سنة ٤١٢هـ - ١٠٢١م (١٩٥٠ ،

لم أقف على عدد صفحاته) .

٧ - الازمنة والامكنة •

لابي علي المرزوقي المتوفى سنة ٤٥٣ هـ - ١٠٦١ م (الجزء الاول ،
١٩١٣ ، ٣٤٦ ص • الجزء الثاني ، نفس السنة ، ٣٩٨ ص) •

٨ - استحسان الخوض في الكلام •

لابي الحسن الاشعري المتوفى سنة ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م (في علم الكلام •
الطبعة الثانية ، ١٩٢٥ ، ١٢ ص) •

٩ - الاستيعاب في معرفة الاصحاب •

لابن عبدالبر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م (الطبعة
الثانية ، الجزء الاول ، ١٩١٧ ، ٣٨٨ ص • الجزء الثاني ، نفس السنة ،
٨٤٤ ص) •

١٠ - الاشباه والنظائر •

لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م (في النحو
والمعاني ، الطبعة الثانية ، الجزء الاول ، في الفن الاول ، ١٩٤٠ ، ٣٤٨
ص • الجزء الثاني ، في الفن الثاني حتى الخامس ، ١٩٤١ ، ٣٣٨ ص •
الجزء الثالث ، في الفن السادس والسابع ، ١٩٤١ ، ٣١٠ ص • الجزء
الرابع ، تكملة الفن السابع ، ١٩٤٢ ، ٢٦٥ ص) •

١١ - الاعتبار •

لابي بكر الحازمي المتوفى سنة ٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م (في اصول
الحديث ، ١٩٤٠ ، ٢٥٦ ص) •

١٢ - اعجاز البيان في تأويل أم القرآن •

لصدرالدين القنوي المتوفى سنة ٦٧٣ - ١٢٧٤ م (الطبعة الثانية ،
١٩٤٩ ، ٤٢٧ ص) •

١٣ - اعراب ثلاثين سورة من القرآن •

لابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م (١٩٤١ ، ٢٥٦ ص) •

- ١٤ - الاقتراح في علم اصول النحو وجدله .
 لجلال الدين السيوطي (١٩٤٠ ، الطبعة الثانية ، ٨٦ ص + ٣ ص
 + ص ٥ فهارس)
- ١٥ - الاكمال .
 لابن ماکولا المتوفى ٤٧٥ هـ . (الجزء الاول ١٩٦٢ ، ٥٩٢ ص .
 الثاني ١٩٦٣ ، ٥٨٧ ص . الثالث ١٩٦٤ ، ٤٢٢ ص . الرابع ١٩٦٥ ،
 ٥٧٦ ص)
- ١٦ - الامالي .
 للإمام محمد الشيباني المتوفى سنة ١٨٧ هـ - ٨٠٢ م (١٩٤١ ، ٨٠ ص ،
 في الفقه)
- ١٧ - الامالي الشجرية .
 لابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م (١٩٣٠ ، الجزء الاول:
 ٤٠١ ص ، الجزء الثاني : ٣٧١ ص)
- ١٨ - الامداد .
 لعبدالله البصري المتوفى سنة ١١٣٤ هـ - ١٧٢٤ م (١٩١٠ ، ٩٢ ص ،
 في أصول الحديث)
- ١٩ - الامم لايقاظ الهمم .
 لبرهان الدين الكوراني المتوفى سنة ١١٠٢ هـ - ١٦٩٠ (في اصول الحديث ،
 ١٩١٠ ، ١٣٤ ص)
- ٢٠ - انباء الاذكياء .
 لجلال الدين السيوطي (في العقائد ١٩١٥ ، ٢٠ ص)
- ٢١ - انباط المياه الخفية (في معرفة المياه الكامنة) .
 لأبي بكر الكرخي المتوفى سنة ٤١٠ هـ - ١٠١٩ م (١٩٤٥ ،
 ٧٥ ص)

٢٢ - الانساب •

لابي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ -
١١٦٦ م (١٩٦٢ ، الجزء الاول ، ٤١٣ + ١٠ ص ، ١٩٦٣ ، الجزء
الثاني ، ٤١٥ ص ، الثالث ، ١٩٦٣ ، ٤٦٤ ص الرابع ، ١٩٦٥ ،
٣٣٤ ص) •

٢٣ - بغية الطالبين •

لاحمد النخعي المتوفى سنة ١١١٤ هـ - ١٧٠٢ م (في اصول
الحديث ، ١٩١٠ ، ٨٤ ص) •

٢٤ - بيان خطأ البخاري في تاريخه •

لابن أبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٩٣٨ م (١٩٦١ ، ١٩٦ ص)

٢٥ - تاريخ جرجان •

لحمزة بن يوسف السهمي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ - ١٠٣٥ م (في
معرفة علماء اهل جرجان ، ١٩٥٠ ، ٧٧٣ ص) •

٢٦ - التاريخ الكبير •

للامام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ - ٨٦٩ م (القسم الاول من الجزء
الاول من الجزء الثالث ، من عبدالله الى عمير ، ١٩٥٨ ، ٤٥٦ ص •
القسم الثاني من الجزء الاول ، من أحمد الى حسين ، عدد التراجم ١٤١٧ ،
سنة ١٩٤٣ ، ٤١١ ص واعيد طبعه سنة ١٩٦٣ • القسم الاول من الجزء
الثاني ، من حصين الى سعيد ، عدد التراجم ١٧٥١ ، سنة ١٩٤٤ ، ٤٩٦
ص • القسم الثاني من الجزء الثاني ، من سليمان الى ظبيان ، عدد
التراجم ١٤٢٤ ، سنة ١٩٤٥ ، ٣٩٢ ص واعيد طبعه سنة ١٩٦٤ • القسم
الاول من الجزء الثالث ، من عبدالله الى عمير ، ١٩٥٨ ، ٤٥٦ ص •
القسم الثاني من الجزء الثالث ، من عباس الى مخلد ، عدد التراجم
١٩١٦ ، سنة ١٩٤١ ، ٤٥٩ ص واعيد طبعه سنة ١٩٥٩ • القسم الاول

من الجزء الرابع ، من مدرك الى ابن يحيى ، عدد التراجم ١٧٣٥ ، سنة
١٩٤١ ، ٤٦٨ ص) •

٢٧ - تبيض الصحيفة •

لجلال الدين السيوطي (١٩١٥ ، ٤٠ ص ، في العقائد)

٢٨ - تجريد اسماء الصحابة مختصر اسد الغابة (لابن الاثير الجزري) •

لشمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٤٧٨ هـ - ١٣٤٧ م (الجزء الاول ،

من الهمزة الى العين ، ١٨٩٧ ، ٣٦٣ ص ، عدد التراجم ٤٥٩٣ • الجزء

الثاني ، من الغين الى الياء ، ١٨٩٧ ، ٣٦٤ ص ، عدد التراجم ٤٢١٦) •

٢٩ - تجريد رسالة الدعاوى القلبية •

لابي نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م (١٩٣٠ ، ١١ ص) •

٣٠ - التحفة النظامية في الفروق الاصطلاحية •

لعلي أكبر نجفي (الطبعة الثانية ، ١٩٢١ ، ١٥٤ ص ، في علوم

اللغة) •

٣١ - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة •

لابي الريحان محمد بن احمد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ -

١٠٤٨ م (الجزء الاول ، ١٩٥٧ ، والثاني ، ١٩٥٨ ، صفحاتهما متسلسلة

مجموعها ٥٤٨ ص + ٣٠ ص فهرس + ٤٤ ص لموضوعات الكتاب

بالانكليزية) •

٣٢ - تذكرة الحفاظ •

لشمس الدين الذهبي (الجزء الاول ، الطبعة الثالثة ، من الطبقة

الاولى الى السابعة ، ١٩٥٥ ، ٤٤٠ ص • الجزء الثاني ، من الطبقة الثامنة

الى العاشرة ، ١٩٥٦ (من ص ٤١٤-٧٧٨) والجزء الثالث ، من الطبقة

(١١) الى (١٤) ، ١٩٥٧ (من ص ٧٧٩-١٢٠١) ، والجزء الرابع ، من

الطبقة (١٥) الى (٢١) ومعه فهرس الاسماء ، ١٩٥٨ ، (من ص ١٢٠٢ -
١٦٧٢) .

٣٣ - تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم .

لابن جماعة الكناني المتوفى سنة ٧٣٣هـ - ١٣٣٢م (١٩٣٤ ،
٢٦٧ ص) .

٣٤ - تذكرة الكحالين .

لعلي بن عيسى الكحال المتوفى سنة ٤٠٠هـ (١٩٦٤ ، ٤٠٠ ص) .

٣٥ - تذكرة النوادر من المخطوطات العربية .

رتبت وطبعت بأمر جمعية دائرة المعارف العثمانية (١٣٩١ ، ٢٢٨
ص) .

٣٦ - الترياق النافع بايضاح وتكملة مسائل جمع الجوامع .

لابي بكر عبدالرحمن المعروف بابن شهاب الشافعي (١٨٩٩ ، لم
أف على عدد صفحاته ، في الاصول) .

٣٧ - تعجيل المنفعة بزوائد رجال الائمة الاربعة .

لابن حجر العسقلاني المتوفى في سنة ٨٥٢هـ - ١٤٤٨م (١٩٠٦ ،
٥٧٥ ص) .

٣٨ - التعظيم والمنة .

لجلال الدين السيوطي (١٩١٥ ، ٥٣ ص . في العقائد) .

٣٩ - التعليقات .

للفارابي (١٩٢٧ ، ٢٦ ص) .

٤٠ - مقدمة الجرح والتعديل .

لابن أبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٧هـ - ٩٣٨م (١٩٥٢ ،
٤١٥ ص) .

٤١ - تنزيه الانبياء •

لجلال الدين السيوطي (الطبعة الثانية ، ١٩١٥ ، ٢٠ ص) •

٤٢ - تنقيح المناظر

لكمال الدين الفارسي المتوفى سنة ٧٢٠هـ - ١٣٢٠م (في علم المناظر •

الجزء الاول ، ١٩٢٨ ، ٦٠٠ ص • الجزء الثاني ، ١٩٢٩ ، ٤٢٠ ص) •

٤٣ - تهذيب التهذيب •

لابن حجر العسقلاني (الجزء الاول ، من أحمد الى توبة ، ٩٦١

ترجمة ، ١٩٠٧ ، ٥١٦ ص • الجزء الثاني ، من ثابت الى حكيم ، ٧٩٠

ترجمة ، ١٩٠٧ ، ٤٥٤ ص • الجزء الثالث ، من حماد الى سعوة ، ٩١٢

ترجمة ، ١٩٠٧ ، ٤٨٨ ص • الجزء الرابع ، من سعيد الى ضميرة ،

٨٠١ ترجمة ، ١٩٠٧ ، ٤٦٤ ص • الجزء الخامس ، من طارق الى عبدالله ،

٦٦٤ ترجمة ، ١٩٠٨ ، ٣٩١ ص • الجزء السادس ، من عبدالله الى

عبده ، ٩٥١ ترجمة ، ١٩٠٨ ، ٤٦٣ ص • الجزء السابع ، من عبيدالله الى

عمر ، ٨٥٢ ترجمة ، ١٩٠٨ ، ٥٠٧ ص • الجزء الثامن ، من عمرو الى

ليث ، ٨٣٥ ترجمة ، ١٩٠٨ ، ٤٧٠ ص • الجزء التاسع ، محمد ، ٨٨٨

ترجمة ، ١٩٠٨ ، ٥٤٦ ص • الجزء العاشر ، من ماضي الى نيار ، ٨٨٧

ترجمة ، ١٩٠٩ ، ٤٩٤ ص • الجزء الحادي عشر ، من هارون الى يونس ،

٨٧١ ترجمة ، ١٩٠٩ ، ٤٥٣ ص • الجزء الثاني عشر ، من أبي ابراهيم

الى ام سلمة ، ٣٠٤٣ ترجمة ، ١٩٠٩ ، ٥٠٤ ص) •

٤٤ - التيسير (في مذاهب القراء السبعة) •

لابي عمر عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ - ١٠٥٣م

(١٨٩٨ ، لم آقف على عدد صفحاته) •

٤٥ - جامع مسانيد الامام الاعظم •

لابي المؤيد محمد بن محمود الخوارزمي المتوفى سنة ٦٦٥هـ ،

١٢٦٦م (الجزء الاول ١٩٢٣ ، ٥٦٢ ص • الجزء الثاني ١٩٢٣ ،

٦٠٣ ص) •

٤٦ - جدول التقويم في زيغ حبش الحاسب .

لابن عراق الجيلي المتوفى سنة ٤٣٠هـ - ١٠٣٨م (١٩٤٣ ، ٧١ ص)

٤٧ - الجرح والتعديل .

لابن أبي حاتم الرازي (القسم الاول من الجزء الاول ، ١٩٥٢ ،
٥٩٢ ص . القسم الثاني من الجزء الاول ، ١٩٥٢ ، ٦٤١ ص . القسم
الاول من الثاني ، ١٩٥٢ ، ٥١٤ ص . القسم الثاني من الثاني ، ١٩٥٣ ،
٤١٧ ص . القسم الاول من الثالث ، ١٩٤١ ، ٤٢٦ ص . القسم الثاني
من الثالث ، ١٩٤٢ ، ٣٤١ ص . القسم الاول من الرابع ، ١٩٥٣ ، ٥٢٨ ص .
القسم الثاني من الرابع ، ١٩٥٣ ، ٤٧٦ ص) .

٤٨ - الجماهر في معرفة الجواهر

• للبيروني (١٩٣٦ ، ٣٢٠ ص) .

٤٩ - الجمع بين رجال الصحيحين .

لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١هـ - ١١١٣م (الجزء الاول ، ١٩٠٥ ،
٤٠٨ ص . الجزء الثاني ، ١٩٠٥ ، ٧٠٨ ص . في الرجال) .
٥٠ - جمهرة اللغة .

لابن دريد المتوفى سنة ٩٣٣م (بعناية المستشرق فريش كرنكو .
الجزء الاول ، ١٩٢٥ ، ٣٥٥ ص . الجزء الثاني ، ١٩٢٦ ، ٤٢٧ ص .
الجزء الثالث ، ١٩٢٦ ، ٥٢٩ ص . الجزء الرابع ، الفهارس ، ١٩٣٥ ،
٨٤٢ ص) .

٥١ - جوامع اصلاح المنطق .

• لزيد بن رفاعه (في اللغة ، ١٩٣٥ ، ٢٥٧ ص) .

٥٢ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية .

لعبدالقادر بن محمد القرشي الحنفي المتوفى سنة ٧٧٥هـ - ١٣٧٣م
(الجزء الاول ، ١٩١٣ ، ٤١٧ ص . الجزء الثاني ، ١٩١٣ ، ٥٦٣ ص) .

- ٥٣ - الجوهرة المنيفة في شرح وصية أبي حنيفة .
 لملا حسين اسكندر المتوفى في حدود ١٠٦٠هـ - ١٦٥٠م . (١٩٤٦ ،
 ٢٨ ص . في العقائد) .
- ٥٤ - الجواهر النقي في الرد على البيهقي
 لابن التركماني المتوفى سنة ٧٤٥هـ - ١٣٤٤م (الجزء الاول ،
 ١٨٩٨ ، ٣٧٠ ص . الجزء الثاني ، ١٨٩٨ ، ٢٨١ ص) .
- ٥٥ - الحماسة البصرية .
 لصدرالدين المتوفى سنة ٦٥٩هـ (١٩٦٤ ، الجزء الاول ، ٢٨٣ ص ،
 الثاني ، ٤٣٢ ص) .
- ٥٦ - حماسة الخالدين أو كتاب الاشباه والنظائر .
 للاخوين أبي عثمان سعيد المتوفى سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م) وأبي بكر
 محمد المتوفى سنة ٣٨٠هـ (٩٩٠م) ابني هاشم الخالدي (تحقيق كرنكو ،
 ١٩٢٦ ، لم أوقف على عدد صفحاته) .
- ٥٧ - الخصائص الكبرى .
 للسيوطي (الجزء الاول ، ١٩٠١ ، ٢٨٦ ص . الثاني ، ١٩٠٣ ،
 ٣٠٤ ص) .
- ٥٨ - الدرر المنيفة
 للسيوطي (١٩١٥ ، ٢٠ ص . في العقائد) .
- ٥٩ - درر الانهر (في شرح الفقه الاكبر)
 لعبدالقادر السلهتي (١٨٨٠ ، لم أوقف على عدد صفحاته) .
- ٦٠ - الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة
 لابن حجر العسقلاني (الجزء الاول ، ١٩٢٩ ، ٥٨٧ ص . الثاني ،
 ١٩٣٠ ، ٤٦٨ ص . الثالث ، ١٩٣٠ ، ٥١١ ص . الرابع ، ١٩٣١ ،
 ٥١٤ ص) .

٦١ - دستور العلماء

للقاضي عبدالنبي بن عبدالرسول الاحمد نكري (ثلاثة أجزاء ،
١٩١١ ، الاول : ٤٢٧ ص • الثاني : ٣٩٣ ، ص ، الثالث : ٤٩٢ ص +
ضميمة تقع في ٢٢٠ ص) •

٦٢ - دلائل النبوة

لابي نعيم الاصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ - ١٠٣٨ م (الطبعة الثانية ،
١٩٥٠ ، ٥٧٨ ص) •

٦٣ - النوائر المتماسة لارشميدس

لثابت بن قرة الحراي المتوفى سنة ٢٨٨ هـ - ٩٠٠ م (١٩٤٧ ،
٢٩ ص) •

٦٤ - دول الاسلام

للذهبي (الطبعة الثانية ، الجزء الاول ، ١٩٤٥ ، ٢٢٩ ص • الثاني
١٩٤٦ ، ٢٥٨ ص) •

٦٥ - ديوان ابن سناء الملك

لهبسة الله بن جعفر المتوفى سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١٢ م (نشره محمد
عبدالحق • جزآن ، ١٩٥٩ ، ٨٨٥ ص) •

٦٦ - الديوان الاول

لغلام علي الحسيني الواسطي الملقب آزاد (مجموعة شعرية • طبعة
حجرية ، دون تاريخ ، ٥٩ ص) •

٦٧ - الذب عن الاشعري

لابي القاسم درباس (١٩٤٨ ، ٦ ص • في العقائد) •

٦٨ - ذيل مرآة الزمان

لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م
(الجزء الاول ، ١٩٥٤ ، ٥٥٧ ص • الثاني ، ١٩٥٥ ، ٤٩٠ ص + ١٠٠
فهارس • الثالث ، ١٩٦٠ ، ٤٤٣ ص • الرابع ، ١٩٦١ ، ٥٣٢ ص مع الفهارس)

٦٩ - رسائل ابن العربي

- لمحيى الدين ابن العربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ - ١٢٤٠م (بمقدمة للمستشرق آربري • الجزء الاول ، يضم ١٧ كتابا ورسالة ، ١٩٤٢ - ١٩٤٨ ، ٣٣٥ ص • الثاني ، يضم ١٢ كتابا ورسالة ، ١٩٤٨ ، ٣٥٨ ص) •
- ٧٠ - الرسائل التسع •

- لنصيرالدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م (السلسلة الثانية ، ١٩٤٠ ، ٤٣٥ ص) •
- ٧١ - الرسائل السبع •

- للطوسي ايضا (السلسلة الاولى ، ١٩٣٩ ، ٢٢١ ص) •
- ٧٢ - رسالة استخراج الاوتار في الدائرة •
- لليروني (١٩٤٨ ، ٢٢٦ ص) •
- ٧٣ - رسالة الاسطرلاب •

- لابن عراق الجيلي (١٩٤٦ ، ٢٢ ص) •
- ٧٤ - رسالة افراد المقال في امر الظلال •
- لليروني (١٩٤٨ ، ٦٢٢ ص) •
- ٧٥ - رسالة تصحيح زيغ الصفايح •
- لابن عراق الجيلي (١٩٤٦ ، ٥٠ ص) •

- ٧٦ - رسالة تمهيد المستقر لتحقيق معنى الممر •
- لليروني (١٩٤٨ ، ١٠٧ ص) •
- ٧٧ - رسالة جدول الدقائق •

- لابن عراق الجيلي (١٩٤٣ ، ٤٠ ص) •
- ٧٨ - رسالة خواص المثلث •

- لابن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠هـ - ١٠٣٨م (١٩٤٧ ، ١٦ ص) •
- لتقي الدين المتوفى سنة ٧٤٦هـ - ١٣٤٥م (الطبعة الثانية

- ٧٩ - رسالة دوائر السموت في الاسطرلاب
 • لابن عراق (١٩٤٧ ، ٢٧ ص)
- ٨٠ - رسالة شكل بني موسى
 • لابن الهيثم (١٩٣٨ ، ١٦ ص)
- ٨١ - رسالة ضميمه كتاب الاصول
 • لابن عراق (١٩٤٧ ، لم آف على عدد صفحاتها)
- ٨٢ - رسالة الضوء
 • لابن الهيثم (١٩٣٨ ، ٢١ ص)
- ٨٣ - رسالة ضوء القمر
 • لابن الهيثم (١٩٣٨ ، ٥٨ ص)
- ٨٤ - الرسالة العرشية
 للشيوخ الرئيس ابي علي ابن سينا المتوفى ٤٢٨هـ - ١٠٣٦م (١٩٣٤ ،
 ١٩ ص)
- ٨٥ - رسالة في الابعاد والاجرام
 لكوشيار الجيلي المتوفى سنة ٤٢٠هـ - ١٠٢٩م (١٩٤٢ ، ١٩ ص)
- ٨٦ - رسالة في اثبات المفارقات
 • للفارابي (١٩٢٦ ، ٨ ص)
- ٨٧ - رسالة في الاسطرلاب
 لابراهيم بن سنان الحراني المتوفى سنة ٣٣٥هـ - ٩٤٦م (١٩٤٣ ،
 ١١ ص)
- ٨٨ - رسالة في الاصول الهندسية لارشמידس
 • لثابت بن قرة (١٩٤٧ ، ١٨ ص)
- ٨٩ - رسالة في أضواء الكواكب
 • لابن الهيثم (١٩٣٨ ، ٨ ص)

- ٩٠ - رسالة في اقامة البرهان على البوائبر من الفلك .
لابي الوفاء البوزجاني المتوفى سنة ٣٧٦هـ - ٩٨٦م (١٩٤٣ ، ١٤ ص)
- ٩١ - رسالة في امتحان الشمس
لابن عراق (١٩٤٦ ، ١٥ ص) .
- ٩٢ - رسالة في ان الاشكال كلها من الدائرة
لنصر بن عبدالله (١٩٤٩ ، ١٧ ص) .
- ٩٣ - رسالة في البرهان على عمل حبش في مطلع السميت في زيجه .
لابن عراق (١٩٤٧ ، ٩ ص) .
- ٩٤ - رسالة في الحث على الذكر
لابن سينا (١٩٣٤ ، ٥ ص) .
- ٩٥ - رسالة في ذكر أسباب الرعد
لابن سينا (١٩٣٤ ، ٦ ص) .
- ٩٦ - رسالة في سر القدر
لابن سينا (١٩٣٤ ، ٥ ص) .
- ٩٧ - رسالة في السعادة
لابن سينا (١٩٣٤ ، ٢٢ ص) .
- ٩٨ - رسالة في الشكل القطاع
لاحمد بن محمد السجزي المتوفى سنة ٤١٥هـ - ١٠٢٤م (١٩٤٨ ، ٢٤ ص) .
- ٩٩ - رسالة في صنعة الاسطرلاب بالطريق الصناعي
لابن عراق (١٩٤٧ ، ١٩ ص) .
- ١٠٠ - رسالة في فضيلة العلوم والصناعات
للفارابي (١٩٤٨ ، ١٧ ص)

- ١٠١ - رسالة في الفعل والانفعال
- لابن سينا (١٩٣٤ ، ١١ ص)
- ١٠٢ - رسالة في مساحة الجسم المكافي
- لابي سهل ويجن بن رستم القوهي (١٩٤٧ ، ١٥ ص)
- ١٠٣ - رسالة في مسائل متفرقة
- للفارابي (١٩٢٥ ، ٢٤ ص)
- ١٠٤ - رسالة في معنى القسي الفلكية
- لابن عراق (١٩٤٧ ، ١٣ ص)
- ١٠٥ - رسالة في المقادير المشتركة والمتباينة
- لابي عبدالله المعروف بابن البغدادي (١٩٤٧ ، ١٠٨ ص)
- ١٠٦ - رسالة في الموسيقى
- لابن سينا (١٩٣٤ ، ١٦ ص)
- ١٠٧ - رسالة في الهندسة والنجوم
- لابراهيم بن سنان الحراني (١٩٤٧ ، ٩٩ ص)
- ١٠٨ - رسالة كرية السماء
- لابن عراق (١٩٤٧ ، ٢١ ص)
- ١٠٩ - رسالة المرايا المحرقة بالدائرة
- لابن الهيثم (١٩٣٨ ، ١٦ ص)
- ١١٠ - رسالة المرايا المحرقة بالقطوع
- لابن الهيثم (١٩٣٨ ، ١٥ ص)
- ١١١ - رسالة المساحة
- لابن الهيثم (١٩٣٨ ، ١٧ ص)
- ١١٢ - رسالة المسائل الهندسية
- لابن عراق (١٩٤٧ ، ٢١ ص)

١١٣ - رسالة المكان

• لابن الهيثم (١٩٣٨ ، ١٢ ص)

١١٤ - الروضة البهية

لابي عذبة المتوفى سنة ١١٢٥هـ - ١٧١٣م (في علم الكلام ، ١٩٠٤ ،

• ٧٨ ص)

١١٥ - السبل الجليلة

• للسيوطي (في العقائد ، ١٩١٥ ، ١٩ ص)

١١٦ - السمط المجيد

لصفي الدين القشاشي المتوفى سنة ١٠٧١هـ - ١٦٦٠م (١٩٠٩ ،

• ١٨٤ ص • في التصوف)

١١٧ - السنن الكبرى

• لابي بكر البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ - ١٠٦٥م (في الحديث

الجزء الاول ، ١٩٢٥ ، ٥١٥ ص • الثاني ، ١٩٢٧ ، ٥٦٨ ص • الثالث ،

١٩٢٨ ، ٤٩٢ ص • الرابع ، ١٩٣١ ، ٤١٦ ص • الخامس ، ١٩٣٣ ،

٤٠٠ ص • السادس ، ١٩٣٣ ، ٤٣٣ ص • السابع ، ١٩٣٤ ، ٥٥٠ ص •

الثامن ، ١٩٣٥ ، ٣٩٣ ص • التاسع ، ١٩٣٧ ، ٤١٢ ص • العاشر ،

• ١٩٣٦ ، ٣٩٧ ص)

١١٨ - شرح تراجم ابواب صحيح البخاري

لشاه ولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦هـ - ١٧٦٢م (الطبعة

الثالثة ، ١٩٤٩ ، ١٣٧ ص)

١١٩ - شرح ديوان ابن هاني الاندلسي

• لمولوي زاهد علي (١٩٠٨ ، لم آقف على عدد صفحاته) •

١٢٠ - شرح رسالة زينون الكبير

• للفارابي (١٩٣٠ ، ١١ ص) •

- ١٢١ - شرح السير الكبير
 للإمام السرخسي المتوفى سنة ٤٨٣هـ - ١٠٩٠م (الجزء الاول ،
 ١٩١٦ ، ٣٨٦ ص ، الثاني ، ١٩١٦ ، ٣٢٦ ص ، الثالث ، ١٩١٧ ، ٣٤٨ ص
 الرابع ، ١٩١٧ ، ٥١٢ ص) .
- ١٢٢ - شرح الفقه الاكبر
 لابي منصور الماتريدي المتوفى سنة ٣٣٣هـ - ٩٤٤م (الطبعة الثانية ،
 ١٩٤٦ ، ٢٨ ص) .
- ١٢٣ - شرح الفقه الاكبر
 لابي المنتهى أحمد بن محمد المغنيساوي (الطبعة الثانية ، ١٩٤٦ ،
 ٤٢ ص) .
- ١٢٤ - شفاء السقام
 لتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٤٦هـ - ١٣٤٥م (الطبعة الثانية
 ١٩٥٢ ، ٢٥٠ ص . في العقائد) .
- ١٢٥ - الصارم المسلول على شاتم الرسول
 لابن تيمية المتوفى سنة ٧٨٣هـ - ١٣٧١م (١٩٠٩ ، ٦٠٠ ص . في
 العقائد) .
- ١٢٦ - الصارم المنكي في الرد على ابن السبكي
 لمحمد بن عبدالهادي المقدسي (دون تاريخ . يتعلق بزيارة النبي) .
- ١٢٧ - صفوة الصفوة .
 لابي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ - ١٢٠٠م
 (الجزء الاول ، ١٩٣٦ ، ٣٤٧ ص . الثاني ، ١٩٣٦ ، ٣٢١ ص . الثالث ،
 ١٩٣٧ ، ٣٨٠ ص . الرابع ، ١٩٣٧ ، ٤٤١ ص) .
- ١٢٨ - صور الكواكب الثمانية والاربعين .
 لعبدالرحمن الصوفي المتوفى سنة ٣٧٦هـ - ٩٩٦م (١٩٥٤ ، ٤٣٢ ص)

- ١٢٩ - الضميمة الاولى والثانية
 • لعنايت علي (١٩٤٨ ، ٦٨ ص • في العقائد) •
- ١٣٠ - العروض والقوافي •
 لابن المقري اليميني المتوفى سنة ٨٣٧هـ - ١٤٣٣م (١٨٥٥ ،
 ١٠٥ ص) •
- ١٣١ - عمل اليوم والليلة
 لابن السني المتوفى سنة ٣٦٤هـ - ٩٧٤م (الطبعة الثانية ، ١٩٣٩ ،
 ٢٣٥ ص) •
- ١٣٢ - غريب الحديث •
 لابي عبيد (الجزء الاول ، ١٩٦٤ ، ٣٥١ ص • وعلمت ان الثاني
 تحت الطبع) •
- ١٣٣ - الفائق في غريب الحديث •
 للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ - ١١٤٣م (الجزء الاول ، ١٩٠٦ ،
 ٣٤٠ ص • الثاني ، ١٩٠٦ ، ٣٣٩ ص) •
- ١٣٤ - فتح المتعال •
 لاحمد المغربي المتوفى سنة ١٠٤١هـ - ١٦٣١م (١٩١٥ ، ٤١٩ ص •
 في السير) •
- ١٣٥ - فتوحات الباحث بشرح تقرير الباحث
 لابن شهاب الشافعي (١٨٩٩ ، ٢٧ ص • في أحكام الوارث) •
- ١٣٦ - فصل في تخطيط الساعات الزمانية •
 لابن حاتم النيريزي المتوفى سنة ٣١٠هـ - ٩٢٢م (١٩٤٧ ، ٥ ص) •
- ١٣٧ - الفقه الاكبر •
 للامام أبي حنيفة المتوفى سنة ١٥٠هـ - ٧٦٧م (١٩٣٢ ، لم أقف
 على عدد صفحاته) •

١٣٨ - فهرست « مشروح بعض كتب نفيسة قلمية مخزونة كتب خانة
آصفية سركار عالي »

• وهو فهرس الخزانة الآصفية • (أربعة أجزاء ، ١٩٣٨)

١٣٩ - الفهرست المشروح للمخطوطات العربية المخزونة في مكتبة
سالار جنك •

للدكتور محمد نظام الدين (الجزء الاول ، ١٩٥٧ ، ٢٥٦ ص + ٢٧)

١٤٠ - قرّة العين في ضبط أسماء الصحيحين

لعبد الغني بن أحمد البحراني (١٩٠٥ ، ٦٣ ص • في الرجال

والاسانيد) •

١٤١ - قطف الثمر

لصالح العمري المتوفى سنة ١٢١٨ هـ - ١٨٠٣ (١٩١٠ ، ٧٦ ص •

في اصول الحديث) •

١٤٢ - القول المسدد في الذب عن مسند الامام احمد •

لابن حجر العسقلاني (١٩٠١ ، ١٠٤ ص) •

١٤٣ - كتاب الآثار العلوية

لابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م (١٩٤٥ ، ١٠٣ ص) •

١٤٤ - كتاب الابانة عن اصول الديانة

لابي الحسن الاشعري المتوفى سنة ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م (الطبعة الثانية ،

١٩٤٨ ، ٨٠ ص) •

١٤٥ - كتاب الاسماء والصفات

لابي بكر البيهقي (١٨٩٥ ، في رجال الحديث ، لم أقف على عدد

صفحاته) •

١٤٦ - كتاب الافعال

لابن القطاع الصقلي المتوفى سنة ٥١٥ هـ - ١١٢١ م (الجزء الاول ،

١٩٤١ ، ٤٠٣ ص • الثاني ، ١٩٤١ ، ٥٠٠ ص • الثالث ، ١٩٤٢ ،

• ٣٨٩ ص • والفهرست وضعه سالم الكرنكوي ، ١٩٤٤ ، ١٣٤ ص) •

١٤٧ - كتاب الامالي •

لابي عبدالله اليزيدي المتوفى سنة ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م (١٩٤٨ ،

١٩٨ ص) •

١٤٨ - كتاب الامثال

• لزيد بن رفاعه (١٩٣٢ ، ١٤١ ص) •

١٤٩ - كتاب الانواء •

• لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ - ٨٨٩ م (١٩٥٦ ، ٢٥٠ ص) •

١٥٠ - كتاب تحصيل السعادة

• للفارابي (١٩٢٦ ، ٤٨ ص) •

١٥١ - كتاب التنبيه على سبيل السعادة •

• للفارابي (١٩٢٧ ، ٢٦ ص) •

١٥٢ - كتاب التيجان في ملوك حمير •

• لابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م (١٩٢٨ ، ٤٩٩ ص) •

١٥٣ - كتاب الحاوي في الطب

لابي بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ - ٩٢٥ م

(الجزء الاول ، في أمراض الرأس ، ١٩٥٥ ، ٢٩٠ ص • الثاني ، في

أمراض العين ، ١٩٥٥ ، ٢٧٠ ص • الثالث ، في أمراض الاذن والانف

والاسنان والحلق ، ١٩٥٥ ، ٣٥٠ ص • الرابع في أمراض الرئة ١٩٥٧ ،

٢٢٥ ص • الخامس في أمراض المريء والمعدة ١٩٥٧ ، ٢٤٩ ص •

السادس في الاستفراغات والتسمين والهزال ١٩٥٨ ، ٢٨٩ ص • السابع

في أمراض الثدي والقلب والكبد والطحال ١٩٥٨ ، ٣٢٢ ص • الثامن

في قروح الامعاء والزحير ١٩٥٩ ، ٢٢٠ ص • التاسع في أمراض الرحم

والحمل ١٩٦٠ ، ٢٠٠ ص • العاشر في أمراض الكلى ومجري البول

١٩٦١ ، ٣٤١ ص • الحادي عشر في أمراض الحيات والديدان في البطن
١٩٦٢ ، ٣١٧ ص • الثاني عشر في أمراض السرطان والاورام وغيرها
١٩٦٢ ، ٢٤٩ ص • الثالث عشر في أمراض الرض والفسخ وغيرها ١٩٦٢ ،
٢٥٢ ص • الرابع عشر في أمراض الحميات وغيرها ١٩٦٣ ، ٢٥١ ص •
الخامس عشر في الحمى المطبقة ١٩٦٣ ، ٢٢٥ ص • السادس عشر في
حميات الصدق والذبول ١٩٦٣ ، ٣٢٠ ص • السابع عشر في الجدري
والحصبة والطواعين ١٩٦٥ ، ٢٥٦ ص ، وفي هذه السنة أيضا كان الجزء
الثامن عشر تحت الطبع) •

١٥٤ - كتاب الحماسة

• لابن الشجري (١٩٢٦ ، ٣٢٧ ص)

١٥٥ - كتاب الخيل

• لابي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩هـ - ٨٢٤م (١٩٣٨ ،

١٩٦ ص)

١٥٦ - كتاب الذخيرة في المحاكمة بين كتاب الغزالي وابن رشد •

• لعلاء الدين علي الطوسي المتوفى سنة ٨٨٧هـ - ١٤٨٢م (١٨٩٩ ،

٢٧٢ ص) •

١٥٧ - كتاب الروح •

• لابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ - ١٣٥٠م (١٩٠٠ ، ٤٤٨ ص ،

١٩٠٦ ، ٤٣٤ ص ، ١٩٣٨ ، ٣٤٧ ص والطبعة الرابعة ١٩٦٢ ، ٤٦٠ ص)

١٥٨ - كتاب السماء والعالم

• لابن رشد (١٩٤٥ ، ٨١ ص)

١٥٩ - كتاب السماع الطبيعي

• لابن رشد (١٩٤٥ ، ١٢٨ ص)

١٦٠ - كتاب السياسات المدنية •

• للفارابي (١٩٢٧ ، ٧٦ ص)

- ١٦١ - كتاب العالم والمتعلم .
 • للإمام أبي حنيفة (١٩٣٠ ، لم أف على عدد صفحاته) .
- ١٦٢ - كتاب العمدة في صناعة الجراحة
 لابن القف المتوفى سنة ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م (الجزء الاول ، ١٩٣٧ ،
 ٢٧٨ ص • الثاني ، ١٩٣٧ ، ٢٨٣ ص) .
- ١٦٣ - كتاب العمل بالاسطرلاب .
 • لعبد الرحمن الصوفي (١٩٦٢ ، ٣٩٠ ص) .
- ١٦٤ - كتاب الفصوص .
 • للفارابي (١٩٢٦ ، ٢٤ ص) .
- ١٦٥ - كتاب في حركات الشمس .
 • لابراهيم بن سنان الحراني (١٩٤٧ ، ٧٠ ص) .
- ١٦٦ - كتاب في كيفية تسطيح الكرة على شكل الاسطرلاب .
 لاحمد بن محمد الصغاني المتوفى سنة ٣٨٠هـ - ٩٩٠م (١٩٤٨ ،
 ٦٢ ص) .
- ١٦٧ - كتاب القانون المسعودي .
 للبيريوني (الجزء الاول ، ١٩٥٤ ، ٥٠٥ ص • الثاني ، ١٩٥٥ ،
 ٤٨٠ ص • الثالث ، ١٩٥٦ ، ٥٦٠ ص) .
- ١٦٨ - كتاب الكنى .
 • للإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ - ٨٦٩م (١٩٤١ ، ٩٨ ص) .
- ١٦٩ - كتاب الكنى والاسماء .
 • لابي بشر محمد بن أحمد الدولابي المتوفى سنة ٣١٠هـ - ٩٢٢م
 (الجزء الاول ، ١٩٠٤ ، ٢٠٢ ص • الثاني ، ١٩٠٤ ، ٢٦٧ ص) .
- ١٧٠ - كتاب الكون والفساد .
 • لابن رشد (١٩٤٥ ، ٣٥ ص) .

- ١٧١ - كتاب ما بعد الطبيعة •
 لابن رشد (١٩٤٥ ، ١٨٤ ص) •
- ١٧٢ - كتاب المجتبي •
 لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١هـ - ٩٣٣م (١٩٢٣ ، ١٠٠ ص ، نشره
 كرنكو) واعد طبعه سنة ١٩٦٣ في ٧٢ ص •
- ١٧٣ - كتاب المحبر •
 لابن حبيب البغدادي المتوفى سنة ٢٤٥هـ - ٨٥٩م (تحقيق الدكتورة
 ايلزا ليختن شتير ، ١٩٤٢ ، ٧٥٨ ص) •
- ١٧٤ - كتاب مساحة قطع المخروط المكافي •
 لابراهيم بن سنان الحراني (١٩٤٧ ، ١١ ص) •
- ١٧٥ - كتاب المعاني الكبير •
 لابن قتيبة (ثلاثة أجزاء ، أرقام متسلسلة ، ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ، مجموع
 الصفحات ١٢٧٠ + ٢٧٧ ص فهارس) •
- ١٧٦ - الكتاب المعتبر في الحكمة
 لهبة الله البغدادي المتوفى سنة ٥٤٧هـ - ١١٥٢م (الجزء الاول ، في
 المنطق ، ١٩٣٨ ، ٢٩٣ ص • الثاني ، في الطبيعيات ، ١٩٣٨ ، ٤٦٢ ص •
 الثالث في الآلهيات ، ١٩٣٨ ، ٢٥٦ ص) •
- ١٧٧ - كتاب ميزان الحكمة •
 لعبدالرحمن الخازن البغدادي المتوفى سنة ٥٠٠هـ - ١١٠٦م (١٩٤٠
 ، ١٨٤ ص) •
- ١٧٨ - كتاب النفس •
 لابن رشد (١٩٤٧ ، ٩٣ ص) •
- ١٧٩ - كتاب النفقات •
 لاحمد بن عمر الشيباني الخصاف المتوفى سنة ٢٦١هـ - ٨٧٤م
 (١٩٣٠ ، لم أقف على عدد صفحاته) •

١٨٠ - الكفاية في معرفة الرواية •

للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ - ١٠٧٠م (١٩٣٨ ، ٤٦ ص •
في اصول الحديث) •

١٨١ - كنز العمال في ثبوت سنن الاقوال والاعمال •

لعلي بن حسام الدين المتقي الهندي المتوفى سنة ٩٧٥هـ - ١٥٦٧م
(الجزء الاول ، ١٩٤٥ ، ٥٦٠ ص - الطبعة القديمة ٣١٨ ص • الثاني ،
١٩٥٠ ، ٤٥٣ ص - الطبعة القديمة ٣٣٣ ص • الثالث ، ١٩٥١ ، ٥٤٥
ص - القديمة ٣٥٥ ص • الرابع ، ١٩٥٣ ، ٤٠٦ ص - القديمة ٣٥١ ص •
الخامس ، ١٩٥٤ ، ٥٣٠ ص - القديمة ٣٣٤ ص • السادس ، ١٩٥٨ ،
٤٢٧ ص - القديمة ٤٣٦ ص • السابع ، ١٩٥٩ ، ٥٩٨ ص ، وطبعة ١٨٩٦ ،
٣٤٤ ص • الثامن ، ١٩٦٠ ، ٤٨٠ ص ، والقديمة في ٣٥٥ ص ، التاسع ،
١٩٦٢ ، ٤٣٤ ص ، العاشر ، ١٩٦٢ ، ٤٢٥ ص ، الحادي عشر ، ١٩٦٣ ،
٣٥٨ ص • الثاني عشر كان تحت الطبع سنة ١٩٦٤ •

١٨٢ - الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم •

لعبدالكريم الجيلي المتوفى سنة ٨٢٦هـ - ١٤٢٢م (الطبعة الثالثة ،
١٩١٧ ، ٤٠ ص) •

١٨٣ - لسان الميزان •

لابن حجر العسقلاني (الجزء الاول ، ١٩١١ ، ٤٩٢ ص • الثاني
١٩١٢ ، ٥١٤ ص • الثالث ، ١٩١٢ ، ٤٤٨ ص • الرابع ، ١٩١٢ ، ٤٩٤
ص • الخامس ، ١٩١٢ ، ٤٤٠ ص • السادس ، ١٩١٢ ، ٨٨٠ ص) •

١٨٤ - المباحث المشرقية •

لفخرالدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م (الجزء الاول ،
١٩٢٤ ، ٧٠٦ ص • الثاني ، ١٩٢٤ ، ٥٤٨ ص • في علم الالهيات
والطبيعات) •

- ١٨٥ - المجتبى من سنن أبي داود .
 لعبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري المتوفى سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م
 (١٩٢٣ ، لم أقف على عدد صفحاته) .
- ١٨٦ - المختارات .
 لابن هبل المتوفى سنة ٦٠١هـ - ١٢٠٤م (الجزء الاول ، ١٩٤٣ ،
 ٣٤٨ ص . الثاني ، ١٩٤٣ ، ٣٤٠ ص . الثالث ، ١٩٤٤ ، ٤٦٢ ص .
 الرابع ، ١٩٤٤ ، ٣٢٩ ص . في الطب) .
- ١٨٧ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان .
 لليافعي المتوفى سنة ٧٦٨هـ - ١٣٦٦م (الجزء الاول ، ١٩١٨ ،
 ٥٤٦ ص . الثاني ، ١٩١٩ ، ٥٠٦ ص . الثالث ، ١٩١٩ ، ٥٩٢ ص .
 الرابع ، ١٩٢٠ ، ٤٨١ ص) .
- ١٨٨ - مرآة الزمان في تاريخ الاعيان .
 ليوسف بن قزاوغلي سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م
 (القسمان الاول والثاني من الجزء الثاني ، ١٩٥١ ، ٨٠٦ص) .
- ١٨٩ - المراسيل .
 لابن أبي حاتم الرازي (١٩٠٣ ، لم أقف على عدد صفحاته) .
- ١٩٠ - مسالك الحنفاء .
 للسيوطي (١٩١٥ ، ٦٦ ص . طبعة ثانية) .
- ١٩١ - المستدرك مع التلخيص للذهبي .
 للحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥هـ - ١٠١٤م (الجزء الاول ،
 ١٩١٥ ، ٥٩٧ ص . الثاني ، ١٩٢١ ، ٦٥٠ ص . الثالث ، ١٩٢٢ ، ٦٧٦
 ص . الرابع ، ١٩٢٣ ، ٦٣٩ ص) .
- ١٩٢ - المستقصى في أمثال العرب .
 لجارالله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٤م) ،
 بعناية محمد عبدالرحمن خان (١٩٦٢ ، الجزء الاول ، ٤٥٢ ص ، الثاني
 ٤١٧ ص) .

١٩٣ - مسند أبي عوانة •

لابي عوانة الاسفرائني المتوفى سنة ٣١٦هـ - ٩٢٨م (الجزء الاول ،
١٩٤٣ ، ٤٦٤ ص • الثاني ١٩٤٣ ، ٤٤٢ ص • الثالث ، كان تحت
الطبع) •

١٩٤ - مسند الطيالسي •

لابي داود الطيالسي المتوفى سنة ٢٠٤هـ - ٨١٩م (١٩٠٣ ، ٤٠٤ ص)

١٩٥ - مشكل الآثار

لابي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١هـ - ٩٣٣م
(في أربعة أجزاء صدرت عام ١٩١٤ ، الاول : ٥١٠ ص • الثاني : ٤٤٣
ص • الثالث : ٣١٦ ص • الرابع : ٤٢٥ ص) •

١٩٦ - مشكل الحديث •

لابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦هـ - ١٠١٥م (١٩٤٣ ، ٢١٤ ص) •

١٩٧ - مصدق الفضل : شرح قصيدة بانة سعاد لكعب بن زهير •

لشهاب الدين الدولة آبادي المتوفى سنة ٨٤٨هـ - ١٤٤٤م (١٩٠٥ ،
٢٣٨ ص) •

١٩٨ - المعتصر من المختصر •

للقاضي أبي المحاسن يوسف بن موسى الحنفي المتوفى سنة ٨٠٣هـ -
١٤٠٠م (الطبعة الثانية ، ١٩٤٣ • الجزء الاول ، ٣٨٢ ص • الثاني
٤٠٨ ص) •

١٩٩ - معجم الامكنة •

لمعين الدين الندوي (في الامكنة التي ليس لها ذكر في نزهة الخواطر
١٩٣٤ ، ٦٤ ص) •

٢٠٠ - معرفة علوم الحديث •

للحاكم النيسابوري (١٩٣٧ ، ٢٩٦ ص) •

- ٢٠١ - المغرب في ترتيب العرب •
لابي الفتح المطرزي المتوفى سنة ٦١٦هـ - ١٢١٩م (الجزء الاول ،
١٩١٠ ، ٣١٢ ص • الثاني مع الذيل ، ١٩١٠ ، ٣٤٠ ص) •
- ٢٠٢ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة
لطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٢هـ - ١٥٥٤م (الجزء الاول ،
١٩١٠ ، ٤٥٥ ص • الثاني ، ١٩١١ ، ٤٨٦ ص • الثالث ، ١٩٣٧ ،
٤٧٧ ص) •
- ٢٠٣ - مقالة رؤية الالهة •
لابن عراق (١٩٤٧ ، ١٤ ص) •
- ٢٠٤ - مقالة في استخراج تاريخ اليهود •
لابن بامشاذ القايني (١٩٤٧ ، ٦ ص) •
- ٢٠٥ - مقالة في استخراج تاريخ اليهود واعيادهم •
لمحمد بن موسى الخوارزمي المتوفى سنة ٢٣٠هـ - ٨٤٤م (١٩٤٧ ،
٩ ص) •
- ٢٠٦ - مقالة في اصلاح شكل كتاب مانالوس •
لابن عراق (١٩٤٧ ، ١٩ ص) •
- ٢٠٧ - مقالة في اغراض ما بعد الطبيعة •
للفارابي (١٩٣٠ ، ٨ ص) •
- ٢٠٨ - مقالة في راشيكات الهند •
للبيروني (١٩٤٨ ، ٣٠ ص) •
- ٢٠٩ - مقالة في رسم القطوع الثلاثة
لابراهيم بن سنان الحراني (١٩٤٣ ، ١٤ ص) •
- ٢١٠ - مقالة في طريق التحليل والتركيب •
للكراني أيضا (١٩٤٧ ، ٩٣ ص) •

- ٢١١ - مقالة في منازعة اعمال الاسطرلاب •
لابن عراق (١٩٤٧ ، ٩ ص)
- ٢١٢ - المقامة السندسية •
للسيوطي (١٩١٥ ، ٢٠ ص • في العقائد)
- ٢١٣ - مناظرات الرازي •
لفخرالدين الرازي (١٩٣٦ ، ٤٣ ص)
- ٢١٤ - مناقب الامام الاعظم •
للموفق بن احمد المكي المتوفي سنة ٥٦٨هـ - ١١٧٢م (الجزء الاول
١٩٠٣ ، ٢٨٢ ص • الجزء الثاني ، ١٩٠٣ ، ٢٥٦ ص)
- ٢١٥ - مناقب الامام الاعظم •
لابن البزاز محمد بن محمد الكردي المتوفي سنة ٨٢٧هـ - ١٤٢٤م
(طبع في ذيل الكتاب السابق)
- ٢١٦ - المنتظم في تاريخ الملوك والامم •
لابن الجوزي (القسم الثاني من الجزء الخامس ، ١٩٣٨ ، ٢٨٧
ص • السادس ، ١٩٣٨ ، ٩٩٤ ص • السابع ، ١٩٣٩ ، ٤٣٩ ص • الثامن ،
١٩٤٠ ، ٤٩٣ ص • التاسع ، ١٩٤٠ ، ٣٦١ ص • العاشر ، ١٩٣٩ ،
٣١٨ ص)
- ٢١٧ - المنتقى من السنن المسندة عن سيدنا المصطفى •
لابي محمد عبدالله بن الجارود النيسابوري (١٨٩٧ ، ٥٠٤ ص)
- ٢١٨ - المنحة السراء •
لارتضاء علي خان المتوفي سنة ١٢٧٠هـ - ١٨٥٣م (١٩١٣ ، ١٤٤
ص • في التصوف)
- ٢١٩ - المنمق •
لمحمد بن حبيب البغدادي ، ١٩٥٩ ، ٥٤٧ ص

- ٢٢٠ - **الموضح لاهام الجمع والتفريق** .
 للخطيب البغدادي ، الجزء الاول ، ١٩٥٩ ، ٤٧٢ ص . والجزء
 الثاني ، ١٩٦٠ ، ٤٨٠ ص .
- ٢٢١ - **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر** .
 للشريف عبدالحكي بن فخرالدين الحسنى اللكهنوى المتوفى سنة
 ١٣٤١هـ-١٩٢٢م (في تراجم أعيان الهند . الجزء الاول ، ١٩٤٧ ، ٢٩٧
 ص واعيد طبعه سنة ١٩٦٢ في ٢٠٣ ص . الثاني ، ١٩٣١ ، ٢١٤ ص .
 الثالث ، ١٩٥١ ، ١٩٨ ص . الرابع ، ١٩٥٤ ، ٤٣٩ ص . الخامس ،
 ١٩٥٥ ، ٤٧٨ ص . السادس ، ١٩٥٧ ، ٤٢٤ ص ، السابع ، ١٩٥٩ ،
 ٥٣٤ ص) .
- ٢٢٢ - **نشر العلمين** .
 للسيوطي (١٩١٥ ، ٢٠٠ ص . في القائد) .
- ٢٢٣ - **نظام المنطق** .
 لابن شهاب الشافعي (ارجوزة ، ١٩١٢ ، لم اقف على عدد صفحاتها) .
- ٢٢٤ - **الفائس الارتضية في شرح الرسالة العزيزية** .
 لارتضاء علي خان (١٩١٠ ، ٨٨ ص في النحو والمعاني) .
- ٢٢٥ - **هادي المسترشدين الى اتصال المستدين** .
 لابي سعيد محمد عبدالهادي بن الحاج محمد عبدالكريم (ويلقب
 هذا الكتاب بتقريب المراد في رفع الاسناد ، ١٩٣٦ ، لم اقف على عدد
 صفحاته) .

المفاضلة في تاريخنا الأدبي

كان الانسان العربي ، بطموحه وكفاحه ، يحاول أن يجسد الزخم والطاقة مثلا رفيعة تتجاوب بالحق والخير والجمال ، وهو لذلك اندفع - بعناد واصرار - يرمم ماضيه ، ويبني حاضره ، وينسج غده قصيدة ضاحكة .. لتأتى له الفوز الساحق على خصمه في حلبات التفاخر والمفاضلة . فالانسان العربي متى وضع يده على ما يستقيم رصيذا حضاريا لامعا .. كان له أن يتمدح ويتباهى بالثروة المادية ، والتراث الفكري ، والمكارم ، والمناقب ، والمآثر .. فلا غرو اذا افتخر العربي ، وتفاخر ، وعارض سواه بالفخر .. حين يهفو الى الغلبة في الفضل والقدر والمنزلة ، أو حين يميل الى أن يمايز الأقبام والشعوب في اسداء اليد الجميلة . ومن هنا شهد تاريخ الفكر العربي مساجلات ومناظرات ومفاخرات سجلها مؤرخوه القدامى ، ونوهوا بها موزعة على مصنفات معروفة . وأستطيع - في هذا الصدد - أن أشير الى بعض ما أشارت اليه كتب الفهارس العربية ، فأذكر منها : (الأخبار والأنساب والسير) لأبي العباس المطاولي ، و (الانساب والاخبار) و (المفاخرات بين القبائل) لأبي الحسن النسابة ، و (الاخبار والأنساب) للبلاذري ، و (مفاخرة القبائل في النسب) لأبي الوزير عمر بن المطرف ، و (المفاخرات) لخالد بن طليق ، و (أخبار العرب وأيامها) للزبير بن بكار .

واستدعت المفاخرة دواعي التهجم البغيض ، والتلب الحاقد .. نكايه

بما لقوم دون قوم ، وطائفة دون طائفة •• فكان لهذه الظاهرة الاجتماعية صداها البائس في بعض المراجع العربية التي استأثر بعضها بالموازنة بين المناقب والمثالب ، وانصرف البعض الآخر الى التشهير بالمثالب ، أو الى ترويح المآثر •• تمشيا مع التعصب الأحمق • فلا غرابة في أن نجد ابن جمهور يؤلف (الواحدة في الاخبار والمناقب والمثالب) ، وأبا عبيدة والجمحي يسلكان نهج الشعوبية فيما وضعوا للمثالب من كتب ورسائل ، أو أن نجد خالد بن طليق وابن أبي مريم يتغنيان بالمآثر دون سواها •

وهناك بين أهل القلم العربي من مال الى فكرة التسوية بين العرب والشعوب الاخرى ، وبث مفاهيمها في كتب أرسدوها لتسويغ تلك الفكرة منها : (مفاخر العرب والعجم) لعلي بن محمد المدائني ، و (فضل العربية والعجمية) لمحمد بن أحمد الاشعري ، و (كتاب الترشيح في بعض التسوية بين الشعوبية) لمحمد بن عبدالله الاصفهاني • وقد وجد - بين العرب - من انقطع لمآثر الفرس دون غيرهم ، كاليشم بن عددي في كتابه (تاريخ العجم) ، وابن خرداذبه البلداني المعروف في كتابه (جمهرة أنساب الفرس) •• كما وجد ، بينهم ، من استغرقت الشعوبية من جميع أقطاره ، كسعيد بن حميد في كتابه (انتصاف العجم من العرب) و (فضل العجم على العرب) ، وأبي الحصين محمد في كتابه (مثالب ثقيف وسائر العرب) ، وابن الكلبي في كتابه (مثالب العرب) • وقد كان لهذه النزعة الخبيثة رد فعل مباشر •• هز الجاحظ في كتاب العصا من (البيان والتبيين) ، وابن قتيبة في (التسوية بين العرب والعجم) ، واسحاق بن سلمة وطيفور في (فضل العرب على العجم) ، والجمحي في (الانتصار في الرد على الشعوبية) ، وعلي بن بلال المهلبى وعبدالله بن جعفر الحميري في (فضل العرب) •

وكانت القبيلة من الميادين التي ترامت فوقها ظاهرة النزاع المناقبي العربي ، فهي أرض المعركة التي تزاومت عليها الكتب والرسائل •• وهذا هو ابن العماد الثقفي يذيع ، بين الوراقين ، رسالته في تفضيل بني هاشم ،

وفي هذا المستوى وضع محمد بن العباس اليزيدي كتابه (مناقب بني العباس) ، وعلي بن محمد المدائني (فضائل قریش) ، وابن عبدة (مناقب قریش) ، والفقعسي (مآثر بني أسد) ، وأبو عبيدة (مآثر غطفان) و (مناقب باهلة) ، وأبو البخترى (فضائل الانصار) ... وعلى النقيض من ذلك وضع أبو عبيدة أيضا كتابه (مثالب باهلة) ، والهيثم بن عدي (مثالب ربيعة) .

وارتدى هذا النزاع اhabاً آخر حين امتد على الصعيد البلداني ، وقد وجدنا البلخي يؤلف في (فضائل خراسان) ، ويزدجرد بن مهمندار وأحمد ابن الطيب السرخسي في (فضائل بغداد) وابن الجوزي في (مناقب بغداد) . والمدائني في (مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة) ، والهيثم بن عدي في (فخر أهل الكوفة على أهل البصرة) ، والجمحي في (فضائل مصر) ، وابن عقدة الحافظ وعلي بن الحسين بن فضال في (فضل الكوفة) ، وسعد بن عبدالله في (فضل قم) ، وأبا زيد البلخي في (فضائل مكة على سائر البقاع) . . . وهناك كتب اخرى كمحاسن الشام ، وفضل المدينة على مكة . . . وغيرهما مما لو ذكرتها لضاق بها المقام .

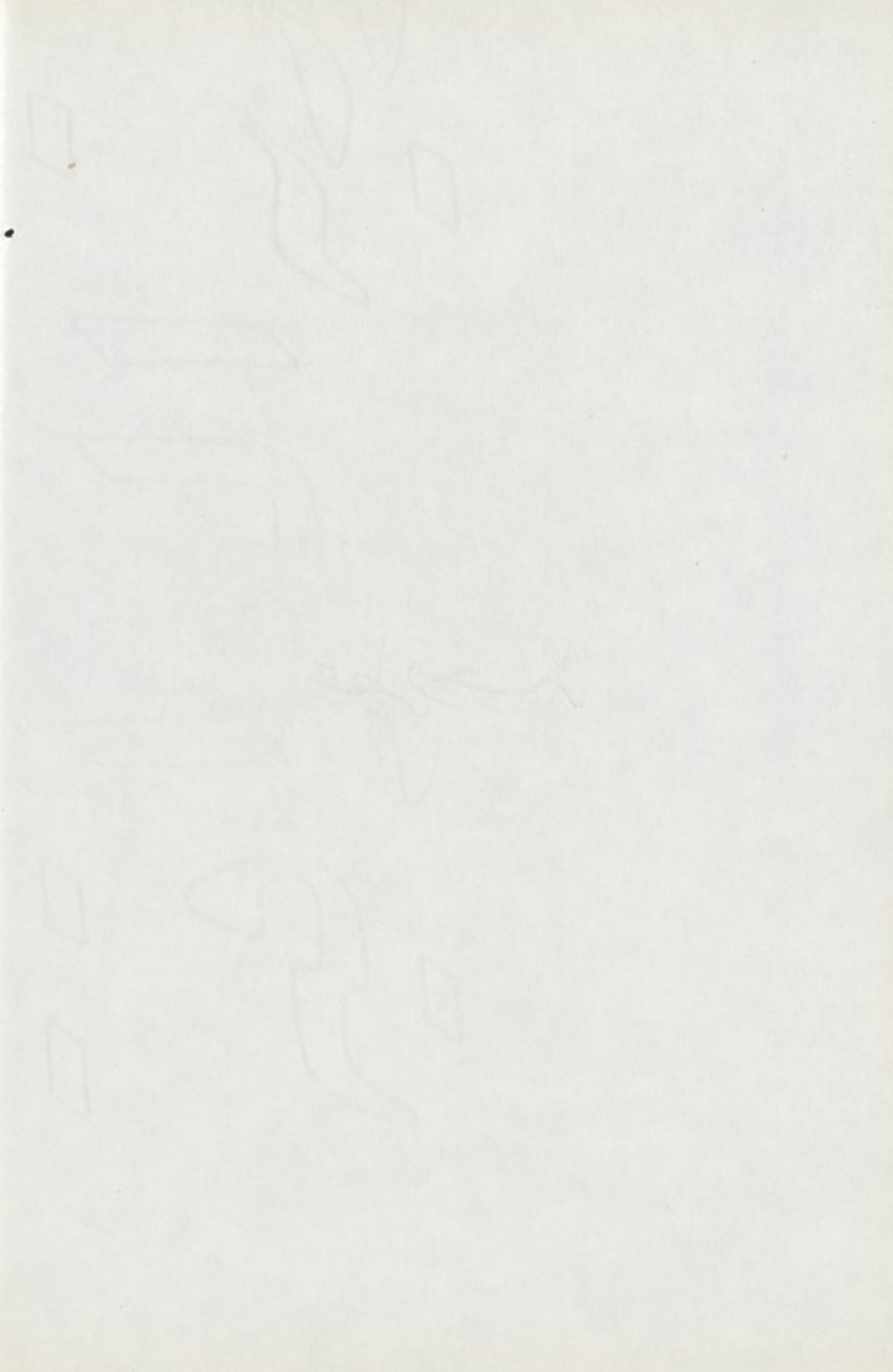
وتناهت المثالب والمناقب السلوك الاجتماعي والمواقف الحياتية في مستوى التمجيد الشخصي والتقييم الذاتي ، وعلى هذا الدرب انطلق المدائني في كتبه التي عقدها على فضائل جعفر بن أبي طالب والحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن جعفر ومعاوية بن عبدالله ، ومثله كان أحمد بن ابراهيم القمي في كتابه (مناقب أمير المؤمنين) ، وسعد بن عبدالله في (فضائل عبدالله وعبدالمطلب وأبي طالب) ، وأبو الحسن البيهقي في (وسائل الأملعي في فضائل الشافعي) . . . وعلى النقيض من هؤلاء كان ابن عباد النقي في كتابه (مثالب أبي حراش) ، وعبد الحميد بن أبي الحديد الذي أشار الى مثالب بعض الخلفاء في (شرح نهج البلاغة) .

واستقرت المفاخرات العربية نقدا عادلا ، وأحيانا . . . جارحا ، لاذعا على الصعيد العقائدي . . . ومن أبطال هذا الميدان كان أحمد بن داود

الفزاري في كتابه (فضائح الحشوية) و (مناظرة البكرية والعمرية) ،
والفضل بن شاذان النيسابوري في (الرد على المرجئة) ، والجاحظ في
(كتاب العثمانية) ، وأبو جعفر الاسكافي في (نقض كتاب العثمانية) ،
واسماعيل بن اسحاق بن نوبخت في (الرد على المجبرة) ومحمد بن النعمان
الاحول في (الرد على المعتزلة) ومحمد بن يعقوب الكليني في (الرد على
القرامطة) •• وغير هؤلاء ممن ضاق بذكرهم المستشرق الالماني بروكلمان
في كتابه « تاريخ الأدب العربي » •

وفي تاريخ الفكر العربي مناظرات أخاذة ، وازنت - بأسلوب بليغ -
بين الصيف والشتاء ، والسيف والقلم ، والصدق والكذب ، والشمس
والقمر ، وبين العقل والهوى ، وبين المدينة والقرية ، بين السعادة والشقاء ،
والفصول الاربعة ، والمعقول والمنقول ، والشيخوخة والشباب ••
ولا يزال التفاخر يعيش تجربته الجديدة في الفكر العربي المعاصر
•• هادفا الى البناء ، والى تعزيز النقد العادل ، ليساهم في توطيد الأسس
العامة للمجتمع العربي الجديد •

عَطْرٌ وَحَبْرٌ



مَجْمَرَةٌ حَرَمَلٌ (*)

... وظهرت أسماء الوفد العراقي الرسمي الذي سيشارك في الدورة الخامسة لمؤتمر الادباء العرب ، وجاء اسمي في سياقها ثالثة أو كحارس في مؤخرة قافلة ، ولم يكن في ذلك ما يقطع علي أخيلة الزهو والغرور .. أو يمزق في أعماقي المتعة الطارفة التي جادت بها علي اللجنة التحضيرية للمؤتمر .. فحسبي انني أصبحت أديبا يشار اليه بجميع ماخلق الله من أصابع معروقة يابسات ، وحسبي انني أمسيت - بين عصر وعشية - عضوا وافدا تجسد قذى في ألف عين مريضة فكان ذلك معقد جبوري ، والدافع - الذي لا شريك له - الى اختلال توازني .. فأنا ، عند فريق من أهل القلم ، مغبوط .. وعند فريق آخر كديك أبي نؤاس ، ذميم ، مقيت .. وعزائي - في هذه المحنة - ان يكون المأمون خليفة بغداد كذلك ، وما عليه لكي أعطس الا أن يثر زكامه في وجهي ..!.. فلقد قيض الشيطان لقائمة الوفد العراقي خصوما من شيوخ الادب وعيون العصر ، ومناوئين من الاشباه وأشباه الاشباه جرحوا الشكل وداسوا المضمون بالاحذية ، وأخذوا على فلان انه ليس من الادباء ، وعلى فلان آخر انه عشير كيمياه ، وآخر انه خدن فلسفة ، وآخر انه أخو سياسة ، وآخر انه مؤرخ ،

(*) قرأ الناس هذه الممجرة في جريدة البلد البغدادية بعد ارفضاض الدورة الخامسة لمؤتمر الادباء العرب التي انعقدت في بغداد خلال ١٥ - ٢١ شباط ١٩٦٥ .

وآخرين انهما طبيب ومهندس .. الى غير ذلك من ضروب التهمة والاستهجان .

أقول ذلك ، ويشهد الله انني لا أريد أن أدفع واجادل الا بالتي هي أحسن ، ولا أريد أن أنسج مرافعة لكسب دعوى مخذولة .. وانما وكدي أن أتثبت بحق يكاد يهدر في زحمة الشائعة الباطلة والمكابرة المشبوهة . صحيح انني محام يتوكأ على شهادة حقوق ، ولكن البحث في مسارب تاريخنا الاجتماعي قد طغى على منازعي كلها ، فلم يبق للقانون متنفس في ما أملك من ثقافة .. ومن هنا أراني متعثرا في سلوك المحاماة والذود عما قارفت اللجنة التحضيرية وما جانبت على صعيدي الاقتراح والتنفيذ .

وصحيح انني وافد رسمي في المؤتمر .. ولكن حتى هذا يجب أن لا يحجزني عن الدفاع عما أراه جديرا بالدفاع ، أو يصدني عن المساجلة دون ما أعتز به .. وفي موقف دقيق كهذا الموقف قد تلتهمني الظنون الكواذب ، وقد يصمني أهل التخريص بالمحاباة والمالأة .

المعروف جيدا ان القائمة العراقية كانت كسفينة نوح عليه السلام فيها الاديب والمتأدب ، وفيها ما لم تجمععه بالادب وشيخة وما لم تربطه به آصرة .. وهذا ما جعلها ، كالتنبي ، تقيم الدنيا وتشغل الناس ، وتجعل في حلق هذا شجى ، وتحث ذلك على أن يصفق يدا بيد ، وتسوق هذين الى الحوقلة وترطب ألسن هؤلاء بالاسترجاع .. وكل بما عنده حزين مكروب يعني كساد الشهرة ، ويصق على العقوق العمد ، ثم يتمطى - بعد ذلك - ليقول : حسبهم الخيبة الذريعة ، وكفى بمؤتمرهم تفاهة أن نسقى بهم وبه .

وقد سمعت بعض هؤلاء الناقمين الذين محصوا بالحرمان يقول : ان من بين الاشخاص الذين انتظمتهم قائمة الوفد العراقي من اقتحم قلعة الادب متواريا في جوف حصان كحصان طروادة ! .. وقد فات هؤلاء المساكين ان وراء هذا الحصان ما وراءه ، فلربما يتكشف عن أديب في اهاب مهندس .. ولهذا في أبناء المنجم - على العهد العباسي - اسوة ، أو

يتشقق عن شاعر في جلباب فيلسوف .. ولهذا في ابن سينا ناظم العينية في الروح اسوة ، أو يتمخض عن رب بلاغة في ثياب صيدلاني .. ولهذا في الغزولي صاحب مطالع البدور أسوة حين خلع على المصطلح الاقرباذيني حلاوة العبارة الادبية الرشيقة .

وفاتهم ان كلمة « الأدب » قد روضها الزمن ، مع الليالي ، فاحتضنت - بعد اباء - جميع الآفاق التي يمكن أن يترامى فوقها فكر . وقد فتح عيوننا على ذلك المستشرق الايطالي كارلو نالينو في محاضراته التي ألقاها بالجامعة المصرية في مطلع القرن العشرين ، وسلك هذا النهج أيضا المحقق الالماني اللامع بروكلمان في كتابه الذي عقده باللغة الالمانية على تاريخ الادب العربي .. فقد استغرق محتواه تحت ظلال هذا الادب جميع الآثار التي تركها العرب في حقول المعرفة على تفاوت منازعها ، فأشار الى ما لهم من تصانيف في التاريخ والادب والطب والزراعة والفلك والفقه والتفسير .. وغير ذلك . ومن هنا مذهبي في ان اللجنة التحضيرية عندما أعدت قائمة الوفد العراقي .. لم ترتكب وزرا ، ولم تبالغ في ابناء المتأدبين فحولا وقوارير ، وانما نظرت الى الادب لا كما نظر اليه بعضهم من وراء معلقة امرىء القيس ، ولكن تمشيا مع سنة التطور التي رشقت حياتنا وفكرنا بطابع الشمول . وفوق ذلك .. سجلت اللجنة التحضيرية حسنة اخرى عندما فتحت للعراقيين باب المشاركة في المؤتمر على مصراعيه ليسع أي شمشون وأي خليلو^(١) في دنيا الجبارة والاقزام التي يرتع في ملاعبها الحالمون بالخلود .. وقد رأينا حقا بعض هؤلاء يتسللون الى مخلف اللجان يسهمون في فعاليتها ، وينشطون مع الناشطين فيها دون أن توصل في وجوههم نافذة ، أو تخنق في أعماقهم رغبة ، أو تقفل مناخرهم عن روائح الجنة في موائد التكريم !! ومن يكابر ويجحد فليأت ببرهانه ان كان من الصادقين .

أما الذين أخذتهم العزة بالانزواء .. وكان لم يسمر بمكة سامر ،

(١) خليلو رجل بغدادى معاصر وقزمل معروف .

فقد نصروا آثام الظنون ، وقطعوا في تزويق التهاويل أبعد الاشواط ،
وغطوا أعضاء الوفد العراقي ونفسوهم على الالتزام المرهق وكأنهم اجتازوا
المطهر الى فراديس النعيم ..

رويدكم يا قوم ، فقد ظلمتم الناس ولم تدرؤا انكم كنتم أنفسكم
تظلمون .. والا فالوفد العراقي المسكين كان يستجدي الراحة دون طائل
بعد أن كانت المحاضرات تتوالب به من متعة الى سأم .. الى توحيد .. الى
تمزق .. الى بسمة .. الى تجهم ، وبعد أن مل الوقوف حول الموائد
يمضغ من اللحم ما لم تروضه نار حامية ويلتقم مجاهيل الاطعمة ببركة
سوق المسلمين . فمثل هذا الاديب الذي لا يملك أن يتمرد على روتين
المؤتمر . فكرا ومعدة .. حري بأن تشفقوا عليه ، وتريقوا أفئدتكم حوله
دمعا . ولكن بئس ما جوزي : نهشتم لحمه ، وشتمتم أمجاده ، ورشتم
وجهه بماء المستنقع ، وهو لم يجن ما يوجب أن تعمهوا في الضلال ، ولم
يقترف ما يثير اشمئزازكم . وأنا راسخ على انكم لو ملكتم زمام دنياه
لوقعتكم صك حرمانه من الدفن في مقابر المسلمين !!

انني أحد الذين كتب عليهم أن تحتويهم قائمة الوفد العراقي ومن
هنا جدارتي بنقمة الساخطين ، وقد انتهى سمعي الى ان بعضهم صب على
رأسي شؤبوب عذاب وألهب ظهري بسوط موجع .. وهو لا يدري انني
كلفت مع زميلي الاستاذ عبدالجبار العمر^(٢) باصدار صحيفة (المؤتمر)
التي كانت تطل على المؤتمرين والقراء ، صباح كل يوم ، حاملة أنباء
المؤتمر أولا بأول .

وقد أتختني هذه الصحيفة بالجراح ، وهشمت سعادتني بين زوجتي
وأطفالي الخمسة في البيت ، ولولا أمانة الوظيفة وحرصني على الواجب
وشعوري بالمسؤولية .. لألقيت حبل هذه الصحيفة على غارب الاخ

(٢) موظف في وزارة الثقافة والارشاد العراقية ، وسكرتير مجلة

بغداد .

عبدالجبار شريكى في تحريرها ، ولهربت على وجهي الى المكان المانوس
القابع في كبد مدينة الحرية على الهامش الغربي من الكاظمية .. حيث
بنياتي الاربع وأمهن يلاعبن ولدي الصغير غسان .

لقد كان انتخابي عضوا في الوفد العراقي كارثة على زوجتي أم
غسان ، وهي قد علمت سلفا بأن هذا الامتياز الادبي سينزعني من البيت
صباحا ، فلا أعود اليه الا بعد مصرع البطل أو زواجه أو نكبته أو تشرده
في فيلم السهرة على شاشة تلفزيون بغداد .. وهذا وحده كفيلا بأن يفرقها
في بشر مظلمة ، لتدفن شكواها دامعة بين الجوانح ، وتلعن مفاهيم العزاء
والصبر والسلوان كلها .. حتى لا تتأسى فتكون عبرة للمعطوبات . وذلك
حق ، لانها تريد زوجها الذي هجرها منذ زقزق أول عصفور في وجه
الشمس .. تريده ليؤكد قيمومته عليها ، وسيادته على البيت ، وحنانه
على زينة حياته .. تريده بجانبها ليثبت ، بجداره ، انه شريك دهرها في
المباهج والنواب ، وانه المقابل بالسمع والطاعة .



وفي غضون اليوم الخامس عشر من شباط اجتمع شمل الوافدين
في يومهم الاول من أيام مؤتمرهم الخطير ، وكنت خلال ذلك ألتقط متعاوناً
مع زميلي عبدالجبار العمر من الافواه ما يستقيم رصيذا للعدد الثاني من
صحيفة المؤتمر (وكنا أصدرنا العدد الاول قبل افتتاح المؤتمر) وما انفكنا
نجمع الاخبار وتنصيد اللقطات طوال ذلك النهار ، وحين أشرفنا على الليل
احتوتنا مطابع دار الجمهورية ، فالتقت ما في وفاضنا دون أن نحمد الله ،
فطارت البركة .. وجزعنا اذ وجدناها فاعرة الفم ، تطلب ، كجهنم ، المزيد
من الاخبار والاحاديث .. وعندئذ أسقط في أيدينا ، ودهمتنا الحيرة ،
ورأينا أنفسنا أحوج ما نكون الى تفكير سليم ، ولكن حتى هذا التفكير كان
في تلك اللحظة أندر من منح البعوض .. ومع ذلك تمردنا على الواقع ،
واسترجعنا قوانا الضائعة لنسخرها في التخلص من التخبط الذي وقنا فيه ،
فاهبتنا الفرص السوانح وطفنا على الوافدين في مخادعهم نسألهم أبعاد

النشاط الفكري في أوطانهم ، وامتد بنا التطواف الى ساعة متأخرة من الليل عدنا بعدها الى المطبعة لنجد عمالها ينتظرون ما في الجعبة والشرر يكاد يتطاير من أعينهم .. ولولا ظرافتنا ، ودماثة خلقنا ، وحلاوة نكاتنا .. لطرحونا أرضا ، وانهلوا علينا بالعصي .. وكان الله رحيمًا بهم وبنا اذ كفانا - ونحن في ذروة الجهاد الادبي - عواقب المهاترة والاعتداء .. ومنذئذ شدتنا بهم صداقة حميمة ارتفعت بنا عما كان يصنعه بيننا ألف حداد !!

واتمهي طبع العدد الثاني ، ورجعنا الى بيوتنا بعد أن خدمت أنفاس بغداد ، وخبث مصابيح البيوت ، ورقد جميع الأزواج السعداء في مخادعهم مترعين بمباهج الوصال الحلال ، وفارقني زميلي عبدالجبار عند جسر الائمة مترنحا مخمورا بلا مدام ، وسرعان ما التقمه ظلام (الدربونة) .. ولا أدري ماذا سيقول لزوجته عندما تشعر بتسلله نحو الفراش كلبشريف !!

وفي زقاق كتيب من أزقة مدينة الحرية كنت ، بعد أن غادرت السيارة ، أمشي الهويئا خائفا من كلب أسود غريب هجر مثواه البعيد مرابطا في زقاقنا ينشد قصائد الغزل والتشبيب أمام كلبتين ضامرتين حمراوين وقد شفاه لاجع الحب !! .. ولم يكد هذا الكلب يراني حتى نبخني بضراوة وقف لها شعر رأسي .. ولكنني تظاهرت بالبسالة ، ومضيت في سبيلي دون أن أقيم لنباحه وزنا . ويبدو انني بهذا التصرف قد جرحت كبريائه وأشعرته بمرارة الهوان ، فأراد أن يثأر ، فهجم علي متذائبا ، وقامت بيننا معركة فقدت عنصر التكافؤ ، فأنا أعزل كمنطقة مكشوفة ، وهو مدجج بالأنياب والمخالب .. وعندئذ آثرت أن أكون نعاما ، ورأيت الهزيمة أفضل حل للخلاص من هذه المحنة .

ووجدتني - وأنا في حديقة البيت - ألهث مذعورا ، مهتزا ذات اليمين وذات الشمال .. وحين تماكنت أعصابي فتحت الباب ، فاذا بالسيدة أم غسان على أهبة الاستعداد لمعركة جديدة .. وفي تلك اللحظة الحاسمة

فضلت أن اتمسها بابتسامة مؤاسية ، ولكنها لم تخدع بهذا النفاق المفضوح ، فمزقت ابتسامتي بزئير كاد يذهب بصوابي .. ومن جديد حاولت أن أكون معها أرق من نسيم ، فجاذبتها الحديث عن نتائج بناتنا في الامتحان ، وهنا رأيت شفيتها تتفرجان عن نيوب ليث ، أو هكذا قدر لي أن أراها فما كان مني الا أن أكنم هلعاً يرن في أحشائي ، وما كان مني الا أن أربأ بنفسي عن الاعتقاد بأن الليث يتسم .. وهذا الموقف الجديد وان كان حافلاً بما يفضح تخاذلي ، ولكنه قذف في نفسي أن أكون مسلماً من أهل القرآن الذين يؤمنون بأن الرجال قوامون على النساء ، فبادرت الى امتطاء نهج جديد في علاج هذه المشكلة الراهنة .. فسألته عن علة سهرها الى ما بعد نصف الليل ، فسكتت .. وسألته عن ولدي كيف هو ، فلم تجبني .. وسألته عن أفضل ما شاهدت في التلفزيون ، فلم تنطق .. وتكلمت على ما دار في مؤتمر الادباء وأنا أمعن النظر في أسرارها ، فوجدتها كمن يريد أن يقول شيئاً .. وفعلاً قطعت علي الحديث لتسألني عن المدة التي استغرقها اليوم الاول من المؤتمر ، وكانت ترمي بهذا السؤال الى ان المؤتمر انتهى منذ خمس ساعات وان من حقها أن تطلب ايضاحاً عن العشرات التي حالت دون عودتي الى البيت بعد ختامه . فقلت لها : أنت تعلمين انني عضو في الوفد العراقي الرسمي وهذا يبرر غيابي عن البيت مدة تناسب فعاليات المؤتمر .. ولكنني - فوق ذلك - محرر في صحيفة المؤتمر التي أصبح لزاماً علي وعلى زميلي عبدالجبار العمر أن نسهر هزيعاً من الليل لتكون في متناول الوافدين عند اجتماعهم صباحاً في قاعة الشعب . فقلت : لقد أزرى بك الادب ، ويا حبذا لو كنت حملاً من حمالي الشورجة^(١) وأنت بين أطفالك في أفياء بيتك تنعم بنا ونسكن اليك .. ولكن يا لضيعة الاعمار تمشي سهلاً وأنت ممن أدركتهم حرفة الادب ، لا تكسب من دنياك سوى كلمة (استاذ) .. هذه الكلمة السحرية التي تخادعون بها أنفسكم لتغذي غروراً يعوي في أعماقكم ، فبُست البضاعة

(١) من أسواق بغداد التجارية .

بضاعتكم ، وليكن الله في عونكم ما دام بعض الابداء لبعضهم ظهيرا ، وهم يتكاثرون الاملاق ، ويجتروا أحلامهم الزرق بلا مشقة .. وانني أرى من الافضل أن تجدد قواك الآن بنوم ممتع لتستقبل اليوم الثاني من أيام مؤتمركم بعنفوان كبير !!

هذا أنا ، يا قوم ، ذلك الوافد المغبوط الذي نفستم عليه مكانه في دنيا الحرف العربي .. هذا أنا كما خلقني الله دون زيف ولا تزوير ، فإذا طاب لكم أن تحسدوني وتحسدوا أمثالي على هذه النعمة الجديرة بالحمد ، فأنا - وقد عرفتم من أنا - أحق بأن أحسدكم وأنتم بسعادة النهار وبهجة الليل ناعمون .

وفي الصباح قاومت سلطان النوم ، وارتديت ملابس على عجل ، ثم حملت حقيبتى المدموغة بسمة (مؤتمر الابداء العرب الخامس) والتي استحوذت عليها بعد بكاء طويل ونشيج يستدر عطف الكفار بله المسلمين ، ولدى باب الدار اعترضتني ابنتي الكبرى أنسام لتوميء الى كلبه ترضع صغارها في ظل نخلة تبعد عن بيتي مسافة طويلة . فسألتها : وماذا وراء هذه الكلبة ؟ فقالت : انها من الكلاب التي لا ترحم أحدا ولو كان استاذا ، وقد حاول أطفال الدريونة الاقتراب منها ، فكان مصيرهم الفرار والجروح البليغة في أقدامهم .. ومن واجبي أن لا أذودك عن سر حرصت أمي على أن يكون طي الكتمان ، وانني شفقة عليك احذرك أن تتأخر الليلة كما تأخرت ليلة أمس .. لان امي ستقل هذه الكلبة وصغارها الى هذه الحفرة (وأشارت الى حفرة بازاء الباب) .. ويا ويلى اذا اقتربت منها وهي تجهلك . فشكرت ابنتي على هذا التوجيه السليم ، وأكدت لها عودتي قبل أن ينتهي التلفزيون من عرض مناهجه .

وانعقد المؤتمر ، وآزرت الاخ عبدالجبار في جمع الانباء وتنسيق المواد للعدد الثالث .. واقامت احدى المآدب العامرة بما لن يحلم به مطبخ بيتي ، وعطرت جوفي بعصير البرتقال ومعاجين الموز والتفاح .. وفي الساعة الحادية عشرة مساء بثت سر الكلبة أمام شريكى في تحرير صحيفة

المؤتمر طمعا في اطلاق سراحني من المطبعة ، فما كان منه الا أن يقدر موقفي تقديرا ايجابيا ، ويحثني على الذهاب قبل أن يخيم السكون على بغداد .. ففارقته وفي نفسي تميم بالغ للسهد الطويل الذي سيكابده الاخ عبدالجبار في المطبعة حتى الساعة الخامسة بعد نصف الليل .

وهبطت مدينة الحرية ، ودلفت في الزقاق الذي يقع فيه بيتي ، وما كدت أقرب من بابه حتى شعرت بهجوم صاعق يباركه عواء ناقب ، فهربت أذود بالحقيبة عن رجلي أنياب هذه الكلبة اللعينة التي استمرأت البسالة في الدفاع عن صغارها وحين وجدتها تساجلني بلا هوادة ، التمع في ذهني ما كان سلمان الفارسي (رضي الله عنه) يواجه به هجوم الكلاب فقررت أن أصنع ما صنع ، وجلست في مكاني على الارض ساكنا هادئا .. ففهمت الكلبة المحترمة انني استسلمت ولن ينقضي الا المنديل الابيض ألوح به تعبيرا عن الهزيمة .. فقبعت بعيدا عني وهي ترقب آخر التطورات في الموقف ... وفي هذه اللحظة فتحت زوجتي الباب ، وأضاءت المصباح ، وشهدت بعينها مصرع الرجولة أمام كلبة جرباء ، واقتربت مني ، وأعانتني على الوقوف ، ورافقتني نحو البيت قائلة : حمدا لله على سلامتك .

وخلعت ملابسي ، ولم أشأ أن ابادلها عبارة بعبارة ، لان الخجل كان يساورني من أقطاري .. وفي الفراش كانت بجانبني ، وقد أذهلها أن أكون كثير القلب ، تارة أنام على بطني ، وتارة على ظهري ، وتارة على جنبي ، وكان العرق يتصبب بلا علة ، من وجهي ويدي العاريتين .. ويبدو ان العرق كان يتفاوح برائحة التفاح والبرتقال ، فهزنتي قائلة : لقد فسدت فكرا ومعدة وستكون كغراب كليله ودمنة ! فأجبتها : اذا كان الفكر يتعفن بالادب ، فما بال المعدة ؟ . قالت : انك الآن تنضح برائحة التفاح الذكية ، وأحسب ان معدتك ستتمرد عليك بعد أن تغزو جميع الولاثم مندوبا عن صحيفة المؤتمر واصالة عن نفسك كعضو رسمي ، وستطالبك هذه المعدة بعد عودة الوافدين الى أوطانهم بالمزيد من التفاح والبرتقال .. وعندئذ لا تفاح ولا برتقال ، والبقية في حياتي .

فعبجت من هذه الالمية التي لم تخطر حتى ببال جرجي زيدان
عندما وضع كتابه عن الفراسة ، وقلت لها : ومن أين علمت انني تناولت
تفاحا ؟ قالت : ان عرقك هو الذي فضح رائحته ، ونم على مروفك من
مألوف حياتك !! •

هذا أنا ومثلي كثيرون يا من تشدقتم بالباطل ، فروجتم ما لا ينبغي
ترويجه ونحن في عشية المؤتمر ، فاذا كان حقا ما آمنتكم به وذهبتم اليه ،
فانني أرجو أن تفحصوا أنفسكم من جديد ، وتعيدوا النظر فيما رسختم
عليه •• فقد تعذرون من لم يكن قبل اليوم أهلا للعذر ، وتصفحون عن
ادباء أدوا الواجب ، وهم بشائكم جديرون •

وانعقد المؤتمر ، وجلست مع الجالسين في قاعة الشعب ، أجول
العين في الوجوه طمعا في صيد جديد تحتاج اليه صحيفة المؤتمر ، وكان
الكرسي الذي بجانبني خلوا ممن يشغله ••• وقد شغلته أخيرا الدكتورة
سهير القلماوي ، وكشفتي عدسة التلفزيون أمام المشاهدين ثعلبا ماكرا
يحادث هذه الشيخة ليغريها بكتابة ما يتطلع اليه قراء صحيفتنا الغراء •

وبعد ارفضاض الجلسة عدت الى البيت لأجد زوجتي عابسة حانقة
نائرة •• وقد أتهمتي قبل أن أتناول الشاي من يدها بأنني أصبحت زير
نساء كمهلهل بني ربيعة ، وأنكرت علي جلوسي بجانب الاستاذة القلماوي •
فقلت اتقي الله يا هذه ، فان التي كنت احادثها امرأة فاضلة ، ومفكرة
جادة ، وقد اشتعل رأسها شيئا قبل الاوان • فقالت : ومن تلك التي
همست في اذنها ما همست وأنت تناولها وريقة وعلى شفيتها وشفتيك ابسامة
تتفجر مجاملة ؟ قلت : والله •• لقد ركبت شططا ، وقارفت أكذب الظنون
•• وأنت تعرفين جيدا من أنا ، تعرفيني لزام مساجد وصديق عمائم ،
وحليف نسك وزهد ، ومع ذلك أراك تتوسعين في تفسير النصوص أكثر
من اللازم ، فأنا - كما أخبرتك قبل اليوم - ثاني اثنين من محرري
صحيفة المؤتمر ، وطبيعة عملي الصحفي تقتضي الاتصال بالناس •••
بالوافدين •• بالمسؤولين ، لاجمع ما يسد رمق الصحيفة وما يرضي

القراء ، وفي هذه الليلة بالذات اجتمعت بالشواعر والشعراء اسألهم عن
شيطان شعرهم اذا تمرد عليهم .. كيف يروضونه ليلهمهم ما يقولون ،
وقد استغللت وجود الشاعرة العراقية السيدة مقبولة الحلبي في الصف
الامامي الذي اختال بافتن باقة من طيبات المباسم ، فرأيت ان اهمس في
اذنها ملتصقا هتك البراقع عن شيطانها ، فوعدت خيرا .. وانتظرت
طويلا ولم ارها تكتب شيئا ، فأيقنت انها مطلت .. وعندئذ ترحمت على
المعري وشوبنهور والعقاد ، ولعنت معهم ذلك الشر الذي لا بد منه . فقالت:
وعلام هذا السخط الذي لا تستأهله السيدة مقبولة ؟ قلت : لانها لم تبج
بما وددت لو تبوح به ، ولسوف اموت وفي نفسي شيء من شيطانها .

هذا انا ، وعبدالجبار العمر اتعس مني ، ومثلنا كثيرون ، فما بالك
يا هؤلاء أكلتم لجومنا أحياء ، وطفقتم تاجرون بالكلمة الظالمة ؟ .. أفلا
يدل ذلك - بعد ان وقفتم على ما وقفتم عليه - على انكم قد ضربتم في حديد
بارد ؟ فتوبوا الى رشدكم ، واعتذروا ، ولكم مني ومن الذين على شاكلكي
من اعضاء الوفد العراقي .. الصفح الجميل ، والجزاء المشكور .

وغب اليوم الاخير من مهرجان الشعر العربي السادس فقلت الى البيت
عشية ، فوجدت هناك زوجتي وقد اوقدت نارا على فحم ، ولم تكذ تراني
حتى أمرتني بان اخلع ملابسي بسرعة ، وحين رأنتني قربها بدشداشتي
الفضفاضة القت كمية من حب الحرمل في النار .. حتى اذا تصاعد دخانه
امرتني ان ارفع ذيول الدشداشة فوق الدخان ، ولما سألتها عن العلة ...
اجابت بأنها تريد ان تطهرني تطهيرا ، وتقيني كيد النساء . فقلت : ولماذا ؟
قالت : لانك رجعت عن نسكك ، وهجرت مساجد الله ، ولزمت حساب
المؤتمر والمهرجان شواعر واديبات .. فقلت : وماذا تخشين ؟ قالت :
اخشى ان تصبح خروفا بين نعجتين . قلت : انني آخر من يكون مزواجيا
في دنيا الناس . قالت : واذا كنت كذلك فاني اخاف ان تكون من الخاسرين
في مطارح الغفلة التي تزين لك اعاش الصبابة الموات . فقلت : الان ترين
انني مثقل باعاشة خمسة أطفال ، وانني الآن في طريقي الى اردل العمر ،

فما الذى الهمك هذه الافكار السود ، ومن اين قطفت هذا الاتهام الجارح ؟ • قالت : من تهافك على الوافدات وحصاد لحيثك - كل يوم - ضحى ومغربا • قلت : افتحسين انني اجامل الدكتور عبدالعزيز الدوري وارافق شيخ النقاد محمد مندور ، واغازل الاستاذ امين الخولي وانشاكس علي صدقي عبدالقادر واحترم الدكتور عبدالرزاق محيي الدين •• بوجه مزروع ؟ •• وهل كنت اطمع في الحصول على خبر واحد لصحيفة المؤتمر لو كانت على وجهي لحية المندوب السوداني محمد الجنوب او لحيحة الشاعر التونسي نورالدين صمود •• انني اربأ بنفسى ان اكون اضحوكة الاجيال ، فلا تذكرني الا مقرونا بلحية ، وما الحريري صاحب المقامات ببعيد عني ، فهو لا يذكر اليوم ولم يذكر امس ولن يذكر غدا الا ولحيته معه ، فاذا طاب لي خلال ايام المؤتمر ان اتهادى بين الكواعب وأهل الشوارب حليق الوجه فلأمر ما • قالت • لامر ما ؟ •• وهل لي ان اعرف هذا الامر ؟ •• قلت : ومتى سأل الناس قصيرا لماذا جدع انفه ؟ •• فقالت : رويدك ، انني لم اقل لك ما قالت لعبدالرحمن بن اربطة زوجته : (قد صرت لا تبث في منزلك واطنك قد تزوجت) ، ولكنني وجدتك على شائسة التلفزيون احا نشوة ، وقد رأيت اكثرهن يغمزنك في خفر •• ومن هنا خفت على ديكي ان لا يكون له عن مداعبة الدجاج زاجر • قلت : ولكن هذا الدجاج من نوع يتحلى بالبروءة والعقل ، وقد استهلك صباه في البحث والدراسة للحصول على الدكتوراه والشهادات العالية •• وما احتككت باحداهن مندوبا عن صحيفة المؤتمر الا وجدتها انضح عقلا وأوسع أفقا من دجاجة زميلنا الدكتور اسحاق موسى الحسيني الذى خلد مذكراتها في احدى حلقات (اقرأ) فقالت : انا معك على انك في الطريق الى اردل العمر ، ولكن قلبك ما يزال أخضر كالعشب الضاحك ، وبوسعه ان يتحمل عشق احمد شوقي الذى ملأ الله به سماء البيد وارضها ، ولذلك فان اخشى ما اخشاه ان تقع احداهن في نفسك ، فيلهيك مبسمها الذى تجري عليه سلافة الخمر عني •• عن بيتي •• عن اطفالي ، وعندئذ سيدركك الناس

كما لو انك الملك الضليل الذي اطال تصيدهن ، وقتل ابوه وهو لا يدري •
قلت : يا ام غسان ، آمني بالله ، وقولي قولا معروفا •• فاني وحقك ••
وعيشك •• اكثر استقامة من رابعة العدوية ، وليس لي من دنيائي الا أنت
والكتاب والقلم ، وما كنت يوما ممن خدع النساء او خدعنه ، ولا ممن
مال فؤاده حيث الخدود التي زينها الله باللهب •• وانني اعتقد انك تجهلين
من قابلت وعرفت من الوافدات •• لقد كن على مستوى رفيع من الثقافة
والخلق ، ولم أجد بينهن من تقول : ويح نفسي •• لقد أتى العلوجي ،
ولم يخطر ببالي ان أقول : قاتلها الله •• لقد سبت فؤادي ، ولم ارج شيئا
لثلا يقال لي : انما ينفع المحب الرجاء ولم أتشبه بعمر بن أبي ربيعة
- ونحن في موسم كمواسمه - حتى لا يقول خبيث : وما حلاوة الدنيا ان
تم الصدع بين عمر والثريا !! ولم افكر في ان اكون (ابن ميادة) انتظر
زينب بنت مالك على مشارف بيوت بني مرة ، ولم املك ما ملك عبدالله
بن قيس من (رقيات) لاشتهر بهن • انني رجل شريف ، ومن قابلت
وحدثت وقابلتني وحدثتني •• هم وهن فوق الشبهات وكل من جمعني
بهن مجلس كن اطهر ذيلا واعف لسانا في ميزان استاذنا الخولي •

نعم رأيت الشاعرة عاتكة الخزرجي ، وسألتي سؤالا عابرا ، وهي
هي دائما سبيكة ذهب ، وقارورة طيب ، تتفجر حكمة ، وتفتن اللب بحلاوة
صوتها ورشاقة قوافيها •• سألتها عن شيطانها ، فما تمنعت عن الاجابة
•• متعا الله بسعادة اليوم والغد •

ورأيت الدكتورة عائشة عبدالرحمن يقوم التفسير معها ويقعد لتدعم
به نظرية زوجها الاستاذ امين الخولي في اعجاز القرآن •• ورأيتها على
موائد الطعام - وقد انتبذ زوجها مكانا قصيا - تجتمع ما لذ وطاب من لحم
وفاكهة في صحن حملته ضاحكة الى حيث وقف زوجها •• ورأيتها تتناول
من الاستاذ محمد كاظم الطريحي ، في كربلاء مجموعة من الترب الحسينية
والسبح السود ، وتدسها دسا في الحقيية •

ورأيت الدكتورة خديجة الحديثي تفضح منهجها العلمي الذي

سلوكه في تحديد ابناء الافعال ، وتمنيت لو كان زوجها الدكتور احمد
مطلوب حاضرا لاسمع ما قد يدحض وما قد ينصر ، ولارى كيف تحتم
معركة نحوية بين زوجين سعيدين وكيف تنتهي •

ورأيت الاستاذة سميرة عزام وقد جار عليها الوقت ، فانهت
محاضرتها لا كما تشتهي ونشتهي ، وجلست مبهورة تكلم من يجاورها
بغم بركان يتدفق حمما ، فبكيت على من سكن دارها ، وعاشها آناء الليل
واطراف النهار •• داعيا الله سبحانه ان يلهمه الصبر الجميل على هذيانها
الذي تنقطع انفاس الحياة ولا ينقطع •

ورأيت الشاعرة كريمة زكي مبارك ، واجتمعت بها ، فتكشفت لي
عن بغدادية بنت بغدادى شكلا ومضمونا ، ولهجة واتيكتا وطهارة قلب ••
وسلامة نية •• فوددت لو تعيش بين ظهرانينا مكرمة الى الابد •• ففي
بذلك بعض ما لايبها من دين في اعناقنا •

ورأيت الشاعرة روحية القليني نشوى بمدامة احمد رامى •• تفيض
مرحا وبهجة ، ويستوى في ميزانها الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،
وتطلق الضحكة عريضة لتضفي على جو سلمان باك الوان ابي قلمون ••
ورأيتها تنظر الى احمد رامى شزرا ، فعاتبها بخشونة ، وانهى الخصام
بينهما الى مودة •• وكفى الله المؤمنين شر القتال •

ورأيت الشاعرة التونسية زبيدة بشير يطوف عليها ولدان مخلدون
•• يقطفون سعادتهم من فمها اليانع ، ويتلقفون كلمتها وكأنها كرة ابي
سفيان ، وقد

ضربوا حمر القباب لها وأديرت حولها الحجر

ورأيت ، ورأيت ، ولو ذكرت لك يا شريكة حياتي جميع ما رأيت
•• لايقنت انني دائما عند حسن الظن ، ولامنت بأن من الوافدات من كن
يتفاوحن بشذا الفضيلة ، ويتعففن عما يشين السمعة ويجرح الكرامة ••
فقلت : ومع ذلك فان في حديثك تدليسا ، ولا استطيع ان اسكن الى ما

ذكرت • قلت : وهل أنا ، في مذهبك كالشاعر احمد رامى •• حين رأيت
 في بغداد وسامراء وسلمان باك والكوفة والمرحوم مسكين الدارمي الذي
 كانت مراهقات مكة لا يطيب لهن متنزه الا به ، وبالرغم من ان استاذنا رامى
 لا يلام على هوى وتصابي •• ولكنه كان يرجو محالا ، وكان يلتمس لقلبه
 المكدود وصلا عند المعجبات بلا طائل ، وانني وايم الله بعد ان رأيت يشابه
 في مسجد الكوفة وقد خشع مع الخاشعين •• قلت ان هذا الشاعر السدى
 هام في كل واد سيسجل ، في هذا المكان الطاهر ، نصرا كبيرا على نفسه ،
 ولكنه عجز عن ان يسلخ جلده القديم ، فكان كما قال الشاعر :

تروح يرجو ان تحط ذنوبه فأب وقد زيدت عليه ذنوب

قالت : شتان ما بينكما •• فقلت : وهل انا ، في زعمك ، كصالح
 جودت الذي لم تفضمه الايام عن اخيلة المراهقة ، ولم اجده يتعفف عن
 تساقط عليها العيون ، فأصبح قلبه في الجبال رهينا ؟ • قالت : ولا هذا •
 قلت : اتريد ان اضع ضميري على راحتى ؟ • قالت : عندئذ استطيع
 ان اصرف عنك الشبهات • قلت : انني - كما تعلمين - عضو في الوفد
 العراقي ، ومحرر - بالتعاون مع عبدالجبار العمر - في صحيفة المؤتمر ••
 ولكنني - كما لا تعلمين - كقرود دارون ، ذو وجه كالح متجهم •• لا
 صباحة فيه ولا ملاحه ولا جاذبية ولا نور •• ومن سعادتى ان يكون الاخ
 عبدالجبار على جانب كبير من البشاعة ، ولا يعوزه سوى كاهل مكسور
 ليكون احذب نوتردام •• فغير معقول - والحالة هذه - ان تتطلع الى ابعد
 من آنافا نحاول زواجا أو نموت فنعدرا • قالت : ذلك حق ، وانني حققت
 دون مبرر ، وعفو الله اشمل •• وليبارك عز وجل جهادك مع الادباء
 العرب المجاهدين في سبيل التحرر والبناء •

وبعد ان اختتم مهرجان الشعر اعماله عدت في اليوم التالي الى حيث
 انجز الواجب الذي ينتظرني في موطن الوظيفة •• حتى اذا انتهى الدوام
 الرسمي انطلقت بما املك من نشاط الى منزلي ، لاجد زوجتي تقدم

الشيء لوالدتي واخوتي واطفالي ، وما ان وقعت عيناها علي حتى غسلتني
بابتسامه مشرقه ، وهي تقول لضيوفها لقد حقق بخور الحرمل ما لم يحققه
دهاء المرأة . . هذا هو قد عاد مبكرا بعد ان خدرت معطسه بالدخان
القاهر !!

المعلم في مجرى التاريخ

ان التاريخ لم يسعد بالخلود الا من خرج على الواقع الراهن ضالاً أو رائداً ، وارتفع عن مستوى الانسانية نيباً أو سفاحاً ... ولكنه - منذ فجره - أسبغ على المعلم ظله الوارف ومد يده اليه مصافحاً بحرارة ما يزال المعلمون يستشعرون دفئها على بعد الشقة وتتابع الاجيال • ولا غرو في ذلك فالمعلم كاتم سر التاريخ وصديق الحضارة وناقل التراث التربوي عبر القرون وخلاق العناصر العقلية في المدنية ... ولذلك كان له على الانسانية فضل سيبقى خالداً ما دام الناس ينجبون أطفالاً •

وكلمة « المعلم » عريقة في القدم ولكنها تتمتع بشباب دائم وريبع مقيم ، ففي الصين القديمة كان « لو - دزه » فيلسوفاً قبل كونفوشيوس وقد وصف معناه بالمعلم القديم ، وكان المعلم العراقي السومري يعلم البنين والبنات الخط والحساب ويغرس في نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح • أما المعلم البابلي فهو أول من وضع المعاجم اللغوية ، وقد ترك لنا المعلم الآشوري قوائم بأسماء النباتات ... بينما كان المعلم الفرعوني يستحث تلاميذه على الاقبال على التعليم بقوله : « أفرغوا قلوبكم للمعلم وأحبوه كما تحبون أمهاتكم » وكانت الفضيلة أهم الموضوعات التي كتب فيها هذا المعلم • وقد رأيت الاسرة التعليمية في فارس القديمة الا تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سبباً

في أفساد الصغار • أما المعلم الأغرقي فقد كان يدرس كل المواد ويعنى بالاخلاق كما يعنى بالعقول ، وكان سقراط معلما مهذبا استطاع أن يقف على قدميه رابط الجأش أمام أولى الفكر الجبار والذكاء اللامع من معاصريه ، وكان أرسطو معلما ممتازا حاول أن يكون عقل الاسكندر المقدوني ، وتعاليمه سادت العصور الوسطى وخالها المفكرون وقتئذ تنزيلا من التنزيل^(١) ، وقد أطلق العرب على أرسطو اسم المعلم الاول •

وكان المعلم العربي الجاهلي يعلم القراءة والكتابة وأخبار الاولين وقصص التاريخ^(٢) ، وكان عدد المعلمين في بني اباد عظيما جعل أمية بن أبي الصلت يمدحهم بقوله :

قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعا والقط والقلم^(٣)
 وكان المعلم ، زمن محمد صلى الله عليه وسلم ، ينهض باعباء التدريس تطوعا وطلباً للثواب^(٤) ، مما يدل على حبه للمعلم واخلاصه فيه • وقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان مثقفا من أسرى بدر أن يفدي نفسه بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة^(٥) • وكانت المعلمة المسلمة في صدر الاسلام تسير المعلم في مضمار التعليم المجاني ، وقد ذكر لنا التاريخ منهن أم الدرداء^(٦) وحفصة بنت عمر وأم كلثوم بنت عقبة وكريمة بنت المقداد وزوجة الفرزدق •

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة « الترجمة العربية - القاهرة ١٩٥٠ ، ١/٢ : ٣١ و ١٠٥ و ٤٤٣ ثم ١/٤ : ٣٠ و ٤٢ ثم ٢/٢ : ٨٣ و ٥١٦ •
 (٢) الدكتور ناصر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٥٢ •

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٣٦ ، ج ١ ص ٤٨ •
 (٤) ابن قتيبة : عيون الاخبار ، القاهرة ١٩٢٨ ، ج ٢ ص ١٣١ •
 (٥) ابن سعد : الطبقات الكبير Leiden ١٩٠٤ ، ١/٢ : ٤ •
 والدكتور احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٢٢ •
 I. Goldziher : Encyclopaedia of Religions and Ethics, (٦)
 Vol. V, P. 199.

وأبى المعلم العربي ، في العصر الاموي ، الا أن يتطوع للتعليم
 اكراما للمعلم ، وقد تناهى الينا أن الضحاح بن مزاحم وعبدالله بن
 الحارث - وهما من معلمي الاطفال - كانا يعلمان ولا يأخذان أجرا^(٧) ،
 وأن الحارث بن محمد رفض أن يأخذ الرزق الذي رتب له عمر بن
 عبدالعزيز حينما أرسله ليعلم الناس في البادية^(٨) . وفي هذا العصر وجدنا
 نوابغ موهوبين بدأوا حياتهم معلمين للاطفال منهم الحجاج بن يوسف
 الثقفي والكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب .

أما المعلم العباسي فقد كان عملاقا مهيبا ، يتفجر علما ، ويتحلى
 بارادة قوية يغبطه عليها معلمو القرن العشرين وماذا عساني أن أقول
 عنه وهذا أبو القاسم البلخي يلجم قلبي ويأبى الا أن أتكلم عليه وحده
 ليكون القاعدة التي يقع عليها قياس معلم بغداد في عصرها الزاهر : فالبلخي
 كان عميد كتّاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ ، ولهذا كان يحتاج أن يركب
 حمارا يتقل به بين أهباء هذا المعهد الفسيح ليشرف على سير الدراسة فيه ،
 ويطلع - عن كتب - على سلوك تلاميذه^(٩) .

وحتى أقول زهو الخلافة العباسية كان مسجد بغداد لا يخلو من
 معلم يحاضر في شؤون الفكر ، فكان الطلاب والجماهير يجلسون في
 رحاب المسجد مأخوذين بمحاضرات المعلمة العظيمة « شهيدة » التي
 كانت تلقب « فخر النساء » وهي تخوض في الدين والادب والبلاغة
 والشعر^(١٠) .

وإذا هصرنا الاسى على الخلافة المتداعية ، فإن العزاء كل العزاء في
 أن نجد المعلم يستفرغ جهده في التعليم متحديا شظف العيش بابتسامة

(٧) ابن قتيبة : المعارف ، القاهرة ١٣٥٣ هـ ، ص ١٨٥ .

(٨) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٢٧ ،

ص ١٦٧ .

(٩) ياقوت الحموي : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، طبعة

D.S. Margoloth ، (القاهرة ١٩١٦) ، ٤ : ٢٧٢ .

Ameer Ali: The Spirit of Islam, 1953), P. 255.

عريضة لا تفارق شقيقته^(١١) ، وأرجو ألا ينزعج اخواني المعلمون اذا قلت لهم أن زميلهم المعلم العربي في صقلية الاسلامية كان راضيا بالاملاق الذي فرضته عليه قلة دخله ، اذ لم يتجاوز ايراده عشرة دنانير في العام^(١٢) . كما أرجو أن يحنوا رؤوسهم للقديسين الشهداء من معلمينا العراقيين الذين رزحوا تحت وطأة الفقر المدقع طوال الحكم المغولي وخلال القرن التاسع عشر والرابع الاول من القرن العشرين وهم مثابرون على أداء الرسالة التي ابتسم لها التاريخ في أعواره البعيدة ، والتي حملها بأمانة المعلمون العرب في كل مكان ... هؤلاء الذين لا يحصرهم عد^(١٣) .

أما معلم أوروبا في القرون الوسطى فلم يطمع في أن يحتل مكانة أخويه الاغريقي والروماني ، لما كان يسود قارته من ركود وجفاف عقلي . فلما ذر عصر النهضة قرنه على أوروبا بزغت جمهرة من كبار المعلمين تتحلى بالجرأة والمثابرة ، وكان أحدهم في نظر تلاميذه صديقا عزيزا .. بينما كان المعلم اليسوعي مترفا يفتقد عليه بابا الفاتيكان بركاته ، ومن هنا كان بارعا نشيطا لطيفا يهيم بتشجيع تلاميذه . بيد أن معلم القرن التاسع عشر كان ينطوي على عقل وقلب كبيرين ، وكان من النشاط بحيث يستحق من معلمي اليوم تحية بالغة وسلاما كريما^(١٤) .

وإذا كان لاوروبا أن تتسامخ على الاجيال بالمعلم (ملتون) الذي هجر

-
- (١١) رحلة ابن جبیر ، Leiden ١٩٠٧ ، ص ٢٧٢ .
 (١٢) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ، Leiden ١٩٣٨ ص ١٢٧ .
 (١٣) توجد اثبات باسماء بعضهم في المصادر التالية :
 أ - ابن حبيب : المحبر ، حيدر آباد ١٩٤٢ ، ص ٤٧٥ وما بعدها .
 ب - الجاحظ : البيان والتبيين ، طبعة عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨ ، ١ : ٢٥٠ - ٢٥٢ .
 ج - ابن رسته : الاعلاق النفسية Leiden ١٨٩٢ ، ص ٢١٦ .
 د - تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ و ص ٢٣٣ - ٢٣٥ .
 (١٤) جلبرت هايت : فن التعليم ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٥٤ ، راجع منه شذرات كثيرة موزعة هنا وهناك في أكثر من موضع .

السياسة الى التعليم ، فان آسيا ما زالت تمجد معلمها كونفوشيوس ،
والجزيرة العربية ما برحت تزهو بالغزالي ، وأميركا لم تنقطع عن احراق
البخور حول جون ديوي •

ذلكم هو المعلم عبر العصور : سار مع التاريخ يدا بيد ، وعانق وسيظل
يعانق الحضارة حتى الموت ولكن *****

نعم !! ولكن ابان وقفة قصيرة ألت بالانسانية في رحلتها الطويلة ،
وقفة لا نعلم أين كان مكانها من دروب الحياة !! •• ومن يدري فلعلها
كانت في منعطف مجهول • وهنا ، هنا في هذا المنعطف ، ومن نافذة
مظلمة ••••• أطلت يد سوداء قدرة رمت المعلم بحجر • وهنا ، هنا في هذا
المنعطف رددت الارجاء صدى لعنة تلقفها الناس جيلا بعد جيل حتى وعها
أبناء القرن العشرين سبة ضخمة تعلن أن المعلم (رجلا أو امرأة) أحرق ،
صقيع ، أرعن ، يتصدر ديوان النوكي^(١٥) •

فلنرجع القهقري الى الوراء باحثين عن الحقيقة الضائعة بين طيات
التاريخ ، فعسى أن نجدنا التوفيق اذ نبريء من (كاد أن يكون رسولا)
من تلك اللعنة الكلاسية المقيتة •

لقد انحدر الينا أن المعلم كان في الروايات اليونانية الهسزلية من
الشخصيات المضحكة^(١٦) • واذا عجبتنا لهذا المستوى الاجتماعي المهين
الذي تمرغ فيه المعلم ، فان هذا العجب لن يطول ، ولا سيما اذا علمنا أن
واضعي تلك المسرحيات هم من نتاج معلم استخدم نعاله لتأديبهم^(١٧) ،
فهم موتورون ، وعلى معلمهم ألا ينتظر منهم سوى العقوق وخيبة الامل •
أما في الصين القديمة فقد أصبح المعلم كونفوشيوس وزيرا للجرائم
في احدى المقاطعات فقطع دابر الجريمة ، وجعل الفضيلة رائد القوم ••

(١٥) جمع « أنوك » وهو الجاهل العاجز •

(١٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (اترجمة
العربية • القاهرة ١٩٤٢) ١ : ٣٠٧ •
J.P. Hahaffy : Old Greek Education (N.Y.), P. 39. (١٧)

ولكنه أخيرا قيل له : « أيها المعلم ! لقد آن لك أن ترحل » (١٨) . .
لماذا ؟ لان هناك من كان يعيث فسادا في الخفاء على نطاق شامل ، فبرم
معلما وضاق بفضيلته ، فليرحل اذن ، لان بقاءه لم يعد مرغوبا فيه ،
فرحل مثقلا بهوان بالغ . . ولكنه برحيله صان سمعة المعلم على أية حال .
وإذا حمنا حول العصر الجاهلي استحجال علينا أن نجد المعلم العربي
ديمما ، يقع له بالشنان ، على الرغم من كونه - في الاعم الاغلب - من
أهل الذمة . . وكفى به فخرا أن العرب كانوا ينفون الكمال عمن يحسن
الرمي والعموم وقول الشعر ولا يحسن الكتابة (١٩) . ولو كان المعلم الجاهلي
على غير ما انتهى له التاريخ من مكانة مرموقة لما كان بشسر بن عبد الملك
السكوني معلما ، بل لمنعه شرفه وكونه أخا أكيدر صاحب دومة الجندل
أن يكون من عشاق التعليم (٢٠) .

وظل المعلم موفور الكرامة ، مشمولا بالرعاية زمن الرسول صلى الله
عليه وسلم وامتد به العمر هكذا الى نهاية عهد الخلفاء الراشدين . وعندما
تولى الامويون مقاليد الحكم انعقدت أسباب التربية والتعليم برجال كان
أغلبهم من الموالي ، وتمشيا مع سياسة أصحاب السلطان في ازدياد هذه
الطائفة أصبح المعلم من سقط المتاع ، وحينئذ جرؤ شاعرهم على القول :
فان كنت قد بايعت مروان طائعا فصرت اذن بعد المشيب معلما (٢١)
فهو نادم لانه بايع مروان بن الحكم بدون اكرام ، فكان هذا منه تصرفا
معييا ، وكان حماقة أفضت به الى أن يستهلك شيخوخته معلما لاوزن له .
وهؤلاء المعلمون من الموالي التعماء كانوا موثلا للنقص ، عرضة لشتى
المطاعن ، ولكنهم صمدوا ، ونهضوا بالتعليم الى مستوى رفيع غير أبهين
لضيق رزقهم ، فكان حسبهم من العيش أرغفة من الخبز ترد اليهم مختلفة

(١٨) قصة الحضارة ١/٤ : ٤٦ - ٤٧ .

(١٩) عيون الاخبار ٢ : ١٦٨ .

(٢٠) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٥٠ .

(٢١) عيون الاخبار ٢ : ٥٤ .

الاحجام والاشكال من بيوت تلاميذهم (٢٢) * ولكن هل جعلهم هذا الكفاف في مأمن ودعة؟ * كلا ، فقد جاء بعدئذ من استغل الرغيف مبررا للهجاء ، كالرقاشي الذي تهجم على المعلم قائلا :

مختلف الخبز خفيف الرغيف منتشر الزاد لثيم الوصيف
وكأبي الشمقمق في قوله :

خبز المعلم والبقال متفق واللون مختلف والطعم والصور
ومهما يكن من شيء ، فان رغيف المعلم يميل بي الى الاعتقاد بأن التعليم ، أيام الامويين ، يكاد يكون مجانيا ، وفي هذا مدعاة للفخر ، ومن المؤكد أن ذلك المعلم كان ينظر الى الرغيف من غير الزاوية التي نظر منها سواد ، فهو ما يزال يتغنى بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أكرموا الخبز فان الله قد سخر له بركات السموات والارض » .

ان الموالي لم يسيئوا الى التعليم كما أساء اليه الحجاج بن يوسف الثقفي ذلك المعلم المجهول ، فهو بتحكمه في الرقاب وتعسفه وعدم اهتمامه بالوازعين الديني والادبي * * * قد دفع بمعاصريه دفعا الى احياء ذكرى بعيدة ، ذكرى معلم مغمور في الطائف ، وعندئذ جعلوا من شخصية المعلم ، أيا كان ، هدفا يجب أن يرمى بلا هوادة * ومن هنا كان المعلم عبدا مقيما على ذل ، فقد قال مالك بن الربيع يهجو الحجاج :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد أباد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح غلمان القرى ويغادى (٢٣)

وقد عرّض المهلب بن أبي صفرة بالمعلمين حين كتب اليه الحجاج يعجنه في حرب الازارقة ويندد به ، فكتب اليه المهلب : « ان البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره » (٢٤) .

(٢٢) تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٣٠ .

(٢٣) المعارف لابن قتيبة ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢٤) البيان والتبيين ١ : ٢٥٣ .

ومكثا فقد المعلم ما كان يتمتع به زميلاه الجاهلي والمحمدي ، وبلغ به
الامتهان الى مصير سيء كلفه غالبا اذ اتزع منه استقلاله في وسع مناهج
التعليم وطرائق التدريس ، هذه التي شك الخلفاء والاعيان في جدواها
وصلاحها . فرأيتهم يفرصون على معلمي أولادهم مناهج خاصة بعضها جيد
وبعضها تافه . وتاريخ الادب العربي حفظ لنا نماذج طريفة من تلك المناهج
على شكل « وصايا » أشهرها وصايا عتبة بن أبي سفيان وابنه عمرو وشريح
القاضي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وهشام بن عبد الملك (٢٥) .
ومن هذه الوصايا ما كان يثير في نفس المعلم النفور والاشمئزاز ، كأن
يطالب المسكين بتعليم أبنائهم السباحة واحفاء الشعر واطعام اللحم والتمر
على المسواك ومصص الماء مصا مع القراءة والكتابة والثقافة العامة ، وكان
يطالب باستعمال العصا وعض الطفل اذا اقترب ما لا يلائم ذوق عصرهم .
ومن يديرنا فلعل واضعي تلك الوصايا حسبوا كتاب المعلم صالون حلقة أو
مطعما شعبيا أو دارا من دور الحضانة !!

هذا التراث الضخم من المظالم جرى في طريقه ، بعد ادبار العصر
الاموي ، قدما الى أمام ، فقاسى منه كثيرا معلمنا العباسي . ففي بغداد
بلغ ازدياء العامة والخاصة بالمعلم ذروته ، وحيكت حول هذا الرجل
الباسل نوادر تافهة ، مريضة لا يعتد بها ولا تستقيم معها صحة ، وقد
تناقلتها كتب الادب مدعمة بـ « قيل ان ... وقالوا ... وحكى بعضهم
... وزعموا ... ومما نقل عن الجاحظ ... الخ » (٢٦) .

(٢٥) تجد هذه الوصايا في المراجع الآتية :

البيان والتبيين ٢ : ٧٣ . عيون الاخبار ٢ : ١٦٦ - ١٦٧ . الراغب
الاصفهاني : محاضرات الادباء - القاهرة ١٢٨٧ هـ : ٢٩ . ابن عبد ربه :
العقد الفريد ، القاهرة ١٩١٣ ، ١ : ٣٦٣ .

(٢٦) عيون الاخبار ٢ : ٥٤ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
دار الفكر - بيروت ٤ : ٣٥٥ والمستطرف من كل فن مستظرف ، القاهرة
١٣١٤ هـ ٢ : ٢١٣ وثمرات الاوراق لابن حجة الحموي ، على هامش
المستظرف ١ : ١٤٥ والذيل الاول لثمرات الاوراق ، على هامش المستظرف
٢ : ١٢٩ - ١٣٠ والف ليلة وليلة - الطبعة الخاصة لدار الهلال
١١٧ - ١٢١ .

ومن هذه النوادر المتداولة قصة ذلك المعلم الذي عشق أم عمرو ولم يرها ثم عكف في بيته منقطعاً عن كتابه حين سمع أحدهم يقول :
 لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار
 وقصة معلم آخر يطلب من أحد تلاميذه أن يقرأ لوحه ، فيصفر له ،
 وعندئذ يجرد له المعلم عصا قصيرة •• ولكن التلميذ يعجز عن قراءة
 اللوح ، فيعمد المعلم الى ضربه بعصا طويلة ، وهنا يهرب التلميذ ، فيادر
 المعلم الى وضع الكرة في الصولجان فيضرب التلميذ بها فيشجه •••
 وعندئذ يهجم عليه جميع الاطفال بالواحههم ، فيضع الطبل في عنقه والبوق
 في فمه ، فيضرب وينفخ أملاً في أن يسمعه أهل الدرب فيسارعوا الى
 خلاصه •

هذان انموذجان مما حام آنذاك حول المعلم ، وهما ان دلا فعلى
 تلميق صريح ووضع ظاهر • والانكى أن الجاحظ قال : « وقالوا : لا تدع
 أم صبيك تضربه فانه أعقل منها وان كانت أسن منه » (٢٧) ، ومراده أن
 الصبي أعقل من المرأة • وقد تناول ابن الجوزي ، فيما بعد ، هذه النعمة
 فأضاف اليها نعمات من عنده واضعا بذلك معزوفة عرجاء كثيرة النشاز •
 قال هذا الرجل : « عدل عقل امرأة سبعين حائكا ، وعدل عقل حائك
 سبعين معلما » (٢٨) ، فاذا ربطنا الجاحظ بابن الجوزي خرجنا بأن الصبي
 أكمل عقلاً من (٤٩٠٠) معلم !!

وحديث المعلم في العصر العباسي ذو شجون ، فالقصاصون
 والახباريون هبطوا بالمعلم الى مستوى اجتماعي يعافه المجنون ، ولو كان
 ذلك كذلك لهان الخطب ، ولكننا وجدنا بين القضاة من رفض شهادة المعلم،
 كما فعل القاضي سوار بن عبدالله البصري (٢٩) ، ويحيى بن أكرم قاضي
 المأمون (٣٠) •

• (٢٧) البيان والتبيين ، ١ : ٢٤٨ •

• (٢٨) ثمرات الاوراق ، ١ : ١٤٥ •

• (٢٩) عيون الاخبار ، ١ : ٦٩ •

• (٣٠) ثمرات الاوراق ، ١ : ١٤٥ •

أما لماذا رفضت شهادة المعلم ، فهناك تعليل مقبول ، وهو أن المعلم كان يأخذ على تعليم القرآن أجرا ، وهذا - في نظر الفقهاء - يسقط العدالة والمروءة ، ولذلك رفضت شهادته • فهل هناك أبلغ قسوة من هذه المعاملة التي كادت أن تجرد المعلم حتى من إنسانيته ؟•

وإذا كان قبول شهادة المعلم في صدر العصر العباسي موضع تردد من جانب القضاة فإن خريف ذلك العصر قد جلل المعلم بعار أبدي حين اعتبر شهادته مزورة باطلة لا يعتد بها • وهذا التجريح الظالم انتقل بعد ذلك الى المغرب الاسلامي ، فكان ابن عبدون يحذر من قبول شهادة المعلمين على الاطلاق^(٣١) ، وقد حدثنا ابن حوقل أنه رأى في صفيحة خمسة معلمين في كتاب واحد يعلمون فيه الصبيان شركاء متشاكسين ، يرأسهم شيخ يعرف بالملطاط من أقدم الناس على شهادة زور^(٣٢) •

أما تعليل هذه الظاهرة الاجتماعية فيتوكأ على أن المعلمين كانوا ألزم الناس للقرآن ، اذ عليه كان مدار تعليمهم ، فوثقهم الناس واعتمدوهم شهودا عدولا في مرافعاتهم القضائية ، ولما كانوا من الكثرة بحيث ضاقت بهم مجالس القضاة ••• شك القضاة فيما كانوا يدلون به عاقدين العزم على اسقاطهم من عيون الناس ، فأنتموهم بالرشوة وفساد الضمير ، وبأن شهادة الحق لا تستوقع ممن لا مروءة له •

وقد حفل العصر العباسي ، ربعا وخريفا ، بأدباء وعلماء جعلوا كلمة « المعلم » مضغة في أفواه العجائز ، منهم الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي ربا بنفسه أن يكون معلما^(٣٣) ، وعبدالله بن المقفع الذي تنكر للمعلم الذي كانه لاولاد اسماعيل بن علي ، فأعلن بوقاحة أن المعلمين لا يجمعهم الا ديوان النوكي^(٣٤) ، والجاحظ الذي أشاع حول المعلم جوا مشبعا

(٣١) رسالة ابن عبدون في :

Journal Asiatique, nr. 224 (1934), PP. 215-216.

(٣٢) كتاب صورة الارض ، ص ١٣٠ •

(٣٣) ابن الانباري : طبقات الادباء ، القاهرة ١٢٩٤ هـ ، ص ٥٧-٥٨ •

(٣٤) محاضرات الادباء ، ١ : ٢٩ •

بروح العداء^(٣٥) ، وأبو الفرج الاصفهاني الذي حسب المدرسة مزبلة
 قدرة حين تحدث عن عدي بن زيد في أغانيه قائلاً انه « لما تحرك وأيفع
 طرحه أبوه في الكتاب »^(٣٦) وعلى القارىء أن يتمثل في مخيلته الجو
 المعنوي الذي يحتضن الفعل « طرح » ومشتقاته . ومنهم أبو حيان
 التوحيدي الذي عاب رسائل صاحب بن عباد ورغب عن نسخها ، فتوعده
 صاحب وهدده ، فقال أبو حيان : « يتوعدني كأني طعنت في القرآن . . .
 أو . . . أو قلت ان صاحب معلم صبيان »^(٣٧) ، ومنهم الحريري الذي
 وصف المعلم بأنه « شيخ قد أقبل هريره وأدبر غريره »^(٣٨) ، ووصف
 براعته بأنها « معجونة برقاعة »^(٣٩) ، وابن الجوزي الذي أقام الدنيا على
 المعلم وأقعدها في كتابه « أخبار الحمقى والمغفلين » .

أما في المغرب والاندلس فقد شن ابن حوقل حملة ظالمة على معلم
 عصره في بلرم وصقلية فهو يأخذ على طائفة المعلمين كرتهم التي لا جدوى
 فيها ، اذ كان منهم في بلرم وحدها (٣٠٠) معلم لاذوا بمهنة التعليم فرارا
 من الغزو والجهاد ، وكان الغالب عليهم الصراع والخباط والجهل ،
 وهم بين غبي عم ، وناقص زري المنظر والمخبر ، ومع جهلهم وحمقهم
 فانه لا أخلاق لهم^(٤٠) .

وإذا كان حقا بعض ما زعم ابن حوقل ، فليس حقا فرارهم الى
 ميدان التربية والتعليم من الجهاد والغزو ، اذ لو كان ذلك كذلك وهم
 على غبائهم وحمقهم وجهلهم وسقاوتهم وصراعاتهم وخباطهم ، لكانوا

(٣٥) البيان والتبيين ، ١ : ٢٤٩ .

(٣٦) أبو الفرج الاصفهاني : الاغاني ، دار الثقافة - بيروت ١٩٥٥ ،

٢ : ٨٣ .

(٣٧) معجم الادباء ، ٥ : ٣٩٧ .

(٣٨) التهذيب : الخلق السيء ، والغريب : الخلق الحسن .

(٣٩) الرقاعة : صلابة الوجه وقلة الحياء . راجع مقامات الحريري ،

طبعة مصطفى محمد . القاهرة ، ص ٥٢٣ و ٥٣٩ .

(٤٠) كتاب صورة الارض ، ص ١٢٦-١٣٠ .

أسدوا الى الجيش الاسلامي يدا بيضاء بتطهيره من أشباه رجال لا يكسب بهم نصر • وأنا أرى أن ابن حوقل ما قال ما قال الا لحاجة في نفس يعقوب !•

ومن المغاربة الذين مقتوا المعلم كان ابن شهيد الاندلسي ، هذا الذي أحفظه ما كان عليه المعلمون من رفاة ونعمة ، فابرى لهم عدوا لا يرعى ذمما ولا يأخذ في باطله عدل عاذل^(٤١) ثم جاء ابن عبدون فأضاف الى الطنبور نعمات جديدة حين وضع رسالته المشهورة باسمه ، فحاول جاهدا أن يجرد رسل الثقافة من انسانيتهم ويتزعم منهم حق الحياة^(٤٢) •

وحين ولج الفكر العربي والاسلامي فترة التاريخ المظلمة قيض للمعلم من كاد أن يدخل في روع الاجيال أن التعليم ليس الامباءة أو مستقما ، وأن المعلم مخلوق ان لم يكن حمارا فابن عمه • وعلى رأس هؤلاء الخصوم الراغب الاصفهاني في « محاضراته » والابشيهي في « مستطرفه » وابن حجة الحموي في « ثمرات أوراقه » •

وهكذا انثالت الكوارث على رأس المعلم في كل مكان قامت له فيه مدرسة ، ففي العصر الايوبي انخفضت رواتب المعلمين تحت معدل يقارب المجاعة ، وحين أراد الوزير نظام الملك خيرا بالمعلم والتعليم اذ شيد المدرسة النظامية في بغداد ورتب لاساتذتها الرواتب المحترمة ، ضج الناس فيما وراء النهر وأقاموا مأتم العلم^(٤٣) ، فقد أفرغهم أن يكون المعلم يوما من الايام سعيدا موفور اللقمة • وفي هذه الفترة حدد لنا كتاب « ألف ليلة وليلة » رسالة المعلم في شخص رجل أمي ضاقت به سبل العيش فلم يجد في غير التعليم ما يملأ معدته خبزاً^(٤٤) •

أما معلمنا أيام الحكم المغولي للهند فلم يكن حظله من تفاهة الشان بأقل من حظ زميله في القاهرة أو بغداد ، فقد آمن معاصروه بأنه ليس

(٤١) الدكتور زكي مبارك : النشر الفني ، القاهرة ١٩٣٤ ، ٢ : ٤٩-٥٠

(٤٢) راجع رسالته في (1934) J.A.

(٤٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، Lipzig 1825 ، ١ : ١٥ •

(٤٤) ألف ليلة ، ٦ : ١٢٠-١٢١ •

الا حمالا لخرافات عجائز القرى ، وانحدر الينا من هناك أن الملك
(أورنجزيب) صرخ بمعلمه الذي طالبه براتب ومنصب قائلاً : « ماذا تريد
مني أيها المعلم ؟ ••• أيمكن في حدود العقل أن تطلب مني أن أجعلك أحد
كبار الامراء في حاشيتي ؟ ••• اذهب وعد الى القرية التي منها أتيت ولا
تدع أحدا يعلم من أنت ولا ماذا صار من أمرك » (٤٥) •

وأراني هنا في حل من الاعتقاد بأن أورنجزيب رغب في رؤية المعلم
يلفظ أنفاسه الاخيرة في أحد الكهوف بعيدا عن الناس والاشياء كحشرة
في قمامة ، ولم يدر بخلده أن التاريخ حليف المعلم ، وأنه سيحمله جنديا
مجهولا ، وأنه سيقم له على ذراه نصبا تذكاريا يحججه الاطفال وعشاق
المعرفة عاما بعد عام •

ان المعلم عبر الاجيال داعم العين ، حزين الفؤاد ، لم يسمع الا
ما يخنقه ولم ير الا ما يجعله قذى في عين الحياة • ولكي نلم بمأساته
جيدا ••• فلا مناص لنا من متابعة السير معه الى حيث نحن الآن • فأبان
الاحتلال العثماني لبلادنا كان المعلم العراقي منزويا في أركان المساجد أو
في جحور تضن عليها الشمس بضياؤها ، يعاني من الفقر ما لو وقع على
جبل لتصدع • واني لأخيله سائرا من زقاق الى زقاق في مقدمة تلاميذه
في أثناء الاحتفال بالختمة ، وهم آخذون سيبلهم الى بيت التلميذ (خاتم)
القرآن ، ولكأنني به يتسم بمرارة حين يردد تلاميذه في أثناء هذه المسيرة
الطويلة : « الله ينصر السلطان ••• آمين » •

أما زميله المصري في عهد المماليك فلم يكن أسعد منه ، فقد اتهم
بأن مدرسته ليست غير مصنع للجبن والخوف وخور العزيمة ، حتى قيل :
« زي ولاد الكتاب ينسرعوا من أول كف » (٤٦) •

وفي الربع الاول من قرنتنا هذا صاغ رجال التربية المعلم دكتانورا

(٤٥) قصة الحضارة ، ١/٣ : ٢٢٩ - ٢٨١ •

(٤٦) أحمد تيمور باشا : الامثال العامية (الطبعة الثانية ، القاهرة

١٩٥٦) المثل رقم ١٥٥٧ ص ٢٨٣ •

بل جلادا للاطفال وطلبوا منه أن يكون « قوي الارادة » ، نافذ الحكم ، فلا يمحو اليوم ما أثبتته بالامس ، ولا يصفح عن عقاب رأى أنه لا يبد منه «^(٤٧) فهم يحسبون الصرامة حزما ، ولم يدروا أنهم بذلك انما يدفعون بالمعلم دفعا الى « الستاتيكية » و « الفكرة الثابتة » الى الالحاد بالتطور ومنطق الحياة •

وفي السنوات الاخيرة رأينا من المعلمين من يعلن سخطه ، بلا علة ، على التعليم ، وخير مثال لهؤلاء المعلم الشاعر الفلسطيني المرحوم ابراهيم طوقان الذي قال يوم توزيع الشهادات على رفاقه المعلمين : « أبعد هذا العناء والكد يختار هؤلاء التعليم مهنة ؟ ألا ساء ما يفعلون ... ما أقصر مدى طموحهم ! »^(٤٨) • وابراهيم مارس التعليم في نابلس وبيروت والقدس وبغداد أكثر من أربع سنوات ، قضاها موزعة بين فراش المرض وصفوف المدرسة فزهدهته هذه الرتبة في التعليم ، فقال ملتاعا :

(شوقي) يقول - وما درى بمصيبي
 اقدم ، فديتك ، هل يكون مجلا
 ويكاد (يفلقني) الامير بقوله :
 لو جرب التعليم (شوقي) ساعة
 حسب المعلم غمة وكآبة
 مئة على مئة اذا هي صلحت
 ولو أن في «التصلح» نفا يرتجى
 لكن أصلح غلطة نحويه
 مستشهدا بالغر من آياته
 وأغوص في الشعر القديم فانتقى
 وأكاد أبعث (سيويه) من البلى

« قم للمعلم وفه التبجيلا »
 من كان للنشء الصغار خيلا ...!
 « كاد المعلم أن يكون رسولا ...! »
 لقضى الحياة شقاوة وخمولا
 مرأى (الدفاتر) بكرة وأصيلا
 وجد العمى نحو العيون سيلا
 وأبيك ، لم أك بالعيون بخيلا
 مثلا ، واتخذ « الكتاب » دليلا
 أو « بالحديث » مفصلا تفصيلا
 ما ليس ملتبسا ولا مبذولا ...
 وذويه من أهل القرون الاولى

(٤٧) عبدالعزيز عطية : كتاب المعلم (دمنهور ١٩٢١) ص ١٨ •

(٤٨) ديوان ابراهيم (دار الشرق الجديد ١٩٥٥) ص ١٩ - تصدر

فدوى طوقان •

فأرى (حمارا) بعد ذلك كله رفع المضاف اليه والمفعولا
لا تعجبوا ان صحت يوما صحيحة ووقعت ما بين « البنوك » قتيلا
يا من يريد الاتحار وجدته ان المعلم لا يعيش طويلا^(٤٩)

ولكنه مع ذلك ظل معلما الى أن غادر الحياة في حضان أمه • وما أدلى
به ابراهيم لا يعتبر حجة دون تعلق معلمينا بالتعليم ، فهو بحضنه الى صحته
السلبية كان ضجرا لا من التعليم فحسب ولكن من الحياة أيضا ••• هذه
الحياة التي بصق عليها بسخاء قبل أن يفارقها •

فهذا هكذا ، وبين ظهرائنا اليوم من اذا تحدث معه معلم شهر به
فيما بعد قائلا : « انه سقيم الرأي ، مريض السلوك ، فهو معلم ليس الا » •
وما أكثر المناسبات التي سمعت فيها من رزق ثقافة أو شيئا منها يقول
لصاحبه : « دع عنه عتابك ، هل فاتك أنه Teacher » ، ومما يحز في
النفس أن المعلمين أنفسهم يترفع بعضهم على البعض الآخر دون أن يدركوا
أنهم منخرطون في سلك واحد هو سلك التربية والتعليم ، فليعلم هؤلاء
أنهم اخوة وأبناء اسرة واحدة وحملة رسالة من بين يديها خرجت انسانية
الانسان ، فليكونوا فوق الشبهات ، وليربأوا بأنفسهم عن اللدد والخصام •
وقبل أن أختم هذه الجولة الماتعة أود أن أقول ان الصفعات التي
كالتها أرباب القلم والسيف للمعلم قدم لها المسكين خده الأيمن في الشرق ،
وخده الايسر في الغرب • ففي القرن الثامن عشر وفي فرنسا بالذات هاجم
جان جاك روسو المعلمين من وراء ترسانة واهية هي الدفاع عن الطفولة ،
حين أعلن للملأ : « ان كذب الاولاد من عمل المعلمين » ، وأنهم قائلا :
« تريدون أن تكونوا ذوي نفوذ طريف في نفوس الاولاد بمبادئ لا
أساس لها ، وبقواعد خالية من الصواب ، وتفضلون أن يعرفوا دروسهم
وأن يكذبوا على أن يبقوا جاهلين وصادقين » وزعق مرة : « أيها الاساتذة

(٤٩) الديوان ، ص ١٤٤-١٤٥ •

دعوا الرياء وكونوا فضلاء صالحين » • وأخيرا رمى المعلم بالحماسة^(٥٠) .
فهو لم يقل ما قال الا بعد أن نصب نفسه المحامي الاول عن الطفولة •••
تلك الطفولة التي شردها هو نفسه في شخص أطفاله الذين عاذوا بالاديرة
والملاجيء من اهماله ولا مبالته ، فبات لا يعلم أين هم ولا بأي الزوايا
ركنوا ، فوضع كتابه « أميل » كفارة ، وهاجم المعلمين بلا جريرة •

وفي القرن التاسع عشر ، وفي انكلترة ••• تهيأ للاستاذ « كيت »
مدير مدرسة « ايتون » من وصفه بأن « أغلظ التلاميذ وأشدهم جرأة
واعتداء كان يرتعد خوفا اذا نظر اليه » ، وبأن « غلطة واحدة في درس
اللغة اللاتينية كان المخطيء لا يكفر عنها الا بالدموع والدم »^(٥١) • وبالع
شارلس ديكنز في احدى قصصه في وصف فظاعة المعلم في معاملته
تلاميذه^(٥٢) ، وادعى الكاتب والشاعر الانكليزي روديارد كيبلنج في أحد
مؤلفاته أن معلمه كان يعذبه بالسخرية في طفولته^(٥٣) ••• وليس غريبا
على من عذب الشعوب بالسخرية في رجولتها أن يدعي ما ادعى •

وحين قبلت القصصية شارلوت بروتي العمل كمرربة لدى اسرة
لندنية من الطبقة الوسطى ، كان رب الاسرة يعاملها كما لو كانت خادما^(٥٤)
أما الكاتب الانكليزي هيوز فقد أهال التراب على رأس المعلم في روايته
« أيام تلمذة توم براون » •

أما في ألمانيا فقد كانت قصة « الملاك الازرق » كافية وحدها لتجمل
من المعلم مهزلة خالدة تثير الأسى والرثاء والاسف ، وقد ساهمت السينما
في الاساءة الى المعلم حين أخرجت هذه القصة على ستارها الفضى ليحظى
الناس على تفاوت مشاربهم وفي كل مكان بمشاهدة المعلم المسأة •

-
- (٥٠) جان جاك روسو : اميل أو التربية (ترجمة عادل زعيتير
القاهرة ١٩٥٦) ص ١٥٢ و ١٥٥ و ٢٨٤ •
(٥١) فن التعليم ، ص ٦٠ •
(٥٢) المصدر السابق نفس الصفحة •
(٥٣) المصدر السابق ، ص ٩٠ •
(٥٤) شارلوت برونتى : جين اير (الترجمة العربية - مطبوعات
كتابى . القاهرة ١٩٥٦) ١ : ١٥ •

وفي العصر الحديث ، وبعد أن تهاوت سمعة المعلم جريحة تنزف منها الدماء . . . وجد كل التلاميذ ، في أرجاء المعمورة ، لذتهم القصوى في معاكسة معلمهم . وأفضل مثال على ذلك ما قصه علينا الاستاذ (هايت) في كتابه (فن التعليم) قائلا : « واني لأذكر بعد أن كبرت وكنت لا أزال تلميذا أنني شاركت في معاكسة أحد المعلمين مع أنه كان رجلا طيبا ، وكان من قدامى المحاربين الذين امتازوا في مواقع القتال ، فكاد الرجل يبكي من الغيظ والخذلان » (٥٥) .

لك الله أيها المعلم . . . ما أجمل صبرك وما أثبتك في وجه الأعاصير ! . . . ان طريقك لم يكن مفروشا بالورد ، وان مستواك الاجتماعي كان مستوى السفوح والصفاف لا القمم السامقة ولا الاعماق المواراة ، وان سمعتك كانت مضغة في أفواه لا تبول الا بناحا . . . وكأني بالانسانية ترنو اليك موفور العزم ضاحك السن وأنت تقطع الاجيال واحدا فواحدا ، تقطعها وأشواك الطريق تدمي قدميك ، والخبز القفار يمزق معدتك . . . تقطعها منبوحا ، ولكن النباح كان يتهاوى حولك زفيرا تننا ، ألا ساء ما قذف النباحون .

لقد خرصوا قديما أنك أحقق ، وتعالى النعيب اليوم بأنك «صقيع» ، فصدقهم قوم وكذب آخرون . . . ولبس ما جوزيت !

ان الجاحظ وهو شيخ الادباء ومعلم عصره أول من نقل الكفر ، وأذاع حول المعلم ما لا يناسب حاضن التراث التربوي متذرعا بأنه لم يقل شيئا وانما سمع وقيل له ، وهاكم ما أثر عنه في هذا المقام :

من أمثال العامة : أحقق من معلم كتاب .

وفي قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء .

(٥٥) ص ٤١ .

وقال صقلاب :

وكيف ترجى العقل والرأي عند من

يروح على اثني ويفدو على طفل

وقد سمعنا قول بعضهم : الحمق في الحاكة والمعلمين والغزاليين^(٥٦) .
ومن ثمة شدد ابن الجوزي النكير على المعلم ، فأرسل فيه كلمة
حاسمة أودعها كتابه « أخبار الحمقى والمغفلين » . وهي : ان المعلمين
للصبيان صناعتهم تكاد أن تكون اكسيرا لقله العقل وابرار حماقة^(٥٧) .
ثم أدلى الحريري ، بعدئذ ، بدلوه ، فأنشأ مقامته الحليية التي صور فيها
أبا زيد السروجي معلم صبيان ، ليقول لنا : « فجلست اليه لأبلو جنى
نطقه وأكنته كنه حمقه » فوجد « حذاقته مزروجة بحماقة » ، وحين علم
أن صاحبه أبو زيد بعينه أخذ يلومه « على تدير بقعة النوكى وتخير حرفه
الحمقى » لان ربها « يخرف في أمد سير ، ويتسم بحمق شهر ويتقلب
بعقل صغير »^(٥٨) .

فالمعلم في نظر هؤلاء وغير هؤلاء مخلوق أحمق ، وحماقته مزمنة .
ولكي نقف على ضخامة هذه السبة يلزمنا أن نزور المعاجم ونراجع بعض
النصوص الخاصة التي يحفل بها أدبنا العربي . فمن اللغة نخرج بأن
أصل الحمق الكساد وهو ضد العقل أو قلة العقل^(٥٩) ، والحماقة فساد
الرأي^(٦٠) ، أو الجهل وقلة الرأي^(٦١) ، وانحمق الرجل : ضعف عن
الأمر ، فيكون الأحمق الكاسد العقل^(٦٢) ، أو هو الذي يتكلم بالصواب

(٥٦) البيان والتبيين ١ : ٢٤٨-٢٤٩ .

(٥٧) ثمرات الاوراق (على هامش المستطرف) ، ١ : ١٤٥ .

(٥٨) مقامات الحريري ، ص ٥٢٤ و ٥٣٩ و ٥٤٠ و ٥٤١ .

(٥٩) ابن منظور : لسان العرب (دار صادر وبيروت ١٩٥٦)

ج ١٠ ، مادة « حمق » .

(٦٠) المنجد ، مادة (حمق) .

(٦١) مقامات الحريري ، ص ٥٣٩ « هامش » .

(٦٢) لسان العرب : (حمق) .

الجيد ثم يجيء بخطأ فاحش^(٦٣) .

فاذا سلطنا على المعلم ما تقوله اللغة في الأحمق والحماقة كان لنا أن نأكل لحم من يجب أن يرحم ميتا وحيا ، فنقول فيه انه كاسد عقلا ورأيا ، وأخو هفوات قبيحة ، وانه مسلوب الارادة مائع الشخصية . ولكن الرزية في (أحمق) الادب العربي أجل منها في (أحمق) المعاجم . وبين أيدينا هذه النصوص التي تبرز لنا بوضوح (سلوكية) الاحمق ومنزلته في المجتمع العربي :

(أ) كانت المرأة لا تتزوج الأحمق كما فعلت عائشة بنت عثمان^(٦٤) .

(ب) يقال : أحمق من عقق ، لانه من الطير الذي يضع فراخه^(٦٥) .

(ج) قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - الأحمق أبغض الخلق الى الله اذ حرمه أعز الاشياء عليه . وهو العقل^(٦٦) .

(د) قال عمر - رضى الله عنه - اياك ومؤاخاة الاحمق فانه يريد أن ينفحك فيضرك^(٦٧) .

(هـ) نظر بعض الحكماء الى أحمق على حجر ، فقال : حجر على حجر^(٦٨) .

(و) قيل : الاحمق يتحفظ من كل شيء الا من نفسه^(٦٩) .

(ز) قال الامام علي (ع) لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه^(٧٠) .

(٦٣) البيان والتبيين ، ١ : ٢٤٩ .

(٦٤) عيون الاخبار ، ٢ : ٤٣ .

(٦٥) نفس المصدر ، ٢ : ٧٢ .

(٦٦) المستطرف ، ١ : ١٥ .

(٦٧) عيون الاخبار ، ٢ : ٣٩ .

(٦٨) المستطرف ، ١ : ١٥ .

(٦٩) ابن أبي الحديد ، ٤ : ٣٥٢ .

(٧٠) المصدر السابق ، ٤ : ٣٥١-٣٥٢ .

(ح) وقال أيضا : أكبر الفقر الحمق (٧١) •

(ط) قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به الا الحماقة أعت من يداويها
وقريب من هذا قول الابشيبي : الحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة ،
وهي داء دواؤه الموت •

ومن هذه النصوص نستطيع أن نقدم واقعا تمسا لكل أحقق ...
لكل معلم ، وما عليه الا أن يتجرعه أنفاسا ، هذا الواقع هو : عزوبة
أبدية ، وغفلة مقيمة ، وهدف لغضب الله ، وتوحد قاتل ، وسخرية
دائمة ، وعقد نفسية ، وفقر مدقع ، وداء مزمن ، وأخيرا - وحيث ان
الحمق داء دواؤه الموت - مشائق تقام في مختلف البقاع يتأرجح عليها
الحمقى •

فيا لهول ما ينتظر المعلمون !•• ان سمعتم ملوثة بالحماقة ، ولا
سييل الى غسلها الا بتحرير أنفسهم من ربة أحكام جائزة •• لا تزال
مقبورة في بطون بعض الكتب الصفر • عليهم أن لا يقيموا على الحماقة
التي أريدت بهم ، وعليهم أن لا يرحبوا بما قيل حول ما للحماقة من
محاسن ، فذاك حديث خرافة •

أفليس عجيبا أن يقول الشاعر :

ان للحمق نعمة في رقاب النا س تخفى على ذوي الألباب
ويحسب أحدهم (ويدعى أبا العباس) أن الحمقى أذكي وأفطن
من غيرهم (٧٢) •

ويزعم الزمخشري : أن البقلة الحمقاء سيدة البقول (٧٣) •
ويقول الاصمعي : سأل أعرابي عن رجل ، فقالوا : أحقق
مروزيق • فقال : ذاك والله الرجل الكامل (٧٤) •

(٧١) المستطرف ، ١ : ١٥ •

(٧٢) لسان العرب : « حمق » •

(٧٣) أساس البلاغة : القاهرة ١٩٥٣ ، مادة : (حمق) •

(٧٤) عيون الاخبار ، طبعة دار الفكر - بيروت ١٩٥٥ ، ج ٣ ص ٢٩ •

ويقال : الاحمق أعلم بشأنه من العاقل بشأن غيره (٧٥) .

نعم ! •• أفليس عجيباً أن يقال هذا وغير هذا تحبباً للحماقة وتزييناً لها في قلوب الناس ؟

لقد كشف التراب عن هذا الفخ أبو حيان التوحيدي حين سأل مسكويه : لم قيل « لولا الحمقى لخربت الدنيا » (٧٦) ، فأجاب مسكويه بما لم يتقع غلة التوحيدي ، فظل الرجل حائراً ، سيء الظن بالحمقى الى أن اخترمته المنون .

ومن حسن حظ المعلمين ، في كل مكان ، أن يستدل العرب على صفة الأحمق بثلاثة وعشرين عيباً هي : طول اللحية ، وترك النظر في العواقب ، والثقة المطلقة ، والعجب ، والثرثرة ، وسرعة الجواب ، وكثرة الالتفات ، والجهل ، والعجلة ، والخفة ، والسفه ، والظلم ، والغفلة ، والسهو ، والخلاء ، والبطر عند الاستغناء ، والقنوط عند الافتقار ، والبخل ، والالاحاح في المسألة ، ورعونة الجواب ، وضحالة الفكر ، والقهقهة الصاخبة ، والصراخ البالغ (٧٧) .

وهذه عيوب انسانية شائعة ، لا يخلو من بعضها آدمي أيا كانت حرفته وثقافته ، فليهنأ المعلمون ••• فقد باتت الحماقة ملكاً لجميع الناس ، وقديماً قال النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أحاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب

وقال بشار بن برد :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معاييه

أما (الصقاعة) فقد شاء بعض السفهاء أن يجعلها لازمة اجتماعية من لوازم المعلم ، وشاء أنصاف السفهاء أن يتسع مداها فترعى المعلم

(٧٥) عيون الاخبار ، طبعة دار الكتب ، ٢ : ٤٣ .

(٧٦) الهوامل والشوامل ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٤٩ .

(٧٧) المستطرف ، ١ : ١٥ .

وسواء • وهكذا راجت كلمة « صقيع » في جميع الاوساط رواجاً كبيراً ، ولكنها لم تأخذ سبيلها الى العقل الشعبي الا في حدود القرن السابع عشر • ولأجل أن تقع على معنى « الصقيع » ونكشف عن حقيقته فلا بد أن نلزم باعتماد اللغة و (الفولكلور) والاستفتاء ذرائع لما نحن فيه بصدور •

ان مادة « صقع » في جميع المعاجم الموضوعية قبل « تاج العروس » للزبيدي تكاد لا تشير الى مفهوم الصقاعة كما نألفه الآن ، ف « صقع » عدل عن الطريق ، و « الاصقع » من الخيل والطير ما كان على رأسه بياض ، و « الصقع » رفع الصوت وخطيب « مصقع » بليغ ، و « صقع » في كل النواحي ذهب ، و « الصقع » البلاغة في الكلام أو قلة الشعر في الرأس ، و « الصقيع » صياح الديك أو هو الجليد ، أو ما يسقط من السماء في الليل كأنه نلج (٧٨) •

فمادة « صقع » بالرغم من أنها خلو مما يجب أن نجده في «الصقاعة» المعاصرة الا أنها تومض بمعنى مشترك يجعلها قابلة لتطور والانتقال الى مفهوم جديد • فالعدول عن الطريق والصياح والجمود • كل ذلك قد أباح للعامة ، ابان القرن السابع عشر ، أن تطلق على البليد كلمة « الصقعان » (٧٩) ، جارية في اشتقاقها مجرى البردان والعضشان ، ثم شاع اطلاقها على البطيء الحركة القليل النشاط من باب التجوز شيوعاً مستفيضاً كاد ينسى معه أصل المعنى (٨٠) • فالعامة حين ألصقت بالبليد كلمة «صقعان» لم تتناول « المعنى » برفق وهوادة ، وانما حملته حملاً على التكرار لحقيقته والتعلق بأهداب المجاز •

(٧٨) لسان العرب ، وقاموس الفيروزابادى ، وصحاح الجوهري ، ومخصص ابن سيده : مادة « صقع » •

(٧٩) السيد مرتضى الزبيدي : تاج العروس « القاهرة ١٣٠٦ هـ » ٥ : ٤١٦ مادة « صقع » •

(٨٠) أحمد رضا العاملي : رد العامي الى الفصيح « صيدا ١٩٥٢ » ص ٢٣٦ •

ولا تزال كلمة صقعان تضطرب في أفواه عوام سورية ولبنان ومصر الى يومنا هذا ، يرمون بها من كان بليدا فاطر الهمة • وبين يدي نص أدبي يلصق البلادة والتخلف بالمعلم ، فهو اذن صقعان ما في ذلك ريب... وهذا هو :

قال الخليفة المأمون : المعلم يجلو عقولنا بدبه ويصدأ عقله بجهلنا ، ويوقرنا برزائته ونستخفه بطيشنا ، ويشحن أذهانا بفوائده ويكل ذهنه بعينا ، فنأخذ منه محمود خصاله ويستغرق مذموم خصالنا ، فإذا برعنا في الاستفادة برع في البلادة^(٨١) •

فالصقعان بدالاتها على البليد وحسب انما تعد نعمة سابقة ينبغي أن يغبط عليها المعلم ، ولكنها بمرور الزمن نزعت الى الاحاطة والشمول ، فأطلقها عوام القرن التاسع عشر على الأحمق والمغفل والغبي والبطيء الحركة والبارد والكليل والكاسد والمغموم والكامد والتساحب ومحجوب العقل ... هكذا قال المستشرق الانكليزي ادوارد وليم لين^(٨٢) ، ومن هنا انتشر الغاز السام ، وما على المعلم الا أن يلوذ بالكمامة •

وصقعان لم يكتب لها انتشار في العراق ، ولعل عوامنا آثروا عليها كلمة « صقيع » لكونها ألصق بالتطور اللغوي ، فصقيع هي تفخيم لكلمة « صقع » التي تنظر الى « المضروب بأفة سماوية » أو « المتبلى بقاصمة أرسلها عدو » والى « السهو » و « الغفلة » و « الضعة » و « تفاحة الشان »^(٨٣) •

فلا غرو ، بعد ذلك ، اذا كان لنا أن نضع بازاء كلمتي صقعان وصقيع هذه الجمهرة من الصفات الموجعة : بليد ، أحمق ، مغفل ، غبي ، أخرق ، كليل ، كاسد ، مغموم ، متبلى ، وضع ، ساه ، غافل •

(٨١) أخبار الحمقى والمغفلين ، ص ١٠٧-١٠٨ •

(٨٢) E.W. Lane, Arabic-English Lexicon, New York 1956, Book 1, Part 4, P. 1707, Art : صقع

Ibid. (٨٣)

وهكذا كان المعلم غرضا لعدوان محمود طحنه طحنا ، ولربما يعود سبب ذلك الى ان جماعة ممن سهل عليهم الهوان احترقوا مهنة التعليم بلا ثقافة فسلكوا نهجا دعيا لا الى حمدهم بل الى امتهانهم وتخفيف وزنهم .. وهؤلاء هم الذين نحروا سمعة المعلم نحرا جاهزا ، وهناك من معلمي الكتابيب من احترف هذه المهنة متسلحا بأنه يحفظ القرآن استظهارا في حين أن القرآن وحده لا يؤهل حافظه لان يكون معلما ، فهؤلاء وأمثالهم هم الذين خلقوا للمعلم من يناصبه العدا .. ولكن ليس معنى هذا أن المعلم ظل طريحا على ساحل الحياة أو أنه وضع على الرف الى الأبد أو أنه كان وسيكون رهين ظلام سرمدي ، اذ لا يصدق الحكم على المجتهد بتفريط المقصر ، وقد قيل : أحق الناس بالرحمة عالم يجرى عليه حكم جاهل ، ولذلك أنجد التاريخ المعلم بمن ينصفه ويقم له وزنا ، فهذه الصين في حضارتها الاولى قد فاخرت الامم بأن معلمها كونفوشيوس قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة في العالم^(٨٤) وفي أيام الدولة الرومانية جعل دقلديانوس الحد الأعلى للمدرس في المرحلة الاولى من مراحل التعليم عشرين دولارا عن كل تلميذ في كل شهر ، وأعفى هديران وانطونيوس كبار المعلمين في كل مدينة من الضرائب وغيرها من الاعباء العامة^(٨٥) ، وفي سنة ١٦٦٦ أباحت الحكومة اليابانية للمعلمين حمل السيوف لينعموا بنفس المنزلة الاجتماعية التي ينعم بها طائفة السيفيين^(٨٦) أما في ظل الاسلام فقد كانت وظيفة المؤدب تطوي على اغراء قوي وتخلع على من يشغلها منزلة مرموقة ، وكثيرا ما كان يخصص للمؤدب جناح في قصر الخليفة

(٨٤) قصة الحضارة ، ١/٤ : ٤٢ .

(٨٥) قصة الحضارة ، ٣/٢ : ٣١١-٣١٤ .

F. Brinkley, Japan: Its History, Arts and Literature, (٨٦)
Vol. 1. P. 229.

يعيش فيه^(٨٧) ، وقد ارتفع قدر المعلم وأصبح مهيباً حتى رأينا عبدالله بن ادريس يرفض أن يخضع المأمون بدرس ، قائلاً : ان جاء مع الجماعة حدثناه^(٨٨) ، وانحدر الينا ان السلطان سنجر السلجوقي يرى ان منصب التدريس أشرف المناصب ، وان الملك الأفضل كان ينزل من قصره في قلعة دمشق يتأبط كتابه ويأتي دار استاذة الكندي في درب العجمي^(٨٩) ، وان الامراء المسلمين في صقلية وبلرم قد أصدروا المراسيم الخاصة باعفاء المعلمين من أعباء الجندية^(٩٠) .

وكان المعلم لا يلام على أي عقاب يراه مناسباً لتلميذ متمرد حتى قيل « عصا المعلم من الجنة » ، وقد بارك العوام المعلم وأسبغوا عليه حلة من الجلال ، وضربوا في فضله الأمثال ، فقالوا : « دقة المعلم بألف ولو تروح بلاش » و « يموت المعلم وهو يتعلم »^(٩١) .

أما الفقهاء فقد رأى بعضهم ان المعلم ضرورة دينية لا نافلة عابرة وان من لا شيخ له لا دين له ، ومن لم يكن له استاذ فأمامه الشيطان^(٩٢) بينما الجماعة السرية التي ظهرت في البصرة في القرن الرابع الهجري ترى أن « ليس في وسع كل انسان معرفة العلوم في أول مرتبته ، ومن أجل هذا يحتاج كل انسان الى معلم أو مؤدب أو استاذ في تعلمه وتخلقه وأقويله »^(٩٣) .

-
- (٨٧) معجم الادباء ، طبعة الدكتور احمد فريد رفاعي ، ٥ : ١٢٥ - ١٢٦ .
- (٨٨) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، حيدر اباد ١٣٥٣ هـ ، ص ٣٤ .
- (٨٩) تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٩٨ ، ٢١٥ .
- (٩٠) كتاب صورة الارض ، ص ١٢٨ .
- (٩١) الامثال العامية ، ص ٢٢٩ ، رقم المثل ١٢٣٤ و ص ٥٥٥ رقم المثل ٣١٨١ .
- (٩٢) كتاب الشكوى (المؤلف مجهول) نشرته المجلة الآسيوية عام ١٩٤٠ ص ٢٨٤-٢٨٥ .
- (٩٣) رسائل اخوان الصفا (المطبعة العربية . مصر ١٣٤٧ هـ) ١٨.٤

ذلك ، والقرن العشرون سجل للمعلم نصرا رائعا وهياً له ما أصبح معه ناصع الجبين نظيف السمعة ، وقد دأبت جميع الحكومات - في كل بقعة من بقاع الارض - على تذليل العيش الكريم وتحقيق الرفاهية له وآله .

وفي هذا القرن أيضا رأينا المعلم يتمتع بالزمالات والمنح الدراسية رغبة في أن تتوسع آفاقه الفكرية ويقف على ما لم يعلم ، ورأينا وظيفته تتفاوت مع سواها من الوظائف فهي سهلة ، مائعة ، متحررة من القيود . وقد أعجبتني في هذا الصدد كلمة نبيلة للاستاذ (هایت) أرسلها دفاعا عن المعلم في جميع أنحاء العالم ، فهو يقول : اننا قلما نجد من المدرسين من تقيدهم أعمالهم الى المكاتب مثل غيرهم من أصحاب المهن ... والمعلم يتمتع بفسحة الفراغ . ووقت الفراغ من أتمن ما يوهب للانسان وهو لا يوهب الا للقليلين من الناس ، ومن جهة أخرى أشد ما في حياة المعلم هو الفقر ، فالمعلم رجلا كان أو امرأة من أقل الطوائف ربعا ... على أن وظيفة المعلم تمتاز من ناحية أخرى بالاستقرار والاطمئنان ولكن الحق اولى بأن يقال ، فالاستقرار والاطمئنان لا يجديان شيئا مع الفقر .. بل ان الفقر يبعث في النفوس مرارة وبؤسا ، وما أكثر من رأينا من المعلمين الذين كرهنا فيهم ضيق الصدور مع أنهم في حقيقة أمرهم من أرق الناس طباعا وما أفسد عليهم هذه الطباع السمحة الا ما يقاسونه من شدة وطأة الحياة وقسوتها وهمومها (٩٤) .

وبالرغم من ذلك فان حياة المعلم يسيرة ، هادئة ، خصبة ، لا يكدر صفوها مكدر ولا يفسدها جو مسموم ، ومع هذا فهو ناقل « الكلمة الصالحة » الى أبناء الجيل الطالع ، والكلمة الصالحة - كما يقولون - صدقة ، فليس على أولي الأمر منا بمستكر أن يرحموا شيخ المتصدقين وزين المجتمع اذا نابه أو حل بساحته شقاء .

(٩٤) فن التعليم ، ص ٣٧ ، ٣٨ و ٣٩ .

مع الحمار...

(هكذا عرفتهم) .. تاج أدبي نفيس ، تفرد بأن يذيق القارئ مباحج الصداقة ليجرعه الأحزان أنفاسا . وهذه نسيجة توحدت باتاجها محاكاة الخليلى منذ سنة ١٩٤٢ لتؤكد بها وجود الأستاذ جعفر كاتباً حلوبا بين النخبة العربية الثقيفة في حياتنا الفكرية الراهنة .

أما كيف عرفت الخليلى لأقول هكذا عرفته ، فذلك ما لا سبيل إليه ، لأنني أعجز من أن أحدد المعالم الغبشاء ، أو اشخص الارتسامة العاتم التي يمكن أن تصوغها سويعة كنت خلالها جليس الخليلى ذات يوم .

عرفت الرجل .. من بعيد ، محرراً للركن المدرسى في مجلة (الحيرة) التي تعاون وعبدالمولى الطريحي على اصدارها سنة ١٩٢٧ في مدينة النجف وتناصر العقوق على اغتيالها بعد صدور عددها الثالث . وعرفته ، وقد شط المزار ، يصول الخرافة ، ويربي الكلمة الصالحة ، وينشر الأدب الرفيع على صفحات (الفجر الصادق) الذي بزغ في النجف سنة ١٩٣٠ والتقمه الظلام وهو في عنفوان عامه الاول . وعرفته قيد خطوة ينعش المحافل الادبية بالحرف الخلاق ويثقف العقول والافئدة بالحكمة الهادية .. عندما حبس (الهاتف) على ارشاد الجيل عشرين سنة ، تمزقت بين النجف وبغداد خلال ١٩٣٤ - ١٩٥٤ . هكذا عرفت الخليلى ، والقارئ - معي - على ان هذه المعرفة هي دون ما يرجو وأرجو .. ولكنني أستطيع أن ابشره بأنني في أواخر

سنة ١٩٦٢ وجدتي - من حيث لم أحسب - أمام الخليلي ، وجها لوجه ، في دار تناخم الباب الشرقي ببغداد . . . أرصدها للتعارف مع أبناء آدم اجتماعيا وتجاريا وعلى الصعيد الادبي . ففي دار التعارف منح وداده لمن كان له قلب ، وارتفع بلسانه عن مهابط النفاق . . . وهناك تآزرت الصداقات وتلاحمت الوشائج الوجدانية بين اولي الالباب .

في هذه الدار اجتمعت به برهة من الضحى تتجاذب الحديث وتراشق بالبشاشة . . . لتعقد أربح صفقة في الحياة الدنيا ولنجد صداقة وثقى لا تصرعها نيممة ولا ترقى اليها شبهة ولا يكدرها مأرب نفعي . . . لقد وجدته يتفجر نبلا وشهامة في السر والعلانية . . . يذكر أهل القلم بما يستحقون من حمد وثناء وبارك فيض الخاطر تنجبه المطابع ترانا للاجيال .

ولا أكرم القارىء اني حاولت أن أسبر غوره في جلسة واحدة . . . ولكنني ضحكت من تراحم الانطباعات وتحالفها على زكاء الرجل ونظافته ظاهرا ومكتوما ولذلك غادرته وفي نفسى لهفة . . . فلشد ما آلمني اني لم أعرفه جيدا ولم أستطلع دخيلته كما ينبغي ولم يتسن لي أن أقول : هكذا عرفته . . . فلا غرو اذا هجرته وفي العين قذى .

وقبل خمسة أعوام أو أكثر بقليل رأيت الخليلي ، وتحدثت معه ولم أعرفه . . . وبعد ذلك بسنة واحدة عرفته . . . ولكنني لم أراه ولم أتحدث معه . . . وتلك مفارقة ان لم يقرها عقل سليم فان الواقع يؤكد ميلادها ويناويء المكذبين .

عرفته نصير حق وأخا وفاء وقرين خير وأسير تواضع ، وصريع احسان وجليس كتاب وحليف قلم ورائد نكتة وذخيرة أخبار . . . وعرفته أكثر من ذلك بلا لقاء بلا تراور . . . انما قرأت (هكذا عرفتهم) فقتصت بين سطوره شبحا دلت رواثحه على استاذنا جعفر الخليلي .

وبين دفني (هكذا عرفتهم) خواطر على اناس من الادباء والعلماء

والساسة رضى الخليبي عنهم فخلدهم افاذا عاشوا - بعض الاحيان -
لغيرهم أكثر مما عاشوا لانفسهم • انه أرخ منازعهم الفكرية وجهادهم في
مطارح الحياة •• واستقرأ أعمالهم وآراءهم فمجد سعيهم اذا كان حميدا
وغفر ظنونهم اذا كانت آتمة •• بعبارة رفيقة مهذبة وبأسلوب هادىء
• رصين •

لقد كانوا منه معقد الازار ، فتناهبوا وداده ورف عليهم : هذا من
شيعة طفولته وهذان من جنود صباه وهؤلاء من أركان اليقاعة والكهولة
وكانوا جميعا أو بعضا وهو معهم يطبقون على الخير والحق ولهو الحديث
ويتواكلون على انعاش الفكر العراقي بالمقالة الواعظة أو الدراسة النافعة
•• تطلع مع (الفجر الصادق) أو يبشها (الهاتف) لتمكث في الارض
وقد ذهب غيرها جفاء •

أما الخليبي فكان معهم في مفاكحة ومهازلة •• يعود مريضهم ويؤاسى
بائسهم ويحن الى غائبهم ويتسقط آبسأهم ويصلح ما أفسد دهرهم ،
وينصر طموحهم ، ويحارب باطلهم •• وكان أرفع من أن يستبيح
ذمارهم أو يدوخ سعادتهم بكلمة لئيمة •• ولكنه تعود اذا مات أحدهم
أن يبث شكواه دامعة ويقول :

فلو ان الدموع تبل وجدا لأجريت الدموع حشى مذابا

ان الذين عرفهم الخليبي ونوه بهم في كتابه (هكذا عرفتهم) ••
كلهم الآن رهائن لحدود بعد أن توفاهم الله وجعلهم من المرحومين • وكان
الخليبي على ذكراهم حريصا حين أكرم مشاهم في كتابه الجليل •••
وذلك صنيع مفعم بالوفاء ، ولكأنني بالاستاذ الخليبي ، وهو يجعل من
كتابه حقيقة تعايش القراء ، كمن ربط في اصبعه خيطا ليذكر به حاجته
وهذا ان دل فعلى ان الخليبي رجل شريف النفس معجون بالنبل لاتأخذه
في رعاية الصديق غمزة حاقد وقد استوى في ذلك جميع أصدقائه أحياء
وأمواتا •

لقد كان الخليلى ، في كتابه كأبن خلكان أو ابن حجر العسقلاني أو اليونيني ، كاتب سيرة ، ومدون ترجمة •• ولكنه بز هؤلاء ومن تقدمهم ومن جاء بعدهم في فن العرض والتشويق وقهرهم جميعا ببراءته من الثأر والضغينة والغيط والتلب والعداوة والنهش والقسوة والشراسة والظلم والاساءة والكذب •• انه بزهم وقهرهم ، ثم سبقهم في خصال الخير والعفو والحلم والنزاهة والشفقة •• وأخيرا انفرد بالبكاء على الراحلين من أبناء زمانه وأصدقاء حياته •

لقد وجدت ابن حجر العسقلاني يشتم ويلعن بعض رجال (الدرر الكامنة) وبنوه بوفاة أحدهم قائلا : (وهلك سنة كذا) بينما وجدت الخليلى يبكي الميت ويستبكي القارىء • وتلك ألمع فضيلة في (هكذا عرفتهم) •• هذا الكتاب الذي لا يملك قارئه الا أن يتمنى صداقة الخليلى ثم يتمنى الموت ليأخذ مكانه ، بين الموتى ، في الجزء الثاني الذي سيعده الاستاذ جعفر بعد أن يفتقد من يعز عليه فقده • وأنا شخصيا من هذه الزمرة التي ترجو احتلال الجزء الثاني لتنعم بالذكر الطيب ، ولتغسل أدرانها بدموع الخليلى •• لان (هكذا عرفتهم) في ملتي واعتقادي - أجمل مقبرة يستطيع أن يرقد بين أفيائها انسان ، ويستطيع دفنها أن يكون أسعد من دفين تربة الفاتيكان أو الشونيزي أو أية تربة أخرى ، ولان (هكذا عرفتهم) أفضل ألف مرة من (معجم القبور) الذي يلهم القارىء ما يجب أن يتوقعه من اغتراب وكآبة وفراغ وانقباض ووحشة • ولما يبهجنى ويسعدني ويسرني أن يبايعني الشيخ جلال الحنفي ويعاهدني على أن نكون جميعا بين الذين يشير اليهم فهرست الجزء الثاني من كتاب الخليلى وانني لوائق من أن الخليلى سيطر به أن يوافدني الشيخ جلال الى كتابه لنصبح عظة الموسم •

أقول ذلك وأنا مطمئن الى اقتران هذا الايجاب بقبول الشيخ الحنفي اتكالا على اعتراف نشره في ٩ تشرين الاول ١٩٦٣ •• أفلم يقل

- وقتئذ - ان قراء الخليلي في كتابه الحافل الجديد ليلحفون عليه أن يصنع جزءه الثاني والثالث ان كان له ثمان وثالث ؟

وانتي لاسائل الشيخ الحنفي وهل يكون له ثمان وثالث اذا لم يمت بعض من يعيشون في سويداء الخليلي ؟ • لا جرم لاقولن ان صدور الجزء الثاني والثالث لا بد أن يتوقف على خاطوف المنية يحصد أرواح غير المغضوب عليهم - في مراتع الخليلي - ولا الضالين •

والكلمة الفصل ، بعد ذلك ، للاستاذ جعفر وللشيخ جلال ولا أدري ماذا سيقولان تعقيا على مدى الوجاهة في ما اقترحته حول ميلاد الاجزاء الباقية من (هكذا عرفتهم) •

وانتي - اذ قلت ما وددت لو يكون تمهيدا للبحث الذي آليت أن أعقده على أخصب ما رأته المكتبة العربية من مؤلفات الخليلي - أراني الآن قادما •• لاحتوش السواقط الفولكلورية التي استبطنت الجزء الاول من (هكذا عرفتهم) •

وجدت الخليلي ذا حس لغوي رفيع فيما يضع من كلمات لفئة من الناس دون فئة أخرى • فقد جعل للادباء (أقماما) وللرعاع (أفواها) ليوازن بين سلوك وسلوك وبين أخلاق وأخلاق • فهو - حينما تناول المرحوم الشيخ جواد الشيبيني بالمدح - قال :- ويكفي أن يخط سطر من ثر الشيخ جواد لكي تراه مرددا على الكثير من (أقمام) الادباء •• راجع صفحة ٥٩ من الكتاب - •• ولكنه حين وجد نفسه ملعوناً على السنة سقاة الماء من حملة القرب في المأتم الحسيني لمناصرته دعوة المرحوم السيد محسن العاملي الى تحريم الضرب بالسيف والسلاسل في يوم عاشوراء • قال : - وهنا تحول النداء على الماء الى المناداة باللعن على (أفوا) سقاة الماء •• صارخين : لعن الله الخليلي - ماء •• راجع صفحة ٢١٠ - •

فالتغور ، عند الخليلى أقمام ما دامت تتناطق بالخير وأفواه ما دامت
تتراشق بالشر .. وليذهب الحريري الى الجحيم ، وليحطم هناك درة
غواصة فقد بات غير مجد أن يقنعا بعد اليوم بأن استعمال (أقمام) بدلا
من (أفواه) انما هو وهم من أوهام الخواص وانني - ومعني الخليلى -
لعلى بصارة بأن الفم كان في أصل وصفه فاها وان العرب جمعته (افواها)
باعتبار الاصل .. ولكننا رغم ذلك لم نجد بين العرب غير الحريري من
استهجن (أقماما) جمعا لفم ، وما بين أيدينا من معاجم .. يؤيد مذهبنا
ويجيز الافمام كلمة مستقيمة مع الاسلوب السليم ، اضافة الى ما للافمام
من ظلال وأجواء على الصعيد المعنوي ، فهي تغور ملمومة متحفظة ..
لا يتساقط الكلام منها الا بمقدار أو بعد موازنة دقيقة .. بينما الافواه
تلازم الارتجال وتتمرد على الضبط والوزن والكيل والتخطيط والاحصاء
فالطعنة أو المرأة لا تكون فوها الا اذا كانت واسعة الثغر وفوهة البركان
- اذا ثار - قذفت الويل جزافا والراعي اذا جر ابله على افواها افسدت
العشب الآمن دون رادع واذا أصيب المسال من أفواه البقل أصيب من
أخطائه وصنوفه بلا تمييز .. وعلى هذا كان الزمخشري أيضا فليطمئن
من ادركته ريبة أو كان من المكذبين • والذي يرى (بيض النمل) أجمل
مظهرا من (بيض البط) فلا بد ان يفضل (أقمام) ذوي المروءة على
(أفواه) الشتامين •

(هكذا عرفتهم) كتاب مائع نفيس ولكنه وضع بيني وبين الخليلى
حمارا من حمير النجف وبرذعة (جلالا) من براذع خانات الكاظمية ..
ولو لم يكن الحمار حيوانا شعيبا ذا ماض لامع في التاريخ والادب
والاسطورة والطب على الصعيد الفولكلوري .. لما استأثر باهتمام الخليلى
واهتمامي غير ان استاذي قال كلمته في حماره ولم يبق الا ان اقول
كلمتي في حماري وحمير الناس أجمعين قدر المستطاع ووسع الطاقة •
ذكر الاستاذ الخليلى في صفحة ١١٧ من كتابه حين عقد ذكرياته
على المرحوم حجة الاسلام السيد ابي الحسن بان حمارته كانت من أشهر

ما يعرف تاريخ الحمير في النجف فقد كانت حمارة (حساوية) بيضاء ، تعرف وقت الصلاة وتعرف أين تقف في الطريق والسيد فوق ظهرها وتعرف حين وصولها الى باب الصحن أين هي من باب الصحن كأنها كانت تعلم بأن احترام الطقوس الدينية لا يجوز لها أن تخطو ولا خطوة اخرى من باب الصحن الشريف ، وقد ود الكثير وتمنى غير واحد لو كان سائسا لحمارة (السيد) ، ولربما رووا عنها صفات عجيبة مبالغه في قيمتها . ولما ماتت هذه الحمارة اجتمع حولها الاطفال والنساء وبدأوا يسحبونها بالجبال الى خارج المدينة وكلما اجتازوا مسافة انضم اليهم أبناء محلات اخرى وكانوا يهزجون وفي طليعة هذا الجمهور من الصبيان والنساء كان (عباية) الفكه الذي ألف هذا الموكب أما الاهزوجة فقد كانت :

وداعية الله يا جحش والينه

هاى هيه يو بعد تلفينه

هذا ما ذكره الخليلي وحسنا فعل فالحمار - ذكرا أو اثني - من الحيوانات التي تمتع الناس بالرزق والعافية وتبرعت بأن تكون أفكوهة للسامرين في المحافل الارستقراطية والشعبية دون ان تطمع في جزاء . وأنا - شخصيا - احترم هذا الكائن الوديع واقدر شهرته في حياتنا الفكرية اجود تقدير فهو الحيوان الوحيد الذي جاء ذكره في القرآن الكريم موزعا على ست سور هي الجمعة والبقرة والمدثر والنحل ولقمان وفاطر . . على النحو التالي : « كمثل الحمار يحمل اسفارا » و « وانظر الى حمارك » و « كأنهم حمر مستفرة » و « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » و « ان انكر الاصوات لصوت الحمير » و « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها » .

وذكرته كتب الصحاح في حديث مرفوع الى النبي (ص) مفاده : « ليس في الجبهة ولا في الكسعة ولا في النخة صدقة » فالجبهة هي الخيل ، والكسعة : الحمير ، والنخة : البقر العوامل . . وبهذا يكون

الحمار قد شمله الاعفاء من الصدقة تقديرا لسعيه الحثيث في مناقب الحياة •• ولكنه - مع ذلك - لم يسلم من أحاديث الدسائين فقد افادنا الابشيهي في (المستطرف) بأن الحمار دخل في الاحاديث المنكرة التي منها ان النبي (ص) لما فتح خيبر أصاب حمارا أسود فكلمه فقال ما اسمك؟ فقال: يزيد بن شهاب اخرج الله تعالى من نسل جدي ستين حمارا كلها لايركبها الانبي ، ولم يبق من الانبياء غيرك وكنت اتوقع لتركبي ، وانا عند يهودي يجيع بطني ويضرب ظهري وكنت أعر به عمدا • فكان النبي (ص) يركبه في حوائجه •

على ان هذا الاقتراء الواضح لم يكن ليمنع الحمار من الاستبداد بمركزه المرموق بين رفوف المكتبة العربية فقد قبض الله له من يتناوله بكتاب أو قصة ، وانتي - في هذا المعرض - لاتذكر جيدا اسماء طائفة من المؤلفات الحمارية ما زالت متداولة بين الايدي حتى يومنا هذا أشهرها: « خواطر حمار » (١) و « حمار الحكيم » (٢) و « العزيز وحماره » و « حمار جحا » و « جحا وحماره » و « انا وحماري » (٣) •• كما احتل ما يستحق من مكان ذميم أو محمود على صفحات « كليله ودمنة » و « الف ليلة وليلة » و « رجوع الشيخ الى صباه » ولكن الحمارة انفردت عن زوجها باطلاق اسمها على مجلة هزلية عامية صدرت في القاهرة سنة •• ١٩٠٠

وكأني بالحمار (يشتر) اذنيه ويحرك شفقيه ضاحكا ، ودموع الفرح تتألق في مآقيه حين يعلم بان المستشرق المشهور (ج • رسكا) قد خلده في دائرة المعارف الاسلامية مادة مستقلة بعنوان « الحمار » • وللحمار فوق ذلك ، القدر المعلى في امثال العرب ، فقد نوهت

(١) كتاب ترجمه الى العربية الاستاذ حسين الجمل وهو للسيدة الفرنسية كونتس دي سيكور •
(٢) تأليف الاستاذ توفيق الحكيم ، وللحكيم كتاب آخر شره بعنوان (حماري قال لي) •
(٣) للكاتب الاسباني خوان رامون خمنت •

كتب الامثال بما لم تنوه به عن سواه من الحيوانات الاخرى ولولا خوفي
من الاطالة لاتيت على ذكرها جميعا •

لقد قال اجدادنا : « جاء بقرني حمار » اذا جاء بالكذب والباطل
وذلك ان الحمار لا قرن له فكأنه جاء بما لا يمكن ان يكون • وقالوا :
« تركته جوف حماري » أي لا خير فيه ، ولا شيء ينتفع به وذلك ان
جوف الحمار لا طائل وراءه وقالوا : « اربط حمارك •• انه مستنفر »
لمن يؤذي قومه وقالوا : « أحد حماريك فازجري » لمن يتكلف ما لا يعنيه
وقالوا : « سواسية كأسنان الحمار » في تأكيد العدل والمساواة وقالوا :
« اتخذوه حمار الحاجات » للذي يمتن في الامور وللحقير الذليل
وقالوا : « أصبح فيما دهاه كالحمار الموحول » أي المغلوب بالوحد ••
لمن وقع في أمر لا يرجي له التخلص منه وقالوا « كان حمارا فاستأتن »
أي أصبح اتانا « حمارة » •• لمن انتقل من سيء الى أسوأ وقالوا : « بال
حمار فاستبال أحمره » و « ترافدوا ترافد الحمر بأبوالها » في تعاون
القوم على ما يكره وقالوا : « قرب الحمار من الردهة ولا تقل له سأ ••
والردهة مستنقع الماء وسأ : زجر للحمار يقال : سأست بالحمار اذا
دعوته وقد ضربوا هذا المثل للرجل يعلم ما يصنع •

اما المولدون فقد ادخلوا الحمار في امثالهم ، واقلوه بكل شين ومذمة
فقالوا :- « ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد مصلوم الاذنين » و « زل حمارك
في الطين » و « زلق الحمار وكان من شهوة المكاري » و « كذب الحمار »
و « ليس للحمار الواقع كصاحبه » و « برئت من رب يركب الحمار »
و « الحمير نعت الاكافين » اي صانعي الاجلة ، و « الحمار على كراه
يموت » •• والعهد في جميع امثال العرب والمولدين على الميداني ، فهو
مرجعي فيما استقيت وذكرت •

وقد ظهر الحمار في الامثال الشعبية البغدادية بشكل لا يغبط عليه ،
وانتي اعتقد ان امثال المولدين كانت به أرأف وله أرحم ، وهذا هو الشيخ

جلال الحنفي يؤيد مذهبي ، وليس له الى دفع ما اقول من سبيل ، فعليه كان اعتمادا في جميع هذه الامثال :

لقد قال البغاددة : « زمال الطمه كلمن يجي يريد منه حيل جديد » لمن يكون موضع طمع الطامعين فلا يجد الا من يريد استغلاله اسوأ استغلال ، وقالوا : « سكتنا له خش بزماله » لمن يعذر على بعض الهنات ، فيستغل لطف المعاملة وتزداد اساءته ، وقالوا : « صفة الزمال عد الطبل » تهكما بمن يطيل الاطراق والتفكير لغير ما يدعو الى ذلك من توافه الامور وبديهايتها وقالوا : « عيرتني بعارها وركبتني حمارها » ليؤدي معنى : رميتي بدائها وانسلت ، وقالوا : « الفجل أكله بين الاوادم واكمد بين الزمايل » في ان غشيان المجالس ينبغي ان تراعي فيه آداب واعتبارات خاصة فان من حق الشخص ان يأكل الفجل ونحوه من الثمرات الخيشة ولكنه ليس من حقه مخالطة الناس وغشيان مجالسهم على مثل هذه الحالة لئلا يؤذيهم وقالوا : « الزمال ذاك الزمال بس الجلال تبدل » في ان تبدل المظاهر لا اثر له على الطباع والدخائل وقالوا : « زمالة القاضي من ماتت كل الناس مشوا وراها • القاضي من مات محد مش وراه » في نفاق الناس وتملقهم لذوي المناصب •

وهكذا وقع الحمار المسكين بلا جريرة ، تحت طائلة الشوائع الظالمة • • ولكن المرحوم احمد امين تحدى ما قيل حوله ونوه بفضله ، وانصفه حين اذاع عنه انه من احسن وسائل النقل قبل اختراع الاتوميلات وكان يركبه الناس كثيرا في التنقلات ، وخصوصا النساء ، فكان يصنع لهن بردعة خاصة مريحة ويستحضر لهن كراسي للصعود منها على الحمار • وكان في القاهرة لوحات زرقاء في انحاء مختلفة كتب على كل واحدة منها « موقف ستة حمير » واشتهر الحمارون بالنكت والظرف لاستعمالهم الحشيش • كما يستعمل الحمار ، عادة ، في حمل السماد في الغيظ ونقل المحصول وقيل من لم يكن عنده حمار أو حمير ، ويستعمل الحمارون المصريون في السب والشتم دليلا على البلادة وهو سب للحمار ظالم لانه صبور على الشدائد •

فليس ادن ، بعد ذلك ، على الاستاذ الخليلي بمستكر أن يولى الحمام النجفي شيئاً من الرعاية والاهتمام فهو - كما اظن - كان من المعجبين بحمارة المرحوم السيد ابي الحسن ، وهو ممن يؤمنون بان حديث الحمير ذو شجون ولذلك استأنفه - بعد ان ابكاه المصير الفاجع الذي انتهت اليه الحساوية البيضاء - قائلاً : (ومن اشهر الحمير التي يعرفها تاريخ الحمر في النجف كانت حمارة الملا وحيدة وهي امرأة شاعرة عداة ، ومن العباقره • كانت تضطر لركوب الحمارة لكثرة مجالسها فاشتهرت حمارتها بالنظر لشهرة الملا وحيدة ، واشتهر مملوكها الزنجي وعرف بين اوساط الناس عن طريق هذه الحمارة التي كان يتعهدا هذا العبد ويأخذ برسنها الى بيوت الغزاء •• راجع صفحة ١١٧ من كتابه)

فاذا كانت حمارة الملا وحيدة في النجف اشهر من فانار على خليج فان حمار لقمان الحكيم قد كسب قبلها ، مآثرة حميدة حين تعاون مع لقمان وابنه على امتحان الرأي العام وكشف نفاقه الاجتماعي •

ومن الحمير التي اشتهرت باسماء اصحابها كان حمار العبادي والعباد قوم من العرب نزلوا الحيرة ، وقد تناقل الاخباريون انه كان لعبادي حماران فقيل له : اي حماريك شر ؟ قال : هذا وهذا ، اي لا فضل لاحدهما على الآخر • ومنها حمار أبي يسارة الذي كان مثلاً في الصحة والقوة وهو حمار اسود حمل عليه ابو يسارة الناس من منى الى المزدلفة اربعين سنة ، فاصبح ابو يسارة بذلك قدوة وحجة لانصار الحمير • وابو يسارة كان رجلاً من بني عدوان اسمه عميلة بن خالد •

ومن الحمير التي خلدها تاريخ الاسلام السياسي تلك التي كانت سبباً في مصرع محمد بن ابي حذيفة الذي ضرب عنقه رجل من خثعم بعد ان دلت عليه الحمير ، فاكشفه في غار بحوران • ومنها ذلك الحمار الذي ادخل محمد بن ابي بكر في جوفه واحرق فيه بعد ان اكشفه ابن حديج في خربة مهجورة • وقد احتجت اخته عائشة (رضى الله عنها)

على هذه الجريمة البشعة ، ولم تعد تأكل اللحم المشوي منذ اقرار ذلك المنكر .

ومن المواقف الحاسمة التي ذكرها التاريخ للحمار ان يزيد بن الوليد بن عبدالمكك حينما اعلن الثورة خرج متكررا من دمشق على حمار في بضعة انفار . وان الجيش الروسي احتل اذربيجان سنة ٣٣٢ هـ بقيادة امير كان يركب حمارا ، وان بطرس الناسك في مطلع الحروب الصليبية امتطى حمارا وصار يتنقل من مكان الى مكان فاجتاز عليه فرنسا وسار على حدود الراين واستطاع ان يجذب اليه الوف الفقراء لزوجهم في حرب عادت عليهم بالخسار .

ومن الناس من اشتهر بحماره على قدر اشتهار الحمار بهم كحمار جحا المعروف بملا نصر الدين . ذلك الحمار الاعور الذي كان جحيش زمانه في الفكاهة ، ومثله كان حمار طيباب الذي ذكره المولدون في امثالهم . وقد طاب لبعض الناس ان يطلقوا اسم الحمار على خصومهم تنكيلا بهم وتشفيا ، كما عاوية بن ابي سفيان الذي صعد المنبر - بعد ان اتاه قتل توبة بن الحمير - فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : (يا اهل الشام . . ان الله قتل الحمار بن الحمير وكفى المسلمين درأه . .) .

وقد وجدت في المظان العربية رجالا ارتضوا لانفسهم ان يعرفوا ، بين الناس ، باسم (الحمار) كحمار بن مالك الازدي الذي كان مسلما وكان له واد لم يكن ببلاد العرب اخصب منه ، فخرج بنوه يتصيدون فاصابتهم صاعقة ، فهلكوا ، فكفر وقال : لا اعبد من فعل هذا ببني . ودعا قومه الى الكفر ، فمن عصاه قتله ، فأهلكه الله ، فضررت به العرب المثل في الكفر ، فقالوا : (اكفر من حمار) .

ومنهم تولب - ومعناه : الجحش - والد النمر الشاعر المشهور ، وجحيش بن سودة ، وجحشويه (اي رائحة الجحش قياسا على نفلويه وسيبويه) وجحش (والد زينب زوجة الرسول «ص») .

ولقب مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية بالحمار لانه كان جلدا
صورا على احتمال الشدائد •

وما ذكرته هنا حول الحمار هو ما استدعته حمارة ملا وحيدة
والفضل في ذلك للاستاذ الخليلي الذي يقظ نظرية تداعي المعاني في مخي
لتسيل على القلم تراثاً حماريا يفيض بالمتعة والمؤانسة •

فماذا عند الخليلي ، بعد ، من حماريات ؟ انه أخبر قراء (هكذا
عرفتهم - في صفحة ١١٧-١١٨) بوجود حمارة أخرى •• ولكن
عند الميرزا جواد الطيب في النجف وقد أكد على أنها هي الاخرى كانت
ذات شهرة في النجف ، وقد كان لها جحش ظل حديث الناس زمنا طويلا
وذلك ان بيت الميرزا جواد كان ملاصقا لبيت الزعيم الروحاني الشيخ
حسن الماقمقاني فكثيرا ما كان هذا الجحش يفلت من بيت صاحبه الطيب
فيدخل بيت الشيخ حسن في اثناء القائه الدرس على طلابه وكثر هذا
الانفلات فارسل الشيخ حسن على الميرزا جواد وقال له مازحا : يا سيدي
الميرزا ، وجارى العزيز لِمَ ترك الجبل على غارب ابنك - ويعني به
الجحش - ليعيث فسادا ؟ • فرد عليه الطيب مازحا : - لقد سميت كثيرا
أن أخرج منه طيبا فأبى الا أن يكون عالما روحانيا فما العمل يا سيدي ؟•
وهنا يلذ لي أن أدع الخليلي لنفسه هنيهة قبل ان يطربنا بحكاية
حمارية أخرى •• لكي أقول ان لكلمة (حمار) سحرا يحرك في
النفوس ما لم تحركه عطفة المرحوم عبدالله الخياط وانني لا أدري لماذا
يخلع الحمار على حكاياتنا الشعبية تلك البهجة التي نفتقدها في حكاية
حصانية أو أسدية أو كلبية • لأنه حيوان شعبي بليد ؟ •• ربما ••
فمن بنى آدم من لو انطوى على مثقال ذرة من البلادة •• لاستطاع -
بعض تصرفاته - ان يحرك (صخرة) المتبني ، ويهزها ضحكا ••
فكيف بالحمار وهو البلادة تمشي على قوائم أربع ؟

والآن * * تعالوا معي لنقرأ حمارية أخرى من حماريات استاذنا الخليبي
ذكرها في صفحة ١١٨ من كتابه على النحو التالي :- قال الميرزا محمد
الاردبيلي للسيد ابي الحسن : لا اعهد عالما روحانيا ، وزعيما دينيا بلغ ما بلغت
أنت من العظمة والجاه والجلال * فقال السيد : وكيف كان ذلك ؟ قال
لا اعهد أن زعيما روحانيا قد استطاع ان يجتاز بحماره باب الصحن الشريف ،
وأنت تجتاز (كل يوم) بحمارك الصحن وتبلغ به الحرم المقدس * قال
السيد : وأين هو هذا الحمار الذي تقول ؟ * فقال : هذا هو الشيخ علي
مردان الذي لا يترك مصاحبك ، حتى وانت في الحرم المقدس نزور * *
وظلت هذه النكتة ترافق الشيخ علي مردان زما طويلا لأن السيد أبا
الحسن كان قد استذوقها وأتس بها *

وما دمت ، الآن ، ومعني الاستاذ الخليبي في معرض الذكريات
السعيدة ، فليس من الانصاف أن نحتكر وحدنا قصص الحمير ، ونصفح
، بلا مبرر ، عن الشيخ جلال الحنفي ، وانني أرى أن نستمع قليلا الى
شيخنا لتنتفع بما عنده *

لقد حدثني الشيخ الحنفي قائلا : يحكي أن رجلا كان على حماره
وقد اردف زوجه خلفه فصادف في الطريق اعمى من المساكين ، فساء أن
يركباه على الحماره ، فلما بلغوا البلد صرخ الاعمى مستغيثا بالناس زاعما
أن الحماره حمارته وان المرأة زوجه * * وقد اجتمع الناس وهم يرثون
لمصيبة الاعمى ، وقد انتهى الأمر الى صاحب الشرطة
الذي رأى أن يودع كلا من هؤلاء غرفة خاصة به ، وقد وكل بهم
الشرطة الذي رأى ان يودع كلا من هؤلاء غرفة خاصة به ، وقد وكل بهم
من يراقبهم وينقل اليه ما يجري على فلتات ألسنتهم من الاقوال ، فكان الزوج
يكتر من التأفف وهو يقول : حقا * * لقد ابتلينا بهذا الاعمى الذي صنعنا له
جميلا فأبى الا ان يسيء مكافأتنا بهذا الصنيع اللئيم * وكانت الزوجة تضرب
يدا على يد ، وتقول : واسوأته ، لقد فضحنا هذا الاعمى بين الناس بالباطل *

أما الأعمى فكان يقول بين الفينة والفينة وهو ظاهر الاطمئنان : خسارة ماكو
خصاره •• لو المرة لو الحمارة •

وماذا بعد يا شيخ جلال ؟ زدنا تزدد خيرا •• حسنا ، اذن فليصغ
الاستاذ الخليلي •

ان الملا نصرالدين جاءه جار له يستعير منه حماره ليركبه في حاجة
عارضة ، فاعتذر له الملا بكون الحمار خارج الدار في مهمة يحملها • وقبل
أن يتم كلامه كان حماره ينهق من داخل الدار ، فتبسه جاره الى كذب
المعدرة • فلما قال : أليس هذا هو الحمار ينهق داخل البيت رد عليه الملا
قائلا : ياسبحان الله •• أتكذبني وتصدق الحمار •

ذلك هو رصيد الشيخ جلال أما الاستاذ احمد الصوفي فقد ادخل
الحمار في حكايات الموصل الشعبية شريكا خائنا مع القطاة والغزالة وتركه
يموت غريقا في بشر !

وللميداني حكاية حمارية مفادها : ان رجلا خرج يطلب حمارين
ضلا له ، فرأى امرأة منتقبة ، فأعجبته حتى نسى الحمارين ، فلم يزل
يطلب اليها حتى سفرت له ، فاذا هي فوهاء • فحين رأى أسنانها ذكر الحمارين
فقال : ذكرني فوك حماري اهلي

وذكر الحصري في كتابه (جمع الجواهر) : ان رجلا أتى نخاسا ،
فقال له : اشتر لي حمارا ليس بالصغير المحقر ، ولا بالكبير المشتهر • ان
اشبعته شكر ، وان أبعته صبر ، وان خلا الطريق تدفق ، وان كثر الزحام
ترفق •• لا يصدم بي السواري ، ولا يدخل بي تحت البواري •• ان
ركبته هام ، وان ركبه غيري نام • فقال له النخاس : امهلني قليلا ، فان
مسخ الله ابن ابي ليلى القاضي حمارا اشتريته لك •

كما ذكر الحصري حكاية أخرى تذهب الى ان أبا الحسين كاتب أبي جعفر
الشق قد دخل عليه يوما ، فوجده يبكي بكاء شديدا ، ويقول : وا انفصام ظهراه !

وا هلاكاه ! • فقال له : ما للشريف لا أبكي الله عينه ؟ فقال : ماتت الكبيرة (يريد أمه) وكان بارا بها • فأجاب أبو الحسين : ماتت ؟ قال : نعم ! • • فشق أبو الحسين جيبه ، وأظهر من الجزع ما يجب لمثله • • ولكنه انكر الحال اذ لم يجد لذلك دليلا : لا أحد يعزيه ، ولا في الدار حركة ، فبقي حائرا حتى أتت الخادمة فقالت : الكبيرة تقرئك السلام وتقول لك ايش نأكل اليوم ؟ قال : قولي لها ومتى أكلت قط بغير شهوتك ؟ فقال أبو الحسين ياسيدي ، والكبيرة في الحياة ؟ فقال : وايش تظن انها ماتت من حق ؟ • • انما رأيت البارحة في المنام كأنها راكبة على حمار مصري تسقيه من النيل ، فذكرت قول الشاعر :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو !

أما داود الانطاكي ، فقد أودع كتابه (تزيين الاسواق) هذه الحكاية المشرقة : حكى عن ابي العبر انه كان عنده حمار فمات فرآه في النوم ينشده شعرا يقول فيه انه مات عاشقا • فسأله الخليفة المتوكل ما الذي كان من شأنه ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، كان أعقل من القضاة ، ليس له هفوة ولا زلة ، فاعتل على حين غفلة فمات ، فرأيت في النوم ، فقلت له : ألم انق لك الشعير ، وابد لك الماء ؟ • • فما سبب موتك ؟ • فقال : اتذكر اذ وقفت بي على الصيدلاني ، يعني العطار ؟ •

قلت : نعم ! قال : مرت اذ ذاك اتان (حمارة) ، فافتنتت بها ومت •
فقلت : وهل قلت في ذلك شيئا ؟ قال : نعم ، وانشد :

هام قلبي بأتان	عند باب الصيدلاني
تيمتي يوم رحنا	بثناياها الحسان
وبخذ ذي دلال	مثل خد الشيفران
فيها قد مت ولو عشت	لما طال هواني

فقلت له : يا ابا معاذ (وهو لقب بشار بن برد ، والابيات تنسب اليه) وما الشيفران ؟ فقال : أنا مشغول بما أنا فيه وهذا كلام تعرفه الحمير ،

فاذا ، رأيتم حمارا ، ومن كان أولا حمارا ، فأسألوه ، فضحك المتوكل حتى سقط وأمر له بعشرة آلاف درهم •

ومن المأثور عن المرحوم عبدالمجيد الشاوي انه كان ، كالعادة ، يتفاهك مع جلسائه ، ذات يوم ، في متناه الخاص بيته الواقع في جانب الكرخ بالقرب من جامع حنان ، واذا به فجأة يسمع دلالا يصيح في (الدربونة) :
وين ابن الحلال •• كساب الاجر والثواب اللبي شاف زمال تايه ••
اوصافه •• الخ •

فخرج اليه عبدالمجيد ، وقاده الى داخل المنتدى ليقول له أمام ضيوفه من وزراء العهد المباد واعيان البلد : اخي •• اذا كان زمالك شاويا فانا هو ، ولكن اذا كان حساويا ففتش عنه بين هؤلاء الجماعة !

والآن •• اقطع على القارىء ضحكته أو ابتسامته أو تجهمه أو تأمله أو غضبه (حسب الاذواق) لاعود به الى الاستاذ الخليبي ، فعسى أن تقع على جانب جديد من التراث الحماري الذي احتفل به كتابه الفخم •• وهذا هو في صفحة ٢٥٧-٢٥٨ يقول : حين عشر على النسخة الخطية المشوهة من ديوان مهيار الديلمي لم يجدوا من يمكن الركون اليه في اكمال ما نقص منها وتصحيح ما وقع فيها من الغلط ورد ما خرج منها على القواعد غير الشيخ عبد الحسين الحلبي •• حين تم الاقدام على طبعها ببغداد •

وهنا يكمل الخليبي قصته نقلا عن المرحوم الشيخ محمد السماوي ، فيقول السماوي : وصادف وجودي في الكاظمين ، فاستعان بي الشيخ عبد الحسين ذات ليلة على قراءة بعض فصول النسخة للاطمئنان من صحتها قبل دفعها للطبع ، ولقد اعتذرت عن المبيت معه في الخان لان الفصل كان شتاء ولأنني شديد الاحساس بالبرد •• ولكن الشيخ عبد الحسين أكد لي بأن الخان الذي يدعوني للمبيت فيه معه يعمل في جانب منه ندف قد لا يقل عدد اللحف التي عنده ، عن عشرين لحافا ، ولم يزل بي حتى قنعت •• وقضينا ثلثي الليل ونحن نحقق ونصحح وحين نمت بدأ يلقي علي من

اللحف اقلها حتى اشرت اليه من تحت اللحاف بالاكفاء • وعند الصبح لم اجد من اللحف الا اللحاف الاول الذي كان يغطي جسمي مباشرة ، أما تلك الاثقال الملقاة عليّ فلم تكن لحفاً وانما كانت أجلالاً للحمير وقد ألقى الشيخ عبدالحسين علي منها ما استطاع •• ذلك لان الشخص الذي كان يعمل في الخان لم يكن ندافاً كما قال بل كان جلالاً يخيظ اجلال الحمير كما فهمت في الصباح •

فبعيشك ، أيها القارىء ، لو ان الشيخ محمد السماوي وجد فوق لحافه ثلاث بطانيات او عددا من الشفوف او اكواما من الثياب البالية او العباءات • هل كنت تستشعر رغبة في الضحك ؟•• انني أستبعد ذلك • وارى ان السر يكمن في الجو الكوميدي الذي يحيط بكلمة (الجلال) • اذن ، فجلال الحمار وحده وليس غيره هو ما الهم نكتة الخليلي سحرها وقوتها •

والجلال هو البرذعة (او البردعة) او الاكاف في اللغة الفصيحة وهو الجصانية والعبودية في اللهجة العامية • واخبرني الاستاذ علي جنة بان اهل الديوانية يقولون ان فلانا يلبس برذعة اذا كان رث الملابس • وقد استعمل العرب كلمة (برذعة) في السب والشتم •• كما تنهى الينا عن السيدة المزواج (حبي) التي ذاعت شهرتها في مدينة الرسول (ص) فهذه المرأة قد تزوجت على كبر سنها فتى فاستكر ذلك ابن لها كهل ، فتحادثته قائلة : يا برذعة الحمار !• ثم أخذت تبرر له زواجها بذرائع لا تخلو من وجاهة ، فاذا اراد القارىء ان يقف على الحكاية كاملة ، فعليه ان يزور الميداني في (مجمع الامثال) •

ومن لوازم الحمار بعد البرذعة الخلطة (وهي قلادة من الاجراس) والسابل بنوعيه المصنوعين من الكواني أو الخوص والتفر (وهو الحزام الخلفي للحمار) واللجام أو (الرشمة) وقد استعملت الرشمة أداة للانتقام من الخصم السياسي ، ففي سنة ١١٧ هـ أخذ اسد بن عبدالله جماعة من دعاة بني العباس بخراسان

في ولايته الثانية ، وكان فيمن اخذ موسى بن كعب الذي أمر به ان يلجم بلجام حمار ، وامر باللجام ان يجذب فـجذب حتى تحطمت اسنانه •

هذا وقد ازدهرت صناعة الأجلة في أكثر المدن العراقية المجاورة للقرى والارياف ، كبغداد حيث قامت صناعتها في الكاظمية بالقرب من خان الكعبولي ، وفي محلتي المشاهدة وباب السيف بالكرخ وفي الصليخ بالاعظمية وكسامراء حيث كان اصحاب الحمير (كما افادني الاستاذ عبدالكريم السامرائي) يشترون الاجلة من السوق الذي كان يعرف بسوق اليهود •

ويتراوح سعر الجصانية الجيدة ، اليوم ، في بغداد بين دينارين وثلاثة دنانير ، وقد سجلت هذا الارتفاع في سوق الصليخ ، أما الجصانية الاعتيادية (وتسمى العبودية) فهي بين ٢٥٠ فلسا ودينار واحد •

وقد اطلق اخواننا السوريون على صانع الاجلة اسم (الجليلاتي) وقد ذكره المرحوم محمد سعيد القاسمي في (قاموس الصناعات النشامية) بقوله : والجيلاتي اسم لمن يشتغل جلال الدواب ، وهي ما تلبسها الدابة لتصان بها • والمقصد ان اهل هذه الحرفة تسمى جليلاتية ، تصنع جلل الدواب بها من حمار وبغل وفرس ، واهل هذه الحرفة حرفتهم رائجة ، وصنعتهم لا بأس بها لانها غير دنيئة •

وانني اذ أستطرد في حديث الحمير أرجو أن لا يضيق الاستاذ الخليلي بما اسجله ، هنا ، في هذه الدراسة العابرة ، لان حماره نهق فاستهق حماري ، والفضل له اولا واخيرا • وها هو استاذنا في صفحة ١٠٨ يتحدث عن المرحوم السيد صالح الحلبي ، فيؤكد انه قد بلغ من مقدرته ان التزم قراءة المأتم الحسيني لجمعية المكارين ، فقراً لهم عشرة ايام •• بل الاصح انه حاضر لهم عشرة ايام ، لان خطب السيد صالح كلها اشبه بالمحاضرات منها بأى شيء آخر فلم يخرج خلال هذه الايام العشرة عن حديث الحمير والبغال والقوافل واخبارها القديمة والحديثة وقصصها •

ولكن ، يا استاذ جعفر ، هل هناك امتع من حديث الحمير وقوافلها
واخبارها ؟ •• اننى سأكون مع الحمار رفيق طريق فارجو ان تشد ازري
بالكلمة الذائدة حين يطاولني قصير او يقاويني ضعيف او يعظني حمار
آدمي وأنا أستطلع الاسرار الحمارية •

لقد ارتبط الحمار بعلاقات غامضة مع بعض الحيوانات الاخرى وقد
أخبرنا الجاحظ نقلا عن صاحب المنطق بأن بين الغراب والحمار عداوة ،
وانني عاجز عن استكناه هذه العداوة ، ولماذا قامت بينهما ، ويا حبذا لو
ساعدني بعض الاساتذة ممن صرفوا عمرهم في تدريس علم الحيوان
وطبائه ، فيجودون بما لديهم استكمالا للبحث •

وقد اتفق داود الانطاكي والقزويني على أن الكلب اذا سمع نهيق
حمار فانه سيسكو آلاما في ظهره • وانفرد القزويني عن الانطاكي بخبر
نقله عن بعض علماء الاغريق مفاده : اننا اذا وضعنا خنزيرا عطشان على
ظهر حمار فان هذا الخنزير يموت حالما يشرب الحمار ماء !

وجعل بدرالدين الشبلي للحمار عينا (رادارية) تستطيع أن ترى
ما لا تراه عين الانسان ، وتخرق المنظور الواقعي بقوة تماثل قوة اشعة
اكس ، فقد ذكر في كتابه (آكام المرجان) استنادا الى ابي هريرة ان
الحمار لا ينهق اذا رأى شيطانا !

اما الشيخ جلال الحنفي ، فقد اشار الى وجود منافسة غير شريفة بين
الكديش والزمال •• عندما علق على المثل الشعبي البغدادي (الكديش بين
الزمال ركاض) بقوله : يضرب للدون اذا كان بين من هم ادون منه ،
فانه يكون له عليهم مزية ظاهرة !

واشتهر الحمار العراقي بأسماء كثيرة منها : الزمال (وفصيحه زامل)،
والمطي ، والدابة ، والحيوان (بكسر الحاء) • كما اشتهر ، بين العرب
بكنيتين •• هما : ابو صابر وابو زياد • وقد اطلق عليه بعض اصحاب
الحمير ، في بغداد ، أسماء انسانية اعتزازا به • وقيل لي ، في هذا الصدد ،

ان الحاج علي السعيد احد وجهاء الكرخ اطلق على حماره اسم (سالم) ،
وقد بيع سالم (في الاونة الاخيرة) بمبلغ سبعين ديناراً لاصالته • وبين
حمير المكارى الكرخي المعروف السيد عون بن فليح حماران يدعى احدهما
(الافندي) والآخر باسم (المحامي) وهما ما يزالان في قيد الحياة ••
دامت لهما العافية •

اما مدام ابي صابر فهي الحمامة (او الاتان) او الزمالة او المطية ••
وهذه الانثى تحظى باعجاب وتقدير نساءنا وامهاتنا اللاتي يستعملن حليها
المبارك في علاج السعال الحاد (الخنزيرة) وفي تسهيل عملية الاجهاض
بعد ان يشربنه اربعين يوماً • ويبدو ان هذا الاعجاب والتقدير لم يكن
قاصراً عليهن وحدهن ، وانما استأثر به ايضا اكثر اللغويين العرب الذين
اغرقوا معاجمهم بعشرات الكنى التي اطلقها اجدادنا على عقيلة ابي صابر ••
انهم قالوا لها : ام محمود وام تولب وام الهنبر وام جحش وام نافع
وام وهب • ودخلت في امثالهم ، ف قيل احمق من ام الهنبر •• غير انهم
جعلوها دون البغلة منزلة • وهذا هو أبو هرمة الفزاري يؤيد صحة رأيي
•• فقد خرج يوماً من منزله على بغلة فارهة فشرب الخمر بكل ما معه ،
واحتاج فبادل بالبغلة حمارة ، وقال :

خرجت ببغلة من عند اهلي

فجئت بها وقد صارت حماره

وللحمار من الحمامة طفل بديع القسمات ، موفور النشاط ، خفيف
الحركة ، نظيف الالهاب ، اشتهر باسم (تولب) او (الجحش) او
(الكر) •• ولكنه شديد التعلق بامه ، حتى قيل في الامثال ، اتبع من
تولب لانه يتبع الام دون الاب •

وللحمير انساب مختلفة ، ولكنها لا تخرج عن دائرة الحمار والفرس
والحصان والحمامة والحساوي والحساوية والشاوي والشاوية • فالبغل
يتولد من الحمار والفرس او من الحصان والحمامة ، فاذا كان الذكر

حمارا كان البغل شديد الشبه بالفرس واذا كان حصانا اضحى اشبه ما يكون بالحماره • وهكذا اضاع البغل ذكاء الفرس وبلادة الحمار ، فاصبح منزلة بين المنزلتين كما يقول المعتزلة ومن هنا ضرب العرب به المثل ، فقالوا : اخلف من ولد الحمار ويعنون به البغل ، لانه لايشبهه اباه ولا امه •

والبغل حيوان عاق •• ولو كان يقوى على الكتابة والنطق لاعلن براءته من ابيه الزمال في جرائدنا المحلية • والى ذلك اشار الشيخ جلال الحنفي ، وعلل هذه الظاهرة بعد أن أورد المثل الشعبي البغدادي (البغل كألوا له منو أبوك كأل خالي الحصان) بقوله : يضرب لمن يغطي واقعه السيء بأمر يراه من دواعي التبجح •

وايا كان امره فانه اليوم اصبح من لوازم الحركات العسكرية في المناطق الجبلية • وهذا امتياز يكاد يفرد به •

وتتبع الوصال الجنسي بين الحمار الحساوي والحماره الحساوية كرساوي يشار الى جماله بالاصابع ، وقد شهدت منطقتا (سميكة) و (بلد) التابعتان للواء بغداد حفلات زواج حمارية كثيرة على الصعيد الحساوي فقط • وهاتان المنطقتان ، اليوم ، مركزان مهمان لتحسين النسل الحماري وهما هدف المكاري العراقي الذي يريد ان يباهي الدنيا بحمار أصيل •

اما العوامل الوراثية والصفات المكتسبة المتراوحة بين الاصاله والهجنة في نتائج الزواج القائم بين الحساوي والشاوية او بين الشاوي والحساوية (وهذا فرض بعيد الوقوع لقصر قوائم الشاوية •• ولكن الفرض جائز !) •• فاستطيع ان ادل القارئ على قوانين الراهب النمساوي « غريغور مندل » ليستعين بها على تشخيص مزايا وخصائص المواليد من الجحاش ••

ومهما يكن من شيء فان الحمار الحساوي الابيض الجيد هو افحش

سعرا بين جميع ضروب الحمير ، وثمنه (على الشائع المشهور) يتراوح بين عشرين وخمسين دينارا • وقد مر بنا ان الحمار (سالم) قد بيع بسبعين دينارا • اما الحمار الشاوي أو المدگبل - كما يقول أهل سامراء - فأن في مستطاع أي (نكأب) ان يشتريه بثمان بخص •

ولقد شاعت أخلاق الحمير ، من بلادة وغفلة وبرودة وغباء في بعض الاوساط المحلية والدولية مجسدة في المواقف غير السليمة من قضايا الساعة وفي السلوك الغبي الذي يواجه مشاكل الحياة الاجتماعية •• وهذه هي (الزمال لوغية) •

وللحمار حوافر ، ولولاها لكان ذا قرون ، لان كل حيوان له حافر لا قرن له ، وقد زعموا ان اذنيه خلقتا على هذه الشاكلة لتكون ذات حركات شتى في مختلف الجهات • وهو يتمتع بحس كدر ، وطبع بارد ، وليس في الحيوان من ينزو على غير جنسه الا هو والفرس بعد تمام ثلاثين شهرا • وقد عرف الحمار ، بين الحماريين ، بأنه حيوان كسول • والى هذا أشار اخواننا المصريون في أحد أمثالهم الشعبية حين قالوا : (زي حمير السكة يتلذذ بقولت هس) في شأن الكسول الذي لا يشتغل كما ينبغي فيترك على أي سبب ويترك العمل • ولقد بلغ من شدة صوته - كما يقول الجاحظ - ما أن حلف أحمد بن عبدالعزيز : ان الحمار ما ينام !•• فقبل له : وما ذاك ؟ قال : لاني أجد صياحه ليس بصياح شيء أتبه تلك الساعة ، ولا هو صياح من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه !

ووقانا الله سبحانه وتعالى شر نهيقه المنكر حين قيد حرته في النهيق ، فلو قام - وهذا هو مفروض الجاحظ - في الصباح وساعات الليل مقام الديكة ، لكانت الانسانية ، اليوم ، تعاني كارثة ما بعدها كارثة !• ومن المعروف - عند العرب - انهم اذا أرادوا أن يكف الحمار عن النهيق ربطوا في ذيله حجرا •• ولكن النهوض بهذه العملية - فيما لو قام الحمار مقام الديك - قد يوجب استحداث خدمات حراسية جديدة يترصد القائمون بها نهيق الحمار ، وهم ساهرون في الزرائب و(الطولات)

غير بعيدين عن ذيول الحمير المتديكة !! • ونحن عن ذلك في غنى وكان
الله بعباده رؤوفا •

وللحمار في كتب تأويل الاحلام العربية مكان رجب ، فسيح ••
يزخر بالرزق الحلال والخير والنعمة والسعادة ، وقد ذكر الشيخ
عبدالغني النابلسي في كتابه (تعطير الانام) طائفة كبيرة من تفسير رؤى
الناس عن الحمار خلال نومهم ، فالحمار الابيض زينة وبهاء ، والحمار
السمين ثروة ، والحمار الاسود سرور وسؤدد ، والحمار الاخضر حياة
مستقيمة هادئة • وقال محمد بن سيرين في كتابه (منتخب الكلام) : ان
من رأى في نومه حمارته تلد جحشا ، فان أبواب المعاش ستفتح عليه •

والذي يثير الاسى حقا ان العلامة (سيجموند فرويد) قد أهمل
الدور الذي يستطيع أن يلعبه الحمار في أحلام النائمين عندما وضع كتابه
الجليل (تفسير الاحلام) •

أما أعضاء الحمار وأوساخه وفضلاته ، فهي صالحة لانجاز طائفة
من الخدمات الصيدلانية على أفضل وجه ، ويستطيع المريض أن يسئني
بعضها عن البنسلين وفيتامين كي والارومايسين وفيتامين بي كومبلكس
وخلاصة القرنفل والاسبرو وأملاح اينو الفوارة • فالصيدلية الحمارية
غنية بمركباتها وعناصرها ومحاليلها ومراهمها ، وقد أشاد بمفاعيلها الرازي
والانطاكي والسويدي وغيرهم •• وهذا يشير الى ان الحمار قد اقتحم
ميدان الطب الشعبي ، ونال من أطبائنا القدامى تقديرهم البالغ •

لقد أوصانا الطب القديم باجتناّب مخ الحمار •• لان الذي يسقى
منه يغلب عليه النسيان ، ولان الحبل لو سقيته لولدت طفلا أبله • كما
أوصانا باستغلال سنه علاجا للارق بعد وضعه تحت رأس المؤرق ، وبشدّ
كبده مجففا على جسد المحموم دفعا للحمي ، وبأكله مشويا للقضاء على
الصرع •

أما حافره فقد تفاوت القدماء في تحديد خواصه فمنهم من أوصى
سحقه ووضع على جبهة المصروع اياما لتحقيق الشفاء ، ومنهم من أشار

باتخاذ خاتم منه يضعه المصروع فى اصبعه ضمانا للشفاء • وقيل ان مسحوق
حافر الحمار دواء للبرص •

ولحمه ينفع صاحب الجذام وبدمه اذا طليت البواسير سقطت وبلبنه
يستمان على زوال بكاء الطفل • أما روثه (أي زبله وسرجينه) فيفيد
مرضى القولنج والمغص ، ويقطع الرعاف سعوطا ، واذا خلط بالخل منع
تدفق الدم • ولما روثه مفعول قوى فى علاج سوء الهضم وآلام الضرس
المأكول •

ومن سقى من وسخ أذنه فى شراب نام ، ومن ربط شعرة من ذيله
بالفخذ اعانته على الباه •• ولكنه اذا وضع تلك الشعرة على عضة الكلب
شفى من عذابها • وقيل ان المضروب بالسياط اذا تمصص جلد حمار فانه
يكون فى مأمن من المضاعفات • وزعم بعضهم ان النظر الى عيني الحمار
يصحح البصر ويمنع نزول الماء ، وان ملسوع العقرب اذا همس فى اذن
الحمار : (قد لسعتني العقرب) أو ركبته مقلوبا (وجهه الى الذيل)
سكن الوجع •

•• وهكذا اتسعت دنيا الطب حتى للخرافة والدجل ، وأصبح
الحمار ، فى مصانع الخيال ، صيدلية جواله فيها شفاء للناس •• وانى
لاكذب ، بقوة وعناد هذه المزاعم الوقائية التى تخيلها المتخيلون علاجا
للمرض مزمناً وعارضا ، فلك اباطيل اخترعها اعداء الحمار ليجعلوا من
رقبته هدفا لمدية القصاب •

ان الحمار صديق الانسان • وقد يعز على قارىء هذا البحث أن يرى
الحمار مذبوحا بين يدي الجزار أو أن يرى كبده خلل السفود على جمر
الفحم ، لتقدم مشوية الى ضحية من ضحايا الصرع ••

ذلك افك ، ووجه القدماء ، وابو صابر برىء مما قالوه ، ولو كان
حقا ما أذاعوا •• لكان الحمار ، اليوم اندر من الكبريت الاحمر •• ولكنهم
خابوا ليفوز ، وظلت تعاليمهم العفنة قيد الكتب •• ليقى ، ابدا من أبناء
الرجاء والامل • يعيش مع الانسان نهاره ، ومع الحمير ليله وهو قرير العين •

انه لم يخلق للتجربة الطيبة • ومن العار على الصيدلي ان يقدم
وسخ اذن الحمار في قينة نايلونية للمؤرقين ، ومن الخزي على مصانع
باير الالمانية ومعامل فايزر الاميركية ان تستحضرا (حامض الحماريك)
من تقيع الروث الطرى •

انه لم يخلق لشفاء المريض ، ولكنه يستطيع ان يتنازل مشكورا
فيحمل المريض متبرعا او باجر معلوم •

لقد كان زينة القوافل ، وانيس الدرب الطويل ، يوم كان (الكروان)
يتحرك صفوفا تترى من البغال والخيول والحمير وهى تختال بالكجاوات
والمحامل والتختروانات ••

وقد رأى الحمار ، على طريق القافلة ، خلال تاريخه البعيد مشاهد
فاتنة بعثت في اعماقه روح التمرد على (الجلال) فطرحه أرضا لينعم
بمباهج الحرية وهو يرتع في رحاب خان آزاد وخان المحاويل وخان
ضاري وخان الكعبولى وخان النخيلة وخان الحماد وخان الحصوة وخان
النص وخان بنى سعد وخان العطيشى وغيرها ••

وفى مستوى النكبة التى كان قطاع الطرق ينقضون بها على القافلة،
كان الحمار ، تضامنا مع المسافرين ، يتحمل نصيبه من المحنة الطارئة
والبلاء الهابط أما سرقة أو قتلا أو تشريدا أو عفوا •

ولقلما كانت القافلة تمضى فى طريقها وهى آمنة او فى عصمة من
مزعجات الليالي ومغامرات اللصوص •• ولكن هناك ، بين المجارية ،
والكروانباشية ، من كان يصب الموت صبا على عصابات الليل • وقد
حدثني المكارى المعروف السيد لفته بن عصوان الذى ينقل الحنطة على
حماره من علوة والدي الحاج عبدالكريم (فى محلة الرحمانية
بالكرخ) الى الطاحونة ••• حدثني هذا الشخص بان المكارى المشهور
المرحوم حندو الجعيفري كان ينقل البضائع التجارية الخفيفة والمسافرين
على ظهور حميره خلال رحلاته العديدة الى ايران او الشام او الموصل •
وهو يتحدى لصوص الطريق الذين كانوا يهربون على وجوههم عندما

يعلمون بان حندو الجعيفري على رأس القافلة •

ومن أشهر المكارين المعاصرين جماعة من رجال الكرخ ببغداد ، لم يصعروا خدودهم للحمير ، وهم - حتى هذه اللحظة - لا يزالون يخدمون الحمار ، والحمار يخدمهم وهو غارق في سعادته • ولكي لا أبخس الناس حقوقهم أخص بالذكر منهم السادة : شيخ نجم الجميلي و ابراهيم الحيال ومحمود الحمزة و شيخ صالح بن فليح و ابراهيم الحمرة و غربي الجميلي و عون الفليح و ثلج سيد حسن و جاسم بيت ابو چلاب و احمد الجميلي و لفته بن عصوان •

ولقد كان المكاريون الذين انتشروا في الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) يجتمعون بحميرهم بالقرب من جامع الميدان •• ومن هناك تسمى حميرهم في مناكب بغداد وراء الرزق الحلال ، والذي يدعو الى الاسف ، اليوم ، هو ان المقاهي التي كانت مجتمع المكارين ومستراحهم في جانبي بغداد (الكرخ والرصافة) •• أصبحت أترا بعد عين ، وتناثر المكاريون على المقاهي العامة •• ولكن هناك مقهى صغيرة تقع بالقرب من حمام شامي بالكرخ ما تزال تجمع شملهم ، وتتيح لهم الفرصة لتبادل وجهات النظر • وقد قيل لى أن منطقة گهاوى الكرفت فى الديوانية تمور بالمجارية ، والكرفت هم قتلة النفس التي حرم الله ، المتوارون عن عين العدالة •

واطلق أخواننا السوريون على المكارى اسم الحمار - بتشديد الميم - ، والحمار هذا كما ذكر القاسمي في (قاموس الصناعات الشامية) اسم لمن يكون عنده حمير معدة ومهيأة فيؤجرها للركوب من محل الى محل باجرة مخصوصة على حسب المسافة التي يريدھا المستأجر ، وهذه الحرفة كانت قبل ظهور العربات كثيرة ورائجة جدا ، وذلك ان غالب الناس يحتاجون الى الذهاب لنزهة أو لقرية أو لمحل بعيد • سيما من كان عاجزا عن المشى ، فيأتي الى الحمار فيستأجر حمارا لنحو قرية أو بستان لنزهة أو لمحل بعيد مجبور للذهاب اليه بأجرة مخصوصة فيركبه

المستأجر له ويرسل مؤجره (صاحب الحمار) معه غلاما حافي الرجل
بيده قضيب ، فيسوقه له .. حتى يصل راكبه لمحل قصده ، يأخذ الاجير
الحمار ، ويذهب به الى معلمه .. وهلم جرا . فلما ظهرت العربات
استغنى غالب الناس عن ركوب الحمير وصاروا يستأجرون العربات لاي
محل ارادوا نظرا للراحة والسرعة . وعلى كل فالآن باق منهم بقية
يستأجر منهم من يرغب رخيص السعر ولو مع المشقة لان اجرة الحمار
لنحو ساعة بعشرين فضة او ثلاثين الى القرش .. والله تعالى يرزق
من يشاء ولا ينسى من فضله أحدا .

وحمارنا - بعد ذلك - يخضع لسنة التطور والارتقاء عكسيا ، فهو
بعد أن كان لازمة ضرورية من لوازم النقل البرى .. يطيع كدمة
رئيس القافلة ويطرب لاغانى الليل .. أصبح العوبة بين المكارين ينقلون
عليه الجص والملح والاشنان والبصل والشوك ، ثم أصبح عبدا من عبيد
عطار القرى المتجول ، ومستعمرة متنقلة تخضع لسيادة (النكاب) الذي
يبيع التراب وينقل الحجارة من بين انقاض البيوت المهدومة . وهكذا
كتب على حمارنا أن يكون اخلف من بول البعير في خضم الحضارة
الراهنة ، فاضحى يجتر ذكرياته الحلوة ، وهو لا يملك من أسبابها
شيئا وينتشى بأحلامه البعيدة التي كانت تذكره بما كان له من منزل
مرموق في حياتنا الاجتماعية .. ولكنه كان ينخرط في البكاء كلما التمع
في عقله الباطن أنه كان ، ذات يوم ، يحمل الجاحظ على ظهره وانه كان
يحمل الملح من سامراء الى الخالص ليعود مثقلا بالفواكه .

حنانيك ، أبا صابر ، فالايام دول ، وما مضى فات ، والمؤمل غيب ،
ولك الساعة التي أنت فيها .

وانني ، معك ، على انك مظلوم ، مهان .. بعد ان سحقك الانسان
بسخائمه منذ التاريخ الاسحق ، وأبعدك عن معابده ليتخذ من الثور
والخنزير انصاف آلهة .. وقد رأينا ذلك جليا فى وثنية الاغريق يوم
اتسعت حضارتهم المبكرة لتقدیس بعض الحيوانات .. ومن ثمة انهالت على

رأسك التوائب ودهمتك السويلات والكوارث ، وازرى بك العلماء
والمفكرون •• وهذا هو الذى دفعنى دفعا الى أن أرافق الخليل فى
انصافك والذود عنك باللسان والقلم •• فقرّ عينا ، وطب نفسا ••
وانهق ، فان نهيقك ، عندنا ، أعذب وأمتع من صغير البلابل ••

الحمار مظلوم ، ولو لم يكن كذلك •• لانزله هوميروس مقاما خالدا
فى الياذته العظيمة وكان حمار طروادة (لا حصانها) مؤئل عناية
المؤرخين والشعراء ومخرجى الأفلام السينمائية •

الحمار مظلوم ، ولو كان سعيدا ، لجعل له الفلكيون القدامى برجاً
من أبراج الدائرة السماوية اسوة بالاسد والعقرب والجدي والحوت
والحمل والثور والسرطان •

الحمار مظلوم ، ولو كان محترما لما استل البيطرى خصيته ، ولما
بتر ذيله ••

وهو مظلوم ، ولو كان مرهوب الجانب لما زعم القصاصون ان الاسد
رأى الحمار ، فرأى شدة حوافره وعظم أذنيه وأسنانه وبطنه ، فهابه ،
وقال : ان هذا الحيوان لمنكر ، وانه لخليق ان يغلبني فلو زرته ونظرت ما
عنده • فدنا منه ، فقال : يا حمار أرأيت حوافرك هذه المنكرة •• لاي
شئ هي ؟ •• قال : للاكم فقال الاسد قد امنت حوافره ، فقال : أرأيت
أسنانك هذه لاي شئ هي ؟ قال : للحنظل • قال الاسد قد امنت اسنانه •
قال : أرأيت أذنيك هاتين المنكرتين لاي شئ هما ؟ • قال : للذباب •
قال : أرأيت بطنك هذا لاي شئ هو ؟ قال : للمضراط • فعلم انه لا
عناء عنده فأفترسه ••

وهو مظلوم ، ولو كان موفور الكرامة لما أمر المحتسب (رقيب
السوق) السقائين أن يشدوا فى عنقه الاجراس وصفاقات الحديد
والنحاس •• لتبته الضرير والغافل ••

وهو مظلوم •• ولو كان مرغوبا فيه لقامت له ساحة للسباق على غرار

ما للخيل ، ولاشارت اليه الانسكلوبيديا البريطانية ، ولوهبه فرويد رمزا
من رموز احلامه ••

انه كان غرضا لحقد الحاقدين ، واكاذيب الوضاعين •• اولئك
الذين لم يتعففوا - حين وجدوا ابليس عاجزاً عن اقتحام سفينة نوح - عن
اخفائه في جوف حمار ليدخل السفينة دون أن تقع عليه عينا نوح -
عليه السلام - •

وجعل القضاة هذا الحيوان الاليف وسيلة للتشهير بالجاني حينما
كانوا يأمرؤن بخلع ملابسه وطلّى جسمه بالقطران او الدبس ليركبوه
الحمار مقلوباً - وجهه الى الذيل - ، فيحترق الحمار به الشوارع
والازقة ليكون عبرة وعظة ••

وذمته ابنة الخس حين قالت في بعض اسجاعها المشهورة : (سر
المال ما لا يزكى ولا يذكى) فهي انما عنيت الحمار لانه لا تجب فيه زكاة
ولا يذبح فيؤكل •

وقد أضيف الحمار الى (قبان) فقليل حمار قبان ليطلق على ضرب
من الخنافس يكثر بين مكة والمدينة •

وحين وضع الفيلسوف بيدبا كتاب كليلة ودمنة لدبشليم ملك الهند
اختلف حكاية زعم فيها انه كان اسد في اجمة وكان معه ابن آوى يأكل
منه فواصل طعامه ، فأصاب الاسد جرب وضعف شديد ، وجهد •• فلم
يستطع الصيد •• وهو يرى انه ليس له دواء الا قلب حمار واذناه ••
وتلك هي أبدا سنة الاقوياء مع المستضعفين في الارض •

وظلم ابن شهيد الاندلسي في (رسالة التوابع والزوابع) الحمار
•• حين رحل الى وادي عبقر واشرف على ناد لحمير الجن وبغالهم ، وقد
وقع الخلاف بينها في قصيدتين لحمار وبغل من عشاقها ، فدعته للحكم
فيهما •• وعندما انشدت البغلة قصيدة البغل العاشق التي يقول فيها :

وما نلت منها نائلا غير انني اذا هي بالت بلت حيث تبول

وانشدت الحمامة قصيدة الحمام التي ختمها بقوله :

وما نلت منها نائلاً غير انني اذا هي راثت رثت حيث تروث

حكم ابن شهيد للبعلة باعتبار ان للروث رائحة كريهة .

والحمام ، عند العرب ، لا ترقأ به الدماء ، ولا تمهر به النساء .
ومن العرب من كان لا يركب الحمام استكفاً . وقد
قال عبد الحميد الكاتب : لا تتركب الحمام فانه ان كان فارها اتعب يدك
وان كان بليداً اتعب رجلك . . . وقيل : ما ينبغي لمركب الدجال ان يكون
مركباً للرجال . وقال اعرابي : الحمام بشس المطية ، ان اوقفته ادلى ،
وان تركته ولى ، كثير الروث ، قليل الغوث . وقال الزمخشري :

ان الحمام ومن فوقه حمامان شرهما الراكب !

وحين أهدى أبو جعفر بن بسطام الى ابراهيم بن عيسى حماماً . .
كتب الى ابي جعفر يذم الحمام ويتهمه بالبلادة ، وبانه رقيق الحافر
والظهر .

وشاب رأس الحمام خلال المجاعة التي عانتها بغداد حين حاصرها
نادر شاه . . فقد بلغ الجوع بالناس درجة استساغوا معها فخذ الحمام ،
وقد حدثنا الشيخ عبدالرحمن السويدي في كتابه (حديقة الزوراء)
انه رأى ، ذات يوم ، وهو خارج من صلاة الظهر في الحضرة الكيلانية
. . فتاة جميلة تحمل علاقة ويدها سكين تقطع به لحم حمام . .

وحل هذا البلاء بصاحبنا أيضاً يوم حوصر الانكليز بقيادة الجنرال
طاووزند في كوت الامارة . . حيث ارغم الجوع قوات الامبراطورية التي
لن تغرب الشمس عن اراضيها على أن يشتروا قضيب الحمام المذبوح
بشمن باهظ . .

واهان المرحوم مصطفى صادق الرافعي حمامنا حين اقام عليه قياساً
منطقياً لافحام الملحد ابن الراوندى الذي اشتهر بمعارضة القرآن الكريم .
فابن الراوندى يزعم ان هندسة اقليدس كتاب ، وان القرآن الكريم

كتاب .. وما دام الامر كذلك ، فكتاب اقليدس يماثل كتاب الله اعجازا
.. وقد أغضب هذا القياس الفاسد المرحوم الرافعي فقال : أن كل حمار
يتنفس ، وابن الراوندي يتنفس .. فابن الراوندي يكون ماذا ؟
وهجا الشاعر العراقي المعاصر الاستاذ حبيب قتيان حماره المتمرد
بقصيدته المشهورة التي انتشرت بين الناس بمطلعها : بين النصارى دوما
ونخس المخيطة . .

ومنها هذه الايات :

ماذا حدا بك فاثبتت منفصا
ولقد عهدتك هادئا لا تركط
وذا حملت العدل صبحا أو مسا
وصعدت فيه مفازة لا تنحط
من ليف نخلتنا بوزك رشمة
اضرط برشمة بوزكم والمربط !

واخبرني السيد ودود احمد عن زمال اليهود بانه حمار برىء من
اخلاق شذاذ الافاق .. ولكن الخيال الشعبي الصق به ندالة الصهانية
نكابة بهم .. فهذا الحمار (من يشيل دجاج يحتك بالحايط حتى يخنق
الدجاج ، ومن يشيل بيض يتمرغل بالكعاع حتى يكسر البيض) ..
وقد يبست حاجة الناس الى الحمار بعد احتلال القطار جميع الطرق
البرية التي كان يجتازها ذلك الحيوان سابقا .. وهذا التطور الخطير قد
ألهم بعض الروزخونية احتجاجه المعروف الذي صفع به ركاب القطار ،
حين صرخ بوجههم : مالكم يا هؤلاء تتركون حمار الله وتركبون
الشمع جعفر (١) ..

وعكس الملا عبود الكرخي هذا الاحتجاج في شعره ، ولكنه لم
يناوى الشمندر كما فعل الروزخون ، وانما هاجم المقننين بالطرنيل ،

(١) يريد الكلمة الفرنسية (شمندر) .

أي السيارة ، فقال :

موهمّ طفوا ما يركبون الخيل
عكب ركب المطاية ركبوا طرنيل
يخلق شاربه ويعربد باوتيل
وسنون الذهب تركيب عارية

وايا كان فان الحمار ظلم وأهين وعومل بقسوة ، وقد قلنا صروه ،
وعز منصفوه ، ولم أجد من أعطاه حقه كعيسى بن مريم - عليه السلام -
الذي علقه ، يوما ، فرمحه بقوة ، فقال عليه السلام : اعطيناه ما أشبهنا
وأعطانا ما أشبهه .. وهذه الكلمة المهدبة تنطوي على تفهم واع-لاخلاق
الحمار ، ويا ليت قومي يعلمون بان لنا مذهبنا وللحمار مذهبه ، فلا نحن
سالكون نهجه ، ولا هو سالك نهجنا .. وقد ظلمه من اعتبره بليدا ،
واننى لا أعلم ماذا يراد من الحمار ليكون ذكيا ؟ .. انرجو ان يرتفع
الى مستوانا لنقول فيه قولنا حسنا ؟ ذلك مستحيل ! ولو قدر لاحدنا ان
يهبط الى مستواه أو يجري امام الحمار مثقلا ببرذعة صليخية . لانصف
- عند ذلك - الحمار ، ولحياه باجمل تحية ! .. ولكن الحمار حمار ،
ونحن نحن ، وهذا الواقع لن نجد له تبديلا ، ولذلك فهو يتمنى لو
نقف الى جانبه ونؤاسيه ، ونشد ازره فى مواجهة الاحداث الخاطفة المذهلة
التى سلبته سلطانه الى الابد ، حين اطلقت النفاثة فى سمائنا ، تطوى
المسافات بسرعة خيالية ، جعلت الشمندر والطرنييل خفافس تزحف على
الارض بلا ضجيج ..

اننى التمس من الاستاذ الخليلى ومن الشيخ جلال الحنفى ومن
جميع الذين فى قلوبهم رحمة .. ان ينعشوا الحمار ، ويضمّدوا جراحه
بالدراسة العادلة ، حتى يشعر بوجوده ، ويؤدى الرسالة كاملة فى خدمة
الارض والنبات تحت سماء الريف العراقى الجواد .. كما ارجو - اذا
لم تأخذهم العزة بالاثم - أن يتأسوا بعزير .. ذلك العابد الصالح الذى
نفخ فى حمارة من العافية والحياة ما جعله ينهض ناهقا مع الناهقين .. فقد

أخبرنا الثعلبي في (قصص الانبياء) بان يختصر لما وطئ الشام ، وخرّب بيت المقدس ، وقتل بنى اسرائيل ، وسباهم .. طار عزيز حتى خالط الوحوش ، فلما ولى يختصر عنهم راجعا الى بابل ومعه سبايا بنى اسرائيل اقبل عزيز على حمار له ، ومعه عصير عنب فى ركوة ، وسلّة تين .. حتى غشى ايلياء ، فلما وقف عليها وعابن خرابها قال : كيف يحيى الله تعالى هذه بعد موتها ؟ • ثم ربط حماره بجبل جديد ، والقى الله عليه النوم ، فلما نام نزع منه الروح مائة سنة ، ومات حماره ، واعسى الله عنه العيون ، فلم يره أحد .. فلما مضى على موته سبعون عاما .. عمر أحد ملوك الفرس ايلياء ، فلما مضت المائة سنة على عزيز احيا الله منه عينيه ، وسائر جسده ميت ، ثم احيا جسده وهو ينظر ، ثم نظر الى حماره فاذا عظامه متفرقة ، بيض ، وسمع صوتا من السماء : أيتها العظام البالبة ان الله يأمرك أن تجتمعي ، فاجتمع بعضها الى بعض ، ثم نادى ثانية : ان الله يأمرك أن تكتسي لحما وجلدا ، فكان وقام الحمار ، والابتسامه تلوح على محياه •

فليطمئن الاستاذ الخليلى ، والمرشحون معنا لصداقة الحمار بانهم جميعا لن يكونوا أول من حيا الحمار بالتحية الدافئة ، فقد صوفح هذا الحيوان المبارك بالذكر الجميل .. قبل ان يفكروا بحمايته ورعايته ، وقديما قال العرب : يحمل حالا وله حمار • والحال الكارة : وهى ما يحمله القصار على ظهره من الثياب • وهذا المثل ضربوه لمن يرضى بالدون من العيش على ان له ثروة ومقدرة • كما جاء فى الامثال المصرية الشعبية : حمار ملك ولا جمل شرك • فى تفضيل الاستقلال على المشاركة والتبعية واعترف الميداني بحصافة الحمار حين زعم بان حمرا كانت هزالا ، فهلكت فى جذب ، ونجا منها حمار كان سمينا ، فضرب به المثل فى الحزم قبل وقوع النكبة •

وقد دخل الحمار فى طقوس عيد ازوريس الفرعونى الذى عاد الى الحياة ثانية ، واستخدم فى المزارع المصرية القديمة ، وكان أظهر حيوان

فى جيش آمون حيث كان يحمل الجرار الثقيلة والمؤن فى سلال مزدوجة واستعمله الاشراف فى مصر الفرعونية يوم كانوا يحكمون ربط مايشبه المقعد على ظهري حمارين ليتسنى لهم الجلوس فوقه عند السفر .

واستخدمه البيزنطيون فى النقل خلال الحروب ، وتهاداه الناس تعريزا للمودة والصداقة ومن هؤلاء كان المقوقس الذى اهدى ايضا الى النبي (ص) حمارا اسمه يعفور . وهذا الحمار هو الذى طرح نفسه فى بشر يوم مات النبي (ص) . كما اهدى عمرو بن الليث الى المعتضد بالله سنة ٢٨٣ هـ هدية حسنة قوامها ١٦٢ حمارا محملة بهدايا اخرى .

فالحمار - تحت هذا الضوء - لم يعد من يفخر به ، وينزله المقام الرفيع . . وهذا من شأنه أن يغذي أسباب الرفق فى فؤاد من يريد أن يسخر قلمه لحث أصحاب الحمير على ترفيه حميرهم .

وانني اخشى ان يعتقد الاستاذ الخليلى والادباء الغيوريون بانني هازل فيما ادعوا له . . أو ان الحمار قد يلوث السمعة . . اذا عقدوا عليه اهتمامهم ، ولكنني استطيع ان ابشرهم بان هناك ، بين العرب ، طائفة من الشعراء الفرسان عرفهم تاريخ الادب العربي ببني حمار ، وقد ذكر منهم الآمدي فى كتابه (المؤتلف والمختلف) : معقر بن حمار البارقي ، وعدي بن حمار السكوني ، وقبيصة بن مالك بن حمار ، وسليم بن محرز بن مالك بن حمار ، وسحيم بن عطية بن عمرو بن حمار ، ومبشر بن الهذيل بن فزارة بن طه بن نضله بن حمار . . ولم أجد ، بين هؤلاء من استنكر هذه النسبة أو شجبها . .

واكرم معن بن زائدة الحمار والحمارة حين قدمهما على بعض المركوبات التي يعرفها الناس ويجمعون على تبجيلها . . فقد كتب اليه بعض اصحابه رقعة يلتمس منه فيها ان يأمر له بما يحمله ، لانه بغير مركوب ، فوقع معن على رقعته : يدفع اليه فرس ومهر وبغلة وبغل وحمارة وحمار وناقلة ونجيب وبقرة وثور وسفينة وقارب وجارية وغلّام وخف ونعل ،

وما اعلم انه بقى شيء مما يركب الا فيل وزندبيل وارجو ان املكهما واحملك عليهما ان شاء الله .

وكان محمد بن سيرين يفضل الحمار على سائر الدواب ويختار منها الاسود ، واعتاد خالد بن صفوان ان يركب الحمار ، ويقول : انه يمنعي من ان اكون جبارا في الارض أو اكون من المفسدين .

وادعى قوم من أصحاب الحسين بن منصور الحلاج انهم رأوه - بعد مصرعه - راكبا حمارا في طريق النهروان ، وقال لهم : انما حولت دابة في صورتني ، ولست المقتول كما ظن هؤلاء البقر .

وكان للحاكم بامر الله العييدي حمار يدعى قمر يركبه في ترحاله من مكان الى مكان . وقال أبو سليمان الخواص : كنت راكبا حمارا يوما وكان الذباب يؤذيه ، فيطأطئه رأسه وكنت اضرب رأسه بخشبة في يدي فرفع الحمار رأسه الى فقال اضرب ، فانك هكذا على رأسك تضرب .

ومات اياس بن هيرة على ظهر حمار ، وكانت الطبقة المتوسطة في بغداد تمتطي الحساويات أيام الاحتلال العثماني . . وهذا كله يدل على ما كان للحمار من منزلة طيبة في حياتنا الاجتماعية ، وعلى اعتزاز الناس به ، وحظوته لديهم . . لانه - كما يقول أبو حيان التوحيدي - حيوان بارد ، وقد نafs الذئب والخلد في حدة السمع ، وهو لن يجهل صوت الانسان الذي اعتاد الاستماع اليه وانس به وانه لا يضل عن طريق سلكه مرة ولا يخطئه ، واذا ضل راكبه هداه وحمله على المحجة ، واكد القزويني ذلك بقوله : انه اذا مشى بطريق لن ينساه بعد ، واذا ضل المكارى طريقه قدم حيوانا قارحا ، ويخلى سبيله يمشى كما اراد يمينا وشمالا فانه يعثر بالطريق ، واذا وقع بالطريق يحرك رأسه واذنيه وذنبه . . يعنى انه اصاب الطريق . .

وانني اعجب للناس ، حتى في مجاعتهم ، يستسيفون لحمه وهذا هو السيد هبة الدين الشهرستاني في كتابه (الدلائل والمسائل) يؤكد بان الاحاديث الاسلامية التي نصت على كراهة اكل لحمه قد اشتملت على حكمة

النهي عنه ، وان الحكمة هي رعاية المحافظة عليه للاستفادة من ركوبه ،
وللحمل والنقل على متنه ، وأشارت الى ذلك آية (والخيول والبغال والحمير
لتركبوها) •

اما الحمار الاوربي فليس اسعد حظا من الحمار الشرقي فقد كابد
نفس الفواجع والمآسي •• ولكن العلامة دارون حين بوأه المكان المناسب في
كتابه (أصل الانواع) ، وجعله من مقومات نظرية التطور والارتقاء •
أصبح ، هنا ، في اوربا ، محترما •• محبوبا ، واذا اتفق ان مر الحمار
بجماعة من انصار نظرية دارون انحنوا له وحيوه بخلع القبعات ، لانه
- حسب عقيدة دارون - من ابناء العم الذين وقف تطورهم ، وتجمد
ارتقاؤهم •• ولو واتهم الظروف البيئية الملائمة ، لاصبحوا من ابناء آدم •
ولكنهم فضلوا ان يكونوا من ابناء حتم بعد ان ظلوا يتمرغون على ظهورهم
عند الدركات السفلى من مدارج التطور • وحتم بالنسبة الى الحمير كأدم
بالنسبة الى البشر ، فهو ابوهم الاول واليه يرجعون عند التفاخر بالانساب •
فلنكن داروينيين على الاقل ، ولنرفق بالحمار ، ولنعامله كحيوان وديع
طيب الفؤاد • وانتي لارجو من صديقي الخليلي والذين يحرصون على
الارتفاع بمستوى الحمار •• ان يكونوا اهل عزم ، وان يتحلوا بشجاعة
الاستاذ الفاضل الشاعر خاشع الراوي الذي خلع على الحمار ما لم يخلعه
على مخلوق آخر • وتلك نزعة انسانية فاض بها الشعر العراقي الحديث
لتكون منطلق الرحمة يوم تصبح القلوب كالحجارة أو اشد قسوة •
ان (الحمار بن حتم) أو الحمار المدلل •• هو العنوان الذي نظم ،
تحتة ، الاستاذ خاشع الراوي ستة وعشرين بيتا ، ويسعدني ان اقدمها الى
الاستاذ الخليلي والى جميع اصدقائنا نيابة عن الاستاذ الراوي •• مع الف
تحية لابن حتم :

ان الحمار بن حتم هو العزيز المكرم
له المعالف تبنى له العليق يقدم
من اعذب الماء يسقى واحسن التبن يطعم

وكم يساس بلطف
 يختال دلا وتيها
 ترى عليه «جلالا»
 ورشمة من حرير
 ازرى بكل جواد
 ان الحمار بن حتم
 فياله حتميا
 يهز رأسا وذيل
 تراه وهو مدل
 معنفا من حبور
 قد اخجل الظبي حسنا
 فمن ترى منه ابهى
 ومن ترى منه اصفى
 ومن ترى منه ادهى ؟
 غنيتيه وهو لاه
 ان الحمير لاولى
 فليتي كنت منها
 وليتي لست احبوا
 وليت عقلي يفتى
 وليت اني اصم
 عساي احيا سعيدا
 فلا احسن فاشكو
 ولا اذاد فاقصى
 كيلا يضيق ويسام
 اما على الربع اقدم
 من هية «السرچ» اعظم
 بها على العز يرشم
 يسابق الريح ، ملجم
 فاق الجواد المطهم
 على العليقة حمحم
 اليك ، ان هو سلم
 بالحسن ، يزهو وينعم
 والدهر بالسوء مفعم
 لم لا يضم ويلثم
 على الزمان ، واوسم ؟
 على الحياة وانعم ؟
 ومن ترى منه افهم
 حتى غدا الريق علقم
 بأن تعز وتكرم
 كيما افوز واغنم
 وليتي لست اعلم
 وليت حسي يعدم
 وليتي كنت ابكم
 مثل الحمار بن حتم
 ولا اغار فاطلم
 عن النعيم ، واحرم

وقد كادت هذه القصيدة العصماء تؤدي ، في حينها ، الى تأسيس
 جمعية الرفق بالحمير أو جمعية الحمير ، ولا أدري ماذا حل باعضائها •

ذلكم هو الحمار في تاريخنا الاجتماعي ، وما نثرت ، حوله من محاسن
لا يبلغ معشار ما كان يشره الدلال في أزقة بغداد حين يضع حماره ، ولعل
الشيخ جلال الحنفي ادرى بما كان يتدفق على لسان ذلك الدلال •• فهو
الذي اخبرني بانه كان يقرب الدنيا تجوالا وصراخا : زمال حساوي ••
ابيض •• ذيله مخنه •• الخ ، حتى قيل : دلال وضاع زماله •
وذلكم ما وددت لو اقوله بعد مطالعتي الكتاب المرح الذي قدمه الاستاذ
جعفر الخليلي للناس بعنوان (هكذا عرفتهم) •

مِنَ الْأَدَبِ الدِّبْلُومَاسِيِّ

عرفت الاستاذ أمين المميز قبل ان يكون حاجا .. عرفته ، منذ زمن بعيد ، في سوق السراي ببغداد ، اسما ولقبا على غلافى كتابين ، هما : الانكليز كما عرفتهم ، وامريكا كما رأيتها . وكنت اود لو استحوذ عليهما بأي ثمن .. ولكني - كأبي ابن من أبناء الرجاء والامل - كنت خالي الوفاض يادي الانفاض ، فقفلت الى بيتي وفي النفس حسرتان ! .. وعرفته ذا سعي مشكور وحج مبرور في كتابه الجديد (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) ويسعدني ان اكون ، بين جمهرة القراء والمطالعين في الجمهورية العراقية ، اول قارئ ومطالع لهذا المطبوع الفخم ، وانني لاعلن ذلك وانا فخور بما كسبته من عبر ودروس . فاذا كان الحاج المميز غريبا عني لسانا وانسانا : لم تجمعني به سهرة مائة أو مناسبة طارئة ، في ليل أو في نهار ، فانتني عرفته ، من خلال كتابه ، الرائد العراقي الاول للادب الدبلوماسي .

ان كتابه ، موضوع العرض والتعريف ، لتحفة فكرية استوعبت المذكرات اليومية التي دونها المؤلف بأسلوب (مدبلم) رفيع ، واخرجتها مطابع دار الكتب في لبنان ، عام ١٩٦٣ ، سفرا كبيرا يتمطى بين ٦٣٣ صفحة . وهي لتذكرني بحوليات محمد بن جرير الطبري ، فكلاهما لم يعتمد الهوى ذريعة في تسجيل الخبر والرواية والشهادة .. حتى لو كان الخبر ساقطا والرواية جريحة والشهادة مردودة ، فالطبري يقول حدثنا

(ابن جميد) أو (محمد القزاز) أو (ابو كريب) أو (ابن وكيع)
•• وغيرهم ، عندما يريد ان يثبت حقا أو ينكر باطلا أو يخلد خرافة أو
يزيل وهما أو يجرح احدا أو يقوى ظنا • والاستاذ المميز يقول حدثني
(السفير الاميركي) أو (الشريف فلان) أو (الوزير المفوض الفلاني)
أو (فلان المهندس أو المستشرق) •• وغيرهم ، عندما يريد أن يحوم فوق
ظاهرة اجتماعية أو فضيحة مالية أو حقيقة تاريخية أو علاقة جنسية شاذة
أو سلوك سياسي غير محمود •

وهي ، أيضا ، تذكرني بسلامة المشاهدات وصدق التجارب التي
عاشها ابن بطوطة او ابن جبير وبعض البلدانين العرب ، واثبتوها في كتب
الرحلات المعروفة •• ولكن الاخ أمين المميز انفرد عنهم بالحس الدبلوماسي
الذي خلغ على مشاهداته وتجاربه ، في الارض المقدسة ، طابعا جماليا
لا نظير له • فالرجل اعتمدته الحكومة العراقية ، سنة ١٩٥٤ ، وزيرا
مفوضا لدى العربية السعودية ، وقد قنع بمنصبه حرصا على روابط الاسلام
والعروبة ، ولذلك لم يقم وزنا لفسوة المناخ وتكاليف الحياة هناك • فلا غرو
إذا أدى واجب الممثل الدبلوماسي خير أداء ، وجعل من المفوضية العراقية
في جدة مركزا للنشاط الاجتماعي الذي يخدم قضايا العرب ، بعد ان كانت
في أيام اسلافه كقلعة ديان بيان فو ! •• ويكمن سر نجاحه في انه موظف
مؤمن ، وان بعض ايمانه بالله مائل في اداء واجبه في الحياة مطمئنا غير هيب
ولا وجل •• وهذا هو يتساءل : وأي رجاء في الله أكبر من الاستشهاد
في سبيل الواجب •

ومن حسن الحظ ان يكون رجل كهذا الرجل هاويا في الكتابة
والتأليف ، معقود العزيمة على نقل مطالعته ومشاهداته الى بني قومه ، من
ابناء هذا الجيل ، قبل ان يحمله الناس على الاعواد ويطويه الردى •
لقد ذهب المؤلف الى المملكة العربية السعودية - كما يقول - بذهن
مفتوح لا تشوبه شائبة التحيز أو الغرض أو المحاباة ، ولما شرع في تدوين
مذكراته •• كان فوق جميع الاعتبارات المرذولة ، بعيدا غاية البعد عن

التزلف والدعاية والمناوأة والنكايه .. حتى تكون جديرة باعجاب القراء جميعا وقد وجدت المؤلف يلتمس غفران من سخط وغضب عليها ، ويرجو - اذا لم يصفحوا - ان يكون مرجعه واياهم الحاكم العادل يفصل بينهم يوم القيامة .

لقد خدم الاستاذ المميز السللك الخارجي العراقي حوالي عشرين عاما ، فكان له من هذه الخدمة الطويلة ما يرتفع به عما يدنس الفؤاد وبقية مزالق الظنون الاوادم ، ولذلك لم يكن - على حد تعبيره - من الذين يقولون لحكومتهم (انا معكم) واذا خلوا الى خصومها يقولون لهم (انما نحن مستهزئون) . فليس بمستكر - بعد ذلك - على كتابه ان لا ينم عن أية اتجاهات فكرية او عقائدية او سياسية خاصة ، فهو ليس الا يوميات شخصية تتحلى بالموضوعية . والرجل ، مع ذلك ، لم يدون في كتابه جميع ما سمعه او وقف عليه لثلا يكون سببا في الاساءة الى بعض الناس من حيث لا يحسبون ، وانني لاكبر موقفه الشديد حين احجم عن ذكر ما سمعه من مدير البنك العربي في جدة خشية احراجه ، وهذا ان دل فعلى شرف المؤلف ونبله .

ان لمذكرات المميز ، في هذا الكتاب ، مقدمة مسهبة ، تناولت الحوادث التي مرت به منذ ان عزم على توزيعها ضمن يوميات مؤرخة ، وهي لا تخلو من عناصر مأساوية فاجعة تثير الاشجان والاسى .. حتى اذا اجتازها القارىء دخل روضة غناء تتفواح بالاسرار والعجائب التي التقطها المؤلف من افواه الرجال والنساء خلال الزيارات الودية والدبلوماسية المتبادلة واثناء الحفلات والمآدب التي كانت تقام في المفوضية العراقية بجدة وفي القصور الملكية السعودية ، والسفارات العربية والاسلامية والاجنبية تكريما لسفير جديد أو توديعا لسفير منقول أو على شرف زائر عظيم الشأن أو احتفاء بعيد قومي أو بمرور مدة معينة على قيام ثورة أو بميلاد ملك أو رئيس جمهورية .

ومن هنا تصلح يوميات المؤلف ان تكون سجلا حافلا للسياسة العالمية وتياراتها المختلفة التي استغرقت ديانا خلال سنتين . فالشائعات ، وما كانت

تردده الاذاعات ، وما احتوته مذكرات الاحتجاج ، وما أشارت اليه الصحف العربية والاجنبية ، وما رقد في الرسائل الرسمية والشخصية المتبادلة بين المؤلف وبين وزارة الخارجية العراقية أو السعودية أو بينه وبين شخصيات عالمية لها وزنها في الاوساط السياسية . . . واكثر من ذلك ، يستطيع القارىء ان يلم به عند مطالعة تلك اليوميات الجميلة . فهذا هو المستشرق الانكليزي الحاج عبدالله فيلبي يتحدث عن أصل لورنس وتحصيله العلمي وخصاله ومزاياه ، ويؤكد انه ابن سفاح ، ولكنه لا يملك الادلة على شذوذه الجنسي وان كان يميل الى الاعتقاد بانه غير كفوء جنسيا . . . وهذا هو الدكتور طه حسين يهبط جده ليرأس اجتماعات اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية وليقول ما يدعم التراث العربي . . . وهذا المستعرب نيفل باربر تسجل الاذاعة السعودية انطباعاته عن البلاد ولكن راديو مكة لا يذيعها . . . الى غير ذلك من اخبار الرجال المقيمين والمستوطنين والاجانب ، مما استطيع معه القول بان مذكرات المؤلف مؤهلة لان تتبوأ مركزها بين كتب الرجال وفهارس التراجم اسوة بآثار ابن خلكان وابن شاکر الكتبي وابن بسام والعماد الاصفهاني . . . وغيرهم ، فالمعلومات المتعلقة بالاشخاص الذين عرفهم المؤلف في الديار المقدسة مثورة ، هنا وهناك ، بين مئات الصفحات ، لا يجمعها جامع . . . ولكن القارىء اللبيب قادر على انتزاعها من نطاق اليوميات لتكون في عون البحث والدراسة عند اقتضاء الحاجة . . . وعلى سبيل المثال ، لا الحصر، خرجت من يوميات المؤلف كلها ، فيما يتعلق بعبدالله فيلبي ، بما كنت أصبو الى معرفته منذ زمن بعيد فالاستاذ المميز وجد هذا العالم الانثري يسكن في محلة المهداوية القريبة من مداخل مكة ، في دار ذات طابق واحد يحوي عدة غرف ، ويستخدم سيارتين ، وراه يؤدي الصلاة بكل خشوع ، ويتلو الادعية والايات القرانية من اعماق قلبه . . . بينما السفير البريطاني ، هناك ، يذهب الى ان هذا الرجل غريب الاطوار . . . ويميل - بطبيعته - الى مشاكسة الحكومة البريطانية ، وهو يتهمه - تعليلا لتأييده وجهة النظر السعودية في نزاعها مع بريطانيا حول واحة البريمي - بانه استلم من الملك سعود

مبلغا كبيرا من المال . اما الملك سعود فيرى ان فهم فيلبي للغة العربية ابطأ واعسر عليه من التكلم بها ، وان ذلك كثيرا ما كان يؤدي الى مشادات ومجادلات وسوء تفاهم بينه وبين والده الملك عبدالعزيز . ولا يشك الطبيب الانكليزي (لانجينوتو) في اخلاص فيلبي وايمانه الصادق بالدين الاسلامي ، مؤكدا انه قام ببحوث واسفار قيمة في العربية السعودية لم يجاره فيها احد لا من الاجانب ولا من العرب ، وداره في الرياض بسيطة كدار اي فرد من أفراد العشائر ، وهي عبارة عن حجرة صغيرة ليس فيها من الاثاث الا الصناديق المقلوبة عاليها سافلها ، وفيها سرير من النوع الذي ينام عليه الجنود ، اما النور فكان من بصيص قنديل ، وزوجته الثانية بدوية بلباسها وتصرفاتها وحياتها البيئية ، كانت ترتدي ثوبا طويلا يتدلى تحت اخمص قدميها وعلى رأسها فوطة سوداء لا يظهر منها الا اوجيها . ويدها موشيتان بالوشم ، وفيلبي منها ولد وهو حريص على أن ينشأ نشأة عربية اسلامية . . . وفيلبي ليس ثريا ولا يطمع بالمال ، وانه يحب حياة الزهد والتقشف ، وينفق على اولاده ما تدره عليه تاليفه من ارباح ، كما ان له راتباً سنوياً من شركة (ميتشل كوتس) مقداره خمسة الاف باوনা خصصه كله لزوجته البدوية ولاولاده منها ، ولا يعرف عنه انه يستغل صداقة الملك لبيتز المال والهدايا ، وهو ولع بشرب الويسكي عندما يكون خارج نجد والحجاز . . . ولكنه كان يفرط في شربه في بعض المناسبات في جدة عندما يقدم فيها الويسكي بسخاء .

وفي مواضع اخرى من الكتاب ذكر المؤلف ان فيلبي استهلك ، في تلك الديار ، اربعين سنة من عمره ، وانه متهم بمحابة وايزمن ، وقد ابعده السلطات السعودية عن البلاد تبرما بنقده اللاذع .

هذا هو النهج الذي سلكه اخونا المميز في كتابة التراجم الشخصية ، وانه لنهج لا يخلو من استهواء وفتنة . وفي استطاعة القارىء ان يعثر بين ثنايا الكتاب ، على أوثق المعلومات الخاصة بالرجال مستقاة من منابع شتى ، بعضها عادل ، وبعضها ظالم . . . وبعضها منزلة بين المنزلتين .

والاستاذ المميز ، بعد ذلك ، سلط أكثر من مصباح على شؤون العراق في تلك الفترة ، وهذا هو يشير اشارات بارعة الى الانتخابات النيابية خلال سنة ١٩٥٤ ، ويكاد ينسج قصيدة دامعة بشره الجميل عندما ارتفعت مناسيب دجلة ، وأضحت بغداد مهددة بالغرق في شهر مارت ١٩٥٤ ، وينعش الاذهان بهجة المجالس البغدادية التي كانت تقام في بيوت الاعيان والوجوه يوم الجمعة من كل اسبوع ، ويحلل - بأناة - أهواء السياسة الخارجية في ذلك الوقت ، وينوه - عاذلا أو ارضيا - بما كانت تبشه اذاعة بغداد ، و يروز اخلاق بعض الموظفين في دواوين الحكومة بما يوجب القدح أو التثمين •

وفي اليوميات التي عقدها المؤلف على شؤون العربية السعودية يستطيع القارئ أن يقع ، دون جهد ولا مشقة ، على وصف دقيق للقاعدة العسكرية ومطارها في الظهران ، وعلى الخطوط الاساسية لقضية البريمي ، وان يضع يده على الرصيد السياسي بين العراق والسعودية ، ويستجلى اسرار السياسة هناك ، ويهتك البراقع عن الاهداف البعيدة للحرب الاذاعية والصحفية بين بغداد والرياض ، ويتأمل - بعمق - التحليل الموضوعي لاول ميزانية للدولة نشرتها الحكومة السعودية في ٢٥ كانون الاول ١٩٥٤ ، ويزن - كما ينبغي - الوضع العام للشركات الاجنبية العاملة في أنحاء مختلفة من أرض النبوة ، ويفهم طبيعة الخلاف بين الملك سعود والسيد رشيد عالي الكيلاني ، وسر العلاقة بين الاخطل الصغير (بشارة الخوري) والعائلة المالكة ، ويدرك - جيدا - لماذا تتمتع الاسرة الالوسية بسمعة طيبة في نجد ، ولماذا يجهل بعض السعوديين فن المفاوضة الدبلوماسية ، وما هو موقف الحكومة - هناك - من الحلف التركي الباكستاني ، وأي مغزى يرمي اليه تعاهد محمد بن سعود (الجد الاكبر للعائلة المالكة) ومحمد بن عبد الوهاب على الدم والهدم ، ولماذا أطلق السفير البريطاني في جدة على الشيخ يوسف ياسين اسم (راسبوتين) مرة و (تاليران) مرة أخرى ، ولماذا كان الحاج أمين المميز يتصور الشيخ يوسف كما يتصور الشاعر شيطانه ••

وغير ذلك من الدفائن التي يعز وجودها بين دفني كتاب غير كتاب
الاستاذ المميز •

أما في المحيط العربي ، فقد تناولت اليوميات الوضع السياسي العام
في الدول العربية والقضية الفلسطينية •• والدور الذي لعبه فيلبي فيها ،
وموقف العرب من الاتفاق التركي العراقي ، والحملة السياسية بين بغداد
والقاهرة والرياض ، وعلاقة العراق بحكومات الوطن العربي الكبير ،
والجذور التاريخية لجامعة الدول العربية وبيان الصاغ صلاح سالم عن
نتيجة زيارته للسعودية ، ووزارة عبدالله الوزير غب الانقلاب الذي أودى
بالامام يحيى وسيفى الاسلام الحسين ومحسن ، وأسرار التعامل
الدبلوماسي ، والحوادث اليومية التجارية في البلاد العربية ، والوضع السياسي
والاجتماعي والاقتصادي السائد في البحرين وقطر •• وغير ذلك مما
لا يتسع لذكره هذا التعريف السريع •

ولم ينس المؤلف اعلان رغبته الصادقة في ترصين وحدة الصف
العربي ، ولكنه صاغ هذه الرغبة كلمات محدودة تنوء بأبلغ المعاني • فعند
سفره الى الديار المقدسة اندلعت المأساة على هذا الطراز

الرطوبة : اتمام معاملة الجواز ووثائق السيارة

وفي (اج فور) ••• نقطة الحدود العراقية - الاردنية :

قف : تفتيش جواز السفر •

قف : اج فايتم

قف : ام الجمال

وفي الرمثة على الحدود الاردنية - السورية : قف :

الحدود السورية : قف (الامن العام)

وفي احدى نواحي درعا : قف (مخفر شرطة شيخ مسكين)

قف : مخفر شرطة جديدة يبوس

قف : الامن العام (جديدة يبوس)

قف : دائرة الكمارك (جديدة يبوس)

قف : مركز شرطة وادي الحرير (الحدود اللبنانية) •

قف : الدرك اللبناني (مخفر المصنع)

وقبل أن يبلغ المؤلف شتورة

قف : دورية الكمارك اللبنانية •

فماذا يصنع الاستاذ المميز ؟

•• انه يكاد يفقد صوابه •• لقد صرخ : يا رجال العرب ، وقادة هذه الامة ، والمتمسكين بأهداب الحدود المصطنعة ، لو كان السفر بين أى بلد عربي واسرائيل ، فهل كان لديكم من الاجراءات والتشديدات ما نضيفونه الى هذه العراقيل ؟ •• فمتى ستحزمون أمركم وتقضون على هذه الحواجز والحدود المصطنعة لبلاد جعلتها الطبيعة وحدة جغرافية واحدة تقطنها أمة واحدة ذات تاريخ واحد ولغة واحدة وآمال واحدة وآلام واحدة !

وجدت اليوميات بالطريف الطريف عن الملابس السياسية التي نلاحمت بين الدول الاسلامية ، ولا سيما قضايا الحدود ، والمواقف الراهنة من بعض الاحلاف المشبوهة •

وعلى الصعيد العالمي ، عالج الاستاذ المميز ، بأسهاب ، وفي مواضع متفرقة من اليوميات : الخطر الشيوعي ، وقضية الخلافة التي أثارها الصحف الهندية ، وموقف الولايات المتحدة من واحة البريمي ، واعتصام اسرائيل بهيبة الدول الاستعمارية •• الى غير ذلك من قضايا الساعة التي أقامت الدنيا قبل أكثر من عشرة أعوام •

وزخرت اليوميات بمقتطفات نافعة جمعها المؤلف لنفسه ولقرائه بعد مطالعة طائفة كبيرة من الجرائد : الشعب والزمان البغداديين ، واليوم والحياة وصدى لبنان والزمان البيروتية ، والبلاد السعودية ، وصنادى تايمس اللندنية • ومن المجلات : الهلال المصرية ، والعلاقات الخارجية الاميركية ، وطهران مصور الايرانية ، واليمامة الصادرة في الرياض • ومن الكتب : الشوارد للدكتور عبدالوهاب عزام ، ومجد آل سعود (بالانكليزية) لكاتب سعودي مجهول ، واليوبيل العربي والمملكة السعودية والطيور في الجزيرة

العربية لفيلبي ، وتاريخ نجد الحديث لامين الريحاني ، وأعمدة الحكمة السبعة للورنس والطريق الى مكة للمستشرق النمساوي محمد أسد ، وتقرير شركة أرامكو لسنة ١٩٥٤ ، وفي منزل الوحي لمحمد حسين هيكل .

ولم يحجب المؤلف قراءه عن حديث شيق ، مفعم بالمتعة ، تناول فيه الصحافة السعودية ومؤسسات الطبع والنشر هناك ، وأشهر المكتبات العامة والخاصة في مدن العربية السعودية . . فأخبرنا بأن بعض الامراء يتفخرون باقتناء الكتب النفيسة ، وان مكتبة فيلبي مرتع للفقران ، وان خزانة المستر كاري اوين مدير شركة أرامكو تعتبر من أغنى الخزائن بالمراجع المتعلقة بالعربية السعودية ، وان للشيخ محمد نصيف (الأفندي نصيف) مكتبة حافلة بأندر المخطوطات والمطبوعات ، وان مكة فخورة بمكتبة الحرم الشريف ، وان في المدينة المنورة ثلاث مكتبات أبرزها مكتبة عارف حكمت . ومما ذكره المؤلف عن الشيخ محمد نصيف انه طبع على نفقته الخاصة أكثر الكتب السلفية ولا سيما مؤلفات ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، وهو يحتفظ بنسخة من كتاب (رجوع الشيخ الى صباه) أراد فيلبي ، يوما ، أن يستعيرها منه .

وللتاريخ الاجتماعي ، في السعودية ، صفحات عديدة من يوميات الاستاذ المميز ، وهذا الجانب البهيج هو أفضل ما قرأت ووقفت عليه في كتاب المؤلف .

فقد أشارت اليوميات الى معالم السجون هناك ووصفتها اعتمادا على شاهد عيان من الرعايا الايرانيين المتهمين بالبهائية ، كما أشارت الى موقف الوهابيين من مقبرة البقيع وقبر حواء ، وألمت الى الواقع الاجتماعي لطائفة الشيعة في المدينة المنورة ، والى الصعوبات التي تحول دون تملك الاجانب في الاراضي المقدسة .

وفي احدى اليوميات وجدت كلمة ضاحكة ألقاها السفير الامريكى في احدى الحفلات ليؤكد انه يعيش ، فى جدة ، وراء الستار الحريري . . وهو في هذا الادعاء انما يشير الى موقف الحكومة السعودية من المشروبات الروحية التي تتعاطاها بعض السفارات الاجنبية ، وكيف تكرع السفارة الاميركية الخمر من وراء ستار الحريري .

وهناك ، في يوميات أخرى ، أخبار محلية ذات طابع خاص ، كالمأساة التي كان ضحيتها عائلتان مكوئتان من سبعة اشخاص بينهم زوجان في ريعان الشباب عندما ضلت السيارة بهم طريقها وهي متجهة الى المدينة المنورة ، فماتوا عطشا . وكالظاهرة الغريبة التي شوهدت في سماء جدة عند الغروب ، حين ظهر ، فوق الافق ، وميض لامع استمر بضع ثوان ، ثم تحول الى دخان أبيض ما لبث أن بددته الريح فشحاع الذعر ، وروج بعض المشعوذين أن هذه الظاهرة انما هي ايدان بقيام الساعة .

وحدد الاستاذ المؤلف مركز السارق ، في تلك البلاد ، فحدثنا في يومياته عن قطع يد احد الاشخاص ، في جدة ، ذات يوم ، وعن قطع أيدي اربعة عشر شخصا في يوم آخر ، وأيدى اربعة أشخاص في مكة اترفوا جريمة السرقة . كما حدثنا - نقلا عن السفير السوري في جدة - بأن احدى المحاكم كانت قد حكمت بقطع يد أحد المتهمين بالسرقة ونفذ الحكم من قبل الشرطة . . غير ان التباسا قد حصل بين السارق الحقيقي والشخص البريء الذي قطعت يده ، وان البريء يطلب قطع يد مدير الامن العام ترضية له . وقد اتاحت اليوميات لنا - نحن القراء - معرفة الازياء الرسمية والشعبية في مختلف المدن والمناسبات ، وتقاليد الزواج كما شاهدها المؤلف في بيت أحد أعيان جدة ، ومراسيم مجالس الفاتحة مستقاة من دار الشيخ محمد سرور الصبان التي أقيمت فيها الفاتحة على روح زوجته .

وعرج بنا المؤلف على محلات مكة واسواق جدة وازقة المدينة المنورة ، فوصفها وصفا فاتنا يستبد باهتمام القارئ ، ولم يضمن على يومياته بما لم يجهله عن النباتات والحشرات والحيوانات البرية والطيور وضواير البحر . ان الاستاذ المميز كان كريما جدا ، حين سجل لنا ما دار بينه وبين الشيخ محمد نصيف حول البرنوطي وانواعه ، وكيف كان الحاج نعمان الاعظمي وثابت عبدالنور يزودان هذا الشيخ بالبرنوطي العراقي . وقد بلغ سخاء المؤلف غايته عندما وقف بقرائه وقفة طويلة على عطاري جدة وما يتعاطون بيعه من الاعشاب الجافة والسوائل والمعاجن وفق التعاليم

القديمة التي انطوى عليها علم الفارماكولوجي العربي كركبة العجوز لاذابة
الحصى من الكلى ، والتشمة لعلاج العيون ، وماء الورد النقي لمنع الجبل
والزيب الحر ، والصقائفور ورأس مندى والقرنسون والخولنجان لتقوية
الباه ، وحب العروس ، وقرص الغراب ، وتفاح الجان ، ولسان العصفور ،
ولسان الحمل ، والقرمع ، وحجر اليهود ، والعكاكة ، والكنديس ، والكليخ
والانطراب ، والانجبار ومخفر الماء ، وشوك القطب .

والى التمور في المدينة المنورة اشارت احدى اليوميات منوهة بانواعه
المعروفة هناك ، كالبرني والحلوة ، وغبرة ، وعجوة ، والسويدا ، والجبلى
والصفاوى وسبع ، وربعة ، وبيض ، وروثان وسكر ، وجادى ، وخشيمي ،
وشكري ، وام الخشب ، وحلية ، ومشوك .

وبين يوميات المميز يومية اخرى استوعبت ما عرفته اسواق جدة من
انواع الاسماك ، وحسنا فعل المؤلف حين اثبت لنا اسماءها المحلية . . فقد
تكون ذات جدوى في تدعيم الدراسات المقارنة على الصعيد الفيلولوجى .
فمن تلك الاسماك : الصيكان ، وابو دقن والسماك اللوطي ، والناجل ،
وحرين ، والسلماني ، والفارسي والصرع ، والعكام ، والكشري ،
والفرس ، والحمور ، والباراكودا والسلطانة .

ولم ينس المؤلف أثر السماسرة الاجانب الذين يتعاطون بيع الاحجار
الكريمة ، وشركات المجوهرات الفرنسية والاميركية على الحياة المترفة
الخاصة التي تعيشها بعض البيوتات هناك .

ويستطيع عشاق اللهجات الشعبية ان يستفيدوا من الالفاظ المحلية
التي نشرها المؤلف على عدد كبير من يومياته ، وانني لاسجل بعضها دون
بعض حائنا من يود لو يقرأ كتاب المميز على الوقوف بنفسه عليها . فمن
تلك الالفاظ : تكليت (استرحت) وبيش ملبة (المثلجات) والحب حب
(الركى) والشيوخ (الملك) والخويان (الحجاب) والشاهي (الشاي) والجميلة
(الغزالة) والكرش (الكوسج) والرجلة (البرين) .

والحديث ، في يوميات المؤلف ، عن حياة الامر بالمعروف والنهي عن

المنكر ، ذو شجون .. فهذه الهيئة انما هي حكومة داخل حكومة ، ولها - ايام كان المؤلف في جدة - اربعة وتسعون فرعا في ارجاء المملكة ، ومركزها في مكة . ورئيسها هو الشيخ عبدالملك بن ابراهيم ، وافرادها يعرفون بالمطاوعة ، ويسميهم الاجانب : جنود السماء . ولهذه الهيئة مواقف متممة من بعض التصرفات والوقائع وزعها المؤلف على يومياته في فترات زمنية متفاوتة ، كموقفها من مقهى جنة الفردوس في جدة ، وانتقادها ، في خطبة الجمعة بجامع البغدادية ، قيام المسلمين - ايام الجمعة - بصلاة ركعتي السنة بعد الاذان الاول وقبل ركعتي الجمعة ، واستهجانها استعمال المسبحة ، ومباغته بعض المطاوعة في الرياض طيبيا مصريا في داره واشباعه ضربا ورفسا ولكما لانه كان بداره وقت الصلاة يعالج مريضا في حالة خطيرة ، وكذلك موقف الهيئة من السينما التي اصبحت في عرفها من أعمال الشيطان ، فحرمت وجودها في مدينة جدة ، وموقفها في دائرة كمرك المطار في جدة من أمتعة المسافرين ، ومطاردتها - قرب الحرم في مكة - للمارة وصراخها بوجوههم وتلويحها لهم بالعصى حتى لا تفوتهم الصلاة ، وموقفها الجهادي من احتلال الانكليز لواحة البريمي ، وتدخلها السافر في المراحل التحقيقية التي تتعلق بشخص القت الشرطة القبض عليه بتهمة مغازلة امرأة في الحرم الشريف .

والى جانب هيئة الامر بالمعروف يبرز الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ المفتي الاكبر للمملكة العربية السعودية .. ملوحا بفتاواه التي تحرم على القوم ، هناك ، بعض ادوات الزينة .. وقد اشارت طائفة من يوميات المؤلف الى صدور فتواه بتحريم التختم بالذهب ، وفتواه الاخرى بتحريم التصوير بكافة انواعه .

لقد أدى المؤلف العمرة في شهر رمضان ، واداءها مرة اخرى مع السيدة الفاضلة زوجته ، فحدد مركزها في المذهب الحنفي ، وفي القرآن والحديث ، وأثار للفقهاء مراسيمها منذ اتوائها معرجا على واجبات الحرم وفق احكام الشرع .. وقد وصف لنا الطريق من جدة الى مكة ، وسجل

ما يوضح الملابس التاريخية والسياسية التي تجمعت بعض القرى هناك •
وعند المسجد الحرام رسم لوحة بارعة لما اتنا به من شعور مفعم بالتقوى
والايمان ، وبعد ان بلغ حدود المناسك وتلا الادعية التي تناسب المقام ،
وصف - بدقة متناهية - الحرم وابوابه ودرجات باب السلام والكعبة
والحجر الاسود ومقام ابراهيم وحجر اسماعيل وبئر زمزم ومقامات المذاهب
الاربعة وسوق المسعى والسعي بين الصفا والمروة • واكمل لنا وصفه لمعالم
الكعبة والحرم الشريف خلال ادائه الحج ، فعرفنا على حفرة التوبة
والشاذروان والحطيم والميزاب والمنبر وستارة الكعبة •

وبعيدا عن هذه اليوميات الخاشعة المؤمنة •• كان المؤلف ، في
يومياته الاخرى ، يسجل ما شاهده وسمعه عن قصر المعابدة بمكة وقصر
خزام أو القصر الاخضر في ظاهر جدة ، وقصر المربع ، والفاخرية
والاحمر ، وقصر الاميرة نورة عمه الملك سعود ، وقصر الامير فهد ، وقصر
بساتين الناصرية في الرياض •• مؤكدا ، خلال ذلك ، على استخدام العبيد
في اكثر تلكم القصور •

وفي جدة حام المؤلف حول المستشفى اللبناني ليقارن مستواه العلاجي
بمستوى المستشفى الانكليزي هناك ، كما انه استرعى الاذهان الى مظاهر
الترف الحضاري في مدينة الرياض •

ولم تخل يوميات المؤلف من اشارة عميقة الى الشذوذ الجنسي ، في
تلك الديار ، ماثلا في اللواط •• فاحدى اليوميات سجلت حادثة ، لا ريب
فيها ، رواها المؤلف عن الدكتور مظهر المالح ، بينما سجلت يومية اخرى
حادثة ثانية كان ضحيتها غلام يعمل في أحد دكاكين سوق قابل الواقع في
قلب جدة •• وقد جعل المؤلف العهدة - في هذه الرواية - على راويها •
وللمرأة ، سواء كانت حرة او من الجوارى ، في العربية السعودية ،
منزلة لا تشجع على الحسد والغبطة ، وقد قاس المؤلف ابعادها ، في يومياته ،
بعين فاحصة ذكية •• وانني لعلى ثقة كبيرة بكتاب كالاستاذ المميز يصف
ما يراه بلا رتوش ، وان هذه الثقة قد رسخت في نفسي منذ قرأت ماكتبه

عن نساء حضرن حفلة سمر اقامتها عائلة لبنانية في جدة ، فهو يقول :
كانت فيهن المليحة الفاتنة ، وفيهن اللعوب الطروب وفيهن واحدة رشيقة
القد ، أسيلة الخد ، واخرى ذات قوام كأنه البان ، واخرى لها جسم
كأنه عود الخيزران ، وواحدة ذات وجه كأنه بدر التمام ، واخرى ذات
عين وسنانه ، وواحدة ذات لحاظ فيها كل اغراء واغواء •

فكاتب يتمتع بهذا الحس العاطفي ، ويزن حواء بميزان الصادلة ،
لجدير بان يدور مع الحق حين يجلو واقع المرأة في الديار المقدسة •• وقد
يكون لخطبة الشيخ عبدالله الحياط التي سمعها المؤلف ، يوما من أيام الجمعة ،
في الحرم الشريف ، أثر كبير في معرفة ما تمنى معرفته عن المرأة هناك ••
فهذا الشيخ كان يوصي نساء القوم بمراعاة جانب الحشمة ، وعدم اسرافهن
باستعمال الطيب ، او مضايقتهن للرجال في الطرق والمساجد • وهذه الوصية
قد توميء - للوهلة الاولى - الى حياة نسائية قد تكون لاهية باسراف أو على
جانب كبير من التحرر الاجتماعي •• فكيف السبيل الى معرفة ذلك ؟••
تشير احدى يوميات المؤلف الى ان عدد الطائفات ، في ليلة القدر ، كان كبيرا
جدا ، مما حمل السلطات على فصلهن عن الطائفين بحاجز من قوات الشرطة
ورجال هيئة الامر بالمعروف •• غير ان بعضهن كن يخترقن الطوق ، فيسئلن
بين الرجال ليلمسن الحجر الاسود • وفي موضع اخر من اليوميات يحدثنا
المؤلف عن خروجه الى المسعى ، ليلة القدر ، للسعى ، وانه وجد بين الساعين
من كان يسعى بسيارته ، وان بعض السيارات كانت تحمل نساء لا يسدو
عليهن مرض او وهن •• ولكن الغيرة عليهن هي التي وضعتن داخل
السيارات لئلا يمسسهن ساع • وفي يومية اخرى حدثنا المؤلف عن صدور
أوامر بمنع النساء من مغادرة البلاد الى الخارج نظرا للسلوك الماجن الذي
استتبسه من رأى بعضهن يركبته في البلدان الاجنبية • وتعقبا على احدى
الحفلات المقامة في دار المفوضية العراقية بجدة كتب المؤلف ، في أحدى
يومياته ، مؤكدا عدم حضور عائلة من اهالى البلدة الاصلين لان الحضور في
السفارات الاجنبية أمر غير مستحب عندهم حتى ولو كانت السفارة عربية

أو عرافية أو مسلمة • وحين زار المؤلف دار فيليبي ، في مكة ، لم ير زوجته البدوية هناك ، ولم يتحدث إليها •• بالرغم من أن فيليبي ارسل ولده خالد إليها ليحثها على تحية الضيف مجاملة ، ولكن خالد عاد قائلاً : « ما تبغى تجى » •

اما حظ المرأة ، هناك ، من الجمال والوسامة •• فهو يتفاوت بتفاوت المواسم والبقاع • ففي إحدى اليوميات يقول المؤلف : (اذ ابحسرت في الطائفات مقت الجنس اللطيف الى ابد الابدین ، فهذه طهملة من التكارنة ، وتلك كوراء ساقاها أرفع من المغازل ، واحدة شدياء ، وأخرى ضهيا ؛ •• واما هذه المشاهد البشعة تساءل المؤلف : اين اولئك الغيد العذارى اللائي كان يتغزل ويشيب بهن عمر بن ابي ربيعة فهل ان نساء الجاهلية كن افتن واجمل من نساء القرن العشرين ؟ ويبدو ان المؤلف وجد العزاء في نساء مدينة (ابها) الواقعة على جبال السروات وهي من كبريات قصبات عسير ، فأحدى يومياته تحدثنا بان نساءها متولدات من العنصر التركي الذي استوطن في اليمن وما جاورها من المناطق اثر الحرب العالمية الاولى ، فأختلط بالعرب ، وتولد من هذا الاختلاط نسل يمتاز بالبشرة البيضاء والشعر الاصفر والعيون الزرق ، وهي اوصاف نساء وجوارى هذه المدينة •

وحدثنا احدى اليوميات نقلا عن فيليبي عن حادثة حصلت على عهد الملك عبدالعزيز ، مؤداها ان ثلاثة من السواق اختلوا بثلاث نساء في احدى الدور ظهر يوم من أيام رمضان ، وصاروا يعاقرون الخمرة ويلعبون بالأت الطرب ، فداهمتهم الشرطة ، وعرض امرهم على الملك ، فأمر بقتل الرجال الثلاثة واثنتين من النساء حالا ، اما الثالثة فكانت قد هربت من على السطوح ، ولما علم زوجها بأمرها سلمها الى الشرطة ، فلقبت مصير زميلاتها • كما ان المؤلف قد اخبرنا ، في يومية اخرى ، بان الشرطة قد ألقت القبض على شخص بتهمة مغازلة امرأة في الحرم الشريف •

اما العلاقات الجنسية بين السحافات ، والذرائع التي تشبث بها النساء

للخروج من بيت الزوج لممارسة الخيانة الزوجية ، فقد اشارت اليها بعض
يوميات المؤلف •

وللجوارى ، في المجتمع العربي هناك ، دور بارز في اضافة البهجة على
حفلات القوم وتمتعهم الحسى ، فقد جرت في مكة - كما تحدثنا احدى
اليوميات - حفلة زفاف احدى الاميرات لاحد الامراء ، ودعيت السيدة الفاضلة
زوجته لحضورها فقصت عليه مشاهداتها ، ووصفت الحفلة بانها كانت ليلة
من ليالي الف ليلة وليلة ، فساء الوجوه كن يرتدين بدلات خيطة لهن في
باريس وبيروت ، وظهرت الجوارى زمرا زمرا ، فزمره تلبس اللباس الاحمر
يقدمن القهوة ، ومثلهن باللباس الاخضر يقدمن الشاي ، وزمرة باللباس
الاصفر يقدمن المرطبات ، واخرى باللباس الازرق يجمعن الاقداح الفارغة ،
والمغنيات والراقصات معظمهن من اهل اليمن ، وكن يضربن على مختلف
الآلات الموسيقية كالعود والذبك والدف ، ويرقصن وشعرهن مشور على
اكتافهن •

وأخبرنا المؤلف نقلا عن فيلبي بأن الامير معناوي يملك عشرات
الجوارى • وفي احدى اليوميات اشارة الى علاقة غير مشروعة بين أحد
مستخدمي الامير منصور وبين احدى جواريه •

أما نساء البيوتات العربية ، فقد احتلن عشرات الصفحات من يوميات
المؤلف ، وهو يحدثنا - نقلا عن السيدة الفاضلة زوجته بعد رجوعها من
حفلة زفاف باحدى هذه البيوتات - بأنها كانت مبهورة من البذخ والبهجة
والمجوهرات التي تجملت بها الحاضرات ، وانها لاحظت كثيرا من العادات
الغريبة المتبعة في مناسبات الزفاف قد روعيت كلباس العروس والنصيات
اللاتي يحملن ذيل بدلة العروس • وفي احدى اليوميات أخبرنا المؤلف ،
حين أرادت مدينة جدة الاحتفاء بالملك سعود في ٥ تشرين الاول ١٩٥٤ ،
بأن من أكثر الناس سرورا وابتهاجا اولئك اللاتي خرجن من مخادعهن
وخدورهن ليتنفسن صعداء الحرية ، وهن يطفن شوارع المدينة بسيارات
ملكية فخمة اسدلت على نوافذها ستائر داكنة لتسترهن عن أنظار الناس •

وشاهد المؤلف وهو يسعى ، في يوم مقدس ، عددا كبيرا من الخويبان والعييد يحيطون بثلاث نساء كما يحيط السوار بالمعصم ، وقد شدوا بعضهم الى بعض بعقالاتهم خشية أن يختلطن بالساعين • ونقلا عن السيدة عقيلة مستشار السفارة البريطانية في جدة ، كتب المؤلف ، في احدي يومياته ، انها وصفت نساء الطبقة الحاكمة هناك بأزيائهن وحليهن وحياتهن اليومية ، وضربت أمثلة عن غيرتهن بعضهن من بعض ، وقالت : كن يوجهن لي أسئلة كهذه : كيف أعيش مع زوجي وكيف أصطحبه الى الحفلات والمجتمعات العامة ، وهل صحيح اني أستحم وأرتدي لباس البحر الذي يكشف عن ساقبي وذراعي وجانب من صدري ••

والآن ، وبعد أن رسمت الاطار الذي حبس فيه المؤلف نساء العرب هناك ، أراني في حل من التبجح بكرامة الاستاذ المميز ، والتعني بكبريائه ، فهذا الرجل ذو أنف أشم واعتداد كبير بشخصيته ، وانني لاقتبس ما يؤيد رأيي من احدي يومياته •• فهو بعد أن حدث قراءه بأنه قضى الهزيع الاخير من ليلة الاحد ٢٥ كانون الاول ١٩٥٥ في حفلة سمر أقامتها عائلة لبنانية استوطنت جدة منذ عدة سنوات •• قال : وعندما صدحت الموسيقى بأنغام هادئة تدعو الحاضرين الى الرقص •• قدرت ان البروتوكول يقضي أن اكرم ربة البيت بمراقصتها الرقصة الاولى ، فلما عرضت عليها داعي التكريم تلعمت ، ثم تمتت بكلام قليل البيان ، وكان كل ما فرط من لسانها بضع كلمات دلت على انها تود الاحتفاظ بالرقصة الاولى لضيف آخر ، فتركها وشأنها تكرم من تشاء من ضيوفها ، وذهبت اراقص الحاضرات واحدة بعد أخرى ، فأثيت عليهن جميعا ولم ألتفت الى مضيفتنا ولم أسألها ثانية للرقص طيلة الامسية ، فلاحظت مني تجاهلا ، فصارت تنتهز فرص الفترات بين رقصة واخرى لتسمعي بعض عبارات العتب والدلال : « أمين بك ، ألم تتعب من الرقص ، وقد راقصت جميع الحاضرات » ، « أمين بك هل بقيت واحدة منا لم تراقصها ؟ » أما أمين بك فكان وكأن الامر لا يعنيه لا من قريب ولا من بعيد •• استمرت

الحفلة حتى الفجر ... ولم اعاود الطلب على مضيقتي للمراقصه ولما
أخذنا بالانصراف ودعتها شاكراً حفاوتها وكرمها وحسن وفادتها • وعندئذ
قلت لها أرجو أن نرقص سوياً في مثل هذا اليوم من العام القادم ••
وبمثل هذا الخلق الكريم واجهنا الاستاذ المميز في أكثر من موقف
على صفحات كتابه ، وهذا ما جعلني أعتقد بأن هذا الكتاب أمتع من أن
يتصوره قاريء اعتيادي ••

رَأْسُ كَبِيرٍ

في اليوم الخامس عشر من شهر شباط عام ١٩٦٣ انطلقاً في سماء بغداد كوكب لامع ، ليرقد هادئاً في لحد قعير ، لا يبرح مكانه .. منتذراً أن يؤانس الموتى في مقبرة الامام الاعظم . ولم يكن هذا الكوكب سوى الدكتور ناجي الاصيل .. ذلك الرجل الذي اقتحم دنياه رضيعاً سنة ١٨٩٥ ، وجمع يده على القلم في بغداد ، وبعد أن اشتدت أصابعه رحل الى استانبول ليغترف العلم من مدارسها . وفي بيروت استقامت له الدراسة الثانوية التي فتحت له باب الدخول الى الجامعة الاميركية . وعاد الى بغداد يافعاً ، سليم العناد ، ذا سعة في المعرفة ليكون على موعد مع شهر آب من عام ١٩١٤ حيث انتزعتهُ السلطنة العثمانية خلال التعبئة العامة ، من أحضان الأهل لترتبه الخدمة العسكرية ضابط احتياط .. وكانت استانبول مهبطه الاول في أيام الرعب ، وقد عرفه الناس هناك معاوناً لطبيب يضمّد الجراح ويساجل الوباء في ردهات مستشفى حيدر باشا . ولم يخمد هذا الواقع الجديد حينه الى الدراسة ، ومنذئذ تشبّت بضرورة الانتقال الى بيروت ، فكان له ما أراد .. وفي هذه المدينة أصبح يتلقى الدرس تلو الدرس مثابراً وهو في صميم الخدمة العسكرية . ومن الكلية الطبية هناك طلع على أصدقائه من الضباط سنة ١٩١٦ طبيياً ، فاحتفلوا به ، وتباشروا بنجاحه ، ولم يلبث الا قليلاً حتى تشامخ برتبة رئيس في الجيش العثماني ، وأضحى في غضون سنة ١٩١٧ من القوامين على الثورة العربية فكان معقد الرأي على الصعيد العسكري في

جيشي الحجاز وسورية حتى اليوم السادس من تموز سنة ١٩٢٠ وعب القتال الدولي سافر الى أوروبا ليكون على المؤتمرين في لوزان لسانا للقضية العربية •

وفي سنة ١٩٢٦ قرت عينه بالعودة الى الوطن ، فكان مثار الاهتمام في الوسط الثقافي والتربوي ، ولازم طلابه في كلية آل البيت خلال السنة الدراسية ٢٧ - ١٩٢٨ يعلمهم مبادئ السيكلوجيا ، ويضيء عقولهم بالجوانب الميتافيزيكية من الفلسفة •• ليغادرهم - بعد ذلك - استاذا وعميدا في دار المعلمين العالية حيث كان طلابها حتى مطلع تشرين الاول من سنة ١٩٣١ ينهلون منه رصيدهم الاول من تاريخ الحضارة •

وكان مذهبه ، بعد هذه المرحلة ، أن يكون من عشاق النهج الدبلوماسي ، فكانت تجربته البكر في هذا الصدد وجوده خلال سنة ١٩٣٢ في جدة بالمملكة العربية السعودية قنصلا عاما وقائما بأعمال المفوضية العراقية هناك • وبعد أن أثبت جدارته في هذه الوظيفة ارتفع في سنة ١٩٣٣ الى منصب وكيل مدير عام في وزارة الخارجية لكي يصبح في سنة ١٩٣٥ مديرا عاما للشؤون الخارجية ، وفي سنة ١٩٣٦ مشاورا للمفوضية العراقية في طهران ، فوزيرا للخارجية ، ثم أدرکه التقاعد قهرا ، فعزل اولي الامر ، وانقطع الى بيته وقلبه تسعة أعوام •• ولكنه في اليوم الخامس والعشرين من تموز ١٩٤٤ عاد الى الوظيفة الرسمية ، فأصبح للآثار القديمة مديرا عاما •• وكانت خدماته في هذا المضمار العلمي مشكورة حافلة بالامانة والاخلاص والعمل الصالح ، وله الفضل كل الفضل في اصدار مجلة « سومر » التي ما انفكت تختال بالذكر الحميد في جميع الاوساط الثقافية والاكاديمية هنا وفي الوطن العربي وفي العالم كله • ومما يذكر له في عهده هذا اقامة المعارض الموسمية للآثار ، وتشجيع التبادل بالتحف والذخائر بين المتحف العراقي والمتاحف الاجنبية ، واحياء الفكرة التي حامت حول تشييد بناية المتحف العراقي الجديد في كرخ بغداد •• هذه التي أصبحت مئوى لمديرية الآثار العامة منذ أوائل حزيران ١٩٦٣ ، وكان في نفس هذا الرجل الكبير

أن يستمر موظفو مديريته على التنقيب والصيانة في مواقع عراقية تراثية آثارها على عهودنا القديمة والاسلامية ، وقد حقق هذه الرغبة ودعمها بشهادات نافعة تناولت الحضرة وتل حرملة والكوفة والمدرسة المستنصرية .

وأشارت حياة الدكتور ناجي الاصيل الى سفريات كثيرة كان رائدها مشاركة العراق في أكثر من مجال ثقافي أو ميساسي ، فقد ترأس وفد العراق الى مؤتمر اليونسكو في لندن سنة ١٩٤٥ ، وغادر بغداد سنة ١٩٤٨ الى نيويورك على رأس الوفد العراقي لحضور جلسات الجمعية العمومية ولسات مجلس الامن الدولي التي عقدت لبحث قضية فلسطين ، وتولى في ربيع سنة ١٩٥٢ رئاسة المهرجان الالفني للشيخ الرئيس ابن سينا في بغداد ، وفي سنة ١٩٥٤ كان رئيس الوفد العراقي الى المهرجان الالفني الآخر الذي أقامته الحكومة الإيرانية في طهران ، وسافر سنة ١٩٥٧ الى القاهرة لينهض مع الناهضين بلسات لجنة خبراء الآثار العربية في جامعة الدول العربية لاعداد القسم التاريخي للجنح العربي الموحد في معرض بروكسل الدولي لعام ١٩٥٧ .

وفي سنة ١٩٤٩ أصبح عضوا عاملا في المجمع العلمي العراقي ، وانيطت به رئاسة مجلس التعليم العالي الذي مهد السبيل الى قيام جامعة بغداد وفي سنة ١٩٦١ انتخب رئيسا للمجمع العلمي العراقي ، كما انتخب في سنة ١٩٦٢ رئيسا تنفيذيا لاحتفالات بغداد والكندي .

وتقديرًا لجهوده العلمية ونشاطه الثقافي منحه بعض الدول عددا من الأوسمة ، أجدرها بالتنويه : وسام الرفادين من الدرجة الأولى ومن النوع المدني ووسام النهضة من الدرجة الأولى ، ووسام الاستقلال من الدرجة الأولى ، ووسام همايوني إيراني من الدرجة الأولى ، ووسام سويدي من نوع بولر ستار كى . ن . او ، ووسام اسباني من نوع الصليب الأكبر لالفونسو العاشر ومن النوع المدني ، ووسام دانمركي من نوع دانبروغ من الدرجة الأولى برتبة قائد .

وتمتع الدكتور الاصيل في سنة ١٩٤٦ بعضوية الجمعية الدولية
للبحث الشرقي باستانبول ، وانتخب بعد ذلك عضوا في الجمعية التاريخية
بمدريد وأصبح بحكم مركزه الثقافي أحد المشرفين على اصدار الطبعة
الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية الصادرة في هولندا .

وللدكتور الاصيل بحوث أثرية وفلسفية ، نشرت في بعض المجلات
العراقية والاجنبية ، ولا سيما مجلة « سومر » ومجلة « أخبار لندن المصورة »
ومجلة « المجمع العلمي العراقي » ومجلة « جامعة آل البيت » ومجلة
« الجمعية التاريخية الباكستانية » . وكان اتاجه على شحته ، يتسم بالعمق
والاصالة ورشاقة الفكرة ، وكان ذا جدوى . وقد عرفنا منه الدراسة
الموجزة التي عقدها على الكاتب العراقي محمود فهمي المدرس ، وما كتبه
عن النشاط الآثاري في العراق ، وبحثا فلسفيا نشره بالعربية والانكليزية
في مجلة سومر كان موثلا اعجاب البروفيسور الالماني لينزن ، ومما يجدر
الاماع اليه في هذا الصدد ان المستشرق الاسباني اميليو غارثيا غومث بعد
فراغه من قراءة ما كتبه الدكتور الاصيل حول « المعتصم بالله وانتقاله من
بغداد » في مجلة سومر عام ١٩٤٧ نهض بأعباء ترجمته الى اللغة الاسبانية ،
ونشر هذه الترجمة كاملة في نفس السنة على صفحات مجلة الاندلس
الصادرة في غرناطة .

ان بعض ما ذكرته عن حياة الاصيل قد أفادنيه الاستاذ سالم الألوسي ،
ورعاية لهذا الحق رأيت أن اماحضه الشكر قبل أن أستطلع دكرياتي
الخاصة عن بعض أيامي مع صاحب الذكرى .

ان معرفتي بالدكتور الاصيل ترجع الى أحد أيام شهر رمضان المبارك
من سنة ١٩٥٧ ، ففي مساء هذا اليوم ، وبعد الافطار ، كنت على موعد في
المجمع العلمي العراقي مع لجنة خاصة أمر الاستاذ منير القاضي رئيس المجمع
حينذاك بتأليفها لمناقشة كتابي « المستشرقون والدراسات القرآنية » الذي
كان ينتظر مساعدة المجمع على طبعه ونشره وكنت يومذاك معلما في احدي
مدارس بغداد الابتدائية .

وكانت اللجنة الخاصة تتألف من الدكتور ناجي الاصيل رئيسا
والاستاذ عباس العزاوي عضوا والدكتور مصطفى جواد عضوا آخر •
وكانت خطورة كتابي هي الباعث على تأليف هذه اللجنة لمناقشتي في محتوى
الكتاب ، ولمعرفة من زودني بالمصادر الاجنبية التي أشارت اليها نصوصه
والتي أذهل المجمع انفرادي بحيازتها دون أن تنافسني فيها أية مكتبة
عراقية عامة أو خاصة •

وعند حلول الظلام كنت وحدي في حديقة المجمع أنتظر مجيء
الخالدين الذين طار صيهم في أنحاء الدنيا ، وقد تملكني ذعر عنيف خنق
فرحتي المرجوة ، وبدد أحلامي التي نسجتها على باكورة اتاجي ••
وحسبني - أنا المعلم التافه البليد الذي لم يعرف من دنياه سوى زيز القراءة
الخلدونية - سأبدو هزيلا أعجف أمام هؤلاء العمالقة الذين كانوا ملء
القلب وان لم ترهم عيناى !!•• وندمت أشد الندم على اقتحام هذه المحنة
التي حاك خيوطها الاستاذ منير القاضى والدكتور جواد علي (سكرتير المجمع
آنذاك) •• وتوهمت انني اصبحت كمن قال بأن القرآن قديم ، وتخلت
ان جلاد المعتزلة سيلهب ظهري بسياط المأمون •• ومن ذلك عدت بالله
والصبر ، ولمت نفسي على الحماقة التي ارتكبتها حين مدت يدي الى
المجمع العلمي العراقي أستجدي عونه وعطفه !!•• وشعرت بخذلان عظيم
أدركت •• مع انني كنت صريع حلم طوباوي •

وبدت طلائع القادمين تأخذ طريقها الى غرفة الرئيس ، فملك
أعصابي وحدثت نفسي قاذفا في أعماقها ما يلهم البسالة في هذا الموطن :
ما بك يا عبدالحميد ؟ وماذا دهاك ؟ •• انك لست أول الحالمين طوباويا في
دنيا الناس ، فقد حلم قبلك افلاطون في جمهوريته والفارابي في مدينته
الفاضلة وروبرت اون في مستعمراته الاشتراكية وتوماس مور في يوتوبيته
وصموئيل بتلر في بلده الوهمي ووليم مورس في أبناء أرضه التي لا وجود
لها وملتون في فردوسه المفقود وويلز في خياله الحديث •• فهل أنت أقصر
من هؤلاء باعا ؟ •• اقدم ، فليس فيهم من يستطيع أن يسقيك بكأس الامام

احمد بن حنبل ، وكن في زحمة المعركة هزبرا ، وانظر اليهم بعين جنكينز
خان .. تتدافع نحوك أسباب النصر !!

وبهذا الاعتداد ولجت غرفة الرئيس ، وهناك رأيت من رأيت ولم
أعرفهم بادىء الامر ، ولكنني علمت بعد احتدام المناقشة انهم جماعة قوامها
ناجي الاصيل وعباس الغزاوي ومصطفى جواد .. وقد اتبذ منهم الاستاذ
محمد بهجة الاثري مكانا شرقيا يرقب ما يدور بيني وبين اللجنة من كلام
دون أن ينس بحرف .

لقد أراد المرحوم ناجي الاصيل أن يقف على الوسيلة التي نذرت
بها في الحصول على المراجع الاجنبية التي وردت أسماؤها في كتابي ، وقبل
أن أتخفه بالجواب الشافي سألني الاستاذ عباس الغزاوي : ابني . انت
منين ؟ . قلت له : معلم في مدرسة ابتدائية . فقال على الفور : اذن ، هذا
الكتاب مو مالك !! . وهنا انبرى الدكتور مصطفى جواد للغزاوي قائلا :
أبا فاضل ، علينا أن نستطلع معه محتوى الكتاب لنقف على جلية الامر .
فأجاب الغزاوي مزمجرا : أنا واثق ان عشرة دكاترة مجتمعين لا يستطيعون
أن يؤلفوا مثل هذا الكتاب ، فكيف بصاحبنا وهو معلم ابتدائية ؟

وعندئذ شعرت بجفاف الريق وكأن في حلقي شحبي ، ولو لم يتدخل
الدكتور الاصيل في الامر لغادرت المكان لاعنا مجامع الدنيا كلها .. فقد
قال الرجل بأدب جم : رجاء .. أبا فاضل ، ما هكذا يجب أن نحاسب
الذين يعلمون ، ولكن على يقين اننا حقا تحت سقف مجمع علمي .
فأجاب الغزاوي قائلا : مستحيل أن يكون هذا الكتاب كتابه .. لانه عاليج
ما نحن عنه قاصرون ، واقترح فيما عاليج أبواب علم الكلام متناسيا انه معلم ،
وانني أتحداه اذا استطاع أن يذكر لكم أسماء خمسة كتب مما صنفه
المسلمون في علم الكلام !!

وسألني الدكتور الاصيل أن احقق ما طلب الاستاذ الغزاوي ..
وعندئذ لم أجد مناصا من الاسترسال في ذكر ما أعرفه من المؤلفات
الكلامية ، فذكرت أكثر من عشرة كتب جعلت الاستاذ الاثري بصيح بأعلى

صوته : يا هؤلاء .. رفقا به ، لان الكتاب كتابه ، وليس لكم أن تجرعوه
نعب التهمام انفاسا !!

وأقول صادقا ، بعد ذلك ، ان مناواة الاستاذ عباس الغزاوي لكتابي
البكر قد سجلت في رأسي ارتفاعا فاحشا في غزارة الشيب ، لانه حاول أن
يجهز على مواهبي .. ولا سيما في ختام الجلسة حيث أصر على التثبيت
برأيه . وانني بعد أن رأيت الدكتور الاصيل يربت على كتفي ويعزيني
قائلا : سيلمع نجمك يا عبد الحميد ، وكذلك بعد أن حقق الاستاذ الغزاوي
مأربه ونجح في اعادة مخطوطة الكتاب الى مدرستي بالبريد المسجل مع
اعتذار دافىء مذيل بتوقيع الاستاذ منير القاضى .. أستطيع أن احيي في
الدكتور الاصيل اتزانه ونبله وطيبة قلبه وأستطيع كذلك أن اصافح الاستاذ
الغزاوي الذي ظلمني عدوانا وقتل نتاجي بلا وازرة ، وأن أفتح له خمسين
نافذة في قلبي بدون توبة ولا كفارة وفي غير اقتصاد .. ثوبا على نفوره من
ثقافة المعلمين وازدرائه بمائة وعشرين صفحة من القطع المتوسط كانت
قوام كتابي كله .. ولي أن ابشره اليوم بأن ذلك الكتاب المرفوض أصبح
مع الزمن موسوعة قرآنية سأطلع بمجلداتها العشرة على العرب والمسلمين
والمستشرقين والمستعربين في غد قريب .

وأنا اذا حمدت ، بلا تحفظ ، اتزان ناجي الاصيل ونبله وسلامته
نواياه ، فقد حمدته على ذلك أيضا العلامة الكبير الدكتور ابراهيم بيومي
مذكور أمين عام المجمع اللغوي في القاهرة عندما اجتمعت به في ٢٣-١١-١٩٦٥
مع الوافدين الى سامراء من أعضاء مجمع اللغة العربية بين أطلال جامع
الجمعة هناك ، فقد صرح لي قائلا وبالحرف الواحد : لا أظن بين رجال
المدرسة السابقة رجلا في سماحة ناجي الاصيل ، وفي حساسيته ، وفي
تقديره الايجابي للمواقف المختلفة وفي حسن التخلص مع تواضعه الجم
الحافل بالعزة والكرامة ، وفي اخلاصه للبحث والدرس .

ولقد كان رحمه الله من بناء احياء الآثار ومن الرجال الذين خبروا
السلك الدبلوماسي ، فكانوا خير مثل يحتذى في تعزيز العلاقات الحميدة

وفي تسوية المسائل المتعلقة بين بلد وآخر •

•• هكذا تكلم أمين مجمع القاهرة ، وان رجلا على هذه الشاكلة
علما وأخلاقا لهو جدير بكل احترام وود ، ولا أظن الذين كانوا يلزمونهم
كالظل يجهلون ان الاصيل كان بصيرا بخمس لغات أجنبية يتحدث ويكتب
بها على أصح وجه وأكمل صيغة ، ويسخرها كيف يشاء في خدمة الفكر
العراقي القديم والثقافة العربية والتراث الاسلامي • وقد قلت مرة في
مناسبة عابرة انني اجتمعت به في مكتب الرئاسة التنفيذية للحفل البغدادي
بالمجمع العلمي العراقي وكانت رغبتني أن يحوم حديثنا حول الاسس العامة
التي استقر عليها اختيار المدعويين الى الاحتفالات •• ولكن دخول أحد
الدبلوماسيين الاسبان على غرة أفسد ما وطنت النفس على تحقيقه ، ودار
بين الرجلين باللغة الاسبانية حديث طويل هاديء ، دلت طلائعه - بعد
وقوفي على الترجمة العربية - على علاقة وثقى بموضوع الدعوات فهذا
الرجل الاوربي انما زار الدكتور الاصيل ليعرض عليه بعض الاسماء
اللامعة في دنيا الفكر تمهيدا لدعوة أصحابها الى بغداد ، وقد سمعت
الرجل يقول : هناك مفكر غربي ، يا سيادة الرئيس ، جدير بالدعوة ولكنني
أتحرج من ذكر اسمه • فأجاب الاصيل : ومن عساه يكون ؟ وأين هو
الآن ؟ ولم التحرج ؟ فقال الرجل : انه باحث غربي كبير ، يسكن إحدى
عواصم البلدان العربية في الوقت الحاضر ، وهو معروف بدراساته الفلسفية
المقارنة •• ولكنه من المؤمنين بأن العرب لا وزن لهم في ميدان الفلسفة ،
وتراثهم - على هذا الصعيد - انما هو تراث مجلوب من الاغارقة ، ولم
يكونوا - بأية حال - سوى جسر عبر فوّه أرسطو وافلاطون الى أكاديميات
أوربا والمحافل الكنسية ، وهذا بالذات هو الذي ساقني الى التحرج من
ذكر اسمه ، فقال الدكتور الاصيل وقد لمعت عيناه : ولكن يا سيدي من
قال لك ان بغداد تخاف من وجوده بين ربوعها ؟•• انها ترهب بحرية
الفكر والقول حتى في المدى العقائدي ، وما عليك الا أن تذكر لنا اسم
صاحبك وعنوانه لنوجه اليه الدعوة •• وليقل ما يشاء آمننا مطمئنا ، ولكننا

سناقشه الحساب وسنقوم اعوجاجه ونصلح في عقيدته ما أفسده التعصب
الظالم .. انا سنضع أمامه حقائق صارخة تجمع كلها على ان الفيلسوف
العربي ابن باجة (من أهل القرن الثاني عشر) قد أثر تأثيرا عميقا في
تفكير البرت الكبير عميد الفكر المسيحي ، وان ابن رشد كان المهتم
الرمزي لمذهب التفكير الليبرالي في أوروبا خلال القرن الثالث عشر وان
الفلسفة العربية قد اقتحمت معادل الفكر الكاثوليكي في دياره بجرأة منقطعة
النظير .. ويستطيع أي منصف أن يرى التماعات الفلسفة العربية -
الاسلامية تنقدح في مؤلفات القديس اوغسطين وتوما الاكويني .. اننا
يا سيدي سندعوه لنقول له هذا وأكثر من هذا وعساه بعد ذلك يعترف
للعرب بما كان ينكره عليهم .. وسنرحب بكل رأي علمي فلسفي سليم
يقدم لوجه الله والحق والانسانية .. وهنا سكت الدكتور الاصيل ، وابتسم
الدبلوماسي الاجنبي وقد أثقله الخجل .

ذلكم هو المرحوم الدكتور ناجي الاصيل شاخصا في بعض الملامح
وعسى أن أوفق يوما لاستجلاء جميع الظلال التي ترامت تحتها حياته
العريضة .

دِفَاعٌ عَزْفَانِ كَبِيرٍ

كنت ، كغيري ، أتمنى - منذ أمد بعيد - ان أرى الفنان عزيز علي نجما تلفزيونيا يلمع في بيوت بغداد وبيوت المدن المجاورة التي لا يتجاوزها نشاط البث الضوئي . وحين رآه المواطنون - مع شباط ١٩٦٦ - يصل في « رحاب الفن » على شاشة التلفزيون وقد اكتهل ربيعہ وتراكم الجليد فوق رأسه . . . تفاوتوا في الرأي فريقتين : فريقتا ضمه وشمه وقبل شفتيه . . . وفريقتا اکتفى بفضه بالشم واللعن ، واكتفى الاخرون بالوعيد الحاقد واضعين يدا على خنجر . . . ويدا على « ربع » من خمرة « ههب » ! . . .

رآه الذين يعلمون نجما وجود بدفقات من شذا ، ورآه الذين لا يعلمون مذنباً يقىء نارا حامية . وانتي - في هذا المقام - أود أن أجادل الذين لا يعلمون بالتي هي أقوم وأحسن رعاية لحق يكاد يهدر وتسبنا بما ينبغي أن تتشبث به من معايير وموازين . . .

لقد قال عزيز علي في الغناء العراقي ما قال ، ومن المؤسف ان بعض المشاهدين لم يعوا مذهبه ، ولم يدركوا هدفه . . . فطاروا بالشائعة قاذفين في روع هذا ان عزيز علي يريد أن يقضى على تراثنا الغنائي ، هامسين في اذن ذلك ان عزيز علي يريد أن يخمد انفاس المقام العراقي بلارحمة . . . وهم - فيما وقفوا انفسهم له - واهمون لان فنانتا الكبير ، بما ملك من حس نقدي سليم ، يرى ان الغناء العراقي الاصيل محجوب عن الذوق الرفيع بطبقة كثيفة من الصدأ والادران ، وانه احوج ما يكون الى كورة

صائع الذهب لتتقد روحه من أسار ذلك الصدا المزمين .. ويرى أيضا أن طائفة من أغانينا قد استطاعت ان تقارع الايام لتعيش في القلوب ندية رطبة دائمة الشباب ! ..

واننى استطعت بعد أن ولجت مع الوالجين رحاب الفن على نشأة التلفزيون ان أفهم مذهب عزيز علي ، فهو - بكل بساطة - راسخ على أن الغناء العراقي ، كأى غناء ، لغة انفعالية ، وان بعض المقامات - ولا سيما الحافلة باللوازم التركية والفارسية - بعد أن عجزت عن التعبير المفيد لاذت بالددنة التي ليس وراءها طائل . ولذلك أصبح من حق عزيز علي أن يذهب الى انها لم تحقق هوى ولا حلما ، ولم تغلب ألما او تقهر مأساة .. ومن هنا كان محتوما عليها ان تستسلم الى الاماني الكواذب ، وكان محتوما على مستمعيها ان يفتقدوا التجاوب معها . فان قال فناننا الناقد أن الغناء العراقي يحتاج الى الموهوب الذي يستطيع ان يرتفع به الى المستوى اللائق .. فهل يعني ذلك انه شخر ونخر وسب الشمس والقمر ؟ .. واذا قال ان المقام العراقي مترع بالرطانة الاجنبية التي تنافر العروبة ، وانه يحتاج الى تعريق .. الى جلد عراقي مدبوغ بقشور رمان عراقي .. فهل يعني ذلك انه أصبح مجوسيا ؟ .. واذا قال ان من الواجب تطهير الرفوف الواطئة والعالية من الاغاني الوقحة التي نفتتها المواخير بعد اضمحلال الوازع الاخلاقي .. فهل يعني ذلك انه اضحى رابع الزنادقة فى الاسلام بعد المعري وابن الراوندي وأبي حيان التوحيدي ؟

ان عزيز علي عندما رأى أغلب المواطنين كالارمد الذي لا يمكن ان يتذوق جمال اللوحة الفنية .. أراد أن يكحل عيونهم بمزيج من الائتمد وتترات الفضة ليصروا خلال النوافذ تلك القيم الجمالية التي استغرقت صوتنا الغنائي .

لتسع ، يا هؤلاء ، صدوركم للنقد العادل البناء اذ ليس فيه مايوجب على قراء المقام أن يصبوا المسدسات الى أصداعهم ويرطبوا أمعاءهم

بزجاجات السم طمعا في الانتحار بعد يأسهم من الحياة التي اعتقدوا ان
عزيز علي كدر صفوها عليهم ! ..

ان الاغنية العراقية - ميلوديا - لا تزال تتجرع مرارة الخيبة ، فاذا
شاء عزيز علي أن يقيم المعالم في مفارق الدروب للارتفاع بمستواها .. فهل
لاحد أن يظن انه بذلك قد صفع وجهها بمنديل ابيض تبريرا للمبارزة ؟ ..
انه لم يقصد اهانة الاغنية العراقية ولكنه وقف منها موقف ابي جعفر من
غناء ابن عائشة في صدر الدولة الاموية .. فهذا الرجل حين غناه ابن
عائشة بعض اصواته قال له : يا ابن اخي : .. هذا حسن وأنا أستهي أن
أسمعه ، ولكني لا أطلبه ولا أمشي اليه !

اذن ، فلتجفف الاغنية العراقية الجيدة دموعها ، ولتبارك ديننا
بإتسامه وتفاؤل .. لان عزيز علي معها لا عليها ، فهو لم يقف منها موقف
بليغ حمدي من اغنية (أنت عمري) ، ولا موقف أحمد رامي من أغنية
(أمل حياتي) ! ..

واتم يا معنون .. لماذا تخشون النقد الموجه ؟ ولماذا هذه الثورة على
عزيز علي ؟ .. اذا كنتم لا تعلمون فاعلموا ان الشاعر العباسي « ابان بن
عبد الحميد اللاهقي » قد انتقد في احدي قصائده ما كان عليه الغناء في
زمنه ، ومع ذلك قوبلت قصيدته بصدر رحب ولم يكن الفنانون العرب
معه يومذاك كما كنتم قبل اليوم مع عزيز علي ! ..

ان عزيز علي في رحاب الفن قد جرح في الغناء العراقي المعاصر ذلك
التقليد الذليل الذي حرمه من نعمة التطور والابداع .. ليخلق جميع
الحوافز التي قد تؤدي بالاغنية الراهنة الى ما فيه العافية .. ولكن هذه
الدعوة الكريمة فسرهما بعضهم بالباطل ، في حين أن أجدادنا من أقطاب
الغناء في المجتمع العربي كانوا ألد خصم للتقليد الذليل ، فقد وجدنا
المعني العربي « ابن سريج » لا يغني صوتا الا عارضه زميله « الغريص » فيه
لحنا آخر . فلما رأى ابن سريج موقف الغريص منه غنى بالأرمال
والاهزاج ، فاشتهاها الناس فقال له الغريص : يا أبا يحيى قصرت الغناء

وحذفته • فأجابه ابن سريج : نعم يا مخنث حين جعلت تتوح على
أمك وأبيك !

ومن الظلم الفادح اتهام عزيز علي بأنه من اعداء المقام •• فالرجل
يحب المقام ، ويريده صافيا طاهرا كمقام اللامي الذي اصبح من عيون
التي نور الغنائي •• ولكنه يأخذ على بعض المقامات هذه الرطانة الغريبة التي
شوهدت محتواها •• وليس في ذلك ضير •• فالرجل مع حق لا يلام عليه
•• وقبل اليوم هوجم الموسيقار الالماني « غلوك » حين استعمل - وهو
الالماني - في بعض أوبراته اللغة الايطالية واللغة الفرنسية • ولا يزال تاريخ
الموسيقى يذكر أن بعض أوبرات الموسيقار الالماني « هايدن » غير متداولة
الان لتمرداها على سنة التطور ! ••

ولذلك فانا أرى أن يتسع صدر المقام العراقي للمجد لا لغرور
بعض الاميين الذين يتشبثون بحكمة (ليس في الامكان ابداع مما كان)
ويحرصون على أن يقفلوا باب الحجرة على مقاماتهم بالمفتاح ! ••
ان شرف الاغنية ، يا هؤلاء ، لا يحتاج الى ناطور ، وان سلامتها
رهينة بفتح النوافذ عليها دون خوف من نسيم ! •

وللرأى العام ان يقول للاغنية العراقية ما قالته الاميرة «ويتجنستين»
عندما أرادت أن تداوي كبرياء الموسيقار « برليوز » الجريح حين زارها
وحدثها عما يلاقه من خذلان •• انها هتفت به : اذا تراجعت أمام الالام
التي تسببها لك موسيقاك ، واذا سيطر عليك الضعف •• فلا تأت أبدا
الى منزلي !

وانتي ارى الذين يناوئون عزيز علي ثوبا على نقده العادل اقرب
ما يكونون الى أن يصبحوا هم أنفسهم اعداء للمقام العراقي فهم بما لاكنه
أفواههم انما يريدون أن يبرهنوا على أن المقام العراقي مريض يتمطى في
فراش مرضه ينتظر أوان الرحيل الى العدم ، ولذلك فهم يطوفون عليه
بمجامر البخور متظاهرين بالحرص على حمايته من ضوضاء النقاد خوفا
من أن يسلم الروح بلا ضجيج •• بينما عزيز علي يريد ان يكون المقام

العراقي ذا كيان صلد لا يخشى ثورة الاعاصير ولا يحتاج الى حماية
الفرسان والحراس ! ..

ان الذين لم يفهموا عزيز علي أرادوا من حيث لم يحتسبوا أن
يطبقوا على المقام العراقي قواعد «مولير» التي صاغها في مسرحيته «مدرسة
الازواج» .. انهم أرادوا للمقام العراقي وصاية كوصاية «سجاناريل»
على «ايزابيل» وهم في ذلك ظالمون .. بينما عزيز علي يرى ان المقام
العراقي لا ينبغي له ان يتمتع بشباب احمق ، ولا ينبغي له ان يرتاح للشعر
الابيض المستعار الموضوع فوق شعره الاسود ، ولا ينبغي له أن يزيّف فتوته
بمساحيق توكالون !

ان عزيز علي لم يجعل من الاغنية العراقية فتاة مجنونة ربطت
جدائلها باوتاد الحديد .. حتى يكون عرضة لمحاكم تفتيش جديدة تنهش
سمعته وتثلب مركزه الفني بلا رحمة •

ان عزيز علي يريد أن ينعش الاغاني العراقية بالحرارة والدم
والحياة لتستقيم مع الفن لسانا وحنجرة تستعبد بهما الافئدة وتسيطر على
المشاعر .. فلا تقولوا في الرجل الناقد قولاً غير كريم ! ..

ضوءٌ على الشَّحَاذَةِ

الاستاذ الشيخ جلال الحنفي اسان حكيم ، ومفكر المعني .. آثر أن يحجب دماغه الكبير بعمامة هزيلة ليكون عظة لمن أغراهم الجهل بامتطاء المظهر الكاذب ، وزين لهم الغرور ان يغطوا احلام العصفير باورم التيجان !!

عرفته في الهزيع الاخير من خريفه ، فتوثقت بيننا وشائج ود جعلت خريفه ، عندي ، أطيب من ربيع بحيرة كامو ، واحلى من العافية .. وأعدت مساء أعذب من اضحيانة الحياة على الدانوب الازرق .. وتفتحت في شيخوخته عنفوان الشباب ، ولولا التخرج وما للشيخ في نفسي من الاحترام لقلت ان تلك الوشائج قهرتني على ان أبلو شيخوخته أنشط من يفاعه بريجيت باردو !! .. أو أعنف من مياه نياغارا !

ولكنني .. وهذا استدراك قد يفجع الشيخ بأعز أسراره ، أجل ! .. ولكنني استطعت أنا العبي الابله أن أهتك نقابه خلف ستار لاصوغ منه أمهر شحاذ التمع في أرض البشر .. وكان ذلك يوم أراد الاستاذالضنان عزيز علي أن يملأ مصاريننا بالسييناغ الناشف والبيض المقلي والكباب المدهون على مائدة فقيرة في غرفة متواضعة .. فقد أوحى الشيخ للفضان ان للعلوجي بطنين ، ليضمن الزاد مضاعفا . وقد حاول ان يجدد هذه المهزأة مع الشيخ رشاد الخطيب الهيتي^(١) ، فوعده هذا خيرا .. ولكنه

(١) امام وخطيب مسجد شاكر العاني في كرخ بغداد

بمرور الايام تنصل من الوعد وحرمه من نعمة ربه !!

وهكذا رسخت على ان الشيخ كان يتوكأ علي في الشحاذة ، وانه كان يستجدي الصدقات بأسمي ، وانه حملني - بعد نضال مرير - على أن أزرع ليحصد ، وأطحن ليخبز ، وأتسول ليأكل .

لقد كنت والله قبل أن أعرفه فتى خجولا ، مغلوقا على شري وحبري مجموعا على نفسي .. ولكني بعد ان زاملته ملأت كأسني من أبريقه ، وتعدت أن اسخر لساني في خدمة بطنه ، وان (أكدي) بصفاقة وجه .. لارطب جوفه بالمياه الحلوة الثلجة الوافدة من كندا والمانيا الغربية والولايات المتحدة .

ثم حاول الشيخ أن يستدر شفقة الاصدقاء بالعبارة المانعة لكي يسقوني أو يطعموني ، فادرك هؤلاء - بعد تجربة - أنهم اذا سقوني أو أطعموني سقوا الشيخ وأطعموه .. فليس ممن المروءة ان يرعوني ويهملوه . وعندئذ أصبح الشيخ - على كل لسان - قرين شحاذ عجزت مطاعم الدنيا عن ردم مجاعته الخالدة !!

ووجد الشيخ في هذه الشائعات ما قد يثلم سمعته ويجرح كبرياه ، فاستنجد بي ملتصبا ان استأصل معه شأفة التخرصات .. ولكننا لم نوفق الى الذريعة المنقذة ، فاستقر الرأي - بعد يأس - على وقوفي تحت مساقط الشبهات ، والارتفاع بالشيخ الى مستوى الاعتبار المغبوط . فلا عجب - والواقع كذلك - اذا وجدت الشيخ ، يطرحني في (البلد)^(٢) مشخنا بجراح الكشكلة البيضاء !! .. فلقد كتب الشيخ ما كتب ، وعرضه علي - قبل نشره - فاقترن برضاي ، ثم عرضه - في نهاية المطاف - على لمة من أدباء العصر ومفكريه .. الذين استهواهم جنون العقل الاوربي ، واستغرقهم الادب المحموم من أقطارهم .. فسمعوا ما قرأ الشيخ ، وضحكوا ببلادة ، ثم استطلعوا موقفي ، فأعلنت لهم رغبتني في الدفاع

(٢) جريدة بغدادية معروفة جيدا في الاوساط الادبية .

والرد .. وعندئذ هدرت شقشقتهم الكلاسيكية : ذاك هو أدبكم العاثر
الذي لا يخدم الناس .. أيها الرجعيون !؟

قلت لهم : والله لقد كرهننا مقولة سارتر في الالتزام .. ولن
نستطيع بعد أن لطح سارتر وجوهنا بغثيانه ، ودفن مومسه الفاضلة في
قلوبنا أن نكون عبيدا لرجل موبوء ، ومرترقة لاحدق مهرج في باريس !!
انا ، يا هؤلاء ، قرأنا ماركس وبلونا فرويد ، وفحصنا ديوي ،
ولعقنا سيمون دي بوفوار ، وازدردنا اشبنجلر ، وحاسبنا آدم سمث ،
وكابدنا جويس ، وبلعنا شذوذ نابوكوف وعوينا مع كولن ولسن ..
وهضمنا ثقافات العالمين الاشتراكي والبرجوازي .. ولكننا لم نقبض الا
على ريح ، فصفعنا بخفي حين ، ثم آمنا بأن العافية خير وأبقى ، وان
التراث العربي اذا نفخنا فيه من روح العصر .. سهل علينا تقديمه لئناس
أدبا هادفا لا عابثا .

يا هؤلاء .. هل سمعتم بالاباظة ؟ .. اذن فأعلموا ان صاحبها أبرع
شحاذا أغريقي استعطف أكف انقري اليونانية ..

أن دنياكم ، ودنيا الناس أجمعين لم تؤكد واقعها الا بالشحاذة ..
فهذه حكومات العالم ما انفكت تستجدي تأييد اراي العام بالمال احيانا
وبالسلاح احيانا .. وهذا العدد الهائل من الموظفين والعمال والفلاحين
والصحفيين والادباء والفنانين والعلماء .. انما يشحذون خبزهم بما
يقدمون من توسلات وخدمات يشحذها رب الخبز بدوره منهم بنقوده .
ليس (اقتصاد) ماركس ولا (جنس) فرويد ولا (دين) سافونا رولا
.. هو ما يحرك التاريخ ، وانما الشحاذة ولا شيء غير الشحاذة هي
المحرك الاساسي للتاريخ .. للخدعة الضخمة التي حاكها دجاجلة القرون
الماضية !!

الحياة يا هؤلاء ، مطعم كبير ، تزخر مطابخه بما لذ وطاب .. وابناء

الحياة ذوو شهوات تتفاوت بتفاوت اذواقهم .. فما يتوق اليه هذا يعزف عنه ذلك .. فلا غرو اذا كان مستكرا ان يفرض أى طاه (وأعني اي أديب) ، تحت سقف هذا المطعم على الجائعين (وهم القراء) لونا واحدا من طعام .. والا سلبهم حرية الاختيار ، وفي ذلك ما فيه من تعسف !

الشحاذون ، يا هؤلاء ، هم زنابير النظام الاجتماعي في كل زمان ومكان ، وعبر المراحل التي قطعها الانسان في رحلته الطويلة .. وقد بلغوا من الكثرة ، في جميع المجتمعات ، بحيث اصبحوا اجدر من غيرهم باهتمام الدارسين .. فاذا رأيتونا نسخر لهم ما نملك من طاقات ادبية تفرش لهم طريق الخلاص بالرياحين .. فهل يعني ذلك اننا نقدم للباس أدبا عابثا ؟!

انني أعتقد أن افلامنا ، في مجالي الشحاذة ، انما تضمن لنا أرحب مكان بين الصفوف الجديدة من الانسائين . واذا طاب لكم أن ترونا تخطب في التناقض فمن حقا ان تناقض أنفسنا أحيانا وان لم يدخل هذا الحق في صلب وثيقة حقوق الانسان التي صنعتها الامم المتحدة !! .

انكم وسمتم أدبنا بالعبث لانكم أردتم ان يكون لما نكتب (فائدة) .. ونحن نعجب لكم تسلطون على الاثر الادبي منطلق شيلوخ تاجر البندقية !! .. لماذا تريدون ان يكون للحرف اللامع فائدة ؟ .. ان ما سنقوله ونذيعه عن عالم التسول مترع بالفائدة .. وفائدته تشبه عطر الرازقي ، ولا يمكن - بأية حال من الاحوال - أن تشبه بركات المصرف العقاري !!

انكم تبشرون بمذهب الالتزام عند كلامكم على وظيفة الادب ولكنكم في نتاجكم ، على تفاهته لم تتجاوزوا الشواطيء الى الاعماق المواراة .. فاذا كابرتم ، وقتلتم ذلك افك ، فان من حقا ان نطالبكم بالنماذج التطبيقية : ماذا انتجتم ؟ واين خلقكم الملتزم ؟

ارحموا انفسكم ، يا هؤلاء ، فلقد والله مللنا سخافاتكم .. وانني أسألكم : هل وضعتم الشمس في غير مكانها ؟ .. اذن ، فانتهم تطاولون بلا جدوى وتنطحون صخرا .. ولن ينفعكم بعد اليوم ، هذا التشجيع

الطائش الذي صوفحتم به في غفلة من الزمن !!

هاجمونا ، اذا شئتم ، ولكن برودة هجومكم متلهب دفاعنا وعندئذ سنقول للناس أن التمتع بالتراث العربي ، في نظركم يعتبر جريمة !!

ماذا تريدون منا ؟ •• هل تريدون ان نشتم الجاحظ ، ونلعن الرازي ، ونبصق على الروائع القديمة ؟ •• هل تريدون ان نؤمن بالحركة السريالية التي سكبها المجانين على الشعر والموسيقى والتصوير ؟ •• هل تريدون ان نتشبت بالمفاهيم العابثة التي خربت الذوق الرفيع ؟ •• هل تريدون ان نلتقط اخيلتنا من مزابل اللامعقول ؟ •• هل تريدون ان نأكل طعامنا بملعقة آرثر ميلر ، ونفترش نساءنا حلمين بلوليتا الغرب ، ونقضم اظافرنا تقليعة من تقاليع الحي اللاتيني ؟!

هل أزعجكم اننا سنخذل الشحاذين ؟ •• أفلا يسعدكم ان نغادر الابراج العاجية الى دنيا الكشاكيل ؟

اننا لقادرون على ان نؤرخ دخائل الحمير ، ونزيح الستار عن تمثال أول من قصع قملة في التاريخ ، وقادرون أيضا على ان نكون مثلكم : نشوه قسماث الاثر الادبي بامتصاص الثقافة الحديثة ، وهضمها بمعزل عن البنكرياس ، ليقرا الناس ما سوف نكتبه ، بعدئذ عن انسانية سرفاتيس في مواخير أسبانيا ، وعن عبقرية الشبق في احضان بايرون !!

وما كان ضر هؤلاء لو أنهم اقتحموا معنا أوكار الشحاذين لينعموا بلحظات سعيدة مع بشر أهملهم بشر في سلال المهملات •• فإذا لم يكن هذا في وسعكم ، كان لكم دينكم ولنا دين ، وسهل علينا جميعا - اتم ونحن - ان ننام تحت لحاف واحد ، وننعم بظلال وارفة من الترازق والتعاش ، لننتفع بما تكتبون وتنتفعوا بما نكتب •

فاكتب يا شيخ جلال ، ما يحلو لك ولسوف أصول معك في جميع الجولات •• على مراحل يقتضيها موضوع الشحاذة • فالواجب علينا جميعا ان نقول كلمتنا في أبرز ظاهرة اجتماعية شغلت العقول والعواطف

في فترات متباعدة من الدهر •• فقد شخص معلمها في العراق (معقب)
جريدة (البلد) في يومياته المنشورة بتاريخ ١٧-٨-١٩٦٥ حيث أشار الى
أن « ليس من المنطق أن يكون الجسر على طوله وشارع الرشيد والمتاهي
العامة ونواصي بنايات الوزارات مقرات دائمية لهؤلاء المتسولين الذين
أصبحوا عالما قائما بذاته » •

ونبتت جريدة (الزوراء) البغدادية في عددها الصادر في ١٩ رمضان
سنة ١٢٨٨هـ (أي قبل ٩٩ سنة) الى ككرة المكدين في بغداد • وألعت
جريدة العراق في عددها الصادر في ٣٠ تموز سنة ١٩٣٠ الى شذرات من
حياة المكادي في بغداد • ووضع الدكتور صلاح الدين المنجد كتابه المعروف
بالظرفاء والشحاذين ليكون أمتوعة المطالعين !!

أذن ، فلنواصل الرحلة في الدرب نفسه هاتكين اسرار الشحاذة ،
وجذورها الضاربة في أعماق الحياة ولا علينا اذا زاع الحاقدون حقدهم ،
لانهم يعلمون جيدا انهم اضأل من ان يعرفوا شيئا ولو يسيرا عن شحاذتهم
وشحاذتنا وشحاذة الناس أجمعين !!

لقد علمت ان الشيخ الحنفي ، في صباه ، وقف على تعريف جامع
مانع للكدية •• واليه يعود الفضل في تفتح استعداده الطبيعي لممارسة هذه
الصنعة • وكان لصانع التعريف اثر كبير في نمو هذا الاستعداد وازدهاره
في أعماق الشيخ • فالكدية سؤال الناس واستعطأؤهم •• والذي يندوق
لذتها يحرص عليها ولا يلوم أهلها لما فيها من لذة الاسترزاق بلا تعب •

وهذا التعريف وان كان ينطوي على اغراء وفتنة الا انه اذهل الشيخ
الحنفي واكرهه على حمد صاحبه •• لانه غادر بالكدية حدود النظرية الى
ميدان التطبيق • فاذا علم القاري ان صاحب هذا التعريف هو العلامة
الشيخ محمد عبده (شارح مقامات الهمداني) ارتفع العجب ، واضحى
طبيعا ان يقلد الشيخ اللاحق الشيخ السابق ناعما بمباهج (الاسترزاق
بلا تعب) •• فالشيخ الحنفي عاش وحيدا يساجل الاملاق ، ولم يعنه على

صروف الدهر معين .. ومع الايام انقلب ديباجه صوفا وصوفه وبراً ، فأخذ
يرنو الى الناس بعين يتيم .. ولذلك لم يجد مناصاً من ان يرشق أبواب
السماء بالدعاء ، وابواب البيوت بالكلم الدامع !!

وخلال تصفحي لاحدى مجاميعه الشعرية المخطوطة وجدت الدليل
على سلامة مذهبي ، فقد أعلنت قوافيه ان حياته كانت (موتاً طويلاً المدى)
وانه عاش (حياةً ثيمة) ، وانه لم ير (العيش سائفاً) !! .. ومن هنا
استطيع ان أبشر متسولي الدنيا كلها بان الشيخ جلال الحنفي متسول
مطبوع لا يجاريه في الشحاذة مجار .

انه اشتهى ان يبريء نفسه من وصمة التسول ، وعزم على أن يرميني
بدائه وينسل بهدوء ليكون له الغنم دون الغرم .. فرضيت بالخسار صونا
للشيخ من وبال الشائعات ، فكان ثوابي منه ان يعرضني في (البلد) مثقلاً
بكشكول ابيض !! .. وبياض الكشكول يعبر ، في ملة الشيخ ، عن مهارتي
في الحصول على مرادي بلا قتال .. بلا خنجر . واقول (بلا خنجر)
ليتعض مكدي كركوك بهذه التجربة !! .. وللقارىء - بعد ذلك - ان
يتخيل دون مشقة انني ، بين عشية وضحاها ، اصبحت بقدره قادر شحاذاً
مصنوعاً يشار اليه بالاصابع !!

لقد وقف قراء (البلد) - حين طالعوا ما كتبه حول كشكولي الابيض
- على اسماء كثيرة نوه الشيخ باصحابها اناثاً وذكوراً في معرضي المدح
والذم : فالذين أغرقهم بالثناء كانوا من التوابين الذين جادوا - بعد تمنع -
بما أقدم حوصلته اما الذين شهر بهم وعض آذانهم فكانوا ما نعي ماعون
.. وقد التمس هؤلاء منه - قبل ان ينشر مقاله - ان يذكرهم ذكراً حميداً
ويجازي ندمهم بالعفو .. فأبى ساخراً بندمهم ، ولم يقبل لهم شفاعة نافع
ولكنه - بعد التي والمثيا - فتح باب التوبة على مصراعيه لمن يقدم له كفارة
او فدية : ديكا او حفنة من تمر او كوباً من دوندرمة .. فتزاحم النادمون
على الباب ياتونه من كل فج عميق ، وكان الشيخ يتلقى هداياهم بيسراه ،
ويباركهم بيمينه راشاً على نواصيهم زيت الزيتون !!

وبعد أن غادروا مطهر داتي ، وانتهى كل شيء .. ران الصمت على شيخنا ، وبدا ساهما - كمفكر اغريقي - لا ادري ماذا كان يتلجلج في صدره ، وفجأة نفص كشكوله على العبادة ، فاصاب من الادمس ، الاحلى ، الاطيب حصة الاستاذ محمد كاظم الطريحي^(١) من ولائم مؤتمر الادباء العرب الخامس .. وصفح لي عن الاهزل ، الاعجف الايس ، الاخبث من تلك الهبات .. دون ان تأخذ بتلميذه النجيب رافة !

ومن مشاهداتي ، يوم أقبل النادمون على باب التوبة ، ان الانسة جاهدة المفتي^(٢) كانت ترجو غفران الشيخ بلا كفارة ، متوهمة - بعد أن علمت بحاجته الى كشكول اسود من النوع الهندي - انها اذا أهدت اليه كهذا الكشكول .. تقل ميزانها ، وحق عليها التناء .. ولكنه حين فحص كشكولها استدار عنها حانقا ، ثم سمعته ، بعد ذلك ، يقول لها : انني معك في أن هذا الكشكول هندي الاصل .. ولكن اين سلسلته النحاسية ؟

أجابت : والله ، لا أدري

فقال بخشونة : كيف لا تدرين وانت صاحبة ؟

قالت : هذا الكشكول ليس لي ، وانما هو من مخلفاتنا الثمينه في البيت .. وانتي أكون شاكرة وسعيدة لو تفضلت بقبوله هدية متواضعة !
فقال : لا حاجة لي بكشكول اجرب ، اختفت سلسلته دونما علة ..
وسأجد خير بديل منه في الكشكول الذي وعدني به الحاج عبدالوهاب الاعظمي^(٣) الرئيس التنفيذي للمؤتمر الاسلامي العراقي بعد أن أكد وجوده في كركوك .

فتناولت المسكينة ما كانت تظن انها ستدخل به الجنة ، وشتمت حطها

(١) معلم أديب من أهل النجف ، شارك في أكثر مؤتمرات الادباء العرب .

(٢) موظفة في وزارة الثقافة والارشاد (مديريةية الفنون والثقافة الشعبية) .

(٣) امام وخطيب جامع الاوزبك في بغداد .

العائر ، وانتحبت بصمت ، ثم جادت عيناها بدمعتين كبيرتين .. هزتا كياني فلم أجد بدأ من التبرع بالمؤاساة فقلت لها : ان كشكولك زين الكشاكيل ، فطيسي نفسا ، واحتفظي به .. ولا يهولك ما زعمه الشيخ ، لان الكشكول - أيان كان طرازه - قد أصبح في هذه الايام اندر من الوفاء ، وحسبك أن الكشكول وعاء ذو أمجاد ، فقد اقنعني الباحث الاركيولوجي الدكتور محمود الامين^(١) بان أجدادنا الآشوريين قد عرفوا الكشكول ، وانهم - بعد أن ملأوه بالماء المقدس - وضعوه في يد الملاك المجنح ليظهر به الطلع والسعف بعد الانتهاء من عملية تلقيح النخيل ، واليهم يرجع الفضل في انتقاله الى البابليين .. فلا تعجبي - يا جاهدة - اذا استقرت روح الكشكولة الاشورية في (جنطة) دكتورنا الامين التي انتفخت ، ذات يوم ، بمزيج ضاحك من الاضداد ، يغذي العقل والبطن ، قوامه ثلاثة كتب وجريدتان ورغيف خبز عروك وتسع تينات طريات !

والكشكول ، فوق ذلك ، استبد باعجاب الناس اسما ووعاء .. فلقد كان المرحوم الشيخ موسى كشكول من أبرز قضاة المحكمة الشرعية ببغداد قبل ثلاثين سنة . وأخبرني الشيخ رشاد الخطيب (مؤلف كتاب هيت في أطارها القديم والحديث) بوجود كشكول فخم ، بيضوي ، أسود اللون .. في هيت ، علقه سدنة ضريح علي بن نورالدين في اعلى قبته .. وهذا ان دل على شيء فعلى المنزلة المغبوطة التي يتمتع بها الكشكول في عالم الاحياء والاشياء .

ودخل الكشكول في أمثالنا الشعبية ، فقال أهل بغداد : (كشكول يحود الشكول عالشكول) . وهو لفظة مذكرة غالبا ، ولكن سعيد الشرتوني في قاموسه (أقرب الموارد) أجاز تأنيثها ، فهو بعد أن قال : (الكشكول قح المكدي يجمع فيه رزقه) قال : (وكذلك الكشكولة) .. وفي هذا التجاوز ما يثلج صدر السيدة ثبات نايف (المحررة في مجلة بغداد) اذ لم

(١) أحد اساتذة جامعة بغداد .

بعد الكشكول تلك الحلية الجميلة التي يتباهى بها الشيخ الحنفي وحده ،
فهي تستطيع أيضا أن تنافسه ، في مضمار الكشكولة ، بافتن كشكولة رأتها
عين !

والكشكول ، كما يقول الشيخ الحنفي في الجزء الاول من الامثال
البغدادية ، وعاء يحمله الدراويش ، يضعون فيه ما يجمعونه من بيوت
الناس من أطعمة مختلفة الاصناف ، وهو يتخذ من بعض الثمار البحرية •
واللفظة من الفارسية (كش) المشتقة من (كشيدين) بمعنى الحمل ،
ومن (كول) أي الكتف •• وحاصل معناها ما يحمل او يشد على
الكتف !

ولا أملك ، في هذا المعرض ، الا أن أقول للشيخ : (عافريم) على
هذا الاستقصاء الذي لم يبلغ معشاره السيد الشريف الجرجاني في
تعريفاته ، والتهانوي في كشفه •• ولكني ، مع ذلك ، لا أذهب - كما
ذهب - الى أن الكشكول آية من آيات الدروشة ، فليس من الانصاف أن
يستوي الدراويش المتصوفة الذين يسبحون في الارض على قدم التجريد ،
والدراويش الذين هدروا كرامتهم فاستحبوا حمل الكشاكيل •• وفي
اعتقادي ان جميع الناس هم حملة كشاكيل ، فقد رأينا بعضهم يحملها
حقيقة ، وبعضهم يتمايل بها مجازا • فالذين حملوها حقا ابتلعهم التيه ،
وغادروا مسرح الحياة الى دور العجزة •• ومن هنا أصبح الكشكول منية
التمني وأمل الآمل • والحق أقول : انه أضحي - في أيامنا هذه - كعقلاء
مغرب • وكم كانت فرحتي طاغية حينما شاهدت ، في الاسبوع الماضي ،
أمام دكان عطار متسولا من متسولي مدينة الحرية يتناول فطوره من كشكول
صغير ، وقد وقفت عليه طويلا لامتع القلب والعقل بشمالة الجبل المنقرض ••
أو بخفقة الذبالة قبل أن تنطفئ ، وكان هذا ظني قبل عودة الاستاذ
ابراهيم الداوقني (صاحب مجلة التراث الشعبي) من تركيا ، ولكني علمت
بعد عودته بان سوق (قبالي جارشي) في استانبول يزخر بعدد كبير من
الكشاكيل •• والحمد لله على هذه النعمة !

أما الذين يحملون الكشكول مجازا ورمزا فكثيرون ، وقد اثروا أن يكتموا هذا الوعاء خوفا من الفضوليين ، فدفنوا معانيه في صندوق بريد أو حقيبة يدوية من الجلد • وكان على رأس هذه الزمرة الشيخ جلال الحنفي ، فهو من الذين احتكروا أحد صناديق البريد ليكون مهبطا للصدقات والكفارات والهبات •• فإذا شك القراء في دعواي ، فعليهم لتصدقها ان يكرموا الشيخ ويمالحوه بعلبة من تمر شركة اصفر •• نأخذ سبيلها اليه مثقلة بعنوان (ص•ب ١٦٧ بغداد) (١) •

وممن سار على هدي الشيخ في اتخاذ الرموز الكشكولي ذريعة للتسول المهذب كوكبة لامعة من دكاترة واساتذة •• يزورون الناس بحقائبهم يستجدون الكتب والمجلات باساليب شتى انعقدت لوافتها على تبادل المؤلفات ، وحلاوة (العشت) ، و (زقوم) السحت •• وما دروا ان حقائبهم انما هي كشاكيل غير منظورة ، أو (موديلات) متظورة عن كشاكيل دوخت التاريخ كالتى شاهدها الاستاذ ابراهيم الداقوفي في متحف البلدية باستانبول !

ومن الكشاكيل التى غابت وراء تهاويل السريالزم •• كشكول الاستاذ الفنان عزيز علي • ومن حق هذا الفنان ان يتسامخ به ، فوالله ما اجتمعت بهذا (العزيز) - في مناسبة وغير مناسبة - الا شكنا دهره متوجعا ، دامع القلب ، ممزقا بالف خنجر •• وقد سألته مرة كيف انت اليوم ؟ • فاجاب (موزين) والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ! وسألته مرة أخرى : كيف أصبحت ؟ فاجاب : اعتقد اني اليوم أفضل من أمس ، وسأكون غدا أحسن من اليوم !

وهو في هذا الجواب يبدو ملهما كبرناردشو : وقد شككت - بادىء الامر - في صدقه • وكان شكى في محله •• فالرجل انما هو عزيز علي ساخرا ، والا فهو - قبل أيام - اعترف انه لم يعيش من حياته الماضية

(١) كان هذا صندوقه قبل أن يغادر بغداد استادا زائرا في معاهد الصين الشعبية •

والراهنة الا يوما واحدا رتبيا شكولا ، وان أيام مستقبله ستكون على هذه الوتيرة •• ولذلك لن يحاسبه الله الا على سيئات أربع وعشرين ساعة ، ولن يثيبه الا على حسنات نهار وليل ! فاذا كان هذا الواقع معقولا وخيرا بعد قيام الساعة ، فانه شر وعذاب اليم في هذه اللحظة من سنة ١٩٦٧ •

وهذه كشكلة جديدة سيذكر التاريخ ان عزيز علي كان طليعة المبشرين باصولها وقواعدها في القرن العشرين •• وليس هذا على فناننا المبدع بمستكر ، فهو قد ارتضع سر الكشكلة من جذر كريم ضربت أصوله في أعماق بعيدة •• فاذا كان الشاعر الشعبي فاضل الصفار فخورا بانه رأى ، ذات يوم ، أحد الدراويش مترنحا بكشكوله وهو يرتل بند ابن الملا في أحد أسواق كربلاء ، فان الاستاذ عزيز علي استطاع - في جلسة خاصة انتظمت الشيخ الحنفي والاستاذ خاشع الراوي - ان يعيد الى الاذهان ما كان للدراويش من أمجاد •• فلقد صور لنا احدهم ويده كشكوله مندفعا ، باناة في شارع ترامت على جانبيه الحوانيت • ثم اخذ يقلد ما كان يتفجر على لسان الدراويش من نغم مترطن : (حق باقى •• دنيا فاني •• الا هو !) • وقد رأيت الشيخ الحنفي يهتز من الطرب صاعدا هابطا مع سياق اللحن الذى اجاد تقليده فناننا الكبير • وقد اخبرنى الشيخ ، بعدئذ ، بان عزيز علي لو كان يحمل كشكولا وهو ينشد هذه الحكمة الواعظة لبايعناه ولبايعه معنا أبناء الرجاء والامل كلهم سلطانا بلا تاج ، وبلا مراوح من ريش افريقى ! •

وأنا مع الشيخ في متمناه ، فلقد كان صوت عزيز وثائقيا ، ويا جبدا لو تسجله مديرية الفنون والثقافة الشعبية ليكون متعة الاسماع في المتحف الفولكلورى الذى أصبح وجوده اليوم من ضرورات العصر !

ان عزيز علي نوى ، قبل شهور ، أن يبني دارا ليتخلص من الغثيان الذى رسخ في أعماقه مرضا مزمنا بعد أن ضاع بين مباحج قانون الايجار ووعيد المؤجر ! •

وماذا في أن يكون لعزيز علي بيت ؟ •

الارض تكاد تكون بلا ثمن .. فهي هبة الدولة لاحدى جمعيات
بناء الاراضى التي كان رائد المنولوج أتعس أعضائها عيشا وأفرغهم جيبا ..
ولكن - وهذا ما فكر فيه عزيز علي - اذا كانت الشوارب متوقفة واللحى
محروثة .. فمن - ياترى - سيضع في زاوية فمه غليون ديفاليرا ، وعلى
رأسه قبة الكونت دي مونترلان ، وأمام (زردومه) وردة مدير فندق
بغداد ؟

الارض موجودة حقا في اقصى منطقة الداودى بالكرخ .. ولكن ابن
الفلوس ؟ .. أين شهامة أهل الشهامة ؟ .. أين مروءة من انتهى الى
مكارمه الكرم ؟ .. أين أصدقاء العمر ؟ .. أين عطف الدولة ؟ .. أين
جميعكم يا هؤلاء ؟ ..

لا تقولوا ان عزيز علي كان فنانا يساجل البغي ، في أيام زمان ،
بالكلمة الثائرة ! .. لا تقولوا انه خدم الدولة خمسة وثلاثين عاما ولا
تقولوا انه - في مجتمعكم - ابن سيل .. تبلور حطام دنياه كشكولا عتيقا ،
وأطفالا يعجز تنوران عن الوفاء بخبزهم اليومي ! .. لا تقولوا - بعد اليوم -
شيئا ، فقد سئم الرجل عواطفكم النبيلة .. انه يريد عواطف تنتفض -
بقدره شمهورش - طابوقا وسمتا ورملا وجصا وخشبا وحديدا ، انه يريد
ما يطهر به ارضه المهجورة من بول الثعالب ، انه يريد ان يزرع فوقها مأوى
يستطيع أن ينهض بحماية زوجه وأطفاله من غائلة البرد والحر !

انه يرجو الله لو يسخر له آصف بن برخيا في تشييد ارضه ليكون
في نجوة من مغبة التنازل - بالقهر - عن البيت الذى يجمع شمل اطفاله
لاخ فلسطيني وفد فقيرا الى العراق مع الوافدين .

ان عزيز علي ذو أرض .. ولكنه يغازل ، على بعد مائة سنة ضوئية ،
أكداس الطابوق وبيادر الجص ، فكيف السبيل الى التوفيق بين الارض
العاشقة والمواد الانشائية المعشوقة التى استطاعت التمرد والهجر ؟
أدرك عزيز علي ، أخيرا ، أن هذا التوفيق محال ، وان العقل
يدعوه للوقوف منه موقف ابن تيمية من التوفيق بين الفلسفة والشريعة ! ..

حتى يتسنى له ان يموت معذورا ، أو أن يموت - على الأقل - وفي نفسه
شيء من الداودي !

فأين المنقذ يا مسلمون ؟ وأين المسعف يا نصارى ؟
أمامكم فنان .. أقام الدنيا وشغل الناس أيام لم يفصح عنانرتهم عن
وجود بغالهم فى الاباريق !

أمامكم هو - فى حال جيته بعد يأسه من شارلوت - يريد ان يقضي نجه
دون ان يعلم به أحد .. وقد انتهى الى سمعي ، قبل اليوم ، انه حطم كشكوله ،
وأصبح من المؤمنين بوقوع المعجزات فى هذا العصر . فهل تعلمون لماذا ؟
لقد زين له أحدهم أن يكون باسلا فى معترك الحياة ، وان يأمر - بقلب
ميت - باعة الطابوق والجص بارسال لورياتهم دبلات وانصاف دبلات من الطين
المفخور ، وبعشرات الاطنان من التراب الابيض الى أرضه فى الداودي . وحين
أمرهم تحركت اللوريات ، الى هناك ، أرتالا وقوافل .. ولما عادت الى مباركها
ظولب بالثمن ، فعلل الطالبين برحمة الله !! .. وسامحوه الى أجل مسمى ..
رقد خلاله (الشيلمان) البلجيكي فوق الجدران ، وانقعد الطابوق بين صفوفه
.. ثم ساح عليه (شربت) الجص !! ..

وانتهى الاجل ، وانقطع المدد ، ورأى الناس عزيز علي فوق السطح
الأجرد كديك (هراتي) منتوف الريش ، يصيح فى بوق : مكانك تحمدي أو
نستريحى !!

ومن حق هذا البأس ان يهلح ، وان ينوح .. لان المطر رفيق عد ،
فاذا هطل رذاذا أو كآفواه القرب .. حلت النكبة ، وأنهار السقف .. وعندئذ
من عسى أن يكون عزيز نلبي وزوجة عزيز علي وأطفال عزيز علي ؟ .. له
أن يموت مدينا ، وله - يوم ينفخ فى الصور - أن يكون سيد الدائنين ، ولكن
بأي مذهب - فى ما بقي له من عمر - سيواجه دائنيه من باعة المواد العمرانية؟
وبأي عتاد ميعصم بيته المكشوف من دغدغات السيل المنهمر ؟

ان مذهبه فى ذلك ، وعتاده لذلك .. يكمنان فى ايمانه العميق بالمعجزة
سواء أهبطت من سماء أم ارتفعت من أرض ، فبغير هذه الخارقة لا يستطيع

أن يفني بوعد ، أو يظفيء دينا ، أو يحقق حلم العمر على أرضه الحالدة !!
لقد علم الشارد والوارد ان (حمل) عزيز علي (واقع) في الداودي ،
فأصبح - بحق - المحور الطبيعي للمثل البغدادي المشهور . وهذه غلظه لا
يستطيع ان يوجد بها زمان الناس مرتين في حياتهم الدنيا .. ومن هنا جدارتها
بالتاريخ . واني لأرجو ان يتصدى لها الشيخ علي البازي شاعر التواريخ
وشواهد القبور بيتين من الشعر .. لتكون عظة بالغة لمن كان له قلب !!
وفكر عزيز علي مليا فيما أصابه من عزم الامور ، وتوهم - بعد معاناة -
أنه بات يرقص في فراغ على فم هاوية . فلم يملك الا أن يفحص أعصابه ،
ويستحم تحت (دوش) بارد ففحص واستحم ، ثم فتش جيوبه .. فوجد
ثمالة هزيلة من (راتبه) الذي يذوب حياء بين اطفاله وزوجه مستهل كل
شهر . وبهذه الثمالة اشترى احدى بطاقات يانصيب انشاء المستشفيات ، ودفنها
في (البوم) كبير يضم طائفة نفيسة من لوحات زيتية تمثل بعض الاحياء القديمة
في مدينة براغ !!

وفي الليل كان فناننا يجتر اسعد الاحلام ، ويخال نفسه متمرغا على
فراش محشو بالريش الافريقي فوق سرير من سرر الطابق الاعلى من الجنائن
المعلقة !! .. كان يتلمظ : انها الجائزة الاولى .. أكثر من سبعة الاف دينار
ستكون في متناول جميع أصابعه !! .. انها ستجعله عملاقا .. فليحارب ، اذن ،
فرسان الظلام بسيف دون كيخوته : أبشري يا أم عمر !! .. فسأقطع
دابر الدائنين ، وسأعلق ثريا ايطالية متألقة في (هول) البيت .. هناك في
الداودي !! .. و .. و .. ولكن ماذا سيحدث لو انحرفت الجائزة عن طريقها
الذي أتمناه ؟ .. لا شيء ، ما دام في الوسع أن الهم نفسي العزاء والصبر .
وماذا أخسر لو تخيلت أن أحدهم استدان مني مبلغ الجائزة الاولى ، ثم وعد
بان يعيد ما استدان .. ولكنه أخلف وماطل ؟ ان المبلغ من حقوقي الثابتة
.. انه مدفون في ذمة ، فاذا خسرت الجائزة شددت الرجال منتجعا مرعى
يانصيب الموحد الوطني .. يانصيب الموحد .. الموحد .. الموحد .. الوطني .
ونام الرجل

وعند شروق الشمس فتح عينيه على واقع معذب ، ونشر اذنيه على أصوات
 تترد خبز الصباح !! •• ثم ارتدى ملابسه ، وهرب لا يلوي على شيء •• ومن
 أول بائع وقعت عليه عيناه اشترى بطاقة الموحد الوطني ليمتحن رزقه •
 وعاش أيامه قبل إعلان نتائج السحبة ناعما بسعادة مفتعلة •• حتى اذا
 أعلنت وجد نفسه راسبا •• وعندئذ توكل على اليانصيب الاسبوعي فانعا بالفيل
 •• وكعهد الناس ببخته : ضاع درهماه ، ووقع في حيص بيص ، ثم تكوم
 - أخيرا - على نفسه انسانا من انقاض ، انسانا كافرا بالمعجزة الجوفاء التي
 عقد عليها أمانيه في الخلاص !!

وهنا ، فقط ، بكى الفنان العظيم !! •• وقد سمعت ان بكاءه أثار لواعج
 أختنا افاضلة لعان البكري^(١) ، فلاذت بكائيات جايكوفسكي تناضل بها رائحة
 المساة ، وسكنت الى كئاسيات باخ ضمعا في سلو ، واصاغت الى عويل مدام
 بترفلاي زهدا في دنيا أبكت فنانا !!

بكى الفنان البأس •• بصمت وتذكر أيام اليفاعه الزاهرة التي امنصتها
 منافي عهد غابر وسجون حكم أحمق •• وتذكر كيف كان يثير وطنيه الناس
 بمنولوج حكيم •• وتذكر سويغات قضاها محروما من أمن وعافية •• وتذكر
 ما ألهب اشجانه •• فطرحته الذكريات على بطنه يهزه صراخ أخرس قتال!!
 وانتهى الى سمع بني آدم ان عزيز علي جرح بيده يده ، وانه ود لو
 يضمدها الاستاذ حقي الشبلي^(٢) •• ويقال أن الشبلي ضن بذلك عفوفا !!
 أنه الان يسبح في خضم الحياة بلا مصايح •• ينشبت بالطحلب يحسبه
 يدا ناصرة ، ويتعلق بالسراب يظنه واحة كريمة !! فأسغفوه يا ناس أن كنتم
 تعقلون ، وانجديه يا دولة قبل أن تصعد روحه الطاهرة الى السماء !!
 أعطوه المأوى ، وانعشوه بالبر والصلة ، وأربطوا أنابيب مصرف الدم
 بشرايينه •• يكن من الشاكرين حيا وميتا •

وألمي راسخ على شهامة الدولة •• هذه الأم البارة التي يسعدها أن

(١) موظفة في وزارة الثقافة والارشاد

(٢) مدير مصلحة السينما والمسرح العام

نغذى بالسماذ جذور المعذبين في أرض الوطن وليس عليها بعزير ان تجود بما
يجسم الامل سياجا يقي عزيز علي شر الليالي •

فيا من أصبح يدعى ، من وراء الانف ، عزيز علي •• طب نفسا ، وقر
عينا ، فقد حلت أهلا ، ووقعت على فردوس ، ولك بعد أن تنفس الصعداء ان
تغفو وتغفر ، فوالله ما وضعتك في صفوف أهل الكشاكيل الا اعترزا بك
وحرصا على صوتك الذي يجب أن يذوب مع أصوات بشر مثلك ولكنهم أدباء
ومؤلفون •• لتزاحم معهم بالناكب على سقاية كنج عثمان تو كيدا لرخاء اليوم
وسعادة الغد !!

وأني لارجو يا أبا عمر لو تشتري كشكولا جديدا عوضا عما حطمت
وأنت في سورة غضب مشروع !•• لان الكشكول أضحي مبعث فخر ، وموئل
مجد •• ويا حبذا لو انتقيته نظيرا لكشكول الشيخ جلال الحنفي ، ليكون في
وسعنا تعضيد الكشكلة المعاصرة التي استهوت أهل القلم وحلفاء الفاقة على
تفاوت المنازع والمشارب !•

والكشكول لم يكن ، في يوم من الايام ، عارا على حامله ، فقد اخبرني
الترجمان الاستاذ موسى كاظم نورس بان الكاتب القصصي الاستاذ جعفر
الخليلي لا يزال يحتفظ بكشكول عديم النظير •• يقال انه كان معلقا في غرفة
محاسب مجلة الهاتف لينبه اولي الاباب على الوازع التقشفي الذي التزمت
به المجلة خلال عمرها الطويل !!

وقد استمسك بعض أدبائنا بالكشكول زينة في بيوتهم •• يوهمون به
ضيو فهم أنهم عشاق نوادر وعاديات • وأخص بالذكر منهم الاستاذ مشكور
الاسدي الذي ابتاع كشكوله من مدينة شيراز بعد تفتيش دقيق أفسد عليه
أوطارا بهيجة في مواطن الجمال الايراني !!•• ومن يسعده الحظ في زيارة
بيت مشكور يجد الكشكول هناك بين يديه يفيض بالجكليت والحلقوم !•

ولكي لا يتوجع الاستاذ الاسدي من نشر هذه الفضيلة اقول ان
الكشكول أستبد بمرکز مرموق في الفكر العربي والاسلامي ، وانه رصنح

عنوانا جميلا في أغلفة كتب كثيرة .. أشيعها ذكرا بين الناس كشكول بهاء الدين العاملي وكشكول يوسف البحراني ، والكشكول فيما جرى على آل الرسول لابن المطهر الحلبي ، والكشكول الصافية في شرح الواردات السعدية لاحمد رشيد النوشهري الرومي ، وكشكول جمال لمحمد جمال ، وكشكول أحمد بن محمد مهدي الكاشاني ، وكشكول الخواجة كليم الله القادري ، والكشكول في التصوف لمنور شاه الجشتي .

والجدير بالتنويه ، على صعيد الكشكولة ، هو ان أحدى الجرانيد الموصلية التي ما انفكت تصدر حتى هذا اليوم .. تحمل اسم الكشكول ، وهذه الجريدة تأسست في الموصل في الرابع من نيسان سنة ١٩٣٩ بهمة الاستاذ حمادي الناهي .. ومنذ ولادتها أفصحت عن تسولها المشروع بعبارة باكية وضعها رئيس تحرير الجريدة في صدر الصفحة الاولى من كل عدد لتنبه حضرات المشتركين على ان (من قبل عدداً واحداً عد مشتركاً) .. والسياق الكشكولي يقتضي اضافة كلمة (رغم أنه) الى العبارة المذكورة !! وحسبت ، لاول وهلة ، ان جريدة الكشكول الغراء كانت ولا تزال لسان حال المفضوب عليهم - بلا جريرة - من أخواننا حملة الكشاكيل .. ولكني - وأحر قلباه ! - رأيتها في عدد يوم الجمعة الصادر في ٢٧ اب ١٩٦٥ تحت الاستاذ محمود الجبلي مدير الشؤون والعمل في الموصل على اضطرار المتسولين ، وتزين له حجرهم هناك في دار العجزة .. وهذا عقوق لا ينبغي لجريدة تتحلى باسم الكشكول ان تقارفه !! ولعل الاستاذ الشاعر خاشع الراوي - وهو أحد المشتركين في هذه الجريدة - يدعم مذهبي ، ولربما هدد بالغاء الاشتراك فيها اذا استمرت على أرهاق النخبة من فلاسفة أهل الكشاكيل في أم الربيعين !!

وتنازع الناس في أصل الكشكول .. ولكنهم أجمعوا على انه آري الاصل آسيوي المنبت . ويعتقد الشيخ الحنفي انه وفد من الهند ، بينما الاستاذ موسى كاظم نورس يمنحه الجنسية الايرانية .. وانني ضعت بين

المذهبين ، فلا أدري أيهما على حق ، فرأيت ان الرجوع ، في هذه المشكلة ، الى الأستاذ احمد حامد الصراف هو الكلمة الفصل ، ففتشت عنه كثيراً ، وسالت عنه الراحل والغادي .. ولكني لم أهدأ الى من يدلني عليه . وأملني معقود على هذا البحاثه الكبير الذي يعلم ما لا نعلم عن دنيا الكشاكيل !! .. ورجائي أن يقول كلمته في هذا الموضوع مشكوراً محموداً مبروراً !!

لم يشغلني من أمر الكشكول ما قيل ونوقل عنه ، فانا أدري انه وعاء المتسول وحليه الدرويش وان ثمنه ايوم (كما أخبرني المثنى الأستاذالفران نوري الراوي) خمسة دنانير ، وأنه كان رفيق سفر لمحاج عبدالله فيلبي والنولونيل لجمن عندما كانا يبيعان (الفرات) ذريعة للتجسس في مناكب أرض العرب (.. هكذا قال لي الأستاذ خضع الراوي) .. وانه انقرص بعد وفاة المتسول الاكبر يحيى البرمكي السدي أخبرني الأستاذ عامر السامرائي^(١) بانه كان أبرع من حمل كشكولا في سامراء من الشحاذين !!

قلت لا يهمني من أمر الكشكول ذلك ولا ما هو أكثر من ذلك ، وانما الذي استأثر باهتمامي المادة التي صنع منها الصانعون كشاكيل الماضي البانده ، وكشاكيل اليوم المنتشرة في انحاء ايران وباكستان وافغانستان . وقد استطلعت الشيخ الحنفي حول ذلك ، فلم أجد عنده ما ينقع الغلة .. وهذا فقر ثقافي كان واجبا ان يتداركه من بويج سردارا للشحاذين ، وقبول - في ظل علاقته بهم - بالسمع والطاعة !! .. وأيا كان الامر ، فقد شاءت لودعية الشيخ ان ترشدني الى الأستاذ ابجائه الفوللموري عبداللطيف الدليشي مقش الاوقاف باعتباره سيد الخبراء في حقوق المرتزقة المهذورة بين شرط الواقف وجشع المتولي ، فرجعت اليه طالبا فتواه في طلسم يستعصي حله على الشيخ .. فقال لي دون تحفظ : اني استهلكت وقتنا طويلا في استجلاءالظلال التي تكاثفت حول الكشكول ، وقد كلفني ذلك ان اسائل في ميناء « الفاو » جميع البحارة الاجانب القادمين على بواخرهم من انحاء العالم .. عن المادة

(١) سكرتير تحرير مجلة الاقلام

التي تستقيم ، بين اصابع اليد الماهرة ، كشكولا .. فاستقر أغلبهم على انها
خشب (الكوك) الذي تنمو اشجاره في قاع المحيطات !
ولما قلت للدليشي : وهل لهذا الخشب استعداد الخزف والزجاج للسكر
واتصدع ؟ اجاب : نعم ! .. وباستطاعة خياط الفغفوري ان يضرب
الكشكول المخدد بمسامير من (التيل) ، و .. و ..

* * *

ان تكريم الضيوف المتسولين قد فجر انبل المشاعر الانسانية في عصور
التاريخ وحسبي ان اذكر بان عذارى الاغريق كن يغسلن قدمي الضيف أو
جسمه ويدهنه بالادهان ، وربما قدمن له ثيابا غير ثيابه .

وقد اتسع نطاق التسول في العالم المسيحي ، في العصور الوسطى ، وأصر
المتسولون اصرارا على مهنتهم ، وبلغ هذا الاصرار من الاتساع حدا لا نظير
له .. فكانوا يتنقلون من مستشفى الى مستشفى ، ويجوسون خلالها
يتصيدون لقيمات الخبز وشرائح اللحم .

وفي القرن الخامس عشر كان المتسولون في ايطاليا لا يحصى لهم عدد ،
وكانت بعض الكنائس تقيم ما يشبه مطاعم الشعب الحديثة .. وجريا على هذه
السنة كانت كنيسة القديسة سانتا ماريا في كامبو سانتو بروما تطعم ثلاثة عشر
متسولا في كل يوم ، والفني متسول في أيام الاثنين والجمعة .

أما في العراق .. فكانت المعابد الآشورية والبابلية مسؤولة عن اعالة
المتسولين ، وقد امتدت جذور هذه النزعة الانسانية ، مع الاجيال ، حتى
رأيناها شاخصة في (سوابج) الجوامع ، وفي المقاهي البغدادية حيث كانت
الصينية تدور على الجالسين استدرارا لمحالب الخير والاحسان !!

وما دام الحديث ذا شجون فان التنويه بالجهود الادبية التي سكبها
الاستاذ محمد علي الحمامي في كتابه (المطالعات في مختلف المؤلفات) ..
يجب أن يكون فريضة لازمة .. فهذا الرجل قدم خدمات مشكورة للمتسولين
من حيث لا يعلم (أو يعلم وأنا لا أدري) لانه غربل جميع الفرر التي انطوى

عليها الحديث قدسيا وغير قدسي ، وقص جميع الشذرات المأثورة عن كبار الفقهاء وائمة العلم والشعراء .. ليشير كوامن الرحمة في نفوس أهل الصدقات على أخوانه من أمثال الشيخ الحنفي والشيخ كاظم الساعدي^(١)

فمما ذكره نقلا عن تراثنا الاسلامي ان الضيف اذا دخل بيت المؤمن دخلت معه الف بركة والف رحمة ، ويكتب الله لصاحب المنزل بكل لقمة يأكلها الضيف حجة وعمرة ، وان الضيف اذا جاء بيت أحد المحسنين فان الله يمن عليه اذ بعثه اليه ليغفر له ذنبه ، وان البشاشة على وجه الضيف أحب عند الله تعالى من عبادة مائة نبي ، وان الضيف دليل الجنة ، وان من أكرم ضيفا فانما أكرم سبعين نبيا ، ومن انفق على الضيف درهما فكأنما انفق مليون دينار في سبيل الله تعالى ، وان الضيف ينزل بزرقه ويرتحل بذنوب أهل البيت ، وان أكرام الضيف واجب وان كان كافرا ، وان من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه .

ولم يكتب الاستاذ الحمامي بهذه الروائع ، وانما وضع في متناول الايدي والعيون نصوصا خطيرة تحت على عمل الصالحات وقد انتزعاها من كتاب (جوامع الآداب) للمرحوم جمال الدمشقي .. ونشرها تحت (آداب المضيف) ، وهي من جواهر المواعظ التي ينبغي ان يسترشد بها النازعون الى سياسة الشحاذين بما يستأهلون من لطف وحنان !!

لقد حدد جمال الدمشقي آداب المضيف بان يستقبل ضيفه بطلاقة وجه وسن ضحوك وترحيب بالغ ولقاء مبهج ، وان يحدثهم بغرائب النوادر ، وان لا يخبرهم بما يفزعهم ، وان ينتظرهم قبل الميعاد ، وان لا يضجرهم بتأخير الطعام ، وان يخدمهم ويقوم عليهم ويظهر لهم سعة الحال ، وان يطيل الحديث عند مؤاكلتهم ويظهر رغبته في الطعام أمامهم تجسيرا لهم ، وان لا يمسك عن تأكيد الدعوة بادنى اعتذار ، وان لا ينام قبلهم ولا يشكو الزمان وضيق الحال بحضورهم ، وان لا يفخم طعامه ولا يمدح طابخه .. فان ذلك

(١) صاحب جريدة الرائد البغدادية .

دعاة وآية من آيات الشح !!

وبدافع من حمد الجميل .. ينبغي لمن وجد في التسول مشتتاه ان يلثم
يدي الاستاذ الحمامي ويشكره على تقنين القواعد العامة لحماية المتسولين
من الشعور بالجوع !

والاستاذ الحمامي وان لم يكن أول متشرع في هذا الصدد فانه
مشكور على اية حال .. وحسبنا ان نعلم بوجود شعراء اذكاء بين العرب
حوا أهل الاحسان على الاستهانة بما لديهم من مال وطعام .. ليكون لهم
نصيب فيه فالذى قال :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وانت رب المنزل !

لا بد انه كان من عباقرة زمانه الذين زرعو في ابناء جيلهم حب الخير
وتقديس المثل الرفيعة .. لينعم فقراؤهم ومتسولوهم بما يدفع عنهم خطر
الموت جوعا .

وقد استغل الشيخ الحنفي حكمة هذا الذى قال (يا ضيفنا لو زرتنا)
في سلوكه المعاشي المؤلف ، فأصبح زائر الشيخ في منزل الشيخ رب المنزل ..
يقدم فروض الطاعة لشهوة الشيخ ، وأصبح الشيخ في منزله ضيفا ينتظر رب
منزل غنيم تسوقه اليه الاقدار متقلا بعلاقة فيها فاكهة من كل لون !!
ولمن قال :

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته ولم يلهنى عنه الغزال المقنع

أحسن المنازل في قلب الشيخ ، وهو يرجو لو تعود تلك الايام السعيدة
التي كان الضيف ، في مذهب ابائنا ، أحفل بالفتنة والسحر من الغزال
المقنع الذى يسلب بجماله الالباب !

والشيخ ، بعد ذلك ، يرحم مسكين الدارمي على قوله : (نارى ونار
الجار واحدة) ، كما يرحم دعبلا الخزاعي على قوله : (واني لعبد الضيف
من غير ذلة) ويرحم أيضا شيخ المتسولين في زمانه صاحب الافراخ الجائعة
سيدنا الحطيئة على قوله :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

لان الشيخ حفظه الله عرف كيف يصنع من هذه الحكم البوالغ مفاتيح،
وقد جرب ان يعالج بها افعال أكثر من باب .. فتراخت مصاريعها لتمتد من
خلفها أكف بارة معطاء !!

واني ، بعد هذا الاكتشاف الرائع ، استطيع ان أستجع من أخذيشكو
في الآونة الاخيرة فساد زمانه وكساد حرفته من أخواننا الشحاذين على ان
يقتدوا بفضة اشيوخ ودرائته باسرار الصنعة .. والافقدوا توازنهم واصبحوا
هدفا للحملة الجديدة التي قررت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، قبل
أيام ، قيامها بجمع المسؤولين من شوارع بغداد .. وعندئذ سوف لا يلام
الاستاذ علي أحمد شهاب مدير دار رعاية المسنين المقعدين على تطهير المجتمع
منكم ، وانزالكم ضيوف غير مكرمين على الستة والسبعين متمسولا الذين طرحهم
الاملاق في دهاليز دار رعاية المسنين !! .. فعليكم يا هؤلاء بالشيخ الحنفي ،
فهو -عندي- أرجح عقلا من ذلك الشحاذ الكبير الذي أماط اللثام عنه أديب
البصرة الكبير أبو عثمان الجاحظ ، فقد روى هذا المؤرخ الشعبي انه سمع
شيخا من المكدين وقد اتقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة فسأله الشيخ
عن حاله ، فقال : لعن الله الكدية ولعن اصحابها من صناعة ما أحسها وأقلها ،
أنها ما علمت تخلق الوجه وتضع من الرجال ، وهل رأيت مكديا أفلح ؟

قال الجاحظ : فرأيت الشيخ قد غضب والتفت اليه ، فقال : يا هذا افلح
من الكلام فقد أكثرت مثلك لا يفلح لانك محروم ، ولم تستحكم بعد . وان
للكدية رجالا فما لك ولهذا الكلام !! .. ثم التفت فقال : اسمعوا بالله يجيئنا
كل نبطي قرنان وكل حاك صفعان وكل ضراط كشخان يتكلم سبعا في تمان
اذا لم يصب أحدهم يوما شيئا ثلب الصناعة ووقع فيها ، او ما علمت ان الكدية
صناعة شريفة وهي محببة لذيدة ، صاحبها في نعيم لا ينفد ، فهو على برید
الدنيا ومساحة الارض وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب حيث
ما حل لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء ، يأخذ أطايب كل بلدة ؟ .. فهو

أيام النريسيان والهيرون بالكوفة ووقت الشبوط وقصب السكر بالبصرة ،
 ووقت البرني والازاد والرازقي والرماني المرمري ببغداد وأيام التين والجوز
 الرطب بحلوان ، ووقت اللوز والسختيان والبطرزد بالجبل ، يأكل طيبات
 الارض ، فهو رخي البال ، حسن الحال ، لا يغم لاهل ولا مال ولا دار ولا
 عقار ، حيث ما حل فعلفه طبلتي • أما والله لقد رأيتني وقد دخلت بعض بلدان
 الجبل ووقفت في مسجدها الاعظم وعلي فوطة ، وقد اثرت بها وتعمت
 بحبل من ليف وبيدي عكازة من خشب الدفلى وقد اجتمع الي عالم من
 الناس كأنني الحجاج بن يوسف على منبره وأنا أقول : يا قوم رجل من أهل
 الشام ثم من بلد يقال له المصيصة من ابناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله ••
 من ابناء الركاضة وحرسه الاسلام ، غزوت مع والدي اربع عشرة غزوة
 سبعا في البحر وسبعا في البر ، وغزوت مع الارمني ، قولوا رحم الله أبنا
 الحسن ، ومع عمر بن عبيدالله •• قالوا رحم الله ابا حفص ، وغزوت مع
 البطلان بن الحسين وابن مدرك وحمدان بن أبي قطيفة ، وآخر من غزوت
 معه يا زمان الخادم ، ودخلت القسطنطينية وصليت في مسجد مسلمة بن
 عبد الملك • من سمع باسمي فقد سمع ، ومن لم يسمع فانا أعرفه نفسي : أنا
 ابن الغزير بن الركان المصيصي المعروف المشهور في جميع الثغور والضارب
 بالسيف والطاعن بالرمح •• سد من اسداد الاسلام •• نازل الملك على باب
 طرسوس ، فقتل الذراري وسبى النساء ، وأخذ لنا ابناء وحملنا الى بلاد
 الروم ، فخرجت هاربا على وجهي ومعني كتب من التجار ، فقطع علي ، وقد
 استجرت بالله ثم بكم ، فان رأيتم ان تردوا ركانا من أركان الاسلام الى وطنه
 وبلده !!

فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت علي الدراهم من كل جانب ،
 وانصرفت ومعني أكثر من مائة درهم •

فوثب اليه الشاب وقبل رأسه وقال : انت والله معلم الخير ، فجزاك
 الله عن أخوانك خيرا !!

تلك هي امجادكم يا من عمتم الهامات بأكاليل الغار !! فلا تتخاذلوا ولا تتواكلوا تذهب ريحكم .. واني أعجب لكم تبكون وفيكم من قهر الدنيا كالشيخ جلال الحنفي !! .. انه حين قال في جريدة (العرب) الغراء بعددها الصادر بتاريخ ١٩٦٥-٩-٥ تحت عنوان « قرآن وسنة » : (رأى عمر بن الخطاب يوما رجلا من أهل الذمة يتكفف الناس ، فارتجف قلبه لهذا المشهد المؤلم ، فأمر له بنفقة من بيت المال يتعيش منها بقية عمره) .. فهو انما أراد خيرا لانه بعد أن رأى تخبطكم في وهدة الذل والانكسار ، أخذ يفكر في تصميم فردوس يرتفع بالشحاذين الى مستوى متسكعي باريس التقليديين المعروفين باسم (الكلوشار) !! .. فهو - وقد ايقن ان الشحاذين يمثلون طفرة حديثة في المجتمعات المعاصرة - أراد ان يوفق الى ذلك ، فاستعان بالاستاذ خاشع الراوي ، فبذل له هذا الرجل الكريم غاية العون بلا شكور ، وساعد الشيخ على تذليل جميع الصعاب التي حالت دون تخطيط امله الكبير !! فالكشكلة عند الراوي موقف معقول يوثق الروابط الودية ويرفع حجاب الكلفة بين الاصدقاء !! .. اذن فما دامت الاكف ممدودة (هكذا تكلم الشيخ) فليرحم الراحمون سيف بن ذي يزن الذي اعتبره ابو هلال العسكري اول من قال مرحبا وأهلا !! .. فاذا اضاف الشيخ الحنفي الى ذلك حنان الشاعر الاغريقي الشحاذ الاعمى هو ميروس الذي جعل المنسولين في الياذته من ابناء الاله زيوس واطاف ايضا قناعة العلامة السيد هادي كمال الدين الذي قال عندما سألته عن أمهر شحاذ ظهر في مدينة الحلة : ذلك هو أنا !! .. أطمأن قلبه بالايمان ، راسخا على ان الشحاذين كائنات عجيبة تدب على الارض لتصنع التاريخ بطريقة ارخص !! .. فهل في هذا ، بعد ذلك ، ما يصد الشيخ عن الاهتمام بأمرهم *

ان الشيخ ينظر الى دنياه ودنيا الناس بمنظار ازخر بالواقعية الجديدة من منظار الكاتب البروليتاري مكسيم غوركي وحسبه المعية ان يدرك بنظره الثاقب ان الشروط التي وضعها الرئيس الامريكى السابق ايزنهاور لقوام

الزعامة والتي طبقها على واشنطن وتشرشل وديغول .. انما هي جديرة
بزعامة اي شحاذ !! فالاخلاص وانكار الذات ، والنظر الى العمل دائما نظرة
جدية ، والجلد ، والثبات ، والقدرة على مواجهة النكسات برباطة جأش ،
والنهوض بنشاط من كبوة الهزيمة وخوض المعركة من جديد ، والاستفادة
من الاخطاء ، والتواضع المزخرف بدموع الامتنان ، والدراسة الدقيقة
للمواقف الطارئة ، وقوة الاقتناع .. كل هذه الشروط تليق بمن ذكرهم
آيزنهاور لياقتها بشحاذ أطل على موائد المترفين من أعلى برج !!

وإذا فكر الشيخ في تنظيم احوال المسؤولين ، فما في ذلك ما يشجع على
اعتقاد انه قد يكون أول من ابتدع هذه البدعة فقد شمل القانون الانكليزي
أحوال الشحاذين سنة ١٧٦٤ .. وأكد الشاعر الفرنسي العظيم فكتور هيجو
ان قانون العجرا الفرنسيين قد نظم أحوال الشحاذة ، وهو على غرابته مكتوب
بكامله في لوائح التشريع البريطاني القديم !!

وبهذه المناسبة اتقدم بجزيل التناء للاستاذ كامل السامرائي رائد
البليوغرافيا القانونية العراقية على تفضله بارشادي الى المجلد الثاني من
مجموعة القوانين ، والى قانون الخدمات الاجتماعية ، وقانون العقوبات
البغدادي فيما يتعلق بمركز المسؤولين في العراق .. وتلك خدمة تدل على
استيعاب الاستاذ السامرائي وحضور بديته .

ان نظام منع التسول الصادر في ١٣ شعبان سنة ١٣١٣ هجرية (أي
قبل ٧٤ سنة) قد أشار الى الشحاذين في أكثر من مادة ، فالذين يشاهدون
مأمورو الضابطة او البلدية من المعلولين الذين ليس لهم معيل يتسولون ولا
يراجعون دار العجزة .. يرسلون (بموجب المادة الثامنة) الى هذه الدار
إذا كانوا من اهالي العاصمة . اما اذا كانوا من خارجها فيرسلون الى
بلادهم .

والذين يتسولون (بموجب المادة التاسعة) وهم قادرون على السعي
والعمل يقبض عليهم من قبل الضابطة ، فمن كان منهم من العاصمة او هو

من اهالي الخارج ولكنه قد توطن فيها فيسرح بعد ان تربطه الضابطة بكفالة •
اما من كان من اهالي الخارج فيعاد الى بلده لأجل ان يشغل من قبل دائرة
بلديتها !

وهذا النظام من صلب التشريع العثماني القديم ، وقد احتلت فيه كلمة
(العاصمة) مكان كلمة (الاستانة) •• وما يجدر منه باتتويه هو انه خاب
في بسط نفوذه على الشحاذين الافغان الذين وفدوا بكشاكيلهم - كما احبرني
الاستاذ الفاضل الدكتور محمد صديق الجليلي - الى الموصل ، واحتلوا اكثر
مساجدها !! ولذلك شيد المشرع العراقي على انقاضه نظام دور العجزة رقم
٤٧ لسنة ١٩٤٧ الذي حرمت مادته الثالثة نعيم دار العجزة على المتسولين
الغرباء القادمين من الافغان وايران والهند وباكستان بالشروط التي جعلت
توفرها لازما لقبول كل شخص ذكرا كان أم أنثى ضيفا على الدار ، وهي
أولا أن يكون عراقيا ، ثانيا ليس له معيل ولا يملك مالا منقولاً او غير منقول
يكفيه مؤوته ، ويجب ان يؤيد هذا بشهادة من المختار ومصادقة المجلس
البلدي ، ثالثا ان يكون مبتلى بعاهة دائمية أو وقتية تجعله غير قادر على الكسب
والعمل •

أما المادة الخامسة من هذا النظام ، فقد تعاونت مع المادة الثالثة - التي
ذكرت منطوقها قبل الان - على حرمان المتسول العراقي القادر على الكسب
والعمل ، ولا يشكو عاهة دائمية او وقتية •• من مباحج دور العجزة •• فهذه
المادة ذهبت الى ان ذوي العاهات (وهم طبعا غير الذين شغلوا فكر عباس
محمود العقاد ردحا طويلا من الزمن) الذين يتسولون في العراق ، ويتخذون
هذه العاهة وسيلة للتسول يحجرون بدور العجزة حتى يتعهد احد أقرابهم
او اصدقائهم باعاشتهم وعدم اعطائهم المجال للتسول في الطرقات ، وتؤخذ من
التمهد كفالة بمبلغ لا يقل عن عشرة دنائير ولا يزيد على مائة دينار •• واذا
تكررت من قبل العاجز المخالفة فان الكفالة تصبح ساقطة بطبيعتها •
ولا أدري كيف غابت هذه الحقيقة عن وزير الشؤون الاجتماعية ،
يومذاك !

اما قانون المشردين ومطلنه اسوء ، فقد الحقت مادته الاولى بالمشردين من اتخذ الشحاذة وسيلة للارتزاق مع قدرته على العمل .. ولذلك اصبحت شعوبة الشحاذ والمشردين واحدة فبموجب المادة التاسعة اضحى من كان منهما يعتاد التردد الى أماكن تعدها الضابطة مريبة أو يأتي بأحوال وحركات داعية الى الشبهة .. يوقف ويحال وفقا للاصول ويحكم عليه بالحبس من أسبوع الى ستة أشهر او النفي من ثلاثة أشهر الى سنة .

وبموجب المادة (١٣) أصبح الشحاذ او المشردين الذى يتعرض للناس فعلا او يهددهم يضرب من عشرة سياط الى ثلاثين سوطا .

واختصت المادة السابعة عشرة بالشحاذ دون المشردين فصت على ان من حث الاولاد الذين هم دون الخامسة عشرة ، ويفريهم على التسول بقصد الانتفاع منهم يحكم بالجزاء النقدي (من ٢٠٠ فلس الى ثلاثة دنانير) وبالحبس (من ٢٤ ساعة الى ١٥ يوما) .

ولمسيخ الحنفي أن يحمد ربه على انني اليوم فوق الاربعين من العمر، فلو كنت دون الخامسة عشرة لحجزت الحكومة أمواله المنقولة وغير المنقولة في أية لحظة من جراء ترويضى على الكدية !!

اما قانون العقوبات البغدادي فقد حصر الشحاذة في اطار المخالفات المتعلقة بالامن العام والراحة العمومية حين اشارت الفقرة (٣/٧) من المادة (٣٢٦) الى ان كل من الح في الشحاذة داخل المدن أو القرى أو كشف عن عاهة بجسمه أو اظهر مرضا أو جرحا كرها بقصد جلب احسان الجمهور يجازى بدفع غرامة لا تتجاوز ليرة واحدة .

وهذه المادة تستطيع ان ترهب جميع الشحاذين على تفاوت أساليبهم وأذواقهم ، ومع ذلك ، وبالرغم من ذلك صمد حملة الكشاكيل في وجه هذه العقوبة بعد ان طوروا حرفتهم وهذبوا حواشيها .. فلا عجب اذا اختفى اليوم من لم ترتعد لهذه العقوبة أوصاله !!

وعصارة القول ان المركز القانوني للمتسولين لا يشجع احدا على

الشحاذة بالطرق البدائية .. وحرصا على هذه الظاهرة الفولكلورية وصونا لها من الانطفاء .. عزم الشيخ الحنفي على القيام بمحاولة بكر تستهدف تنظيم الكشاكيل على صعيد نقابي . ومن حق الشيخ ان يحاول ، فلقد أكد الاستاذ صلاح الدين ابراهيم في جريدة البلد بتاريخ ٢٤-٨-١٩٦٥ وجود نقابة لشحاذي باريس فيها أجنحة وتكتلات جعلتهم في درجات وصنوف واختصاصات مع ان أغلبهم اناس لا عمل لهم ، ورغم ان الحكومة الفرنسية ترتهنهم في دار الراحة .. فإنهم يهربون لكل الشحاذين الى ناصيات الشوارع المفضلة لديهم ، ولهم مقاهيم الخاصة حيث يشربون ويغنون ويعربدون بعدما يكونون قد انفقوا حصيلة النهار .. وفيهم شحاذون فنانون في الموسيقى والرسم ، وقد رأى الاستاذ صلاح الدين شحاذا على باب سينما يعرض حركات هزلية ليجمع النقود .. وهناك شحاذون يستوقفون المارة ليطلبوا منهم الحسنات بصورة جبرية فان عرضوا عنهم صاحوا بهم وعربدوا وملأوا الشارع ضجيجا . وقد رأى أحد أصدقاء الاستاذ صلاح الدين امرأة شحاذة تنوح داخل مطعم !! والشحاذون الهواة هناك على وجه عام يمتازون بروح الفكاهة والمرح رغم عيشتهم القاسية !

فلا غرو اذا اقبل الشيخ - بجنان ثابت - على ما حقق شحاذو باريس من مكاسب عن طريق التنظيم النقابي .. وهو يعتقد ان هذا التنظيم لا ينطوي على أية صعوبة ، وكل ما في الامر انه سيكابد ما لا يرجو من مضايقات العميان من المسؤولين لانهم وان كانوا يرون بخيالهم الخصب ما يدور في عالم العقل الالكتروني غير المعقول .. ولكنهم لا يستطيعون الاستغناء عن الدليل المرشد البصير الذي يدلهم على مواطن الزكاة والصدقات .. وهنا يكمن عذاب الشيخ ، فهو من الشعاعين بوجود ازمة مفتعلة جعلت الدليل الذكي نادرا ولذلك عقد العميان آمالا جساما على ولاة النقابة اذ انها باتت ضرورة اجتماعية لازمة يستطع بأحكام نظامها الداخلي ان يقضي على المنافسة الحرة القائمة بين الشحاذين ، ويتمكن عن طريقها

من استيراد الخرائط البلاستيكية التي اشتمها شحاذو بريطانيا •

والنقابة - بعد ذلك - لن تشكو فقرها الى زعيم لان الشحاذين الذين
يملكون القدرة على زعامتها موجودون •• ولكن وراء الكواليس ، وباستطاعة
اية عين فاحصة ان تستخرجهم للاستفادة من طاقاتهم وقابلياتهم !!

وانني شخصيا لو كانت النقابة موجودة حقا لما فاسيت وفاسي معي الاخ
الاستاذ عبدالله الجبوري (مدير مكتبة الاوقاف ببغداد) عندما حملنا شكولينا
الى فندق الخيام حيث يقيم الاستاذان عبدالرزاق البصير وسيف مرزوق
الشملان من اعضاء الوفد الكويتي الى مؤتمر الادباء العرب الخامس • فقد
وعدنا البصير والشملان بتحقيق حلم كبير كان يداعبنا منذ عشقنا الكتب ،
وكان للاستاذ الجبوري فضل وأي فضل في اثارة ما رقد في بصري فقد
حرضني - في قاعة الشعب - على الاتصال بهما لوزن خيراتهما • وبلباقة
المعتزلة استطعت ان استدرج هذين الاديبين ، فجادا باعتراف اهتز له
الفؤاد •• لقد بشراني بأنهما رزما طائفة من الكتب النفيسة ليقدماها هدية
لاهل القلم في العراق ، والتمسا مني ان اتنازل عن بعض الوقت الذي كان
مرصودا لنشاط مؤتمر الادباء •• ليتسنى لي خلاله ان استحلب التدي
الكويتي في احدى غرفات نندق الخيام !

فقلت : لكما ذلك ، وسأزوركما - ان شاء الله - قبل الظهر مصحوبا

بمدير مكتبة الاوقاف ببغداد الاستاذ عبدالله الجبوري •

فقالا بلسان واحد : سنكون من الشاكرين !

واخذت طريقي الى عبدالله الجبوري سعيدا بما حققت من نجاح ،
وحين وقفت منه على مدى خطوة وثب نحوي قائلا : احمامة ام غراب ؛
فقلت : حمامة اجمل من حمامة نوح عليه السلام •• فبشر المؤمنين في
العراق بان السماء ستمطر كسبا !!

وهرولنا جائعين نحو فندق الخيام ، فولجناه مع الظهر •• وفي غرفة
هادئة على الطابق الثاني حللنا ضيوفا ، وتلقانا الاستاذ البصير بوجه ضاحك •

وبعد أن جلس وجلسنا أمر خادم الفندق باحضار الاستاذ الشمالان ، فحضر
حاملا مائة كيس من الورق ، ثم حيانا ، وحمد الله واثني على نبيه ...
وكانت خطبة طويلة انهاها بانه سيجود قبل النفس بالكتب طمعا في ذكر
حميد .. وأكد ان الجود بالكتب اقصى غاية الجود !!

فأمنت ، ومعى الاخ الجبوري بهذا المجد .. فدعونا له ولزميله البصير
بطول البقاء ! .. ولم نشأ ان نفضح جوعنا ، فسترناه على مضض !! ..
وبعد ساعة تكلم البصير ، وكان كلامه ايدانا بتقديم الهدية المرتقبة ، فتناولها
من يد الشمالان ، واذا هي نسختان باليتان من تاريخ الكويت وديوانان من
الشعر الذي لا يحرك شعرة انف . فقاومت الجبوري بها مناصفة ، ثم
حملنا (اقصى غاية الجود) ودموع الامتان تجري سيولا من تحت اباطنا ،
وخرجنا شهيدين من الجوع لنستقر في أول مطعم تراه العين ، ولكننا لم
نكد نغادر الغرفة حتى سمع البصير حفيف ثيابنا ، فأمرنا بالجلوس ليجاذبنا
أطراف الحديث حول التيارات الادبية في العراق .. ولكن الشمالان افقع
البصير بالعدول عن هذا الحديث ليسخرنا مرغمين في تكييس الهدايا ، وكتابة
اسماء أكثر من مائة أديب عراقي على جميع الاكياس !!

فبادلني عبدالله نظرة عتاب جازعة .. مزقت كبريائي ، فندمت ولات
حين مندم ، ولعنت تلك الساعة الشيطانية التي جمعتنا بمن اماتنا جوعا واثقل
كشكولينا بما عسى ان يبيعه أحمد كاظمية (دلال الكتب في سوق السراي)
بعشرة فلوس !!

وجلسنا ساعتين نكتب ونكتب ، حتى شعرنا كأننا نريد ان نختق ،
وآثرنا الصمود تعزيرا لسمعة العراق ، وبعد أن أدينا الرسالة على أفضل
وجه ، طاب لنا أن (نرفع الزحمة) فقمنا خائرين ذابلين . ولدى باب الغرفة
صافحنا الاستاذ البصير ووضع في يد كل منا نسخة من المصحف الشريف
تمينا للمسخرة التي فرضها علينا الشمالان بالقوة القاهرة ..

ومن الاستاذ الجبوري التمس البصير ان يحمل نسخة ثالثة من المصحف الكريم الى الاستاذ سهيل ادريس صاحب مجلة الآداب البيروتية واحد اعضاء الوفد اللبناني الى مؤتمر الادباء ففطرت الدنيا من عين الجبوري واشتعل شعر صدره كله شيئا ولم يجد لكي يتخلص من (خاتمة المطاف) خيرا من الادعاء بان سهيل ادريس رجل نصراني !! .. وعند ذاك وجم عبدالرزاق البصير ، وولول سيف مرزوق الشمالان .. ثم لعن الاثنان سهيل ادريس علانية وبصوت مسموع ، وشكرا عبدالله الجبوري على خبره اليقين الذي أرسخ في أعماقهما ان سهيل ادريس يعيش حياته بعاطفة غير مختونة !!

ثم هربنا - بعد ذلك - على وجوهنا ، وفي الطريق تنفسنا الصعداء ، وشمنا الكشكلة ، ونقمنا على حمامة نوح . وأخيرا استقر بنا المقام في دكان بيع السندويج ، فأكلنا ، وشربنا الشاي انخابا ، ثم استأنفنا السير في شارع الرشيد . وبعد ان قطعنا مرحلة كبيرة التقينا بالشيخ الحنفي ، فشكا اليه الجبوري ما قاسينا على جسر التهذات في فندق الخيام ، ولم يتمالك امامه من البكاء .. فربت الشيخ على كتفي الجبوري وهو يقول : كن رجلا يا عبدالله .. والافأنت غير جدير بهذا الكشكول الذي تمص حقيبة مؤتمر الادباء .. أمثلك يبكي والاستاذ علي الخاقاني دوخ أهل المشرف والمغرب بذلاقة لسانه ، فكسب ما يعجز عن كسبه جميع الشحاذين الذين ذكروهم اليهقي في (المحاسن والمساوي) ؟ .. أمثلك يبكي وأنا حي ارزق ؟ .. ولدي .. ! استقد من الخطأ ، وواجه النكسات بقلب هرقل ، واتعظ بتجارب السلف المرحومين من شحاذي القرون الغابرة .. فقد كان منهم المكّي وهو الذي يأتيك وعليه سراويل واسع وفيه تكة ارمنية قد شدّها الى عنقه ، فيأتي المسجد فيقول : انا من مدينة مصر ابن فلان التاجر وجهني ابي الى مرو في تجارة ومعّي متاع بعشرة آلاف درهم ، فقطع علي الطريق وتركت على هذه الحال ، ولست أحسن صناعة ولا معي بضاعة وانا ابن

نعمة وقد بقيت ابن حاجة •

ومنهم السحري الذي يبكر الى المساجد من قبل ان يؤذن المؤذن •
والشجوي الذي كان يؤثر في يده اليمنى ورجليه حتى يرى الناس انه كان
مقيدا مغلولاً ويأخذ بيده تكة فينسجها يوهمك انه من الخلدية وقد حبس
في المطبق خمسين سنة •• فأين أنت من هؤلاء يا أبا عواطف !!

تلك هي دنيا الشحاذة ، وقد جلوت ملامحها العامة تاركا النافذة
مفتوحة لسواي ، وعسى أن يجازي الشحاذون ، في غد الناس ، بما
يستأهلون ليكونوا من الاحياء في المواسم الهزيلة !!

الزَّوجَاتُ وَالْكَتُبُ

حاول الاستاذ عبدالجبار محمود ، بين دفتي جريدة (البلد) ، بتاريخ ٢٦ نيسان ١٩٦٥ •• ان يدور مع - الزوجات والكتب - بعد ان لعق حلاوة الهوان في بيته المزكوم بعفونة الكتب القديمة غب مشادة صاحبة فجرتها زوجته لعنة دنيا ودين على جميع المطبوعات والمخطوطات • ولكي يتجرع صاحبنا هزيمته انفاسا وبشجاعة سقراط يوم تناول السم •• نراجع أمام الزوجة الثائرة بأدب جم ، قاذفا في روعها انه معها ، وانها على حق في دعواها ، باسطا لها جناح الذل من الخوف بعد ان اقسم انه لو كان امرأة لاسس الجمعيات لمحاربة الكتاب •• ولكن أم محمد لم ينطل عليها هذا التزييف ، فبشرته بجحيم لاهب ان لم يعظ نفسه ويزجرها ويحمل مكتبته الى أحمد كاظمية (دلال الكتب في سوق السراي ببغداد) لينتها بالقالون والعطارون جزافا أو بعشرة فلوس عن كل اقة استانبولية •• ومن هنا جحظت عينا عبدالجبار ، وقاء انفه دخانا وضافت به دنياه على رجبها ، فالتمس مخرجا يقيه غضب الله لانه كان من المؤمنين بان دموع الامهات تهز عرش الرب •• ولكن حتى هذا المخرج عز عليه ، فتمنى لو يمسخه الله اخطبوطا ليكون في وسعه ان يتوارى عن أم محمد بعد ان يصبغ الماء بالحبر الذي يستعمله هذا الحيوان البحري في مواجهة أعدائه •• غير انه ادرك ان هذه الامنية لن تتحقق ، وانه لن يمسخ اخطبوطا ، فزين له خياله انه اذا لم يكن هذا

الحيوان حقيقة فليكنه مجازا ، وقد تجسدت هذه الرغبة حين رأيناه يعدل عن صميم المعركة الى هامشها ، نافنا الحبر للتضليل بلا حساب . . واذ وجد نفسه فوق الطائفة ، معصوما عن مضايقات أم محمد لام الاستاذ شفيق الكمالي^(١) على المصير البائس الذي تسجبه له حين جعله مأمونا على اثني عشر مجلدا. من الكتب الى أجل مسمى ، وقد غاب عنه ان الكمالي لم يرد به سرا ، وانما أراد ان يتخلص من احتجاج زوجته أم يعرب التي ايقنت ، منذ زمن بعيد ، ان آفة زوجها انه يوجد بعشرات الدنانير ثمنا لمجموعة من المطبوعات الادبية لا تساوي عفتة عنز . . بينما يضمن على صداعه بقرص من اسبرين !! .

ويبدو ان صاحبنا نسي محتته فتمادى في عناده بعد ان تهاوت به نشوة الكتب بعيدا عن مساخط زوجه ، فأخذ يتفقد دهاء ، ويتذرع بالحيلة في تهريب مجاميع الكتب الى بيته دون ان يقع عليها بصر انسان ، وكأنه لم يقسم انه لو كان امرأة لاحرق الطري واليابس . . . انه نسي كل شيء كنفساء ابطرتها العافية بعد شهرين ، ولذلك فأنا لا اعجب له يسترشد بأراء النخبة من عشاق الكتب في هذا البلد ليقتنص الوسيلة التي تذلل له صعاب التهريب من غير ان يطبق عليه فح ، ويا حبذا لو فطنت أم محمد الى هذه البادرة اللعوب لتتكث غزله قبل أن يستقيم حبالا . . فقد هم بان يشاور الشيخ جلال الحنفي في الامر ، ولكنه باء بما لا طائل وراءه بعد ان وجد شيخه - قليل الخبرة ، ناقص التجربة ، لم يدخل الدنيا بعد - وأنا معه في هذا الحكم لان الشيخ الحنفي وان كان سيد بيته بلا منازع . . ولكنه اجهل الجاهلين بسياسة عائلة شقية بداء الضرائر .

وهذا هو بعد ان غمط نعمة الشيخ . . ارتاغ الاستاذ خاشع الراوي ، فأسبل على حياته الزوجية جيروت فرعون ، ظانا - بلا دليل - ان الاستاذ الراوي يتسامخ أمام زوجته الجديدة كالطاووس ، يفعل ما يشاء دون حساب ،

(١) استاذ في جامعة بغداد .

وإذا حوسب كانت يسراه على الذؤابة ويمناه في السوط .. وهذا كله افتراء
حاكه الاستاذ عبدالجبار عندما عصف به سحق أم محمد ، والا فليدر - اذا
كان لا يدري - ان الاستاذ الراوي ، ومثله الاستاذ خالد الشواف شاعر
معروف ، والشاعر بين زوجته وأولاده اضيع من قمر الشتاء ، وانه بينهم
يمضغ الماء يحسبه لقمة من لحم .. ومن هنا كان من حق الذئب ان
يستعج .. ولربما نازعت الاستاذ الراوي نفسه الى تأييدي لانه من رجال
الفكر الذين يدركون جيدا انهم اذا حكوا القرحة ادموها ، وعهدي به انه
يعلم ان من لم يدار المشط ينتف لحيته، ودليلي على ذلك نهض منذ عادر
بيته القديم الى بيته الجديد في منطقة العظيمة ، فلقد حملت اللوريات جميع
اثانه الا الكتب .. تركها هناك حتى لا يرى في بيته الجديد ، كواكب
السماء ظهرا .. وهذا هو ، قبل أيام ، رأيته يحتجز - تحت الشراء -
في مكتبة الاستاذ الخاقاني أربعة وستين مجلدا احتضنت الاغاني وعيون
الاخبار وصبح الاعشى ونهاية الارب والنجوم الزاهرة .. ولم يفكر
- حتى في هذه اللحظة - في نقلها الى بيته خوفا من ان يعتذر حين يلام ،
وهذا ما لا يريده من يتوق الى ان يمتد به شهر العسل شهورا أخرى ..
متع الله استاذنا الراوي بشبابه ، وابعده عنه مقاطف السعادة ، ووقاه بلاء
الكتب .

وكان نصيب الاستاذ عبدالله نيازي^(١) من مكسر عبدالجبار نصيب
الاستاذ الراوي : انفا في السماء ، ونارا تحرق البيادر ، وسيفا مشهورا ..
ليس لزوجته عليه سلطان ، ومكتبته مصونة كما لو كانت في ذروة الجودي .
وهذا افتراء مدحوض يكذبه واقع عبدالله نيازي نفسه ، فلطالما كتمت ام
ليث غضبها على ما تكدر في حجرات بيتها من اناهيد زوجها وبقايا ضبابه
ونهاية حبه وهمس ايامه^(٢) .. ولكنها - كما انتهى الى سمعي - برمت أخيرا

(١) قاص عراقي معروف .

(٢) هذه كلها عناوين قصص معروفة للاستاذ نيازي .

بأعياده التي اخرجتها له مطابع بيروت في العام الماضي • ولها الحق في ان تبرم ، لان الاعياد ايا كان موسمها ، لا تجود الا بالخير والبركة والمتعة ، بينما جاءت (أعياد) زوجها ، كعيد المتسبي ، مثقلة بالديون والاهات يطارد فلولها الناشر والموزع ، وترقد حصة مؤلفها منها ركاما فوق ركام في بيت أم ليث •• موزعة بين غرفتي الاستقبال والطعام ، وقد جزعت حين رأت اعياد زوجها تزحف حتى الى مطبخ البيت ، وحق لها ان تخمش الخد وتلطم الوجه وتقلع الشعر •• متهمة زوجها بتبديد ما وفر من مال على ما لا يمكث في الارض الا ماثرا للابن •••

رويدك يا أم ليث ، فأنت لم تتجاوزي المعقول ، وما شكوت شكته زوجتي أم غسان يوم رأت الحملين ينقلون (جمهرة المراجع البغدادية) الى بيتها ، فيثرونها كيفما اتفق ، هنا وهناك في جميع الزوايا والاركان والرفوف •• وشاء حمال خبيث ان يضع في مهد طفلنا اربع نسخ من هذا الكتاب ليستضرم النعمة على الزوج المنكوب •

وما انت وام غسان عليه يا أم ليث كانت عليه أيضا السيدة أم سهيل زوجة الاستاذ كوركيس عواد •• حين رأت ما لزوجها من (جمهرة المراجع) يتسلل الى بيتها تحت جنح الظلام ليستقر في مخزن كبير كان مشغولا بالرز والسمن والبصل •• ولم يدر أبو سهيل ان الحذر لا يدفع المقدور ، فقد كانت أم سهيل ، في تلك اللحظة ، تستخفي في ممكن لتنتهز غرة زوجها وهو ينقل (الجمهرة) فنهضت عليه كما لو كان يهرب مفرقات •• وعندئذ فار التور !! •• فمكانك يا أم ليث •• فأنت مع الحق ، لان الكتب أصبحت كصحيفة المتلمس ، من يحملها الى بيته يحمل حتفه بيده •

فيا امهات ليث وغسان وسهيل ••• رفقنا بنا ، بقوارير هذا الزمان ، فلقد والله اخطأنا ولم نصب وذللنا ضلالا بعيدا وحسبكن انكن لستن بأول مفعوع في هذه الحياة ، فان السيدة زوجة الاستاذ أمين المميز قد انتحبت

يوم سيد زوجها في بيته ايوانا كايوان كسرى بعدد هائل من كتابه (الملكة العربية السعودية) •

اذن ، فالتواكل كثير ، وعليكن بصبر أيوب ، ولتكن احداكن للاخرى اسوة ، فالتكلى تحب التكلى •• وعسى ان يؤدبنا الزمان ، وعندئذ نكون لامهات أكبادنا اثبت من الوشم •• فلا كتاب يغازلنا ، ولا مخطوط يسبي البابنا ودعاء كحمام مكة ، فأعذرنا - دامت سعادتك - فلكل جواد كبوة ، ونحن مؤمنون بالله وبحلاوة الحياة ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، واذا كنا قد زغنا عن سواء السبيل فاتن الهاديات المرشديات •• فالتوبة •• التوبة ، اعلنها اصالة عن نفسي ونيابة عن اخواني المعنوضين ، وقديما قيل :
التائب عن الذنب كمن لا ذنب له •

وماذا تريد بعد يا عبدالجبار محمود ؟•• وماذا عساك ترجو حين دهمت الاستاذين عامر السامرائي وجميل الجبوري مشاورا وأنت في امرك ابصر من وطواط في ليل ؟•• تقول عنهما اذ رجعت بخفي حين انهما لم ينفصلا بعد عن أمهما ؟ •• وهل يعني ذلك سوى انهما ما يزالان يرتضعان حليب الطفولة ؟•

انهما يا جبار شبا عن الطوق منذ محصا أول كتاب ، ولكنهما يعرفان أكثر من سواهما ان الكتاب على قلب الوالدة اثقل من طود ، فلا غرو اذا رأينا احدهما احذر من غراب حين يتأبط حزمة من المطبوعات متسللا الى غرفته الخاصة •• لان الكتب كما تحرش الزوجة على زوجها تحرش الام على رضيعها الكبير الذي يخلو بكتابه في مخدع الليل •• وقد تشور الام أحيانا حتى تفقد زمام السيطرة على نفسها ، وقد يبلغ بها الحق ان تخدش مارن ابنها بلطمة سديدة أو تصافحه بكلمة تمجها الاسماع ولذلك ذهب عبدالجبار شططا حين جعل الاخوين السامرائي والجبوري عاطلين من تجربة تستحق الاهتمام في ميدان المنافسة بين المرأة والكتاب !•• فقد فات صاحبي ان كلا الاخوين رهين قماط ، وكلاهما يمص ندي امه وعينه

في كتاب مفتوح ، ولعلهما قنعا بهذه الطفولة المانعة تشفيا بنا نحن الذين
كسبنا نصف الدين بزواج حملنا على ان نكون اجبن من نعمة ، ولربما
قنعا بذلك بعد ان عقدا ظنهما على ان من جعل نفسه عظما اكلته الكلاب .
ومن هنا كان جميل الجبوري من ازهد الناس في الزواج واعفهم عن
المرأة !!!

ووصل عبدالجبار محمود الى الاستاذ خالد الشواف ، فوقف بين يديه
ليقول لنا ان هذا الشاعر هو الرجل الوحيد الذي لم تعبس زوجته أم
أحمد اذ ترى الكتب بين يديه منقولة ومقروءة لانه كان يصدها عنها بالهدايا
النفيسة التي تعصمه عن التآحر ولا يعوز هذه المسرحية لكي تتم الا أن
يأمر الاستاذ الشواف لمادحه بعشرين ألف درهم وكسوتين وبغلة وجارية
رومية ثوابا على هذا التلفيق الجميل !!

وكأنني بالاستاذ الشواف قد سكر بهذا الثناء ، ودب الزهو في عظامه ،
وتناسى ان صاحبه لم يمسك اللسان عنه الا ليجعلنا في عين الشيطان .
ويطيب لي ، في هذا المعرض ، أن أمطر صديقي الشواف بحقيقة تصده
عن خيال الواقع الذي استمره الى الواقع الذي يحياه . . فهو اذا كان حقا
على هذه الجديلة من قوة الشكيمة ، يجيل بصره في مكتبته متعجبا من نموها
فخورا بها دون ان يخشى أم أحمد . . فلماذا حبس ما يشتري من كتب
في مقر وظيفته؟! . . افما كان الاجدر ان ينقلها الى بيته ليسعد بها فؤاد أم
أحمد ان كانت - كما يدعي - ممن هداها الله الى حماية الكتب؟! . . فاذا
عجز عن تحقيق هذا الحلم فانني مستعد لان اضع مكتبتي تحت تصرفه . .
يحفظ بها جميع كتبه المنبوذة . . وليكن ، بعد ذلك ، الطوفان !!

واحتسن عبدالجبار بعد ما هرم . . حين تناولني بالحديث الباطل ولا
أدري ماذا كان يتوقع مني؟! . . هل كان يود لو اغلف لحيته بالغالية حتى
نسيل على ثيابه؟ وهل له حجة على امرئ يريد ان يتصرف لنفسه؟ وهل
يسره ان اخضع له وانا الذي قهرت الدهر؟! . . انه يريد كل ذلك حتى
يقال طوبى له . . فقد جز ناصية العلوجي !! . .

ولا والله لا أعفو عنه ولا أهاده الى ان يجيب السائلين في كل رمان
ومكان بقوله : اني بواحد مشغول !

ان لعبدالجبار معي حكاية صاغها مؤتمر الادباء العرب الخامس ،
وسرديتها شهرزاد على مسامع الدنيا والدخان العفن يتصاعد محلقا من مجمرة
حرملة ، وليس لي ذنب في ذلك .. فأنا لم اخطف كرامته ، وكل ما في
الامر انني لم اسبغ على وجهه فتنة دون جوان أو جمال فالتينو أو سحر
كازانوف ، ومنذئذ وحتى اليوم جنح الاخ عبدالجبار الى اهتبال الفرص لليل
مني بمناسبة وبغير مناسبة ، وانني استحلفه بالله أيرضى ، وهو هو ، ان اغش
الناس والاصدقاء فالهمهم انه (أبيض يستسقي الغمام بوجهه ؟ ..) حاشاه
ان يرضى !

والذي يجدر بالتبويه انه شكأ الى الاستاذ خالد الشواف ، وانا
حاضر ، تبرم أم محمد بخزانة كتبه ، كما هتك حاجته الى من يرشده
الى الذريعة التي تضمن له سلامة العقل عندما يحمل بعض الكتب الى بيته ..
انه يرجو ان تستقبل أم محمد هذه الكتب بوجه واضح وثمر باسم ، ولكن
كيف السبيل الى ذلك ؟ .. انه استقتي الاستاذ الشواف فجاد عليه بالفتوى ،
واستفتاني فتريت قليلا قبل أن أقول شيئا ، لانني تصورت أم محمد تعابني
ملتزمة تقدير موقفها بانصاف وفي ضوء حكمة المتبني التي جعلت احتمال
الاذى ورؤية جانيه غداء تضوى به الاجسام .. ولذلك فضلت أن أكون
عادلا في فتواي ، ومن هنا اشرت عليه أن يكتب على صفحة الغلاف الداخلي
من أي كتاب اهداء رقيقا بتوقيع المؤلف .. وعندئذ يسود الوثام بيته وتوصد
الماخر دون عطور منشم ! ولكن الرجل وجد في هذه الفتوى ما شجعه على
ارتكاب اساءة جديدة ارتفع بها رصيد عدوانه على اخيه العلوجي ، فكان
ما كان ، ونشر على صفحات جريدة (البلد) خواطره عن الزوجات والكتب
ليفيد القراء بان جميع الكتب المحفوظة في خزائني تحمل اهداء بتواقيع
مؤلفيها ، وانني عمدت الى امتطاء هذا النهج تخلصا من تدمير السيدة زوجتي !

صلّى على محمد يا عبد الجبار ، واعلم ان حيل المحتالين ونزوات
الوائبين لن تعود الا الى نحر اصحابها .. لانها صفقة مغبون !

ان الكتاب يتمتع باحترام جميع الناس على تفاوت المشارب ، وهو
دافع الآفات عن تاريخ الحضارة ، وقد جعله المتسبي خير جليس في الزمان ،
واعتبره الزمخشري قرينا يحسن الموافاة ، وحسبه بديع الزمان ابر جار
وأطوع رفيق . وما أراه جديرا بالملاحظة هو جامع الكتب كجامع الذهب
والفضة .. كلاهما منهوم ، ولكن الجامع الاول باء بغضب المرأة .. بينما
الجامع الثاني سيطر على زمام المرأة ، فمن جمع كتباً في بيته وهو مثل
بزوجة واطفال استعبده الكتب ومل شريكة الحياة حتى لو كانت مهفهفة
بيضاء غير مفاضة أو كأن عظامها من خيزران !

وكل مبتلى بمرض الكتب نصير لنظيره ، وربما دافع عنه وهو لا يعرفه ،
أو أثنى عليه بقوله انه سليم من فتنة النساء أو ان المرأة نخلة راسخة في
وحل . وكان الفيلسوف الالماني شوبنهاور في طليعة الساخطين على المرأة ،
ومما يؤثر عنه قوله : يسألونني عن الافعى اللينة الملمس ، وهي امامهم ، في
كل وقت ، بل في كل لحظة .. هي المرأة . وحذر هواة الكتب بعضهم بعضا
من المرأة ، فقالوا : انها غل ، فانظر ماذا تضع في عنقك .

ان البيت الذي ضم جناحيه على المرأة والكتاب .. تهرب من نوافذه
السعادة ، وعندئذ يلتمس الرجل - دون طائل - من عطاري زمانه ما يقضي
به على داء الضرائر .. ولا تجد الزوجة بدا ، في هذه الحال ، من التأفف
ناعية مروءة زوجها .. وحتى الزوج لا يتورع عن اتهام زوجته بالغيرة ،
وعندها يستعر بينهما الاصطخاب ويصلت احدهما للآخر لسانا احد من
صمصام ابن معد يكرب الزبيدي وينتهي الامر بهما الى طلاق أو الى رضوخ
أبدي تستمريؤه الزوجة مع الايام رهبة .. وهذا ظلم ربما يزين للزوجة اذا
مات زوجها أن تنوح عليه قائمة ليكون جميع الرجال على بينة من انها لا تريد
أن تتزوج بعده !

كان المغيرة بن شعبة يقول : النساء أربع والرجال اربعة : رجل مذكر وامرأة مؤنثة فهو قوام عليها ، ورجل مؤنث وامرأة مذكرة فهما لا يأتیان بخير ولا يفلحان • والمغيرة في هذا التقسيم انما وضع الرجل والمرأة في ميزان الشهوة ليجعل من المرأة سقط متاع وليس على الرجل الا ان يفزع بها الى المرقد •

وانني استطيع أن أقول ان المرأة هي المرأة ، مؤنثة غير مذكرة ، وستبقى مؤنثة حتى في جنة المتقين ونار الكافرين •• ولكن الرجل قبائل ! رجل مائع بصق على الكتاب واحتف وجنتيه ليكون انشى انشاء • ورجل اغلق باب مكتبته على عشرين كتابا والقي مفتاحها في بئر حتى لا تضله عن زوجته ، ورجل صام عن اطفاله وزوجته وفطر على كتابه •• وهذا الرجل هو طريديتي ، ولسوف اعقره بلا رحمة ، فقد اسلمته الغاوة الى حياة شقية منعت من الافصاح عن انسانيته •• انه انا قبل كل شيء ، وانه سواي ممن افتقد الربيع ، وجاعت مواشيه وادركته الغوائل •

لقد حدثنا التاريخ عن رجل يدعى حسن اللؤلؤي ، وهذا الرجل كان يقول :

عمرت اربعين عاما ، ولايت ولا اتكأت الا والكتاب موضوع على صدري !

مهلا يا حسن ، فوالله ما وضعت على صدرك الا داهية ، ولم تدر ان ما ينفع الكبد يضر الطحال ، فانت بعد ان هانت عليك نفسك اصبحت على شريكة حياتك اهون •• انك نمت ساعة الرحيل ، وكأني بك تصفق يدا بيد ، وانت تولول باكيا على نعيم فات ، ولذة هربت !

وانت يا من تبجح اليوم بمخطوطات خزانتك ، وتباهي الناس بما عندك من كتب ، وتفخر كاذبا بما ليس عندك ، وتمنع الطالب عن رؤية ما ما يتوق الى رؤيته •• هل تدري ان الامر ليس الا بقبقة في زفرقة ؟ وهل تعلم انك لست الا سادنا مريضا في هيكل تتضوع اصنامه بجيفة معتقة !

انتي لا اصدق ان بين الكتاب والزوجة تعايشا ، ولا يمكن ان يحصل هذا التعايش ما دام الكتاب يطيح بالزوجة في مهواة اليأس ! • وانتي اهيب بجميع الزوجات اللاتي اتخذن ازواجهن الكتب من دونهن صاحبا وخليلا ان يثرن على من جار واعتدى واضاع الوفاق ونقض الميثاق ، فمثلكن لاتقرع لهن - بعد اليوم - عصا •• وعليكن المتكل في تأديب من خرج على جادة الصواب ، وقبلكن قالت للامام الزهري زوجته • كتبك هذه اشد علي من سبع ضرائر !

فيا أزواج المتزوجين بالكتب •• كاشفهنم بالحق ، وانني لادعو الله ان يوقفهن للمتاب ، ولترتفع اصواتكن بالتقريع ، واهجرنهم ان كانوا من الظالمين •• ولا تحفلن بسطوتهم ، ولا ترهبن ممن جعل نفسه مطية للشيطان ، والا تبدد الشمل وضاع الاطفال •

وانت يا من جعلت الكتاب زينة حياتك •• هلا ارعويت ؟ فقد شقيت بك زوجتك ، فماذا عساها ترجو منك بعد ان نعاك شيك ، وضعف بصرك ؟ رحم الله (اكسانبي) زوجة سقراط !!•• انها كانت أعنف مؤدب لزوجها الذي اهمل شؤون بيته •• فكن يا من ابتليتني بداء الضرائر كهذه المرأة العظيمة ، والا كان صعبا ان يعترف ازواجكن بعدالة شكواكن • هل دريتن ، يا مظلومات ، ان طيب المسلمين محمد بن زكريا الرازي قد شكته زوجته الى القاضي بعد ان تركها عاكفا بمؤلفات جالينوس ؟

وانت يا زوجتي •• يا أم غسان •• لا يغرنك انتي معك بين العريكة حلو الحديث ، فقد أجدني أحيانا أفزع الى الكتاب بشوق يعقوب الى يوسف •• وعندئذ لن يزجرني زاجر عن ان اضعك واطفالك في السلة المعروفة •• وهذه نكبة ارجو ان تخمدي تابشيرها قبل ان يستفحل امرها ، ولن يتحقق ذلك الا بان تقسريني على ان أكون كوالدي •• الذي أصبحت مكبته الخاصة الحافلة بنفائس الكتب مبولة للجرذان ومزبلة للخنافس الميتة بعد ان تزوج بثلاث نسوة !!

ان التعايش بين الزوجة والكتاب مستحيل ، واذا كانت المظاهرة الخارجية تدل على وجوده في بعض البيوت .. فان وميض الجمر تحت الرماد .. فقد علمت ان الاستاذ جعفر الخليلي كان يتهالك على جمع الكتب ، وكانت زوجته أم فريدة يحرقها الغيظ دون ان تحير لفظا فاعتقد الخليلي ان زوجته فخر النساء ، وانها ارفع من ان تفار من كتاب .. ولكن حين تراكمت الديون على ابي فريدة ، واراد موافاة الدائنين عزم على بيع بعض السجاد الفاخر الذي تحرص أم فريدة على وجوده في بيتها .. وهنا تكشفت فخر النساء عن أحقد زوجة على كتاب ، اذ منعت زوجها من بيع سجاده ، وأغرته بالكتب ، وحجتها في ذلك انها لا تستطيع ان تفرش الكتب للضيوف حين يخلفون الى البيت .. فبيعت الكتب ، والعاقبة للمتقين . وتلك سابقة جديدة بالاعتبار أتمنى أن تقيم لها الزوجات المعطوبات بالكتب نصبا تذكاري احتفاء بأم فريدة التي طهرت بيتها من قيء المطابع ! .. دون ان ترأف بزوجها أو تستمع الى توسلاته .

ورأينا الدكتورين حسين على محفوظ وحسين نصار يشدان الراحلة الى أقصى الارض للحصول على كتاب نادر أو كتاب يحمل توقيع مؤلفه بالاهداء ، وقد ضاقت بذلك أم علي وأم أيمن ، وشكنا الى الله ان الكتب قد انحفت زوجيهما ، وانهما لا يطيقان عنها فرافا ، وقد يقع احدهما أو كلاهما مريضا فلا يرحم نفسه !

واني اعجب لهما تسكتان عن هذا الاهمال المبين ، وزوجاهما يرنعان ويلعبان مع الكتب دون ان يخشيا رقابة أو يخافا وثبة ! فارجعا لعقليكما ، وكونا على الدكتورين حربا .. تكن السعادة منكما ومنهما قيد فتر .. والا فانهما سيقيان كالحادي وليس له بعير !

أفهذا هو التعايش ؟ .. أفلا يشجعنا كهذا التعايش المثالي على تصديق ان المؤذن اذا تزوج بابنة مقريء فانهما سيلدان مصحفا ؟

لقد قيل ان دزرائيلي رئيس وزراء انكلترا كان من عشاق الكتب

وكان من المؤلفين ، وانه حقق نوعا من التعايش بين كنبه وزوجته يعز معشاره على الآخرين ، وانه عاش وزوجته ثلاثة وثلاثين عاما في صفاء ورخاء ولقد بلغ من فرط حبها اياه انها جعلت تدخر قصاصات شعره طول مدة حياتها الزوجية . وهذه رواية كاذبة ارجو ان لا تأخذ سيبلها الى يقين الزوجات الشقيات بازواجهن في وقتنا الحاضر ، لان دزرائيلي خان زوجه من وراء ظهرها عندما جالس كنبه بولاء ليدون أكثر من ألف رسالة غرامية لعشيقته العجوز !!

وقيل أيضا ان المفكر الامريكي ول ديورانت مؤلف (قصة الحضارة) ما انفك وهو في شيخوخته ينعم بأفياء التعايش بين زوجته وقصة الحضارة . . ولكن الواقع ان المجلد الاول من كتابه الخالد كان ثمرة لتعاون كبير بينه وبين زوجته ، فهو يكتب المسودات وهي تطبعها على الآلة الكاتبة . . غير انها ، في نهاية المطاف ، ادركت انها مغبونة وان زوجها اصبح بهواينه الجديدة أعجز من أن يمتص رحيقها . . فقاطعته وبخلت عليه بالعون ، وشعر الزوج بهذه العاصفة ، فاراد استرضاءها وحاول ان يهدي اليها المجلد الثاني من كتابه . . ولكنها كانت اذكي منه ، فقد هجرته لتستهلك خريفها مع حفيدتها . وفي هذا عبرة لمن خدعها زوجها ، ورجائي ان لا تصدق - بعد اليوم - نساء الذين اعماهم حب الكتب ان التعايش ضرورة لازمة للبيت السعيد . . وان لا يصدقن بان الاستاذ يوسف يعقوب مسكوني قد حمد الله منذ زمن بعيد على ان زوجته (أم زهير) ما فتئت تعايش كنبه بالالفة والمودة . . لانني شخصا قد سمعت لاضراس أم زهير قعقة حين رأت زوجها يترنح بمجموعة من الكتب كان يتأبطها برفق ! كما ارجو ان لا يصدقن بان الدكتور محسن جمال الدين مغبوط على تعايش زوجته مع كنبه ، فقد رأيت هذين الزوجين ، ذات يوم ، في فم سوق السراي ببغداد يتعاونان على نقل عدد كبير من الكتب فريئت لجالهما ، وبعد ان سلمت عليهما سألت الاخ جمال الدين عما يحمله . . فاجابت زوجته - نيابة عنه - بامتراض واضح :

انها بعض المراجع الخاصة بالادب الاندلسي .. هذا الادب الذي قلني ،
وتمنيت لو ففده الناس مع فردوسهم المفقود ! .. واتار جوابها في نفسي
لواعج الاشجان ، فبكيت عليها دما ، وودت لو تفجر عليه نائرة لتقطع
عليه الطريق الى الادب الاندلسي ، وانني لارجو اخي الدكتور ان يخرج
بزوجته يتحوجان كماليات اوروزدي باك بدلا من ان يثقل يديها بطوامير
الكتب !

رفقا يا هؤلاء - وانا منكم - بقوارير البيوت .. بهجة المخادع ..
بالمرعى الانيق ، فان لنسائكم عليكم حقا .. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب
ينقلبون ! .. فلقد شبت شريكة الحياة من حديث التعايش ، وحسبها ان
تضيف الى القائمة الاستاذ ميخائيل عواد الذي يخضع في بيته - بين أم هلال
واطفاله - لنمط فريد من السلوك ، فهو يتظاهر بالحرص على توفير اسباب
الهناء لهم ، ويقضي بينهم وقتا غير قليل يجاذبهم الضحكة الخلوب والمرح
البريء .. ولكنه كان - من حيث لم يحتسب - يسيطر عليه شرود ذهني
لم تخف بواعثه على أم هلال ، لانها تعلم جيدا ان زوجها لا يهجر مكتبته
الا مكرها ، ولو ملك حرته لجالس الكتاب ليله ونهاره دون ملل .. وهي
حين تجد زوجها يلاطف ابناءه بعيدا عن التحقيق والتعليق والفهرسة كانت
تعتقد ان قلب زوجها ما زال في المكتبة !

وعلى جميع المظلومات ان ينتفعن بتجربة السيدة أم قاسم زوجة
الاستاذ عبدالرزاق الحسيني ، فهي بعد ان اقنعا أبو قاسم بضرورة تعايشها
مع كنبه لتستقيم لهما السعادة .. الهمة انها معه ، وان كنبه ومجاميع
الجرائد والمجلات ومحاضر مجلسي النواب والاعيان ومقررات مجلس
الوزراء انما هي كاطفالها ، وانها لن تبخل عليها بالرعاية .. ولكنها اقترحت
عليه ان يعصم هذه الذخائر في برج مشيد حتى لا تنالها يد عابثة .. ووضع
أبو قاسم هذا الاقتراح موضع التنفيذ ، وحقق امنية زوجته .. ولم يدرا انه
كان صحية دهاء .. وأم قاسم - شهد الله - ما زالت تعتقد بان كتب زوجها

ليست في نظرها الا مجموعة من المجذومين ارتهنتهم في محجر صحي لتكون تحت مراقبتها منعا لانتشار الوباء الى الغرف الاخرى ، وام قاسم ، اليوم ، تشكر الله على أن زوجها لا يخال ذلك المحجر سوى غرفة خاصة بالمكتبة •• وكل حزب بما لديهم فرحون •• وانتي وان كنت مأخوذا بهذه الالمية ، ولكنني أقترح على الاخت أم قاسم ان تعري زوجها ببيع محتوى مكتبته أو طرحه في أتابين مدينة الثورة تخلصا من ضرائر شمطاوات قد يستأثرن ، مع الايام ، بأبي قاسم •• وعندئذ لا ينفع الندم !

والذي غش زمرة الادباء وأهل القلم بلباقة متناهية •• هو الاستاذ علي الخاقاني الذي جمعه الدهر باحدى بنات حواء ، فزوجها وهي تجهل انه اصبر كاتب في دنيا التأليف واعشقهم للمخطوطات الشعرية ، وان الرائحة المسنونة التي تبعث من الطوامير القديمة لهي في أنفه أركى من عطور وادهان ماكس فاكور تبعث من أم بيان •• ومع ذلك أفلح في أقناع شريكه دنياه وآخرته بان البركة معقودة بشمرات المطابع والأقلام ، وان تعايشها معها سيوطد اسباب السعادة في بيته • فرضخت أم بيان بعد ان سلمت أمرها الى الله • ولكي يذر الاستاذ الخاقاني رماده الاسود في عيون المغفلين أطلق الثالوث البلاغي : بيانا وبديعا ومعانيا اسماء لاولاده •• وقد مهد بذلك السبيل للاعتقاد بان التعايش الذي تمناه كان نظرية فرسخ تطبيقا ••• ولكن الايام لم تبسم له كما اشتهى ، فسرعان ما زلزلت الارض زلزالها ، ، وتنفس الصباح •• واذا بالاستاذ الخاقاني يغادر النجم ليعكف على ذخائر مكتبة المتحف العراقي ببغداد أسابيع وأسابيع تاركا أم بيان تتجرع غصص التوحد بلا انيس •• وعندئذ عرفت قدرها ، واقسمت بالله لتذيقه عذاب الآخرة في دنياه ، وحين عاد اليها مثقلا بالسودات والكواغد الصفر •• بشرها بانها استمطر السماء •• وستمطر عليهما ليرات رشادية ، فما كان من أم بيان الا ان تجتث المهزلة من الجذور ، ولم تجد مناصا من مواجهته بطلعة صارمة حانقة لتأمره ببيع ما ملكه يمينه من كتب ، فتنازل مكرها

لوجهة رأيها ، متظاهرا بأنه سيكون عند حسن ظنها ، وسيبيع ما طلبت منه
بيعه دونما شرط .. ولكنه - بعد توسل - استطاع ان يقنعها بأنه سيبيع
الكتب في بغداد تسبثا بالصفقة الرابعة ، وفي ليلة غابت نجومها تحركت
اللوريات بمكتبته الخاصة زاحفة نحو بغداد حيث متجره الجديد يختال
بعنوان (دار البيان) .. وعلى أبوابه قامت اللوريات محتواها .. وطار
الشائعة الى النجف وانتهى الى سمع ام بيان ان زوجها سيلمع بعد أيام
بازرا في سوق الكتب .. وهكذا ايقنت بانها اعجز من أن تروض هذا
الزوج العنيد ، فخضعت للامر الواقع ، وسافرت بأولادها واثائها الى العش
الجديد الذي بناه عاشق الكتب في بغداد وايا كانت النتيجة فإن أم بيان
قد حازت بطولة الكفاح بجدارة ، وانها استطاعت ان تشرذ من بيتها تسعة
الاف كتاب لتستقر لاجثة في مكتبة دار البيان !

وللاستاذ كوركيس عواد حكاية مائة ، على صعيد التعايش بين الزوجة
والكتاب ، فهو وان كان دمث الاخلاق ، وديعا ، طيب الفؤاد ، يزرع
الاحسان جزافا ، ويبدل العون بلا حساب .. ولكنه حين يدلغ الى مكتبته
يختم على سمعه فلا تحركه ضوضاء الدنيا ، ويختم على بصره فلا يثيره الماء
ولا الخضراء ولا الوجه الحسن . يلازم المراجع والمظان منقبا عن اسرار
الكلمة والرواية ، ولا يفارقها الا بعد ان تصرخ أم سهيل عليه بصوت ناقب
يكتم الانفاس .. وعندئذ يطوي مراجعه ليطل على زوجته الغاضبة بابتسامة
حنون طمعا في مغفرة من لديها .. ولكي يكون هذا الباحث الكبير من اهل
التوفيق بين واجب البحث العلمي ومسؤولية البيت .. حاول بنجاح ان يهيء
لاطفاله في مكتبته ما يشتهون من دمي ومصاريع .. وحتى الزعرور والحلوى
واقلام الاصباغ والدفاتر .. وهو في هذا المنهج انما كان يتغني ارضاء اكباده
وانعاش هواه ، وقد نصرته هذه الفطنة على اطفاء البادرة الحانقة عندما تندلع
من لسان أم سهيل !! وانني لارجو مخلصا ان لا يصرف أبو سهيل وقته
مثلا : ساعة لربه وساعة لكتابه وساعة لزوجته ، فقد انعقد مألوف الناس على

ساعتي الرب والقلب .. اما ساعة الكتاب فهي نزوة طارئة ، وعلى أم سهيل ان تعصب هذه النزوة بالعنف فتضاعف بها ساعة القلب ، وعندئذ يحق لها ان تتباهى بانها ملكت كنوز بلقيس .

ان الكتب ابغض الحلال عند اللائي يرغبن في التمسك باهداب السعادة ، وهي منبع شر لا يدفع بسهولة ، وربما القت باصحابها في المأرق الحرج ... وهذا هو الاستاذ عبدالرزاق الهلالي حين كان مشغولا بتوزيع كتابه (الشيببي ... الشاعر الثائر) هدايا على وفود الادباء في مؤتمرهم الخامس .. كانت زوجته المسكينه أم علي تشن بصمت داعم من وجع طراً على اسنانها ، فتستغيث ولا مغيث ، وتستجير ولا مجير .. ونادت زوجها بالتلفون نداء ملتنا ونداء خفيا تستنجد بشهامته لعله يتبرع بالذهاب معها الى طيب ، ولكنه كان أقسى من صخرة المتسبي تلك التي ربما حركتها دعة حرى اذا لم تحركها مدام أو أغاريد ، فأبو علي كان سادرا في نشوته وهو يوزع كتابه على الغادي والرائح ، وكان يستهلك وقته في بشاشة الحديث مع الوافدين وزوجته تكاد ترى النجوم ضحى .. وهي تحتمل من وجع السن ما لو احتمل زوجها بعضه لبلغ عويله عنان السماء .. وانني لارجو لها موقفا مشهودا مع ازواج العاق في ديوان الله !!

لعن الله الكتب .. ما أثقلها وطأة على من أراد ان ينعم ولو بقسط يسير من استجمام ، انها تفسد على عشاقها اويقات الهناء ، وترتفع بهم عن متعة قد لا يوجد بها الزمان الا مرة واحدة .. وهذا هو الاستاذ مشكور الاسدى عندما هبط افغانستان قبل برهة من الدهر .. كان مأموله ان يرفه عن حياته المكدودة بالتنقل بين ملاعب عاصمة الافغان وان يتمتع الطرف بمنابت جمالها وسحرها .. ولكنه بدد وقته الثمين واضاع فرصة العمر في البحث عن مخطوطات لا تساوي شروى تقير .. حملها معه الى بغداد ليكثر بها هموم البيت واسأل الله العافية لعباده الذين بطشت شهوة الكتب فاضلتهم عن سواء السبيل !!

قوتلت الكتب •• ما أوقحها حين تصد كالاستاذ ناجي جواد الساعاني
عن الاهتمام كليا بتجارة الوقت ليقتضي عنفوان شبابه مع حروف سود ان لم
تكن آفة القلوب المغمورة بالسعادة كانت ينبوع ويل وبلاء يتناصران على
سحق الفرض الباسمة !!

احرقوا ، يا هؤلاء ، آفتكم ، وكونوا مع نسائكم عوناً على تكاليف
الحياة •• تركع لكم الدنيا • ولا تفكروا في بيع ما جمد في سبيل جمعه
ماء العين الى الباخسين •

ان الكتاب في عصرنا الراهن اصبح في رقبة صاحبه غلا ، ولا أدري
هل لجامع الكتب بعد العجز أمل في حياة جديدة تغدق عليه مسرات
الزوجة الوفية ؟ •

لقد أدرك قبلكم هذه الحقيقة أبو حيان التوحيدي ، فأحرق كتبه بالنار
وغسلها بالماء في آخر عمره لقله جدواها وضنا بها على من لا يعرف قدرها
بعد موته • وانه صنع ذلك اسوة بابي عمرو بن العلاء الذي دفن كتبه في
بطن الارض فلم يوجد لها أثر ، وبداد الطائي الذي طرح كتبه في البحر
وقال يناجيها : نعم الدليل كنت ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء
وذحول وبلاء وخمول ، وبوسف بن اسباط الذي حمل كتبه الى غار في
جبل وطرحها فيه وسد بابها ، وبأبي سليمان الداراني الذي جمع كتبه في
تنور وسجرها بالنار ثم قال : والله ما احرقتك حتى كدت احترق بك ،
وبسفيان الثوري الذي مزق الف جزء وطيرها في الريح وقال : ليت يدي
قطعت من ههنا بل من ههنا ولم اكتب حرفاً •

ولكي لا تصعدوا حسرات ذلك الوراق الاوربي الذي بزغ في القرون
الوسطى ليكتب في الصفحة الاخيرة من الكتاب الذي نسخه : فليجز الكاتب
على عمل قلمه بفتاة جميلة ! •• أرى وانتم بين نسائكم واطفالكم ناعمون
ان تجعلوا من كتبكم طعمة للنيران ليعود القبر الذي كانه بلا امرأة ••
روضة فيحاء • فالمرأة كما قال نابليون شعر الخالق ، وقد قسمها بشار بن

برد بين غصن و كيب وقمر ، وجعلها الاعشى جنة دانية القطوف ، فاذا
أهملتكم زوجاتكم مصروعين بفتنة الكتب ، فان الحجاج بن يوسف الثقفي
على جبروته كان يلثم اخامص زوجاته في هداة الليل •

وما علينا ، بعد ان تشوبوا الى رشدكم ، الا ان نقول : ايها الناس
استغفروا لهؤلاء فانهم كانوا يحبون الكتب وقد علموا قبل فوات الاوان ان
الكتاب آفة الزواج السعيد !!

انهم لطلخوا سعادتهم بالحبر •• ولكنهم تابوا الى صوابهم ، فاشتروا
العطر بالحبر !!

في الحضارة والتاريخ

بغداد قبل مائة سنة

حين أطلت بغداد على سنة ١٨٦٦ تهيأ لها ان تعلق ذروة الهزيع الاول من منتصف القرن التاسع عشر وكانت يومئذ تعيش واقعا يلعبه الغموض من جميع أقطاره وتكابد تجربة بائسة اجتازها المؤرخون دور ان يجودوا عليها بنظرة فاحصة أو بضوء كاشف •

ان بغداد في سنة ١٨٦٦ كانت ولاية عثمانية قوامها ثمانية عشر الف بيت يعيش تحت سقوفها مائة وخمسون الف شخص يستغلون اوقات فراغهم في مقاهي المحلات والعقود المنتشرة في الكرخ والرصافة ولا سيما قهوة زنبور وقهوة المالح وقهوة صالح أغا وقهوة سلمان وقهوة أبو علي وقهوة التسابيل وقهوة أم النخلة أو يستغلون تلك الاوقات في اختلافهم الى بعض الاسواق معاطاة للبيع والشراء كسوق الزنجيل او في عقد الصفقات التجارية في خانات هذه المدينة كخان الحياج وخان اليهود وخان احمد اغا وخان حاج محمد البقال وخان الجص وخان حسن بك وخان العفص او في النزهة ترويحاً للنفس خلال الدروب في محلات اندثرت معالمها اليوم كمحلة الطوبجية ومحلة خرطوم القيل ومحلة درزي صالح ومحلة سعدى كاشان او في تنظيف اجسامهم بالمياه الحارة التي كانوا يلتمسونها في حمامات مسديتهم كحمام شامي وحمام الجسر وحمام أيتيم وحمام المالح وحمام السيد وحمام الشورجة وحمام قنبر علي وحمام الكمرك •

وكانت بغداد قبل مائة عام على مالها من أمجاد حضارية ترتبط

مصريا بأهواء استانبول حيث السلطان عبدالعزيز يتشامخ بالابهة التقليدية الموروثة وينزع الى اللهو والبذخ ويتمتع بلذيد العيش بين نساء القصر وجواريه ومغنياته وحواشيه دون ان يقيم وزنا للديون الضخمة التي اتقل بها دولته . ووقع اختيار هذا السلطان على (محمد نامق) مشير الفيلق المرابط في بغداد ليكون واليا عليها يمثله بين أهلها متسلطا على يومهم وغدهم وكان هذا الرجل العسكري صارما متمزتا منغلقا على نفسه وقد جعل من جيش (الهايتة) غير النظامي مصدرا للنقمة وحافزا للثورة في اغلب الاحيان بعد ان سخره في جباية الضرائب من البغداديين ارضاء لشهوة الامبراطورية العثمانية . وفي ايام هذا الوالي اندلعت الاضطرابات في انحاء مختلفة من العراق ولكنه قمعها بباته وقوة شكيمته وكانت له أكثر من يد في تفكيك القبائل الثائرة بعد ان سلب عليها ضابطه (شبلي باشا) الذي كان في يقاعته رئيس عصابة معروفة . فافضى هذا الواقع الى خراب البلاد ومواجهة الناس بالارهاب والتعسف ومع ذلك وجدت بعض المؤرخين الذين غلبهم الهوى يصدون عن هذه المثالب وعن الخراب الذي حل بعرضة الميدان في بغداد ليرحموا عليه ثوبا على تشييده بعض الابنية التي انجزها في ولايته الاولى على بغداد سنة ١٨٥٢ كترميم مسجد الجنيد في الجانب الغربي وقيام الشيخ عبدالحسين الطهراني بزخرفة ايوان باب المراد في الحضرة الكاظمية بالزجاج والفضة هذا وقد أشارت سنة ١٨٦٦ في بغداد الى واقع اجتماعي متدهور يسوده الخوف من وباء الكوليرا الذي اجتاح هذه المدينة قبل عام وكان سببا الى الاستهانة بنهر دجلة الذي تمخض في سنة ١٨٦٧ عن فيضان عارم بلغت أضراره في بغداد وحدها - حسب تقدير الرحالة الهولندي نيههولت - ما يوازي ٣٢ مليون فرنك وبلغ من تردى الحال في بغداد قبل مائة عام ان اختنقت كلمة الحق خوفا من البطش والتعسف وتمرغ المنافقون من سكانها على أعتاب محمد نامق باشا يسبحون بحمده ، ويتزلفون اليه وكان في طليعة هؤلاء بعض الوعاظ وخطباء المنابر والشعراء المرتزقة ورجال التجارة من مسلمين ويهود . انهم مدحوه واثنوا عليه لانه يحسن التكلم

بالعربية والانكليزية والفرنسية ولم يذموه أو يؤلّبوا الجماهير عليه حين وثب
 بتعصبه التركي على عروبة الفرات الاوسط يجرح كرامتها بل لم يحرّكهم
 غدره بزعيم خزاعة النائر (مطلق بن كردي) الذي سلم نفسه اعتمادا على
 موثيق كاذبة انتهت به وباصحابه الى سجن بغداد ثم الى نفيه واعتياله في منفاه
 وكانت بغدادنا سنة ١٨٦٦ ضيقة الصدر بذبول الكارثة البهائية التي اقتحمت
 الفكر البغدادي يوم استقر البهاء وابنه عباس افندي في بغداد منفين بعد
 اتهامهما بالتآمر على اغتيال ناصر الدين شاه ملك ايران انتقاما للباب الذي
 أعدم رميا بالرصاص فهذان الوافدان وان كانا قد أبعدا الى الاستانة قبل ثلاث
 سنوات الا انها تركا في ولاية بغداد جرحا لا يندمل ، وكان لبغداد يومئذ
 نصيب من الاهتمام الذي عقده ساسة أوروبا على الدولة العثمانية بوجه عام
 لكونها ابرز مدينة في العراق الواقع على الطريق المقترح الى الهند فلا غرو
 اذا كان بوسع المقيم البريطاني (السير كيمبول) ان يحطم اية شخصية
 بغدادية بكلمة واحدة تغادر فمه الى استانبول باعتباره الناطق الاول بلسان
 شركات البواخر وهيئات التلغراف والبعثات الاثرية والجمعيات الخيرية فليس
 عجيبا في هذه الحالة ان تتعد بغداد عن التيارات العربية الناشطة ، رغم
 اتصال بعض ادبائها بادباء سوريا ولبنان وان تجهل كل شيء عن العالم
 الخارجي سوى ما كان يعرفه بعض ابنائها عن السياح والاجانب الطائرين
 والمقيمين . وفي سنة ١٨٦٦ استقبلت بغداد اوائل عهدا بشركة الملاحة
 البخارية في دجلة والفرات فاصبحت ربوع الرافدين يومذاك منطقة نفوذ
 بريطانية تخضع للمصالح والامتيازات التي غادرت لندن الى بغداد مع الرساميل
 المصرفية وتميز عهد الوالي محمد نامق باشا في بغداد قبل مائة سنة بالغلاء
 الفاحش والفقر المدقع الذي استغرق اكثر أهلها ، فقد ارتفع سعر (المصرية)
 وهي نقد من الفضة . . الى اكثر من ثمانين فلسا وأصبح الحصول عليها أمل
 الآملين حتى ان عوام بغداد قالوا (فلان يبيع مصر بمصرية) اعتراضا بها .
 وكان السوق البغدادي يواجه قانون العرض والطلب بالعملة الورقية والمعدنية
 التي كانت تضرب في دار السلطنة ، واصبحت الليرة العثمانية صاحبة

السيادة في مضمار التداول بعد اختفاء الذهب المجيدي الذي كان في وسع بغداد ان تسكه قبل سنة ١٨٦٦ بربع قرن . وشوهد سنة ١٨٦٦ منات الدراويش يقاتون على صدقات البغادة وهم لائذون بالحضرة الكيلانية والتكيا المنتشرة في انحاء بغداد وأشار هذه السنة أيضا الى وجود أبي الهدى الصيادي زعيم الطريقة الرفاعية في بغداد ليتناول الخرقة الصوفية من القطب الاعظم السيد محمد بهاء الدين ولينهل منه العلوم الشرعية وأسرار التصوف ولما استوفى سلوكه في الطريقة أذنه بالرجوع الى الشام وقد تناقلت المحافل الادبية في بغداد قصيدة السيد عبدالغفار الاخرس التي نظمها في مدح هذا الضيف الكبير ومن الملامح الاجتماعية البغادية قبل مائة عام ارتهان المرأة في بيتها وتقييم دنياها من وراء حجاب ، ووجود العجائز في الاسواق لتعاطي البيع والشراء ، وسيادة الخرافة على عقول الناس فقد أخبرني من أتق به أن هناك في أعماق محلة التكاثر في الكرخ ببغداد وفي نهاية (الدربونة) المعروفة باسم (جوه الطاك) كانت السيدة (ريمه) قبل ثلاثين سنة تمضغ ذكرياتها القديمة النابعة من أيام الوالي محمد نامق باشا وتقص على صويحباتها كيف كانت السعلوة تقف لدى باب دارها لتستعير قدرا تطبخ فيه طعامها وكيف فتح محمود - ضيفهم تلك الليلة - نيران بندقيته عليها وصرعها فتناثرت قلاذتها على الارض . وفي تلك الفترة السوداء كانت الطبابة مرتعا للدجالين من النساء والرجال الذين كانوا يصفون لمرضاهم العقاقير الفناكة ويعالجونهم بالادعية والطلاسم دونما خوف من رقيب وقد ازهم - على هذا الصعيد - عطارو الشورجة الذين دعموا شعوذتهم باستيراد الزنجفيل ودهن الكبريت ودم الاخوين من الهند والانسون من حلب والشب وعنب الثعلب من ايران وملح الطرطير والكحل من أوروبا والصولنجان من مصر والمركبي من مكة والمستكي من استانبول والبغادة على تخبطهم في مآسي عام ١٨٦٦ كانوا يفرعون الى الغناء ارتفاعا بأخيلتهم عن تكاليف الحياة الثقيلة وكان بعضهم يستمد نشاطه الترويجي من حانات بغداد ليستقر اخيرا في أحد مجالس الطرب وهؤلاء استطاعوا قبل مائة عام ان يتشمو بالعرف مقابل مائة

وعشرين قرشا وباليرة مقابل اربعين قرشا وبشراب شيراز مقابل خمسة وخمسين قرشا وبالبراندي والشمبانيا مقابل ١٢٥ قرشا حتى اذا فُقدوا صوابهم طابت نفوسهم وتحرقوا شوقا الى سماع المقامات في مجالس المغنين الذين عاصروا سنة ١٨٦٦ وكان منهم صالح ابو دمير وعباس قوزي وعبد بن السيد حمد وصالح بن عبدان وعباس بن داود الجبوري ومحمد بن سبتي ومحمود بن قمر وسبع بن حسين الشبخلي الذي اختص بمقام الجبوري وعبداللطيف بن شيخ الليل الذي أوجد نغمة الكبكنكي وادخلها في الحكيمي وكان هؤلاء جميعا يمارسون الغناء في غضون سنة ١٨٦٦ وشلتاغ يومئذ مشغول باوصابه يعاني مرارة الشيخوخة • ولادع هؤلاء في مبادلهم الخاصة لاقول ما ينبغي قوله على صعيد اخر فمن دواعي الاسف ان يشق فن الطباعة سبيله الى العراق قبل سنة ١٨٥٦ ليملك في الموصل وكربلاء ولا يشقه الى بغداد في سنة ١٨٦٦ وهذا ان دل فعلى التأخر الذي جنته بغداد من بركات محمد نامق باشا ، واذا كان لبغداد ان ترسل اطفالها سنة ١٨٦٦ الى (المكتب الرشدي) وهو أول مدرسة ابتدائية تركية وكان لها ايضا في تلك السنة أن ينتقل طلاب الصف الاول من يهودها الى الصف الثاني من المدرسة الابتدائية التي كانت تحت اشراف الحلف اليهودي العالمي كان لها أخيرا أن تشير قبل مائة عام بأصبع لا ترتجف الى أن محمد نامق باشا قد جعل المدرسة المستنصرية مخزنا للملابس العسكرية •

لقد حلت رحمة الله في بغداد مع سنة ١٨٦٦ يوم ازدهر تراثها الديني والعلمي والادبي برعاية كوكبة لامعة من رجال الفكر البغدادي كالاديب المغوي نعمان خيرالدين الألوسي والشيخ داود بن جرجيس الذي كان يفيد طلاب العلم وينصر الفضيلة في جميع محاضراته والسيد ابراهيم فصيح الحيدري الذي كان عالم عصره وعمدة أهل وقته والشيخ عبدالسلام النواف والعلامة محمد فيضي الزهاوي الذي كان مفتيا للحنفية وفي تلك السنة بزغت باقة يانعة من الشعراء ملأت دنيا بغداد بروائع القصيد وكان منهم السيد عبدالغفار الاخرس والشيخ جابر الكاظمي وأسعد الدوري وعمر

رمضان الهيتي واحمد بك الشاوي وعبدالغني الجميل وسجلت بغداد سنة
١٨٦٦ وفاة عبدالوهاب جليبي برزنلي رئيس تجارة بغداد ووفاة محمد سعيد
أفندي التكرلي ووفاة الشيخ عيسى صفاء الدين البندنجي عميد المدرسين
في مدرسة داود باشا وشيخ التكية القادرية وقد خفف من فداحة هذه
الخصارة على بغداد في تلك السنة ان يكون جميل صدقي الزهاوي طفلا
يرتفع في أزقة بغدادنا وعمره أربع سنوات وأن تحفل مجالس الطرب
البغدادي بولادة اسماعيل البقال بن خليل وان تزدهي مواسم الادب والتاريخ
واللغة بولادة الاب انستاس ماري الكرمللي •

مِزْرَاتُنَا الْجُغْرَافِيَّةُ

١

من بين أسفار المكتبة الجغرافية العربية كتاب نفيس ، نشرته المطابع العربية والاوربية بعنوان (كتاب عجائب الهند : بره وبحره وجزائره) ، وكانت طبعته الاولى صدرت في مدينة ليدن Lieden الهولندية في السنوات ١٨٨٣ - ١٨٨١ بتحقيق المستشرق ب.أ. فان دير ليت van der Lith مع ترجمة فرنسية بقلم المستشرق ل.مارسيل دفيك L. Marcel Devic تحت عنوان La Livre des merveilles de L'Inde ثم أعيد طبع الكتاب سنة ١٩٠٨ في القاهرة على مطبعة السعادة .

وهذا الكتاب وضعه ملاح مجهول ، لا تعرفه مصنفات التراجم والسير العربية ، ولكنه اشتهر باسم (بزرك بن شهريار الرامهرمزي) . ورامهرمز مدينة في منقطة (خوزستان) ، تبعد ١٧ فرسخا عن الاهواز ، وترجع أهميتها الى أنها واقعة عند ملتقى الطرق بين الاهواز وشستر واصفهان وفارس ، وهي قصبة كانت كبيرة ، بها أسواق عامرة ، وخيرات كثيرة وجامع بهي . ويقال أن عضد الدولة أقام بالقرب منها سوقا واسعة ، وان عبدالله بن سوار والي البصرة المتوفي سنة ١٥٧هـ - ٧٧٣م انشأ فيها دارا للسكتب . ولربما كانت هذه المدينة موثلا للملاحين والمغامرين ، ومنهم استفاد بزرك واستقى

أكثر معلوماته المتعلقة بالبحار والرحلات • وتكاد كلمة المستشرقين تجتمع على أن هذا الرجل كان من ربابنة البحر •• بالرغم من خيبتهم في الحصول على أية معلومات تستطيع أن تكشف عن شخصيته • أيا كان الامر فلكتاباه أهمية فريدة ، لان أكثره قد كتب بعد منتصف القرن العاشر بقليل أي في حوالي ٣٤٢هـ-٩٥٣م وان كان قد زيدت عليه اضافات قليلة في عصر متأخر ولارتباط القصص البحرية العربية ارتباطا وثيقا ببلاد الشرق كالهند والصين •• كان هذا الكتاب يشغل مكانا مرموقا في ذلك الحقل فان قصصه نفسها بصرف النظر عن المؤلف يجب أن ينظر فيه الى القاص الرئيسي الذي دونت الحكايات من الفاظه ، اذ يأخذ طرفا فيها قاصون آخرون من الربابنة والنواخذة والتجار الذين ينتمون الى الفترة ٢٨٨-٣٤٢هـ (٩٠٠-٩٥٣م) ، وبعض قصص هذه المجموعة يرجع الى نهاية القرن العاشر ، وترجع احداها الى سنة ٣٩٠هـ-١٠٠٠م وقد جمع المؤلف قصصه من أفواه غيره من الربابنة والتجار في سيراف والبصرة وعمان •• وكان مدار هذه القصص الهند والشرق الاقصى وشرق افريقيا •• والبحر قبل كل شيء والكلام فيها لا يدور حول قصة واحدة ممتاسكة الاطراف ، ولكنه يتناول مجموعة من القصص المنفرقة التي تختلف طولا وقصرا ، فتراوح بين عشر صفحات وبضعة أسطر ، كما تتميز مادتها بالتنوع ، فتارة يقابلنا وصف قصير لنبات أو سمك أو عجائب ، وطورا وصف لحادث في البر والبحر فد يتحول الى قصة مغامرات أو دراما اخلاقية معروضة بالكثير من المهارة الفنية ، ويحس من هذا العرض العام للقصص أنها لشخص يتمتع بأسلوب حي سلس ، ويجيد الفن القصصي ، ويعرضه أحيانا بطريقة وجدانية مؤثرة • وفي خضم العجائب والقصص الطويلة تبدو التفصيلات العادية متسمة بالصدق • وفي الكتاب نظرات دقيقة الى حياة البحر في ذلك الزمان ، ويمكن أن يعد كتابه مقدمة قيمة لقصص السندباد في الف ليلة وليلة •

وسأعرض ، هنا ، شذرات جميلة مما ذكره عن الهند دون غيرها من البلدان • فهو يخبرنا بأسلوبه الجزل قائلا :

فمما في الهند ما حدثنا أبو محمد الحسن بن عمرو النجيمي بالبصرة قال كنت بالمنصورة في سنة ٢٨٨هـ وحدثني بعض مشايخها ممن يوثق به أن ملك الراء وهو أكبر ملوك بلاد الهند والناحية التي هو بها بين قشميز الأعلى وقشميز الأسفل وكان يسمى مهروك بن رائق كتب في سنة ٢٧٠هـ الى صاحب المنصورة وهو عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز يسأله ان يفسر له شريعة الاسلام بالهندية فاحضر عبدالله هذا رجلا كان بالمنصورة أصله من العراق حاد القريحة حسن الفهم قد تشابها بالهند وعرف لغاتهم على اختلافها فعرفه ما سأله ملك الراء فعمل قصيدة وذكر فيها ما يحتاج اليه وانفذها اليه فلما فرئت على ملك الراء استحسناها وكتب الى عبدالله يسأله حمل صاحب القصيدة فحملة اليه وأقام عنده ثلاث سنين ثم أنصرف عنه فسأله عبدالله عن أمر ملك الراء فشرح له أخباره وأنه تركه وقد أسلم قلبه ولسانه وأنه لم يمكنه اظهار الاسلام خوفا من بطلان أمره وذهاب ملكه وكان فيما حكاه عنه انه سأله أن يفسر له القرآن بالهندية ففسره له . قال فاتته من التفسير الى سورة يس . قال : ففسرت له قول الله عز وجل (قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

قال : فلما فسرت له هذا وهو جالس على سرير من ذهب مرصع بالجواهر والدر لا تعرف له قيمة قال لي : أعد علي فأعدت ، فنزل عن سريره ومشى على الارض وكانت قد رشت بالماء وهي ندية فوضع خده على الارض وبكى حتى تلوث وجهه بالطين . ثم قال لي : هذا هو الرب المعبود والاول القديم الذي ليس يشبهه أحد . وبنى بيتا لنفسه وأظهر أنه يخلو فيه له مهمة . وكان يصلي فيه سرا من غير أن يطلع على ذلك احد وانه وهب له في ثلاث دفعات ٦٠٠ من ذهب وكان أهل سرنديب وما والاها لما بلغهم خروج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلوا رجلا فيهما وأمره أن يسير اليه فيعرف أمره وما يدعو اليه فعافت الرجل عوائق ووصل الى المدينة بعد أن قبض رسول الله (ص) وتوفى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ووجد

القائم بالامر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسأله عن أمر النبي فشرح له
وبين ورجع فتوفى الرجل بنواحي بلاد مكران وكان مع الرجل غلام له
هندي فوصل الغلام الى سرنديب وشرح لهم الامر وما وقف عليه من أمر
النبي (ص) وأبى بكر وانهم وجدوا صاحب النبي (ص) عمر بن الخطاب
ووصف لهم تواضعه وأنه كان يلبس مرقعة ويبيت في المساجد فتواضعهم
لاجل ما حكى لهم ذلك الغلام ولبسهم الثياب المرقعة لما ذكره من لبس عمر
المرقعة ومحبتهم للمسلمين وميلهم اليهم لما في قلوبهم مما حكاه ذلك الغلام
عن عمر *

وعباد الهند وزهادهم عدة أصناف منهم البيكور وأصلهم من سرنديب
وهم يحبون المسلمين ويميلون اليهم ميلا شديدا وهم فى الصيف عراة
حفاة لا يستررون بشيء وربما جعل الواحد منهم على سواته خرقة أزبع
أصابع فى مثل ذلك مشدودة بخيط فى الوسط وفى الشتاء يتشحون فى الحصر
الحشيشة ومنهم من يلبسون الازار مرقعا من كل لون على لون المرقعة
للشهرة ويلوثون ابدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين أحرقوا
ويحلقون رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم ولا يحلقون شعر العانة ولا
شعر الابطين * وفى الاكثر يقصون أظفارهم ومع الواحد منهم قحف رأس
انسان ميت يأكل فيه ويشرب على سبيل الاتعاظ بذلك والتواضع *

وحدثني من أقام بالهند زمانا أن فيهم كهنة وان من يخرج الى الصحراء
فيرى الطيور تطير فى الهواء فيخط فى الارض دائرة تحت الطيور فلا تزال
تدور فى الجو فوق الخط الى ان تقع فيه ثم لا تخرج عنه البتة فيدخل الى
جوف الخط ويأخذ منها ما يريد ويطلق عن بقتهم *

وحدثني ابو الزهر البرختي عن حيات بلاد الهند فقال حدثني رجل
طبيب هندي من أهل سرنديب فقال لي : هذه الحيات فى أرض الهند ثلاثة
آلاف ومائة وعشرون جنسا أخبثها جنس فى أرض تاكا اذا هبت الريح من
جهتهم قتلت من قتلت من تمر به من جميع الحيوان الطائر والداب والمنساب
عن ثلاثة فراسخ *

وأن بعض جبال مدينة ماركين حيات صغارا رقطا وغبراء اذا نظرت الحية الى انسان قبل أن ينظر اليها ماتت واذا نظرها الانسان قبل ان تنظر اليه مات واذا نظر بعضهما الى بعض ماتا • وهي أخبث الحيات •

والكتاب ، بعد هذا العرض ، يشجع على مواصلة النظر فيه والعودة اليه بين آونة وأخرى ، لانه أحق بالدراسة ، ولربما يقدم للباحثين معلومات لا يجدونها في سواه عن تاريخ الملاحة العربية في الشرق •

٢

وبعنوان (تاريخ الادب الجغرافي العربي) صدر في القاهرة ، سنة ١٩٦٣ ، كتاب كان يعتمد في الاصل على محاضرات ألقاها المستشرق السوفيتي كراتشكوفسكي بجامعة بطرسبورج وليننغراد ابتداء من سنة ١٩١٠ ، واستغرق تدوين هذا الكتاب سبعة عشر عاما مع توقف طارئ اثناء الحرب الثانية • وكان المؤلف يود لو يتابع تاريخ هذا الطراز من الادب حتى أيامنا الراهنة • • ولكن المنية التي صرعه سنة ١٩٥١ حالت دون تحقيق رغبته • ولقد نقل هذا الكتاب عن الاصل الروسي الى اللغة العربية الاستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، وهو القسم الاول من الجزء الرابع الذي بلغته منتخبات آثار المؤلف ، وقام بمراجعته المستشرق المعاصر بلياييف ، واختارته الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية • والكتاب يقع في ٤٦٩ صفحة موزعة على مدخل وستة عشر فصلا ، تشير جميعا الى أن المؤلف قد انتزعاها من مصادر ودراسات تعصى على العد ، وتؤكد بلا استثناء ، المنهج الفيلولوجي الذي سخره المؤلف في عرض المواد ، والغاية الاساسية التي حصرها في تنسيق تاريخ الانماط الادبية المرتبطة بعلم الجغرافيا على الصعيد العام والوصفي والرياضي والاقليمي • ففي المدخل حاول المؤلف

ان يحدد مزايا الادب الجغرافي العربي ، وعيوبه . . معترفا بأهميته العلمية
 القصوى ، واعتزاز العلم الحديث به في الاطار العام للدراسات العربية ، كما
 حاول ان يرسم لوحة عامة لتطور الادب الجغرافي ، ولشخصياته ، وآثاره
 المختلفة . . في ضوء الاستقراءات التي وصل اليها البحث المعاصر .
 وترامت فصول الكتاب على الجغرافيا عند العرب قبل ظهور المصنفات
 الجغرافية الاولى ، وهنا وجدت المؤلف يستقصر خلاصة بما تردد صداه
 من التصورات الجغرافية البعيدة في آثار العرب الادبية الى منتصف القرن
 الثامن ، مؤكداً - خلال هذه الفترة - على ميلاد بعض النماذج التي بدأت
 تتجسد مصنفات مستقلة وضعها - في أغلب الاحوال - علماء لغويون . وفي
 الفصل الذي عقده المؤلف على بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب . .
 اعتراف صريح بآثار النفوذ الشرقي - الهندي - الايراني في النظريات
 الفلكية التي وجدت سبيلها الى العرب ، وتنويه بالدور المهم الذي قام به
 الزرقالي كوسيط بين الشرق والغرب . وعندما تحدث المؤلف في جغرافي
 المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى قدر مكانة بطليموس في تاريخ الفلك
 العربي ، ووقف وقفة طويلة على الخوارزمي وتأثيره عند سهراب ،
 وتقاليدهما العلمية التي استهدفت عرض المادة الجغرافية على هيئة جداول
 . . ثم قال كلمته في الكندي وقطب الدين الشيرازي ونصيرالدين الطوسي
 وأوغ بك حفيد تيمورلنك وابن يونس والبتاني والفرغاني .

وعلى الجغرافيين اللغويين تكلم المؤلف ، منوها بكتب الانواء التي
 استوعبت الحس العربي بالطقس وظواهر الطبيعة وحركات المنازل القمرية
 يوم طغى الاهتمام اللغوي على المنهج الواقعي ولم ينس المؤلف ان يمجّد
 الجاحظ الذي خرج بالجغرافيا من حدودها اللغوية الضيقة ، ويشئ على ابن
 الطيب السرخسي الذي لمع تلميذا ذكيا من تلامذة المدرسة الرياضية الجغرافية
 ذات النزعة اليونانية . وعندما تناول المؤلف الجغرافية الاقليمية في القرنين
 التاسع والعاشر . . أشاد باليعقوبي بعد أن اعتبره ذا منزع تجديدي في اعتماد
 منهجه على التقسيم وفق الولايات ، وفي اهتمامه بالجانب الاحصائي

الطوبوغرافي •• كما أكد أثر البلاذري في محيط الجغرافيا التاريخية ،
ومحاولته تطبيق مذهب الذرائع ، ونفى عن ابن الفقيه الهمداني مستوى
الاختصاص الجغرافي دامغا كتابه - البلدان - بأنه ليس الا مجموعة أدبية
عن بلاد العالم الاسلامي ولكنه يراه - من الزاوية الحضارية - أقدر رسام
للنزعات والاتجاهات الادبية للمجتمع العربي في نهاية القرن التاسع • وعنده
ان ابن رسته - في الاعلاق النفيسة - كان يتوخى الحذر في كتابته حتى لا
يتهم بحرية الفكر •

وبعد ان فرغ المؤلف من حديثه عن قدامة بن جعفر والازرعي
والفاكهي والهمداني صاحب الاكليل والمسعودي والرحالة الذين زاروا
الاصقاع الشمالية في القرن العاشر •• حدد مناهج المدرسة الكلاسيكية
لجغرافي هذا القرن بمحاولتها الاقتصار على بلاد الاسلام مع اهمال الاقطار
الواقعة خارجها •

وفي الكتاب مادة جديدة بالدرس ، عقدها المؤلف على البيروني
وجغرافي القرون المتأخرة بالشرق والمغرب ، والاتاج الادبي الجغرافي
عصر المماليك •• وهي أوسع من ان أشير الى محتواها العام في هذه
الكلمة العابرة •

حَدِيثُ الْغُرَابِ

يعتبر كتاب « كليلة ودمنة » من المجاميع القصصية التي حفلت بالعظة الحسنة في دائرة الالتزامات العامة للراعي والرعية ، وكليلة ودمنة شقيذان من بنات آوى سمي الكتاب باسميهما من باب تسمية الكل باسم الجزء ، لان خبر كليلة ودمنة لا يتناول غير بابين من أبوابه ، وهما باب الاسد والثور ، وباب الفحص عن أمر دمنة •

وأصل هذا الكتاب هندي ، كان مدونا باللغة السنسكريتية ، ولكنه في القرن السادس الميلادي •• وفي عهد كسرى أنو شروان نقل الى اللغة الفهلوية ، ومن هذه اللغة نقله عبدالله بن المقفع الى اللغة العربية في صدر الدولة العباسية ، فاكسب بذلك أهمية كبيرة بين روائع الفكر الانساني دلت عليها قيمته الفلسفية والتاريخية والادبية •

وفي هذه الدراسة لا يسعني أن أتناول ، بأسهاب ، ما انطوى عليه هذا الكتاب من أمثال وحكم وقصص •• وانما سأعقد ، وهذا حسبي ، موازنة بين الغراب الهندي كما هو في كليلة ودمنة وبين الغراب العربي كما هو في مصنفات الحيوان وعجائب المخلوقات العربية • وقبل أن أقول كلمتي في هذا الصدد أرى لزاما علي أن أرسل كلمة عابرة في الغراب العربي •

لقد كنى أبناء الوطن العربي غرابهم بأبي المرقال ، وأبي حاتم ، وأبي الجراح ، وأبي زيدان ، وأبي الشؤم •• وكنى أخرى يطول بي ذكرها . وعرفوه أصنافا أشهرها : الغداف والزاغ والاكلح وغراب الزرع والاعصم

•• وهذا الاخير من أحرار الغربان ، وبه ضرب الرسول (ص) المثل حين قال : مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الاعصم في مئة غراب • والغراب العربي صافي العين ، حاد البصر ، وسموه الأور •• لتغميض احدى عينيه من قوة بصره ، ولكنه خبيث الفعل والمطعم ، قليل الوفاء مع أنثاه ، لا يتعاطى الصيد ، وهو من لئام الطير ، وبه تشاءمت العرب ، وأمر الرسول (ص) بقتله في الحل والحرم • وسمي غراب البين لانه يسقط في منازل الراحلين اذا ساروا منها وبانوا عنها ، والعوام يطيرون منه اذا صاح صيحة واحدة •• ولكنه اذا ثنى تفاءلوا به ، وهو مع ذلك نشيط : أول ما يطير يسرع في الطيران بعد انبلاج الفجر ، ومن المأثور عنه انه يجب الجوز ، ويعرف التمر جيدا فلا يأخذ منه الا أجوده • واستخدم العرب منقاره وريشه وعظامه في علاج بعض الاوهام والامراض •

ومن الغربان العربية غرابنا العراقي الذي تربطه بالغراب الهندي أواصر الرحم والقربى •• ففي خلال هجرته الى الهند ، او هجرة الغراب الهندي الى العراق في مواسم الهجرة يحدث التزاوج والتفريخ هنا وهناك ، فتلاحم وشائج القرابة بينهما موزعة على الابوة والامومة والاخوة والبنوة والعمومة والخؤولة •

ومن الغربان العراقية والهندية التي تتزاور في مناطق البلدين : الغراب الاسود ، والابقع ، والزيتوني ، وغراب الزرع • فالغراب الاسود الذي يستوطن شمال غربي الهند ، يشاهد عندنا في المزابل مع بعض النسور حيث ينال نصيبا من البقايا الحيوانية ، كما يشاهد في مناطقنا الجبلية ، وفي الحبانية ، وبين سامراء وبيجي ، وبين الرطبة والرماذي ، وبين الفلوجة وبغداد •• بينما الغراب الابقع - الذي يرحل شتاء الى الهند - يفرخ في جبالنا ، ويكثر وجوده في بغداد والكوت • وهو يعتبر من زوار الشتاء في سهلنا • أما غراب الزرع الذي يفرخ في كشمير ويرحل في فصل الشتاء الى شمال غربي الهند فقد شوهد يفرخ في مناطق الموصل وتكريت وهيت ، وربما في جبال حميرين ، ويبدأ ببناء الاعشاش في آذار وينتشر حتى لواء العمارة ،

ويكثر وجوده في الشمال كزائر شتوي ، ويهاجر في الربيع الى خانقين •
ومثله الغراب الزيتوني الذي يفرخ ويشتو في الهند ، فهو يفرخ في بلادنا
من الشمال الى الجنوب •• في الجروف والتلال والخرائب ، وقد يشاهد
أحيانا في المحمودية •

ولا غرو في ذلك ، لان الغراب - كما يقول القزويني - طائر كثير
الاسفار ، بعيد التطواف •

والان ، وبعد أن انتهيت مما لا بد من الاشارة اليه •• أرى أن أعود
الى كليله ودمنة لافحص غرابها ، وأضعه في الميزان العربي كما وعدت في مطلع
كلمتي • ففي مقدمة الكتاب لبهنود بن سحوان وجدت الفيل يطلاً عش القبرة ،
ويهشم بعضها ، فتتصرف الى جماعة الطير وتطلب من العقائق والغراب أن
يفقأن عينه •

وهذه القصة لم تجانب الواقع الحيواني وطباع الطير ، فقد رأيت في
التراث العربي ما يؤيد هذه الوقائع المألوفة •• فالغراب ، عند القزويني ،
يميل الى قلع عيون الحيوان والانسان في البادية • أما صداقة العقائق للغراب ،
فليس فيها ما يستغرب ولا سيما بعد أن وجدتهما ، عند الجاحظ والقزويني ،
متفقين على الخيانة وسرقة الاشياء النفيسة ، وكما تشاءت العرب بالغراب
تشاءت بالعقق •• حتى قال قائلمهم •• كما حدثنا الدميري :

إذا بارك الله في طائر فلا بارك الله في العقق

وفي باب (الناسك والضيف) من كليله ودمنة زعموا أن غرابا رأى
حجلة تدرج وتمشي ، فأعجبته مشيتها ، وطمع أن يتعلمها ، فراض نفسه
على ذلك ، فلم يقدر على أحكامها ، وأيس منها ، وأراد أن يعود الى مشيته
التي كان عليها ، فإذا هو قد اختلط وتخلع في مشيته ، وصار أقبح الطير
مشيا • وضرب مؤلف الكتاب هذه القصة مثلا لمن تكلف من الامور ما لا
يشاكله ، وليس من عمله ، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل ••
ان غراب كليله ودمنة أراد أن يتعلم مشية الحجلة •• ولكن الغراب

العربي ، عند الجاحظ ، ذهب يتعلم مشية العصفور فلم يتعلمها ، ونسى مشيته ، فلذلك صار يحجل ، ولا يقفز قفزان العصفور •• بينما غراب الدميري على لسان الشاعر العربي :

حسد القطاة ورام يمشي مشيها
فأصابه ضرب من العفال
فأضل مشيته وأخطأ مشيها
فلذاك سموه أبا المرقال •

وفي باب (البوم والغربان) زعموا انه كان في جبل من الجبال شجرة من شجر الدوح فيها وكر ألف غراب ، وعليهن وال من أنفسهن ، وكان عند هذه الشجرة كهف فيه الف بومة وعليهن وال منهن • وكان ملك الغربان يعادي ملك البوم •

أغار ملك البوم في اصحابه على الغربان في أوكارها ، فقتل وسبى منها خلقا كثيرا ، وكانت الغارة ليلا • فلما أصبحت الغربان اجتمعت الى ملكها يندبن محتتهن ، وكان في الغربان خمسة معترف لهن بحسن الرأي ، فشاورهن الملك في ما يجب أن يكون موقفه من البوم ، فيرى الغراب الاول أن ليس للمعدو الحق الا الهرب منه ، وأيد الغراب الثاني هذا الرأي ويرى الغراب الثالث أن يبث الملك الجواسيس والطلائع بين الغربان والبوم لمعرفة نواياه وموقفه من الصلح والحرب والفدية ، ويرى الغراب الرابع الجلاء عن الوطن ، ويرى الخامس استعمال الدهاء والحيلة ذريعة للانتقام •

وهنا أقطع القصة لاقول : أن عداوة ما بين الغربان والبوم قد أشار إليها الجاحظ دون أن يذكر أسبابها • أما الغربان الخمسة المعترف لهن بحسن الرأي ، فليس على الغراب بعزير أن يكون عاقلا ، يلهم سواء الحلول السلمية ، فقد ذكره القرآن في آية : « فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين • فبعث الله غرابا يبحث في الارض

ليريه كيف يوارى سوءة أخيه « •• وعلق بعضهم على هذه الآية كما ذكر الجاحظ بقوله : فلولا ان للغراب فضيلة وامورا محمودة وآلة وسببا ليس لغيره من جميع الطير لما وضعه الله تعالى في موضع تأديب الناس ، ولما جعله الواعظ والمذكر بذلك •

أما ابتداء عداوة ما بين الغرابان والبوم فقد جعله كتاب كليلة ودمنة كلمة تكلم بها غراب ، وذلك في قصة مؤداها ان جماعة من الكراكي لم يكن لها ملك ، فاجمعت أمرها على أن يملكن عليهم ملك البوم ، واستشرون غرابا في ذلك ، فقال : لو أن الطير بادت من الاقاليم ، وفقد الطاووس والبط والنعام والحمام من العالم •• لما اضطررتن الى أن تملكن عليكن البوم التي هي أقبح الطير منظرا وأسوأها خلقا وأقلها عقلا وأشدها غضبا ، وأبعدها من كل رحمة • فلما سمعت الكراكي ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم • وكان هناك بوم حاضر قد سمع ما قالوا ، فوبخ الغراب وعاتبه ، وقال : اعلم ان السيف يقطع اللحم ثم يعود فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه • ثم ولى مغضبا • فأخبر ملك البوم بما جرى • وندم الغراب على ما فرط منه •

ويبدو من هذه القصة ان استئناس الكراكي بالتبعية والعبودية معروف جيدا عند علماء الحيوان من العرب ، فالدميري يخبرنا بان الكراكي من الحيوان الذي لا يصلح الا برئيس • ومن هنا اندلعت العداوة بين الجماعتين ، ولذلك سئى الغراب الخامس الذي أشار على ملكه باستعمال الدهاء في الانتقام من البوم يطلب أن ينتف ريشه وذنبه وي طرح في أصل الشجرة ، ويرتحل عنه الجميع • حتى اذا تم ذلك نرى البوم تتصل به وتساله عن أسباب هذه النكبة ، فيزعم انه كان من أنصار الصلح وبدل الفدية ، وان جماعته اتهمته بالممالة والمحابة ، فعذبه وتركته وارتحلت • وهنا يعرض ملك البوم أمر هذا الغراب على مشاوريه ، فيشير بعضهم بقتله ليرتاحوا من مكره ، ويشير آخرون بالاحسان اليه ومصافاته •• ثم يطيب عيش الغراب وينبت ريشه ، ويروغ روعة ، فيأتي أصحابه بما رأى

وسمع ، ويشير على ملكه بالقاء النار في انقباب البوم ، ووذف يابس الحطب عليها •

وليس غريبا ، في هذه القصة ، أن يطيب عيش الغراب مع البوم ••
ومن يدري ، فلعله من غربان الليل التي أشار إليها الجاحظ بقوله : أن غراب الليل ترك أخلاق الغربان وتشبه بأخلاق البوم •

وفي باب (الحمامة المطوقة) بينما الغراب ، ذات يوم ، ساقط في وكره اذ بصر بصياد قبيح المنظر ، على عاتقه شبكة ، وفي يده عصا ، مقبلا نحو الشجرة ، فذعر منه الغراب ، وظل يراقبه وهو ينصب شبكته ويشتر عليها الحب •• فأقبلت الحمامة المطوقة ومعها حمام ، فالتقطن الحب ، فعلقن في الشبكة ، ولكنهن قلعن متعاونات ، وعلون في الجو • فانطلق الغراب وراءهن ، فشاهدن يمضين الى الجرد ، وشاهد الجرد يقرض الشبكة ، والحمامات منطلقات • فرغب الغراب في مصادقة الجرد •• ولكن الجرد يتهمه بالوقعة به ، واحتدم بينهما جدل ، انتصر فيه الغراب ، وقبل الجرد اخاءه •

وانني لاجد الغراب ، في هذا المقطع من القصة ، يقف موقف المتفرج من محنة الحمام •• ولعله كان قرير العين بما آل اليه مصيرهن • ولهذا الموقف رواسب بعيدة ترجع الى عهد نوح عليه السلام ، فقد ذكر الجاحظ أن نوحا حين بقي في اللجة أياما بعث الغراب ، فوقع على جيفة ، ولم يرجع •• ثم بعث الحمامة لتتظر هل ترى في الارض موضعا يكون للسمنية مرفأ •• فأدت المهمة كما ينبغي •

وتأخذ القصة مجرى جديدا حين يأبى الجرد أن يخرج من جحره ، فيناديه الغراب ويدعوه الى الخروج •• ويقوم بينهما جدل • ويقول الغراب للجرد : ان جحرك قريب من طريق الناس ، وأخاف أن يرميك بعض الصبيان بحجر ، ولي مكان في عزلة ، فيه صديق من السلاحف • ويقنع الجرد بمصاحبة الغراب حيث تعيش السلحفاة ، فيأخذ الغراب بذنب الجرد ويطيير به حيث أراد • وهناك ، وبعد حديث طويل ، تلاطف السلحفاة

الجرذ ، ويرى الغراب ذلك ، فيفرح .. ويقبل نحوهم ظبي نافر ، فتدعر منه السلحفاة وتغوص في الماء ، ويختفي الجرذ في جحره ، ويطير الغراب ، فيقع على شجرة ، ثم يحلق في السماء لينظر هل للظبي طالب .. ولما لم ير شيئاً .. ينادي الجرذ والسلحفاة ، ويدعوهما الى الخروج .. وبعد متاعب كثيرة يعيش الجميع بتواصل وتعاضد .

وهنا يكمن العجب ، فالوداد الذي عاش الجميع تحت ظلاله ليس له ما ينصره في التراث العربي .. وهذا هو القزويني يذهب الى أن الغراب ينقر ظهر السلحفاة فيأكلها ، وهذا هو الجاحظ يعدد الطيور التي تخرج من أوكارها ، ويضع بينها غراب الليل ، ويزعم أن بعضها يصيد الفأر ، ولربما كان غرابنا من هؤلاء الصيادين .. وبالرغم من ذلك رأينا الجرذ والغراب والسلحفاة يعيشون في وئام وصفاء .

وفي موضع آخر من كليلة ودمنة وجدت الاسد في أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس ، وله أصحاب ثلاثة : ذئب وغراب وابن آوى . ويمر رعاة بذلك الطريق ، ومعهم جمال ، فيتخلف منها جمل ، فيدخل تلك الاجمة .. حتى ينتهي الى الاسد ، فيسأله : من أين أقبلت ؟ ثم يقيم مع الجماعة في رغد من العيش ، ويحدث أن يتعارك الاسد والليل ، فيشخن الاسد بالجراح ، ويصل الى مكانه ، ويقع ، لا يستطيع حراكا ، ولا يقدر على طلب الصيد ، ويلبث الذئب والغراب وابن آوى أياما لا يجدون طعاما ، لانهم كانوا يأكلون من فضلات الاسد ، فيصيبهم جوع شديد ويتأمر الثلاثة على الجمل ، ويقررون أن يزينوا للاسد أكله ، ويقول الغراب : أنا أكفيكم أمر الاسد ، فيدخل عليه ويقترح أكل الجمل ، فيتهمه الاسد بانه بعيد عن الوفاء والرحمة ، فيقول الغراب : أني لاعرف ما يقول الملك .. ولكن النفس الواحدة يفقدي بها أهل البيت ، فيرضخ الاسد ، ويأكلون الجمل .

وفي المصادر العربية وجدت الغراب أخا خيانه ، وعلى هذه الخيانة نصت القصة حين جعلته يزين للاسد افتراس الجمل ، كما وجدته رفيق

ذئب •• لا يكاد يفارقه ، وقد أشار الديرى الى أن الذئب اذا أغار على غنم تبعه الغراب ليأكل ما فضل منه •

وفي باب (الاسد والثور) زعموا ان غرابا كان له وكر في شجرة على جبل ، وكان قريبا منه جحر ثعبان اسود ، فكان الغراب اذا فرخ عمد الاسود الى فراخه فأكلها ، فبلغ ذلك من الغراب وأحزنه ، فشكا ذلك الى صديق له من بنات آوى ، وقال له : أريد مشاورتك في أمر قد عزمت عليه . قال : وما هو ؟

قال الغراب : قد عزمت أن أذهب الى الاسود فانقر عينيه - اذا نام - فأفأهما •• لعلى أستريح منه • قال ابن آوى : بش الحيلة التى احتلت ، فالتمس أمرا تصيب فيه بغيتك من الاسود من غير أن تغرر بنفسك وتخطر بها •• ولكنى أدلك على أمر ان انت قدرت عليه كان فيه هلاك الاسود من غير أن تهلك به نفسك، وتكون فيه سلامتكم • قال الغراب : وما ذاك ؟ قال ابن آوى : تنطلق طائرا •• لعلك أن تظفر بشيء من حلى النساء فتحطفه ، ولا تزال واقعا طائرا بحيث لا تفوت العيون •• حتى نأتى جحر الاسود ، فترمي بالحلى عنده ، فاذا رأى الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الاسود •

وليس بعسير على الغراب أن يصادق ابن آوى بعد أن ذكر الجاحظ تلك الصداقة في كتابه (الحيوان) •• ولكنى أعجب لابن آوى ، وهو صديق الحية كما يدعى الجاحظ ، يشير على الغراب بما فيه هلاكها •• وكان بمقدوره أن يتوسط بينهما ، فيزيل ما نعص على الغراب حياته •• وهذا هو الخلاف الوحيد بين أصدقاء الغراب الهندي وأصدقاء الغراب العربى •• وأيما كان الامر فإن ذلك لن يحول بين مساواة الغرابين في الطباع والامزجة ، وهذه المساواة ان دلت فانها تدل على متانة الروابط وتلاحم القربى بينهما •

في رُبُوعِ البَلْغَارِ

منذ وضع « المنصور » الحجر الأساس لمدينة بغداد .. حمل
أبناءؤها والوافدون إليها رسالة الفكر بعد أن فجروها فنا وأدبا وفلسفة ،
فلا عجب إذا كانت لبغداد صيحات علمية تجاوزت اصداؤها خلف أسوار
بزنطة ، وفي بلاط شارلمان ، وعلى ضفاف الفولغا .. ولا عجب إذا انطلقت
من بغداد أول بعثة اركيولوجية (آثارية) الى أهرام مصر لفتح مغاليقها .
كانت بغداد - قديما - مهوى الانسانية في محتتها الثقافية ، والشعلة
التي أضاءت شعوب الارض اجيالا وحقبا .

وبغداد هي هي .. البارحة واليوم ، وستكون كذلك غدا : تمنح
من يهوى الصداقة صداقة ومن يكافح الظلم والاستعمار نجدة وعتادا .
وانني ، هنا ، سأعالج جانبا مشرقا من الحضارة البغدادية التي ابتمت لها
الآفاق ، وزرعتها الشعوب في العقول والافئدة .. ومنها الشعب السلافي
الذي عاش على ضفاف الفولغا ، في القرن العاشر الميلادي ، حياة تافهة ..
تغمرها الاساطير والاشباح من جميع أقطارها ، ويستغرق الظلام الدامس
ملاحظتها فلا تكاد تبين .

لقد ظلت هذه الفترة من تاريخ روسيا مجهولة ، غامضة - ثمانية
قرون - بالرغم من الجهود العلمية التي بذلها المؤرخون الروس في سبيل
انارتها ، والكشف عن معالمها .

وفي أوائل القرن التاسع عشر وقع المستشرقون - عن طريق ياقوت الحموي - على أن الشعب السلافي الاوربي القاطن على اطراف نهر الفولغا قد التمس حماية بغداد وعونها ، وان عاهله (المش بن يلطوار) طلب من الخليفة العباسي المقتدر بالله أن يبادل الصداقة والتعاون ، ويحقق رغبته في عقد حلف ثقافي - عسكري بين العراق وبلاد البلغار ، وقد ألح على خليفة بغداد أن يرسل اليه بعثة تبصره في الشريعة الاسلامية واصول الدين ، وتشيد له مسجدا لاذاعة الدعاء للعاهل العباسي في جميع أرجاء البلاد ، كما يبني حصنا يدفع عنه اذى الملوك الطامعين من يهود الخزر الذين اقلوا كاهل شعبه بالضرائب ، وجرحوا كبريائه هو بالذات اذ ارتهنوا ابنه وجعلوا بناته نهباً لابنائهم متى شاء أحدهم أن يتزوج احداهن اغتصبها اغتصابا . وازاء هذا التعسف لم يملك خليفة بغداد الا أن يصادق على هذا الحلف الذي عرضه عليه الملك المظلوم .

كذا جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي ، وقد اتخذ المستشرقون من هذه التفاصيل مقناحا يعالجون به جميع الابواب الموصدة على الحياة التي نبضت فوق شواطئ الفولغا بالقرب من مدينة قازان خلال القرن العاشر الميلادي . والفضل في ذلك لا يعود الى ياقوت باية حال من الاحوال ، فهذا الرجل البلداني انما اتكل - فيما بث من معلومات - على الفقيه العراقي احمد بن فضلان الذي أرسله المقتدر بالله على رأس البعثة العراقية الى بلاد البلغار .

وقد علم المستشرقون - استنادا الى ياقوت - ان لابن فضلان رسالة خطيرة في وصف الرحلة الى تلك الاصقاع النائية فعدوا العزم على البحث عنها في خزائن الكتب الشرقية والغربية فشرقوا وغربوا . . . ولكنهم باؤا بخيبة فاجعة ، حتى اذا ملكهم اليأس رجعوا الى ياقوت يستقون منه ما يمت بصلة الى رحلة ابن فضلان لينشروه مقرونا بالتحقيق العلمي . ففي سنة ١٨١٤ ترجم « راسموسن » مقاطع من الرحلة الى اللغة الروسية ، وماكاد ينشرها على الناس حتى نقلها عنه الى الانكليزية المستشرق نيكلسون ، ومن

ثم انصرف المستشرق الالماني « فران » الى نشر الفصل الخاص بالخزر من الرحلة الى اللغة اللاتينية والفصل الخاص بالروس مترجما الى الالمانية . . وأخيرا نشر الفصل الخاص بالبلغار ونهر الفولغا .

ثم تابعت الدراسات عن ابن فضلان ورسالته منذ سنة ١٨٦٣ فكان معها الدراسات التي أنجزها فستفلد وفستبرغ وفون روزن ودفوراك وبارتولد وماركفارت وزكي وليدى طوغان وهلموت ريتز ودنلوب وفرادي وبلاك . وحدثت المعجزة في سنة ١٩٢٤ ، فقد عثر العلماء الروس على النسخة الخطية من رحلة ابن فضلان في خزانة المشهد الرضوي في مدينة طوس الايرانية فتسلم - على الاثر - المعهد الاسيوي للدراسات الشرقية في ليننغراد ورقين مصورتين من المخطوطة ، وبعد عشر سنوات وصلت بقية الاوراق . وفي سنة ١٩٣٩ أصدر المجمع العلمي في الاتحاد السوفيتي نشرة علمية للرحلة بكاملها . . كان قد حققها المستشرق كوفاليفسكي تحت رعاية كراتشكوفسكي ، وفي نفس السنة نشر العالم التركي طوغان المخطوطة مشفوعة بالترجمة الالمانية في محاضر الجمعية الشرقية الالمانية (مجلد ٢٢) ، وفي عام ١٩٥٧ عاد المستشرق كوفاليفسكي من جديد الى هذه الرحلة ، فنشر نصها العربي في مدينة خاركوف مع تعليقات بالروسية . وبعد سنتين طبع المجمع العلمي العربي بدمشق رسالة ابن فضلان طبعة علمية انيقة ، حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور سامي الدهان ، وهي تعد خير ما أخرج للناس عن ابن فضلان ورحلته الخالدة ، ومنها استنضعت أن استخرج ما يسלט الانوار على تبادلنا الثقافي مع روسيا قبل أكثر من ألف وثلاثين سنة . ومجمل ما حدث ان المش بن يلطوار أمير البلغار أرسل سفيره عبدالله بن باشتو الى بغداد في حدود سنة ٩٢١م يلتمس عون بغداد ثقافيا وعسكريا ، وبعد اعلان موافقة الخليفة المقتدر بالله . . تقرر ان يتألف الوفد العراقي من الفقيه أحمد بن فضلان رئيسا ، والحاجب سوسن الرسي عضوا مترجما (لانه كان يجيد الروسية) ، وتكين التركي عضوا استشاريا والقائد بارس الصقلابي عضوا استشاريا أيضا ، وبعض

الملحقين معاونين (فقيه ومعلم وعدد من الغلمان) ، كما تقرر ان يحمل الوفد معه هدية شخصية من الخليفة الى أمير البلغار وزوجته .. تتكون من العطور والثياب واللؤلؤ ، وهدية أخرى لشعبه قوامها بعض الادوية التي تقيهم الاوبئة المتوطنة ، ومعونة مالية تبلغ اربعة الاف دينار أرصدت لبناء حصن يلاذ به من شر الملك اليهودي الكافر بحق الجوار .. وبعد أن زود الوفد برسائلي الخليفة ووزيره حامد بن العباس اللتين أكدا فيهما عزمهما على توثيق أوامر الود .. غادر بغداد في يوم الخميس (٢١ حزيران ٩٢١) ، وظل يصعد شرقا وشمالا ، مارا بايران .. وعبر جيحون ، واجتاز بخاري ، ثم اخترق الفيافي ، حتى بلغ نهر الفولغا يوم الاحد (١١ مايس ٩٢٢) .

وقبل أن يجتاز الوفد العراقي ربوع القوم بمسيرة يوم و ليلة ، استقبله أخوة الملك واولاده ومعهم الخبز واللحم ، ولما أصبح على بعد فرسخين من مضارب البلغار تلقاه الملك بنفسه وعندئذ حر ساجدا ، وحمد الله على تحقيق الاماني ، ثم نثر الدراهم على جميع أعضاء الوفد ، ونصب لهم القباب للمراحة والاستجمام . وبعد ثلاثة أيام جمع الملك الامراء وانقاد وحاشيته وشعبه .. ليتسنى لهم الاستماع الى تلاوة رسالة الخليفة . وفي اليوم الرابع ، احتفل وفدنا بالملك الصديق ، فألبسه السواد وخلع عليه العمامة وأسرج دابته ، وقبل ان يتلو رئيس الوفد أحمد بن فضلان رسالة الخليفة أمر جميع الحاضرين بالوقوف أجلالا لبغداد ، ثم قرأ الرسالة ، ولما بلغ هذه العبارة : « سلام عليك ، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو » اقترح أن يردوا التحية بأحسن منها ، فردوا كلهم ، ولم يزل المترجم ينقل الرسالة حرفا حرفا حتى أتمها .. وهنا كبروا تكبيرة أرتجت لها الارض ، ثم استمع الحاضرون الى رسالة الوزير العباسي ، وبعد ان وزع الوفد هدايا الخليفة على الملك وزوجته .. أقاما له مأدبة فاخرة ، عامرة باللحم المشوي ، وفيها شرب الملك قدحا من شراب العسل نخب صحة مولاه أمير المؤمنين المقدر بالله .

وفي اليوم التالي قام وفدنا بجولة عامة في أحياء المملكة ، ومما ضاعف سروره انه وجد خياط الملك بالذات رجلا من أهل بغداد .

وحاول وفدنا أن يمنع اختلاط الرجال بالنساء وهم عراة فوق مياه الفولغا .. ولكنه خاب ، لاطراد هذه العادة وتمكنها من أخلاقهم الاجتماعية أما الآثار البعيدة لنشاط وفدنا في روسيا فتتمثل في انتشار النقود العباسية - المضروبة في عهد المقتدر - في أسواقهم التجارية ، ولا يزال متحف ليننراد اليوم ، يحتفظ بمجموعة كبيرة منها ، وتمثل - كذلك - في الصورة الحية التي وزع ألوانها البيانية أحمد بن فضلان على عادة حرق الجارية مع مولها فوق ظهر السفينة .. فقد استطاع المصور الروسي هنري سميرادسكي أن يتذوق جميع التفاصيل التي حامت حول تلك العادة الوحشية ، والتي عكسها ابن فضلان - بأمانة - للأجيال القادمة ، فوضع لوحته الرائعة التي خلدت حرق الموتى عند الروس في ذلك الزمان ، والتي يختال بها - اليوم - متحف الارميتاج في الاتحاد السوفيتي .

ولعراقنا الجديد ان يفخر بالمواطن الخالد أحمد بن فضلان ، وان يعد العدة للاحتفال بذكرى رحلته الى شواطئ الفولغا عندما كانت دار السلام تغني للدنيا بأسرها ..

وَسَائِحُ هِنْدُو - عِرَاقِيَّة

في أيام الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك جرد الحجاج بن يوسف الثقفي حملة عسكرية تحت لواء القائد الشاب محمد بن القاسم لفتح أفليم السند ، فتم الاستيلاء عليه سنة ٩٤هـ / ٧١٢م ، وأصبح ولاية اسلامية تتألق بحكومة ذات سيادة . وبعد ذلك بمدة يسيرة استجاب كثير من أمراء السند لدعوة الخليفة عمر بن عبدالعزيز اياهم الى عقيدة الاسلام . ومندئذ رسخت أواصر الصداقة بين العرب وبين شعب الممالك الهندية على أسس متينة ، قوامها المعاملة السمحاء والثقة الصادقة وحسن الجوار . . . ويذكر التاريخ أن الغزوة الاولى قد سمحت لشعب برهمن آباد باصلاح معدهم الذي كان مصدر عيش البراهمة ، وما كان لاحد أن يحرم أو يحال دون اقامة شعائر دينه الخاصة . وفي هذا العهد كان تجار العرب أفضل وسيط بين السند وبلاد الهند وبين العالم الخارجي ، فهم الذين كانوا يجلبون بضائع الصين وسيلان الى موانيء السند ويحملونها من هناك الى تركستان وايران .

ومن مظاهر الصداقة التي كانت قائمة بين العرب والهنود في العصر الاموي أن يهدى ملك الهند الى الجنيد بن عبدالرحمن أيام ولايته على السند ، في خلافة هشام بن عبد الملك ، ناقة مرصعة بالجواهر ، قد ملئت أخلافها لؤلؤا ، ونجرها ياقوتا أحمر . . . على عجل من فضة ، اذا تركت على الارض تحركت العجل فمشت الناقة . فبعث بها الجنيد الى هشام ،

فاستحسنها • وتذكر المصادر العربية المعقودة على الهدايا : أن الذي جاء بهذه الناقة بزل أخلافها ، فانتشر اللؤلؤ في علبه ذهب كانت معه ، وفك عنقها ، فسال ياقوت منه كأنه الدم ، فأعجب هشام وجميع من كان في مجلسه • ولم تزل هذه الهدية في خزائن بني أمية حتى صارت الى العباسيين •

وفي العهد الاولى من تاريخ المجد العربي في بغداد تمكنت الصداقة، وتلاحمت عرى الود بين الخلفاء العباسيين وملوك الهند ، وقد شهد العصر الذهبي ، أيام الرشيد ، تبادل التحف والهدايا بين العراق والهند •• رعاية لحقوق المجاملة ، واحتراما لقواعد البروتوكول على الصعيد الدبلوماسي ، وتنفيذا لمبدأ المعاملة بالمثل • ومن ذلك أن بعض ملوك الهند أهدى الى هارون الرشيد هداية جليلة ، في جملتها قضيب زمرد أطول من الذراع ، وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر ، لا قدر له من النفاسة • فوهبه لزوجته زبيدة ، وانتقل منها الى الامين ، ثم الى أخيه المأمون ، ثم صار الى المعتصم بالله بعدهما •

وجلس المعتصم بالله يوما ، فشرب وعنده ندماءؤه ، فطرح اليهم قضيب زمرد في يده ، طوله أكثر من ذراع ، وقال : هل فيكم من يعرف هذا القضيب ؟ •• فكل نظر اليه ، وقال : لا أعرفه !! •• حتى صار الى عبدالله بن الخليفة الامين ، فقال : نعم •• يا أمير المؤمنين ! •• هذا قضيب أهداه ملك الهند الى الرشيد في جملة هدايا أنفذها اليه ، فوهبه الرشيد لزبيدة ، ووهبته زبيدة لابي وهو صبي ، فكان يلعب به ، وكان على رأسه طائر ياقوت أحمر ، قيمته مئة الف دينار ، ونست أراه ، فأمر المعتصم بطلبه ، وتوعد الخزان بالقتل ان لم يحضروه من ساعته ، فطلب ، وركب على القضيب من ساعته ، وجاءوا به اليه •

وبلغت أواصر الوداد مبلغا يلفت الأنظار في عصر المأمون •• حيث نجد العاهل الهندي (رهمي) يتناول لحاء شجرة تنبت في بلاده يقال لها الكاذى ، لونه الى الصفرة وهو أحسن من الكاغد والقرطاس ، فيكتب الى

المأمون بخط لازورد مفتوح بالذهب :
« من رهمى ملك الهند ، وعظيم أركان الشرق ، وصاحب بيت
الذهب ، وألوان الياقوت ، وفرش الجواهر !
والذى قصره مبنى من العود الذى يختم عليه ، فيقبل الصورة قبول
السمع ، والذى توجد رائحة قصره من عشرة فراسخ !
والذى يسجد له أمام البد (أى الصنم) الذى وزنه الف ألف (أى
مليون) مثقال من ذهب ، وعليه مائة ألف حجر من الياقوت الاحمر والدر
الابيض !

والذى ركب في السعادة في ألف موكب وألف راية مكللة بالدر ،
تحت كل راية الف فارس معلمين بالحرير والذهب !
والذى في مربطه ألف فيل خزائنها أعنة الذهب !
والذى يأكل في صحاف الذهب على موائد الدر ، والذى في خزائنه
الف تاج والف حلة جوهر لالف ملك من آبائه ، والذى يستحى من
الله أن يراه خائفا فى رعيته اذ اختصه بالامانة عليهم والرئاسة فيهم .
الى عبدالله ذى الشرف والرئاسة على أهل مملكته .

أما بعد فان الذى تقدم به ذكرنا ، أيها الاخ ، من الملك والشرف
والثروة ، فما خطر ما ترتحل به الاوقات ، وتتخرمه الساعات ذهابا
وزوالا ، والخطر الذى يجب على المستودعين من الله فضيلة العقل والاعتداد
به ، والمكائنة له . ولكننا جرينا على ما جرت به سنة الملوك قبلنا ، ولم
نجهل ان الله له الشرف الذى يفوت الالسن ذكره ، فان الابتداء بتمجيده
من أفضل الاعتداد ، ولكننا أجللناه عن الافتتاح بذكره الا فى مواقف
المناجاة له عابدين .

وأخبارك ترد علينا بفضيلة لك فى العلم لم نجد لها لغيرك ، ونحن
شركاؤك فى المحبة والرغبة ، وان فى افتدنا من ذلك ما لم نزل به لله
بالفضل ذاكرين . وقد افتتحنا استهدائك بأن وجهنا اليك كتابا ترجمته

(صفو الاذهان) ، والتصفح له يسعد على صواب التسمية ، وبعثنا ايك لطفًا بقدر ما وقع منا موقع الاستحسان له ، وان كان دون قدرك • ونحن نسألك ، أيها الاخ ، أن تنعم في ذلك بالقبول ، وتوسع عذرا في التقصير •

وكانت هدية الملك رهمى تتألف من :

١ - جام ياقوت احمر ، فتحته شبر في غلظ الاصبع ، مملوء درا ، وزن كل درة مثقال ، والعدد مائة •

٢ - فراش من جلد حية تكون بوادى الدير اج (أو المهر اج) بتلع الفيل ووشي جلدها دارات سود كالدرهم في أوساطها نقط بيض ، لا يتخوف من جلس عليها السل ، وان كان به سل ، وجلس عليها سبعة أيام برى •

٣ - ثلاث مصليات بوسائدها من جلد طائر يقال له السمندل ، موسى ، اذا طرحت في النار لم تحترق ، فراوزها در •

٤ - مائة ألف مثقال عود هندي ، يختم عليه ، فيقبل الصورة •

٥ - ثلاثة آلاف منا من كافور محجب ، كل حبة أكبر من اللوزة •

٦ - جارية سنديّة طولها سبعة اذرع ، تسحب شعرها ، لها أربع ضفائر ، كل شفر من أشفارها أصعب ، يبلغ اذا أطرقت نصف خدها ، ناهد ، لها ثمانى عكن •• في نهاية الحسن والجمال ونقاء البياض •

وقد اختلف بعض البلدانين العرب فى اسم ملك الهند هذا ، فدعاه بعضهم باسم (رهمى) ، والبعض الاخر باسم (دهمى) ، ولم يتحقق الى الان مسماه ، ولكن النظرة الشاملة التى فحص بها الدكتور محمد حميد الله هدايا هذا الملك شجعتة على الاعتقاد بانه ملك السند •• بعد أن قيل انه ملك بنغال (شرقي باكستان) وقد أشار الى ذلك سليمان التاجر والمسعودي وابن خرداذبه وغيرهم ، وقيل انه ملك سماترا (اندونيسيا) باعتبار أنه ذكر حية وادى المهر اج • فالدكتور حميد الله يميل الى أن رهمى كان

ملك السند لانه أهدي جارية سنديّة ، والسند أقرب الى البصرة من بغال
وسماترا •

أما المأمون فقد كتب الى رهمي رسالة رقيقة ، متواضعة ، في طومار
(أي صحيفة) ذي وجهين ، وبخط غلظه اصبع • وهذا ما كتبه :
(من عبدالله - عبدالله - الامام المأمون ، أمير المؤمنين الذي وهب الله
له ولاية الشرف بابن عمه النبي المرسل صلى الله عليه وعلى ذكره التصديق
بالكتاب المنزل •

الى ملك الهند ، وعظيم من تحت يده من أركان الشرق !
سلام عليك •• فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، واسأله أن
يصلى على محمد عبده ورسوله وعلى أهل بيته وصل كتابك ، فسرت لك
بالنعمّة التي ذكرت ، ووقع اتحافك ايانا الموقع الذي أملت من قبول ذلك ،
ولو لا أن السنة لنا جارية بترك تقديم من لم يكن لنا على الشريعة مواليا ما
تركنا ما يحسن من مبرتك بالتقديم والاعتذار ، فهذا أحد التقديمين ، وأنت
له منا أهل •

وقد أهدينا اليك كتابا ترجمته (ديوان الادب وبستان نوادر العقول) ،
ومطالعك ترجمته تحقق عندك فضيلة النعمة • وجعلنا لذلك عنوانا من الهدية
وهو لطف استقلالنا قدره لك ، ولو كانت الملوك تنهادى على أقدارها لما
اتسعت لذلك خزائنها ، وانما يجرى ذلك بينها على قدر تدل عليه النية
بالتوطين ، ان شاء الله تعالى) •

وكانت هدايا المأمون تتألف من :

- ١ - فارس بفرسه وجميع آلاته من عقيق •
- ٢ - مائدة جزع ، أرضها بيضاء ، وفيها خطوط سود وحمير وخضر ،
سعتها ثلاثة أشبار ، وغلظها اصبعان ، وأرجلها ذهب ، مما أخذ من خزانة
مروان بن محمد الجعدي حين ظفر به في مصر ، وكانت مصنوعة على شكل
المشترى ، فمن أكل عليها لم يشبع •

٣ - خمسة أصناف من الكسوة ، من كل صنف مئة ثوب : من بياض

مصر وخز السوس ، ووشي اليمن ، والاسكندرية وملحم خراسان •

٤ - ديباج خراساني

٥ - فرش قرمز

٦ - فرش طبري

٧ - فرش سوسنجردي

٨ - مئة طنفسة حيرية بوساندها وكلها خز •

٩ - فرش خز سوسي •

١٠ - جام زجاج فرعوني ، غلظه أصبع ، وفتحته شبر ونصف في

وسطه صورة أسد نابت ، وأمامه رجل قد برك على ركبتيه وقد أعرق السهم

في القوس نحو الاسد ، وهو مما أخذ من خزانة مروان بن محمد •

وأهدى بعض ملوك الهند الى الحسن بن سهل في زفاف ابنته بوران على

المأمون في سنة ٢١٠هـ - ٨٢٥م هدايا من جملتها سفت فيه عود هندي لم

ير مثله •

يقول علي بن المنجم : كنا ليلة بين يدي المتوكل على الله ، ومعنا عبدالله

بن الحسن بن سهل ، وكان أدبيا ظريفا قد عاشر الناس ، وشاهدسرواتهم •

وكان المتوكل قد احتجم في ذلك اليوم ، فناله ضعف ، فأشار عليه الاطباء أن

يتبخر بعود جيد ، ففعل ذلك • فحلف كل من كان حاضرا في المجلس انه

ما شم مثل ذلك العود قط ، فقال عبيدالله بن الحسن بن سهل : هذا من العود

الذي أهداه ملك الهند الى أبي لzfاف أختي بوران على المأمون ، فكذب المتوكل

ودعا بالسفت الذي أخرجت القطعة منه ، فوجدت من ذلك العود أقل من

أوقية واحدة ، ورقعة فيها مكتوب : « هذا العود هدية من ملك الهند الى

الحسن بن سهل لzfاف بوران الى المأمون » فاستحى المتوكل من تكذبه وأمر

له بصلة •

ودعا المتوكل عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزيره ، وقال: اطلب الساعة

رجلا من أصحابك ، ثقة ، وادفع اليه ألف دينار لنفقته واحمل معه ما لا يوجد ببلاد الهند من الهدايا بقيمة عشرة آلاف دينار ، وقل للرسول يعلم ملك الهند اننا لا نريد منه مكافأة الا بما كان عنده من هذا العود . فنفذ الرسول لذلك ، ورجع الى سر من رأى في الليلة التي قتل فيها المتوكل .

تلك هي بعض الصفحات المشرقة من تاريخ الصداقة بين الهند والعراق ، وانها لتشير - بوضوح - الى ما كان يتمتع به البلدان من حب وولاء متبادلين .

ألفاظ البنات

لقد أضاف العرب ونسبوا الى البنات والابنة والبنات والبنية ما لو احتواه كتاب لكان من النفائس • وقد وجدت بين الادياء والمغويين القدامى من بذل شيئاً من جهد في تدوين ما وقعوا عليه من مضاف ومنسوب •• غير ان هذه المحاولة - على سعة أفقها - كانت محدودة ، عاكفة على الأشهر الأذيع دون الراقد في بطون المعجمات • ومن هذا القبيل ما جاء في مرصع ابن الأثير ومزهر السيوطي وغيرهما •• أو ما أشار اليه الثعالبي في ثمار القلوب • وهذا ما ساقني الى أن أعقد العزم على التثبت بما فات هؤلاء ، والألماع الى مركز البنات في تراثنا الشعبي •

لقد ألحق العرب ابنة الهاء ، فقالوا : ابنة وجعلوا الهزمة فيها وصلية عندما قالوا : هذه ابنة فلان • وذهب الشعراء والناس ، في جاهلية حياتهم بالتأنيث الى القبيلة ، فقالوا : تميم ابنة مر ، وتغلب ابنة وائل •• كما في قول الاخنس بن شهاب التغلبي :

فوارسها من تغلب ابنة وائل حماة كماء ليس فيها أشائب

وكان بعض العرب اذا أراد أن يخاطب زوجته ناداها باضافة (ابنة) الى اسم أبيها أو لقبه أو شهرته • ومن هؤلاء كان عبدالله بن همام السلولى في قوله :

أفلي علي اللوم يا ابنة مالك وذمي زمانا ساد فيه الفلافس

(وهو الفلافس النهسلي الذي كان على شرطة الكوفة) •

وللابنة مركبات ومنسوبات أشهرها :

* ابنة الارض : وهي السر يكون في عصمة عن الذبوع • (راجع

أيضا : بنت الارض وبنات الارض) •

* ابنة أقعدي وقومي : يقال ضربه ضربة أقعدي وقومي •• بمعنى :

ضرب أمة لتعودها وقيامها في خدمة أهلها ومواليها •

* ابنة الجبل : هي القوس ، أو الصل ، أو الداھية ، أو

القطعة من الجبل ضربت مثلا في الثقل ، أو الحية الصماء التي لا يقرب أحد

جبلها خوفا منها ، أو الصدى يجيب المتكلم بين الجبال •• وضرب العرب بها

الأمثال ، فقالوا : مثل ابنة الجبل مهما يقل تقل •• للامعة يتبع كل اسنان

على ما يقول • وقالوا أيضا : هو ابنة الجبل •• للداھية ، أو للذي لا يثبت على

رأي ، فهو مع كل صوت كالصدى يجيب كل ذي صوت بمثل كلامه • وقالوا :

صمى ابنة الجبل (أو صمى ابنة الجبل مهما يقل تقل ، أو صما صمام ابنة

الجبل) •• أي : لا تجيبى - أيتها الحية - الراقى ، ودومي على حالك ••

يضرب للفريقين اذا أبيا الصلح ، ولجا في الخلاف •• كما قال الكميت بن

زيد :

وياكم اياكم وملمة يقول لها الكانون صمى ابنة الجبل

(راجع أيضا : بنت الجبل) •

* ابنة الحارث النجارية : حينما أمر رسول الله (ص) أن يستنزل

المسلمون ويحبسوا بني قريظة •• استنزلوهم وحبسوهم في دار هذه المرأة

حيث ضربوا أعناقهم •

* ابنة الخس : وهي هند ، وكانت امرأة جاهلية فصيحة ، لها

أخبار في سوق عكاظ ، ووصفها العرب بالدهاء •• ويزعم بعض الرواة انها

ماتت في زمن النعمان •

* ابنة ذي البردين : امرأة جاهلية اشتهرت بلقب أبيها عامر بن
أحيمر بن بهدلة ، وكان المنذر بن ماء السماء قد أخرج يوما بردين يبلو بهما
الوفود ، وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما • فقام عامر ، فأخذهما
وأنزرا بأحدهما وارتدى بالآخر •

* ابنة الضابط : قصة للشاعر الروسي بوشكين ، نقلها الى العربية
سامي الدروبي •

* ابنة العشرين : الفتاة التي بلغت عشرين سنة من عمرها • ولن
يلغى الثلاثين يقال : ابنة الثلاثين • • وهكذا •

* ابنة عمران : (١) مريم ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم •
(٢) قصة من مجموعة قصص الانبياء التي يشرف على إصدارها في القاهرة
محمد أحمد برانق •

* ابنة العنقود : الخمرة • قال أبو الفتح كشاجم :

واعتياضي من العنا بالغواني واعتقادي هوى ابنة العنقود
وقال أبو محمد الفياضي :

نحن الشهود وخفق العود خاطبنا نزوج ابن سحاب بنت عنقودة
وقال خالد الشواف :

فما أظن ابنة العنقود تصرعنا كالخمر من مقلتي عذراء حمانا
(راجع ايضا : بنت العنقود) •

* ابنة الكرم : الخمرة • قال أبو نؤاس :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم
(راجع ايضا : بنت الكرم وبنات الكروم) :

* ابنة لبون : ولد الناقة اذا كان في العام الثاني واستكملة ، أو اذا
دخل في عامه الثالث • (راجع أيضا : بنت لبون وبنات لبون) •

* ابنة المطر : دويبة حمراء تظهر عقب المطر ، فاذا نضب الثرى عنها ماتت .

(راجع أيضا : بنت المطر) .

* ابنة نابليون : رواية للكاتب الفرنسي ارثر برنيد . مطبوعة باللغة العربية .

* ابنة نارين : المرقمة المسخنة . قال أبو طالب المأموني في وصف مائدة :

لا ابنة نارين أرانا ولا مصنوعة بالرفع ماسوه

(راجع أيضا : بنت نارين) .

* ابنة الهم : الدمعة . قال الزهاوي :

يا ابنة الهم ان مسكنك القلب فلا تخرجي الى الابواب .

* ابنتي : الابنة مضافة الى ياء المتكلم . وللدكتورة نعمات أحمد فؤاد كتاب اسمه : (الى ابنتي)

* * *

والبنات : جمع بنت أو ابنة . وذكر أهل النحو أن ما لا يعرف ذكوره من أناته يحمل على اللفظ ، فقالوا للذكر : هذا ابن قتره (وهو حية خبيثة) ، فاذا جمعنا على هذا النحو قلنا : بنات قتره (للذكور والاناث) . وكل جمع من غير الانس والجن والشياطين والملائكة يقال فيه بنات ، كبنات عرس (جمع ابن عرس) . وورد لفظ (البنات) في القرآن الكريم موزعا على تسع سور ، هي : النساء والاحزاب والانعام والصفات والطور والنحل وهود والحجر والزخرف .

وانطوت هذه اللفظة على معان كثيرة ، منها :

* البنات : (في اللهجة العامية البغدادية) النساء مطلقا ، وهذا ما

وجدناه في نداء بائعة القار المصفي المجلوب من حمام العليل في الموصل ••
حين تدعو به نساء المحلة صائحة : (جيرة ، يا بنات ، جيرة) • وهذا الضرب
من القار يصلح للعلك •

* البنات : المؤلفات •

وقال الشيخ جلال الحنفي :

أى البنات فقدت رائحة في الطيب والامتاع والسحر

* البنات : (عند أهل الرمل) أربعة أشكال من الأشكال الستة عشر

الواقعة في الزائجة في البيت الخامس والسادس والسابع والثامن •

* البنات : التماثيل الصغار • تلعب بها الجوارى • وفي حديث عائشة

(رض) : كنت العب مع الجوارى بالبنات • (راجع أيضا : بنت) •

* بنات : ولاية من ولايات الحدود في هنغاريا • وقد عرفت بهذا

الاسم بعد صلح بساروفتر عام ١٧١٨ •

وللبنات نصيب من أمثالنا البغدادية ، فقد قيل : (أحمد وياجن

يا بنات ؟) •• أي : يا أيتها البنات ! •• هل أحمد معكن؟ •• أيهما بأنه

واحد منهن • وضربوا هذا المثل استخفافا بالشباب المتخضت المائع • وقيل

أيضا : (يا بنات التمن •• بسليمي من التمن) •• ومعنى التمن : اجتمعن

والسليمي : ضرب من القود سميت باسم السلطان سليم العثماني • والمن :

نوع من المعايير المستعملة في الأوزان (= ٢٥ كيلوغراما) • ومعنى المثل :

أيها البنات (كناية عن النساء) اجتمعن ، فإن من التمن أصبح يباع بسليمي

•• أي أن سعره غلا غلاء فاحشا • والتمن هو الرز • وقد صربوا هذا

المثل للامر يستدعي الحيرة والدهشة بحيث يجب التجمع له والتداول

في شأنه •

ونهدت بالبنات قصص وروايات أشهرها : (البنات والصيف) لاحسان

عبدالقدوس ، و (بنات بلا رجال) لاسكندر رياشي • وأضيف الى البنات

بعض الاحياء والاشياء ، فقول :

* باب بنات: شارع يخترق أحد الأحياء الشعبية القديمة في مدينة تونس
العاصمة •

* بحر البنات : اسم أطلقه العرب على جزر الأرخيل عند الشاطئ
الغربي للخليج العربي • ويطلق الأديسي عليه « بحر الكثر » •

* بير البنات : بئر كانت تقع بين قرية النبي يونس والموصل في العراق •
* تربية البنات : كتاب عنوانه الكامل (إرشاد العائلات إلى تربية
البنات) لأحمد الحنفي •

* تل البنات : يقع جنوب شرقي ناحية الدور في سامراء • وتذهب
الروايات المتواترة إلى أنه كان موقع القصر الذي شيدهت الأميرة نايفسة
بنت الملك هطرون لبناتها ، وقد حوطته بمجرى النهر من كل أطرافه ليكون
منزلاً عن البر بحيث يتعذر الوصول إليه أو الخروج منه بدون واسطة
عبور • ولعل هذه الرواية أسطورة من الأساطير •

* ثلاث بنات : فلم عربي مصري ، اسمه الكامل (أرملة وثلاث بنات)
ما يزال العمل جارياً فيه بالقاهرة ، ويقوم بإخراجه جلال الشرفاوي •
* جسر بنات يعقوب : على الحدود السورية الفلسطينية جنوب
بحيرة الحولة •

* رضاع البنات : من الأمثال السامرية : (رضاع البنات يهدد
الكلمات) • والكامة : الهمة • ويهدد : يهد •

* السبع بنات : اشتهرن مع الحمال في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة •
* ست بنات : قصة معروفة لأمين يوسف غراب •
* شعر بنات : حلوى بغدادية على هيئة حزم من الخيوط الرفيعة البيضاء ،
تعرض في الأسواق أيام شهر رمضان من كل عام •

* صوم البنات : مناسبة فولكلورية بغدادية معروفة ، تحدث في الأرباء
الأخيرة من شهر رجب كل عام ، وتندّر فيها النذور ، وتصوم العذارى
ويتنظمن جماعات وبايديهن الشموع حيث يزرن مرقد الزاهد (حبيب

العجمي) في كرخ بغداد والشيخ عمر في الرصافة • ومن غنائهن في هذه المناسبة :

جينا نزورك يا حبيب العجمي

شمعة بطولك يا حبيب العجمي

* عقبه النبات : سهل يقع على قمة جبل خلف جبل سرس ، وقد شاهده الرحالة بوركهارت خلال رحلته على ضفاف النيل من اسوان الى المحسن على حدود دنقلة عام ١٨١٣ •

* غزل النبات : فلم عربي مصري اشترك فيه يوسف وهبي ومحمد عبدالوهاب ونجيب الريحاني ووليلى مراد وغيرهم •

* غزل النبات : وهو الاطرية ، طعام كالاخيوط يتخذ من الدقيق أو من الششا •

* كلية النبات : تقع في جناح باب المعظم ببغداد في فم شارع الكفاح • وكانت سابقا تدعى كلية التحرير •

وللبنات منازل معروفة من التركيب والاضافة ، أشهرها :

* بنات آوى : ومفردها ابن آوى وهو الحيوان الذي تعود عواء الليل ، ويزعمون ان الدجاج يخافه أكثر مما يخاف الثعلب •

* بنات ادھمان بغداد : من الخيول التي كانت ذات وزن في سباق الخيل ببغداد •

* بنات الاحرار : الاوائل من النساء •

* بنات أحقب : الحمر الوحشية •

* بنات أخدر : الحمر الوحشية أيضا •

* بنات الاخدرى : الاتن (جمع اتان) ، وقيل : هي ضرب من الحمر

الوحشية •

* بنات الارض : الانهار الصغيرة ، وقيل : عروق يقطر منها الماء ، ويصير

اليها الوحش في القبط فيترشفها ، ويقتصر عليها دون ورود الماء •

وقيل : هي المواضع التي تخفى على الراعي . (راجع ايضا : ابنة
الارض و بنت الارض) .

* بنات الاستاذ : قصة للمكاتبة المعروفة ويلا كاتر . نقلها الى العربية
فوزي قباوي .

* بنات أسفع : المعزى ، أو الثيران الوحشية .

* بنات أعنق : النساء .

* بنات اعوج : أعوج اسم فرس عربي سابق تنسب اليه الاعوجيات
فيقال هو من بنات أعوج .

* بنات ألب : عروق في القلب تكون منها الرقة . ويقال : اني

لاعرف هذا بنات البب . وفي المثل : (تأبى له ذلك بنات البيبي) . وأصله
أن رجلا تزوج امرأة وله أم كبيرة ، فقالت المرأة للزوج : لا أنا ولا
انت حتى تخرج هذه العجوز عنا . فلما أكثرت عليه احتملها على عنقه
ليلا ، ثم أتى بها واديا كثير السباع ، فرمى بها فيه ، ثم تنكر لها ، فمر
بها وهي تبكي ، فقال : ما يبكيك يا عجوز ؟ . قالت : طرحني ابني ههنا
وذهب وأخاف أن يفترسه الاسد . فقال لها . تبكين له وقد فعل بك
ما فعل . . . هلا تدعين عليه ؟ قالت : تأبى له ذلك بنات البيبي .

* بنات الله : كانت قبيلتا خزاعة وكنانة تقولان : الملائكة بنات الله! ،
وانما اطلق العرب لفظ البنات لان الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون
أشبهوا انساء في الاستار ، فأطلقوا عليهم لفظ البنات ، وجاء في سورة
الانعام (آية ١٠٠) : وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له
بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . (وخرقوا : اخلقوا) .
* بنات الامر : المصارين يجتمع فيها الفرت .

* بنات اناشى : هن بنات الناس في اللغة المندائية التي يتكلم بنا
صائبة العراق . وورد هذا التركيب في كتابهم المقدس (سيدة اد آدم) .

* بنات أوير : كمء صغير مزغب .

* بنات أودك : الدواهي . (راجع ايضا : بنت أودك) .

* بنات أورشليم : وهن اللاتي ناداهن سليمان (ع) في أحد أناسيده (المزامير) بقوله : احلفكن يا بنات اورشليم بالظباء وبأيائل الحقول .
 * بنات الاول : (في العامية البغدادية) العجائز ، أو بنات الايام الخوالي ، أو الفتيات العصريات يأخذن بتقاليد الماضي .
 * بنات بحر : سحائب لا تجوز الى البر . وهناك ايضا بنات مخر ، وهي السحائب تنشأ من بخار البحر ، فتجوز البر . . . ولذلك قيل : بنات مخر خير من بنات بحر .
 * (راجع أيضا : بنت بحر) .
 * بنات البحر : حيوانات لبونة من رتبة الخيلان مؤخرها يشبه السمك .

* بنات بحنة : وبحنة نخلة بالمدينة المنورة طويلة السعف ، شبهت السياط بها لطولها ، وهو من كلام أهل المدينة . وقيل : ان بحنة اسم امرأة نسبت اليها نخلات كن عند بيتها ، وكانت تقول : هن بناتي ، فقيل لها : بنات بحنة .

* بنات بحر : سحائب يجئن قبل الصيف ، منتصبات ، رفاق .
 * بنات برح : المشقة . (وراجع ايضا : بنت برح) .
 * بنات البريصني : (في الامثال السامراية) مثل بنات البريصني . وهذا الحيوان هو سام أبرص . وقد ضربوا المثل للدعوى المجد في عمله .
 * بنات البطون : الامعاء . ويقال للجائع : سكن بنات بطنك .
 * اذا أمر بالاكل .

* بنات بئس : الدواهي . ويقال : نزلت به بنات بئس .
 * بنات البيض : نوع من التمور العراقية . (راجع أيضا : بنت البيض) .

* بنات التناير : الرغفان . وقيل لاعرابي قدم الحضرة ، فأضافه بعض المياسير : اين كنت اليوم ، وبما أشغلت ؟ . فقال : كنت والله عند كريم خطير اطعمني بنات التناير وامهات الابازير وحلواء الطناجير ، ثم

سقاني رعاء القوارير من يد غزال غرير (راجع أيضا : بنت تنور) :

* بنات الجامعة : طالباتها *

* بنات الجان : الحسان الفواتن * شاع استعمال هذا التركيب

في المجالات التي تصف ممثلات السينما .

* بنات الجد الصحيح : العمات *

* بنات الجد الفاسد : الخالات *

* بنات الجدة : نوع من التمور العراقية *

* بنات الجراد : الجنادب *

* بنات الجديل : الابل *

* بنات الجمل : الابل *

* بنات الجنجل : لم أقفأ على معناها * وكلمة الجنجل ربما تكون

موهومة لا أساس لها * وورد هذا التركيب على لسان صبيان بغداد ، وهم

يغنون : (يا ربي لتساعدنا * ساعد بنات الجنجل) ولتساعدنا بمعنى

لا تساعدنا *

* بنات الحارث بن هشام : ضربن مثلا في الحسن والشرف وغلاء

المهر * وأبوهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي * وكانت الجارية

تولد لاحد آل الحارث فتبأشر النساء بها ، ويرى أهلها أنهم اغنياء لرغبة

الخطاب فيها ، ولذلك قال ابن هرمة من قصيدة :

توافق عند المشتري الحمد بالثنا نفاق بنات الحارث بن هشام

* بنات الحجال : العذارى *

* بنات حذف : وحذف غنم سود صفار تكون بالحجاز او اليمن *

قال النبي (ص) : تراصوا بينكم في الصلاة لا تتخللكم الشياطين كأنها

بنات حذف *

* بنات الحسن : (١) مجموعة من قبور بعض النساء العلويات

المشهورات بالزهد ، وهي تكاد تنتشر في ارجاء الجمهورية العراقية كالخالص وبغداد والموصل والنجف والديوانية والحلة وناحية بلد وغيرها . (٢)منطقة زراعية تقع على بعد ثلاثين كيلومترا شرقي مدينة سامراء . وفيها قبة تحتها بعض القبور . (٣) محلة عرفت بهذا الاسم في رصافة بغداد ، وهي من محلات بغداد في أواخر العهد التركي ، وقد رآها البحار الانكليزي فيليكس جونز سنة ١٨٤٦ . (٤) نقطة واقعة بين ناحية حديثة وقرية البغدادي في لواء الرمادي . (٥) جامعان اشتهر كل منهما باسم جامع بنات الحسن ، أحدهما في محلة بنات الحسن وهو الذي جدد بناؤه في هذه الايام ، والاخر قرب رأس جسر الشهداء في كرخ بغداد .

* بنات الحصر : دوية حمراء ، مفرطحة ، منتنة الريح تكون في السرر والجدر والخشب .

* بنات حواء : طائفة النساء .

* بنات الخاية : وهن بنات من فارقتها زوجها الى غير رجعة ، ويكن كاسفات ، ذليلات . وهذا التركيب شائع في مدينة النجف .

* بنات الخدور : العذارى .

* بنات الخطيئة : كتاب نشرته مؤسسة ماكفادن ومنعته مصلحة الرقابة

في لبنان . وقد تهجم فيه المؤلف على النساء العربيات .

* بنات خورة : الضأن .

* بنات الخيال : الافكار الغريبة التي تتجانب الواقع ، وتناوى

المألوف .

* بنات دأية : الغربان .

* بنات دجلة : السمك . قال ابن الرومي :

أبنات دجلة في بيوتكم مأسورة في كل معترك

(راجع أيضا : بنت دجلة) .

- * بنات الدروز : ما يكون في دروز الثياب من هوام الجسد كالقمل
والصَّبَّان •
- * بنات الدم : ضرب من التبت أحمر •
- * بنات الدهر : (١) نوابه وحوادثه ومصائبه ونوازله • قال
الشاعر :

ألا ما لبنات الدهر ترميني ولا أرمي

وقال آخر :

رمتني بنات الدهر من حيث لا ادري

فكيف بمن يرمى وليس برام

وقال الممزق العبدى :

هل للفتى من بنات الدهر من واق

أم هل له من حمام الموت من راق

(٢) الديالى والايام • قال الاخطل :

وما تبقى على الايام الا بنات الدهر والكلم العقور

(٣) الباقيات على الدهر • قال المرار بن منقذ يصف النخيل :

بنات الدهر لا يحفلن محلا اذا لم تبقى سائمة بقينا

(وراجع ايضا : بنت الدهر) •

* بنات الدو : الحمر الوحشية •

* بنات الذينة : (في اللهجة العامية اللبنانية) اللوزتان •

* بنات الرجال : النساء • قيل :

بعض بنات الرجال ابرزها الدهر لما قد ترى واخرجها

* بنات الرعد : الكمأة •

- * بنات الريف : فلم عربي مصري • من أبطاله يوسف وهبي وفاطمة رشدي • (راجع ايضا : بنت الريف) •
- * بنات زادان : (وفي بعض الروايات : زاذان) الطوال الاذان •
- * بنات الزمان : حوادثه ومصائبه • قال البحرى :
- متى ما نسبت الحادثات وجدتها بنات زمان أرصدت لبنيه
- * بنات السحابة : البرد • قال الشاعر :
- كأن ثناياها بنات سحابة سقاهن شؤبوب من الغيث بأكر
- * بنات السعدان : نوع من التمور العراقية •
- * بنات السورى : خيول كانت معروفة في سباق الخيل ببغداد •
- * بنات شاحج : البغال •
- * بنات شحاج : الخيل والبغال •
- * بنات الشحم : حيوان اذا لمس باليد استدار كالبندقية • (راجع أيضا : بنات الشيخ) •
- * بنات الشيخ : وتسمى أيضا بنات الشحم •• وهي الحيوان نفسه ؛ المعروف بنعومته وبياضه • ينفع من السعال وأوجاع الحلق وعسر البول •
- * بنات الشيخ حسن : مزار معروف في منطقة اصطبلات في سامراء ، تزوره عشيرة المجمع هناك •
- * بنات الصدر : (١) ما يضمه الانسان من الخير والشر • قال الشاعر :

أحب الى من ألفى قريب بنات صدورهم لى مسترايه
 وللصاحب بن عباد من رسالة : زوج بنات صدرك من بني علم ،
 وأفرغ صوب عقلك في قمع اذني • (٢) الهموم •

* بنات صعدة : الحمر الوحشية ، وقيل : الحمر الاهلية •

* بنات صهال : الخيل •

- * بنات صهال (بتشديد الهاء) : الخيل والبغال .
 - * بنات الصوفي : نوع من التمور العراقية .
 - * بنات الضمري : مزار في هيت بالعراق ، تقصده النساء غالبا .
- والضمري هو عمر بن امية . ويستوعب هذا المزار ما يقرب من عشرة قبور .

* بنات طارق : (١) بنات الملوك . (٢) الشماريخ . (٣) بنات النجم . قال يحيى بن عبد الملك : جلست ليلة وراء الضحاك بن عثمان المخزومي في مسجد رسول الله (ص) وأنا متنع ، فذكر الضحاك واصحابه قول هند بنت عتبة لمشركي قريش يوم أحد :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

فقالوا : ما طارق ؟ . فقلت لهم : النجم . فالتفت الضحاك فقال : أبا زكريا ، وكيف بذلك ؟ . قلت قال الله تعالى : (والسماء والطارق . وما ادراك ما الطارق . النجم الثاقب) ، وانما قالت نحن بنات النجم لعلوه وشرفه . (٤) بنات العلاء بن طارق بن الحارث بن امية بن عبد شمس من كنانة يضرب بهن المثل في الحسن والشرف .

* بنات طبار : الدواهي .

* بنات طبق (١) الدواهي . ويقال : احدى بنات طبق . يضرب مثلا للداهية ويرون ان اصلها الحية . ويقال للداهية بنت طبق . (٢) سلاحف معروفة . وفي الامثال : جاء باحدى بنات طبق . وبنت طبق : سلحفاة تزعم العرب انها تبيض تسعا وتسعين بيضة كلها سلاحف ، وتبيض بيضة تنقف عن أسود . وهو يضرب للرجل يأتي بالامر العظيم .

(وراجع ايضا : بنت طبق) .

* بنات الطريق : الطرق الصغار التي تفرق وتختلف فتأخذ في كل ناحية . قال أبو المنشي الاسدي : اذا الطريق اختلفت بناته . (راجع أيضا : بنات الطريق) .

- * بنات طمار : (١) الدواهي • (٢) الاجواء المرتفعة • وفي الامثال :
 ذهب المحق في بنات طمار • يضرب في ما يذهب باطلا •
 * بنات عرجون : الشماريخ •
 * بنات عرس : جمع ابن عرس • من عائلة الجرذ • • ولكنه
 عدو للفأر •
 * بنات عرهون : الفطر •
 * بنات العكرب : (١) في الامثال السامرائية : مثل بنات العكرب •
 يضرب للمرأة المثاث • والعكرب هي العقرب ، وفي هيت يضرب في عقوق
 البنين والبنات • (٢) طائفة من نجوم السماء على غرار بنات نعش •
 * بنات العين : الدموع • قال ابن الرومي :
 تذكرته والشيب قد حال دونه فطلت بنات العين مني تحدر
 (راجع أيضا : بنت العين) •
 * بنات غير : الاكاذيب والالفاظ المنتحلة • وفي الامثال : جاء
 بالشقر والبقر وبنات غير • والغير الاسم من قولك غيرت الشيء فتغير •
 ويراد ههنا : جاء بالكلام المغير عن وجه الصدق • والشقر والبقر اسمان
 لما لا يعرف • أي جاء بالكذب الصريح •
 * بنات الفحل : الابل •
 * بنات فراض المرخ : النيران التي تخرج من الزناد •
 * بنات الفلا : الابل • قال الشاعر :
 اليك أمين الله جابت بنا الفلا بنات الفلا في كل بر وفد فد
 * بنات قتره : جمع ابن قتره ، وهو حية دقيقة • وقيل : بكر
 الافعى •
 * بنات القريض : الابيات أو القصائد الشعرية •
 * بنات القفر : الوحش •
 * بنات القلب : ما يضمرة الانسان من الخير والشر • قال الشاعر :

بنفسى من هواه أخى وتربى له حبى رضيع بنات قلبى

ويقال : احبك بنات قلبى •

* بنات القنصل (نباتيا) جنس نباتات من فصيلة الفربيونيات ، مهددة الاصلى المكسيك ، تحمل أغصانه جذورا مستطيلة ، ويزرع في مناطق المناخ الحار •

* بنات كداد : حمر تنسب الى فحل اسمه كداد •

* بنات الكروم : الخمرة • قال الشاعر :

بنات الكروم تسلى الهموم وتحبى السرور وتنفى العدم

(راجع ايضا : ابنة الكرم) •

* بنات الكنيسة : الراهبات • (راجع ايضا : بنت الكنيسة) •

* بنات لبن : الامعاء التى يكون فيها اللبن •

* بنات لبون : صغار العرطف، والعرطف شجر من العضاء ذو أشواك •

(راجع ايضا : ابنة لبون وبنت اللبون) • ويقال : يرتمون بنات لبون

أى بصخر عظام •

* بنات اللهو : الاوتار • قال البحترى :

تلقينا الشتاء به وزرنا بنات اللهو اذ قرب المزار

وقال ابن الرومى :

نطقت بنات اللهو فيه معا من بعد بعد الصوت والهمس

* بنات الليل : النساء ، أو الهموم ، أو الاحلام ، أو طائفة من

الخلعات ، او المنى • يقولون : فلان يتوسد اذرع بنات الليل ، أو أهوال

الليل •

* بنات الماء : (١) الغرائق • (٢) ما يألف الماء من السمك والطيور

والضفادع • قال سبدوك الواسطى :

كأن جوانحي شوقا اليها بنات الماء ترفص في جفاف

(٣) سمك ببحر الروم ، شبيهة بالنساء ، ذات شعر سبط ، وكلامهن

لا يكاد يفهم •

* بنات المثل : النساء ، والمثال : الفراش • وبنات المثل أيضا النساء •

* بنات مخر : سحائب تنشأ من بخار البحر ، فتجوز البر ، وهي

حسان مستطيلة • قال عبدالله بن سلمة الغامدي يصف صاحبه (جنوب):

كان بنات مخر رائحات جنوب وغصنها الغض الرطيب

* بنات مسبل : الضباب ، جمع ضب •

* بنات المسجد : الحصا • ذكر لرؤية رجل ، فقال : كان احدى

بنات مساجد الله •• كأنه جعله حصاة من حصا المسجد •

* بنات المسند : التوائب وصروف الدهر •

* بنات المعى : (١) المصارين • (٢) البعر •

* بنت مقيدة الحمار : العقارب • ومقيدة الحمار : الحرة من

الارض •

* بنات المكلا : والمكلا مرفأ على ساحل حضرموت ، واقتحمت بناته

الجميلات اغانينا العربية ، وخفقن على لسان المطرب فهد بلان •

* بنات الملك وابنائهم (جمعية) : مؤسسة عالمية دينية خيرية أسست

عام ١٨٨٦ في نيويورك •

* بنات المنايا : السهام • قال ابن الرومي :

لهم عدة تكفيهم كل عدة بنات المنايا والقسي الموتى

* بنات المنكدر : والمنكدر فرس لبني العدوية رهط المرار بن منقذ

الذي يقول :

بيد قدره ذى عذر صلتان من بنات المنكدر

* بنات النار : الابخرة •

* بنات النبي : كتاب للدكتورة عائشة عبدالرحمن •

* بنات نصيب : ضرب الناس بهن المثل للبنت يضمن بها ابوها على من يخطبها ولا يرغب فيها من يرضاه لها ، فتبقى معنسة • ونصيب هذا كان عبدا أسود لبني كعب بن حمزة ، وكان شاعرا مفلقا • وكان ذا بنات نفص عليهن من لونه فصارعنه في الدمامة • وكان يجهن جدا ، ويربأ بهن عن العجم ، ولا يرغب فيهن العرب ، فبقين معنسات • قال أبو تمام :

كانت بنات نصيب حين ضمن بها عن الموالي ولم تحفل بها العرب

* بنات نظرى : الرجال الذين ينظرون الى المرأة •
* بنات نعش : سبعة كواكب منتشرة في الافق جهة القطب الشمالى •
قال بشر بن أبي خازم :

أراقب في السماء بنات نعش وقد دارت كما عطف الصوار

وخص بناب نعش لانها لا تغيب مع النجوم وهي تدور وتعطف في جانب السماء حتى يبهرها الصبح •

* بنات النقا : (١) دواب تكون في الرمل من فصيلة السقنقوريات •
(٢) الحلكة تشبه بها العذارى •

* بنات نقرى : النساء ، لانهن ينقرن عن الشيء ويعبئه •

* بنات هالوكت : (في العامية البغدادية) بنات العصر • • اللائي أخذن بالترف الحضاري بلا تحفظ • وهالوكت : هذا الوقت •

* بنات الهام : مخ الدماغ •

* بنات هديب : حين يحدث شجار بين نساء محلات الفضل وعزات طويلات وباب الشيخ وفضوة عرب ببغداد ، وتتطاول احدهن على احدهن ، فان المقهورة تأخذها العزة والحمية ، وتقول مباهية •

احنا بنات هديب ما بينا دغش انزل الخيال من ظهر الفرس

* بنات الهديل : الحمام •

* بنات الهوا : (في لهجة منطقة الفرات بجنوب العراق) الخيل
السريعة في العدو ، أو التي ضاعت اسبابها .

* بنات الهوى : العاهرات • (راجع أيضا : بنت الهوى) •
بنات والنس : خيول شقر كانت معروفة في ساحة سباق الخيل
• ببغداد

* بنات وردان : دوبيات تلزم الكنيف • وانشد الصاحب بن عباد ،
ليلة ، في مجلس تأذى فيه برائحة كريهة :

فما عدنا من الكنيف وقد قعدنا الابنات وردان

وقيل : انهن يخلقن من الاجذاع والخشب والحشوش ، وانهن من
خلق الشيطان • وتسمى في بعض البقاع العربية بدود الجرار • وهي
- عموما - حيوانات حمر لها اجنحة شعرية رقيقة ، وقرون طوال • يطلق
عليها أهل لبنان أسم صرصور ، وهي المردان (ومفردها مردانة) في العامية
البغدادية • (راجع ايضا : بنت وردان) •

* بناتي : (١) اضافة بنات الى ياء المتكلم • وفي القرآن الكريم :
(هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) • (٢) جماعة الفروج (أفراخ الدجاج) •
(٣) ضرب من الاحذية خاص بالاطفال الاناث • (٤) نوع من قوالب
وكعوب الاحذية الخشبية • (٥) كلمة تطلق في مصر على الثمار عديمة
البذور كالغنب ، وتطلق أحيانا على ذات البذور كالرمان •
* بنات اليوم : (١) بنات العصر • (٢) قصة لوفيق العلابلي •

والبنت الولد الانثى ، وهي على وزن فعت •• من بنو وبنى ، والنسبة
اليها بنتي وبنوى • وبنت ، مجازا ، ما تولد من شيء ونشأ عنه • وبنت
فلان بناء ثابتة في الوقف والوصل • ولا نقول ابنت ، لان الالف انما اجتلبت
لسكون الهاء فاذا حركناها سقطت • والبنت مولد قديم بمعنى الانثى مطلقا ،
واشوق القدماء بتأصيل التاء فعلا مزيدا ، فقالوا : بنتت المرأة •• أي ولدت

اشى • وفي أغلب اللهجات الشعبية المحلية في العراق ارتفع حرف النون من
(بنت) تخفيفاً ، فقالوا : (بت) • وعرفنا من البت في أدبنا الشعبي •

* بت بيت : (١) الفتاة لم تتزوج بعد • (٢) الفتاة الماهرة في تدبير
المنزل • (٣) كناية عن الفتى الخجول •

* بت حلال : (كناية) الزوجة الصالحة •

* بت عرب : (كناية) المرأة الكريمة •

* بت حمولة : المرأة تكون من أسرة كريمة موسرة •

وللبنت معان كثيرة شائعة ، أشهرها :

* البنت : (في علوم الحياة) وضعت بازاء Daughter Cell وهي

الخلية المنشطرة من الخلية الام •

* البنت : (كناية) الدمية الصغيرة يلعب بها • (راجع أيضا : بنات) •

* البنت : تطلق ، في الكويت ، في مخاطبة كل امرأة ولو كانت

عجوزا •

* بنت : أسم رجل كان حاكما على أحد الاقاليم النوبية في نهاية

الاسرة العشرين على عهد الفراعنة •

* بنت : (في ورق اللعب) بازاء كلمة Queen وهي ما يسميها

البفداديون بالقزرة (تحريف كلمة قيز التركية) •

واشارت لغات الدنيا الى البنت ، فكانت في اللغة الايسلاندية dottir

وفي لهجات الاراضي الواطئة بأوربا dochter ، وفي الارمنية oryort

وفي الاسبانية la Hija ، وفي اللهجة الاصفهانية «دختم» ، وفي اليونانية

Thugater ، وعند الانجلو سكسون dohtor ، وفي الالمانية Tochter

وفي الانكليزية daughter ، وفي الانكليزية القديمة dohtor وفي الانكليزية

المتوسطة doghter و dohter وفي الاوردية « لاركى » ،

وفي الايطالية la Figlia و la ragazza وفي التركية « قيز » وفي الحبشية

Gwal وفي لهجة الدناكل في أريتريا Barwa وفي الدانيماركية dotter
datter وفي الروسية doch وفي الزندية dughdhar ، وفي لهجة
الساو باريتريا Bra ، وفي السريانية « بروتو » ، وفي السلافية القديمة
dushti ، وفي السنسكريتية duhit ، وفي لهجات شمالي غرب اوربا
dotter وفي العبرية «بتولا» ، وفي الغوطية (البربرية) dauhtar وفي الفارسية
«دختر» ، وفي الكردية «كج» ، وفي الفرنسية Fille ، وفي الفيلية الكردية
«دوت» ، وفي الكلدانية «برانا» ، وفي اللاتينية Filia ، وفي اللتوانية
dukte ، وفي اللهجة اللارستانية «دت» .

وهناك ، بين العلماء الاوربيين ، من يعتقد بان جميع الكلمات الاوربية
التي تنظر الى البنت انما تنظر - عند مقارنتها بالكلمة السنسكريتية - الى معنى
duh وهو الحليب .

والبنت من المحرمات على الاب (سورة النساء ، آية ٢٢) ، وهي من
الالفاظ التي كثرت اضافتها كثرة بالغة في اللهجة البغدادية ، وبعض اللهجات
العراقية الاخرى ، فأضافها أبناء الشعب - في معرض السباب والشتم - الى
طائفة كبيرة من الالفاظ ، اذكر منها : الرئع والرجس والزنى والنولة
والحرام والمداس والمطى والكلب والزفرة . كما ادخلوها في بعض امثالهم
الشعبية ، فقالوا : (البنت مثل القوصة من تزوج تشلع من التور) ، وهو
مثل موصلبي ضربوه في ان البنت يجب عليها الانسجام مع زوجها وأهله ،
ولا تتعود الزعل والعودة الى أهلها لسبب تافه . وقالوا : (ابن ابنك ابنك .
ابن بنتك لع) ، وهذا المثل وارد على مذهب معروف في الانساب ، وهو
ظاهر المعنى . . . وقد جاء في الشعر القديم :

بنونا بنو آبائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الاباعد

وقالوا : (البنت غم ولو مريم) ، وضربوه في العناء يصيب الاسرة من
جاء الحرص على تربية البنت حتى تخرج الى دار الزوجية . والمراد

بمريم هنا مريم بنت عمران التي وصفها القرآن الكريم بانها مفضلة على نساء العالمين . وقالوا : (بنتي سعيدة منى بعيدة) .. أي ان ابنتي سعيدة ما كانت بعيدة عني ، وأرادوا بهذا المثل ان البنت اذا خرجت من دار أهلها الى دار زوجها كان ذلك أدعى الى سعادتها . وجاء في أمثالنا العربية القديمة: (ولى الثكل بنت غيرك) .. وقد قالته خليدة زوجة ضمرة بن جابر لضررتها هند دعاء لها . ولهذا قصة ذكرها الزمخشري كاملة في كتابه (المستقصى) . وهناك نعوت والفاظ معطوفة اقترنت بالبنت لتؤدي ما لا يجب ان نجعله ، منها :

* البنت الجليلة : أعنية معروفة للمطربة اللبنانية فيروز من الحان الاخوين رحباني .

* بنت خاتون : (في الامثال البغدادية) ولد مجنون ولا بنت خاتون . والخاتون هنا بمعنى العاقلة المهذبة . والمثل يشير الى نظرة المجتمع الى البنين وتفضيله اياهم على البنات حتى لو كان الولد مجنوناً .

* البنت النبيلة : قصة يعرفها اطفالنا ، وهي من المجموعة الاولى (المكتبة الحديثة للاطفال) التي تصدر في القاهرة .

* البنت الوحيدة : قصة أخرى من المجموعة التي ذكرناها في الفقرة السابقة .

* البنت والوردة : قصة من قصص الاطفال لمحمد عطية الابراشي وقد ظهرت في مجموعة مكتبة التلميذ .

ومن المضاف الى البنت :

* ابن بنت رسول الله : هكذا يدعى (السيد) في العراق . والسيد هو من كان موصول النسب بالنبي (ص) عن طريق ابنته فاطمة .

* ابن بنت العراقي : وهو عبدالكريم بن علي بن عمر الانصاري (٦٢٣-٧٠٤هـ) ، مفسر فقيه ، ضرير ، أصله من وادي آش بالاندلس ومولده ووفاته في القاهرة . له مصنفات في التفسير وأصول الفقه .

- * ابو البنت : حليب سويسري ، معلب ، اسمه التجاري Milkmaid
- * أم البنت : (في الطب الشعبي العراقي) حليب يوصف لرمد العين تقطيرا . وأم البنت ، هنا ، هي المرأة ترضع بنتا لها ، فان لبنها بارد يهدىء العين كما يزعمون .
- * قبع البنت : متنزّه في ضواحي الموصل ، تقصده النساء في مواسم معينة . وقبع (في لهجة أهل الموصل) بمعنى : قبر .
- أما البنات اللواتي أضفن في الكنى والاسماء ، فهن :
- * بنت ابن قرابة : في سنة ٣٤٣هـ وخلال هجوم الديلم على بغداد بقيادة معز الدين حصل غلاء وأرهاب . . حتى قال بعضهم : رأيت امرأة تقول : أنا بنت ابن قرابة ، ومعى حلى وجواهر تزيد على ألف دينار ، فمن يأخذها ويسقيني شربة ماء . فما أجابها أحد . وماتت وما فتشها أحد لشغل كل انسان بنفسه .
- * بنت الاخ : من المحرمات (سورة النساء ، آية ٢٢) .
- * بنت الاخت : من المحرمات (سورة النساء آية ٢٢) .
- * بنت أدحي : النعامة .
- * بنت الارض : (١) نبت يشبه القلاع . (٢) ضرب من البقل . (٣) الحصاة . (٤) نبات ينبت في الربيع وفي الصيف . (راجع ايضا ابنة الارض وبنات الارض) .
- * بنت أفندينا : قصة معروفة لصالح جودت .
- * بنت أم كفشنة : عائلة كانت معروفة في النجف . . ولكنها الان منقرضة .
- * بنت أمها : كناية بغدادية عن البنت الشاطرة ، الحازمة .
- * بنت الامير : (١) قصة من مجموعة القصص المدرسية التي يصدرها في القاهرة سعيد العريان وأمين دويدار ومحمود زهران . (٢) ويوجد بهذا الاسم تل يقع بالقرب من أطلال اسكي بغداد شرقي نهر شهرابان على

- الجانب الغربي من الطريق العام بين المقدادية وبلدروز في العراق •
- * بنت أودك : الداھية ، أو الحية •
- * بنت بارح : الداھية •
- * بنت البارحة : (كناية بغدادية) لفتاة في مقتبل العمر •
- * بنت باريس : فلم عربي مصري أخرجه حسين فوزي •
- * بنت الباشا : نوع من التمور العراقية •
- * بنت البحر : نوع من التمور العراقية •
- * بنت بحرى : بلاج معروف في الاسكندرية بالجمهورية العربية المتحدة ، وهو البلاج الوحيد الذي ترتدي فيه المرأة المايوه والبرقع والملاية اللف •
- * بنت البدر : نوع من التمور العراقية •
- * بنت برح : الشر والشدة والاذى • يقال : لقيت منه بنات برح •
- وبرح بي هذا الامر اذا غلظ واشتد •• يضرب للامر يستفزع • وفي الامثال العربية : (بنت برح شرك على رأسك) •• أي لا جاوزك الشر ، وبقي مصبوبا عليك حتى لا يدهم الناس • وهو يضرب في استعظام الامر •
- (راجع ايضا : بنات برح) •
- * بنت بريطانيا : الولايات المتحدة الاميركية •
- * بنت البلد : قطعة موسيقية للاستاذ محمد عبدالوهاب •
- * بنت البيت : الفتاة العذراء •
- * بنت اليد : الناقة •
- * بنت البيض ، نوع من التمور العراقية • (راجع ايضا : بنات البيض) •
- * بنت تاج نديم : فرس ما تزال في حيازة الشيخ محمد الجبوري بمنطقة الضلوعية في سامراء •
- * بنت تنور : الخبزة • (راجع ايضا : بنات التناير) •

- * بنت ناو : أحجار الجبل • والثاوي : الجبل •
- * بنت الجان : (في اسطورة نجفية) امرأة تظهر ، ليلا ، ملثمة • •
ويشاهدها بعض الناس •
- * بنت الجبل : (١) نوع من التمور العراقية • (٢) صوت يرجع الى الصائح ولا حقيقة له ، وضربوها مثلا للرجل يكون مع كل واحد ، فقالوا : (كبتت الجبل مهما يقل تقل) (٣) الحصاة • (راجع ايضا : ابنة الجبل) •
- * بنت جييل : بلدة في لبنان (قضاء صور) •
- * بنت الجدل : الحقيقة •
- * بنت الجرف : (في اللهجة العانية بالعراق) الصدى • والجرف هو ضفة النهر او شاطئه •
- * بنت الجيفني : فرس أصيلة كانت معروفة في ساحة سباق الخيل ببغداد •
- * بنت الجهف : الصدى • والجهف هو الكهف ، وهذه الكناية لا تزال مستعملة في عانة •
- * بنت الحارث بن عباد : كانت ممن يتمثل بها من النساء في الشرف والجمال • قالت امرأة من بني مرة :
جاءوا بحارثة الضباب كأنما جاءوا ببنت الحارث بن عباد
- * بنت الحان : الخمرة •
- * بنت الحبقق : وهي أم الفضل كريمة بنت عبدالوهاب القرشية الزبيرية ، وكانت عالمة بالحديث والفقه • ولدت في حدود ٥٤٥ هـ بدمشق وتوفيت سنة ٦٤١ هـ •
- * بنت الحتة : في العامية المصرية بنت الطرف او الجارة وقد ظهر بهذا الاسم فلم عربي مصري عرضته محطات التلفزيون حلقات كثيرة ، وقام بطولته محمود اسماعيل وعبدالوارث عسر •

- * بنت الحصير : جنس من البق •
- * بنت الحصين : نوع من البق متن الريح •
- * بنت الحوتة : من ابطال القصة الشعبية في العراق •
- * بنت الخالة : في الامثال البغدادية : (الخالة وبنت الخالة والغريب
- عالفضالة) ، وعالفضالة : على الفضالة ، وهي نفاية الطعام • يضرب في
- أن الاقربين أولى بالمعروف •
- * بنت الخليفة : (١) نوع من التمور العراقية • (٢) شخصية لعبت
- دورا كبيرا في حكاياتنا الشعبية •
- * بنت دجلة : السمكة • (راجع أيضا : بنات دجلة) •
- * بنت الدروز : القمل •
- * بنت الدن (أو الدنان) : الخمرة • قال الرصافي :
- بنت فن غنت لنا فسقتنا من أفانين لحنها بنت دن
- * بنت الدهان : نوع من التمور العراقية •
- * بنت الدهر : الحمى • قال المتنبى :
- أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام
- * بنت الدواهي : الحية •
- * بنت الدوح (١) الحمامة (٢) قصيدة نشرت بهذا العنوان في
- مجلة « دار السلام » بغداد العدد ١٥ السنة الاولى ١٩١٨ بتوقيع شاعر •
- * بنت رجلها : هي من كانت من الزوجة الاخرى •
- * بنت رخا : توقيع مستعار ينشر صاحبه صفحات كاريكاتورية في مجلة
- آخر ساعة القاهرية •
- * بنت رسطاليس : المدرسة • ورسطاليس هو الفيلسوف الاغريقي
- ارسطو طاليس •
- * بنت الرقم : الداھية •

- * بنت الرمل : البقرة الوحشية •
- * بنت الريف : اسم اشتهرت به المغنية الفجرية سورية حسين التي تقدم حفلاتها من تلفزيون بغداد •
- * بنت الزرايين : الخمر •
- * بنت الزوج : هي من كانت من الزوجة الاخرى •
- * بنت الزوجة : الولد من الزوج الاخر ، وهي - في القرآن الكريم - من الربيات في الحجور اللاتي جعلهن الله من المحرمات • (سورة النساء ، آية ٢٢) •
- * بنت الساعة : الفكرة الطارئة ، أو حدث اليوم ، أو الحيال الجديد • ويقول البغادة : (بنت ساعتها) للفكرة المرتجلة •
- * بنت السبع : نوع من التمور العراقية ، يؤكل خلالا ورطبا •
- * بنت السيل : المسافرة المحتاجة •
- * بنت سعد الاغضب : أول شهيدة عربية في ردفان بعدن ، قتلها الانكليز •
- * بنت السلوة : من ابطال الحكاية الشعبية في العراق •
- * بنت السقا : دويبة صغيرة ذات جناحين مرقشين •
- * بنت السلطان : شخصية كثيرة الشيوخ في حكاياتنا الشعبية •
- * بنت سهلان : نوع من التمور العراقية •
- * بنت السودان : عطر معروف تنتجه شركة بوش Bush اللدنية •
- * بنت السوداء : نوع من التمور العراقية •
- * بنت السير : الابل •
- * بنت الشاطيء : (١) اسم اشتهرت به في دنيا الادب الدكتورة عائشة عبدالرحمن (٢) قصيدة ، بهذا العنوان ، للشاعر التونسي جعفر ماجد ، نشرها في مجلة الفكر (التونسية) ، العدد ٤ (اكتوبر ١٩٦٢) •
- * بنت شفة : الكلمة •

* بنت الشمس : (١) كناية عن المرأة الجميلة • قال الشيخ جلال الحنفي : انها بنت الشمس تطلع في الارض فتأبى بعد الطلوع الاقولا •

(٢) الارض • قال الرصافي :

ثم ان الارض من بعد الجمود ولدت منها وليست بالولود
قمرًا دار عليها بسعود وجلا في الليل عنها الظلما
فهي بنت الشمس أخت القمر

* بنت الشواك : من ابطال القصة الشعبية في العراق •

* بنت الشيخ : نوع من التمور العراقية • (راجع ايضا : بنات

الشيخ) •

* بنت شيخ أحمد : زاهدة عراقية • وفي سامراء تكية عرفت باسمها

تقع في شارع الشهيد قحطان الممتد من باب الصحن حتى دائرة البريد •

* بنت شيخ كاظم : بئر عرفت بهذا الاسم تقع في منطقة اراضي

المسيرة بالجزيرة في سامراء •

* بنت صاحب الضيعة : لها شأن مع كسرى في احدى حكايات الف

ليلة وليلة •

* بنت الصباغ : (١) قصة فكاهية من قصص الاستاذ كامل كيلاني،

(٢) طير أزرق الرقبة ، يكثر وجوده في الكويت •

* بنت صفاً : في الامثال العربية : بنت صفاً تقول عن سماع •

وهي مثل قولهم : بنت الجبل ، ويعنون بها الصدى • وضربوه لمن لا يدعى

الى خير أو شر الا أجاب كما ان صدى الجبل يجيب كل صوت •

* بنت الصقر : نوع من التمور العراقية •

* بنت الصكلاوى : فرس أصيلة لاتزال في حيازة كثير ممن يقتنون

الخيول في العراق •

* بنت صور : هي مدينة قرطاجة التي اسستها امرأة اشتهرت في

التاريخ باسم ديدو وهي أخت بيجماليون حاكم صور •

- * بنت الصياد : لها شأن مع ابن الملك في قصص أذن ليلة وليلة .
- * بنت ضاعوس : فرس كانت في حوزة ابراهيم الداود رئيس عشيرة آل جعفر في حديثه .
- * بنت طبق : حية صفراء تخرج من السلحفاة ، وقيل انها حية عظيمة تنام ستة ايام ، ثم تستيقظ في اليوم السابع ، فلا تنفخ في شيء الا اهلكته . ومنه قيل للدهاية : احدى بنات طبق . وفي الامثال العربية : جاء باحدى بنات طبق . يضرب للرجل يأتي بالامر العظيم . (راجع ايضا : بنات طبق) .
- * بنت الطرف : الطرف : الحارة او المحلة وهي تتمتع بحصانة اديبة من أذى الغريب ، وعلى هذا أكثر محلات بغداد .
- * بنت الطول : دملة مستطيلة تظهر بين اللحم والجلد عند ملتقي أحد الفخذين بالبطن .
- * بنت الطير : نوع من السمك ، معروف في الكويت ، وهي تشبه الطائر ، ولذلك سميت به .
- * بنت الظنون : المرأة التي في نسبها شبهة . قال عبدالمك بن عمير : السوء بنت السيد أحب الي من الحسناء بنت الظنون .
- * بنت العامرية : (في اوساطنا الشعبية) ليل صاحبة قيس .
- * بنت العبدية : (كناية) الفتاة الذليلة في بيت أهلها .
- * بنت العراقي : (راجع : ابن بنت العراقي) .
- * بنت العرب : نوع من التمور العراقية .
- * بنت العرمم : هي السيدة زوجة الوزير ابي القاسم ابن المغربي .
- * بنت العم : (١) مسرحية لعبدالقادر الميلادي . (٢) كناية بغدادية عن الزوجة . وفي الامثال البغدادية : (يأخذ بنت العم ميندم) . أي من تزوج بنت عمه فليس بنادم . يضرب في الحث على الاصحار الى الاقارب . وقيل : (الاستحجي من بنت عمه ميجيه ضنا) يضرب للخجول يحول الخجل

دون حصوله على منافع كبيرة • وبنت عمه يراد بها الزوجة كاتبة من كانت • والضنا : الذرية ، وهي من أصل فصيح • وفي الامثال العربية : (من اسطحى من ابنة عمو اش تنفس لو اولد) ، وأورده الميداني : من استحيا من بنت عمه لم يولد له ولد •

* بنت العمدة : فلم عربي مصري • من مثليه كمال السناوى وهاجر حمدي •

* بنت العنب : الخمرة •

* بنت العنقود : الخمرة • (راجع ايضا : ابنة العنقود) •

* بنت العين : الدمعة • (راجع ايضا : بنات العين) •

* بنت الفارة : في الامثال البغدادية : بنت الفأرة حفارة • يضرب

للمسجية يتوارثها الابناء عن الابهاء •

* بنت فراش وغطا : (كناية) البنت فوق الظنون والشبهات •

* بنت الفرافصة : نائلة بنت الاحوص الكلبية زوجة عثمان بن عفان •

كانت خطيبة وشاعرة ، ومن ذوات الرأي والشجاعة • حملت الى عثمان من بادية السماوة فتزوجها واقامت معه في المدينة •

* بنت فكر : ديوان شعر صغير للشاعرة ماريانة مراش (١٨٣٨ -

١٩١٩) ، طبع سنة ١٨٩٣ وهو في الغزل والرثاء والمدح •

* بنت الفكر : الرأي والشعر • قال بعضهم :

ودونك البكر بنت الفكر قد برزت من خدرها تخدم الاستاذ سيدنا

* بنت الفكر : في الامثال البغدادية : (بنت الفكر لا تاخذوها تجيب

الفكر من بيت أبوها) يضرب في تحاشي الزواج من المملقين اذ ان ذلك يؤدي الى انتقال تقاليدهم وعاداتهم الى البيت الجديد • وتجيب الفكر

تأتي بالفقر •

* بنت الفلاح : (١) في الامثال البغدادية : (بنت الفلاح مترتاح)

يضرب في المنتمي الى قوم لا يختلف عنهم في شيء ، فكما ان الفلاح متعب

موصول الكد والغناء فكذلك يكون حال ابنته ، وهو يورد مورد النفجج لمن تعلق به المشاكل بسبب صلاته بغيره . (٢) فلم أمريكي من مثليه لوريتا يونغ وجوزيف كوتن .

* بنت الفن : المغنية . واستعملها الرصافي في شعره عندما مدح أم كلثوم حين زارت بغداد ، والمطربة العراقية منيرة الهوزوز .

* بنت قاطع الخشب : قصة ظهرت في المجموعة الثانية (المكتبة الحديثة للاطفال) التي تصدر في القاهرة .

* بنت القرچ : في الامثال الموصلية : (بنت القرچ ما تصير خاتون) . والقرچ : الفجر . وخاتون كلمة تركية بمعنى سيدة . يضرب للمرأة ليست بذات حسب ونسب تزف الى رجل ذي ثراء وجاه ، فلا تستلج التصرف كسيدة تليق به .

* بنت قرط : جدة لعبد المطلب وجدة لاسماء بنت أبي بكر .

* بنت قريمان : هي فاطمة بنت عبدالقادر الحلبي (٨٧٨-٩٦٦هـ) انتهت اليها رياضة نساء زمانها بحلب . تزوجها الشيخ كمال الدين الاردبيلي ، واخذت العلم عنه .

* بنت قضاة : لعبة لاهل المدينة المنورة تعمل من جلود بيض .

* بنت الكبة : من الفاظ منطقة الاعظمية ببغداد ، ويعون بها المرأة الفاضلة المتخذرة .

* بنت الكرم : الخمرة (راجع أيضا : ابنة الكرم وبنات الكروم) .

* بنت الكعدة : في الامثال البغدادية (بنت الكعدة و بنت الشيب لو دللناها مو عيب) و بنت الكعدة هي التي تلدها المرأة آخر ما تلد من الاولاد ، ومن كان كذلك كان حريا من أهله وذويه بالكثير من العناية والاحترام . يضرب في شدة الحرص على شخص عند اليأس من الحصول على مثله .

* بنت الكنيسة : خادمة الكنيسة . قال الشيخ جلال الحنفي :

بنت الكنيسة ما قصيدة شاعر يوما معوضة عن الانجيل

* (راجع ايضا : بنات الكنيسة) *

* بنت كييف : فلم روسي وضعه تيموفي ليفتشوك *

* بنت اللبون : ابل أتى عليها حولان • (راجع ايضا : ابنة لبون) •

* بنت الليل : من أسماء اليوم *

* بنت الماء : (١) وهي الاطوم : سمكة غليظة الجلد تحذى من

جلدها النعال وللعرب في الحديث عنها خرافات وأساطير وهي فتاة البحر

أو عروسه وتسمى اللطوم واللطم واللطيم • (٢) السيرينا : جهاز يستعمل

لعدد الذبذبات التي تقابل كل صوت *

* بنت المحلة : اعتاد البغادة ان يقولوا : (بنت المحلة بايره) وهي

احدى فتيات الحارة *

* بنت المخاض : فصيلة ابل أتى عليها حول واحد • أو هي

الفصيل الذي دخل في السنة الثانية لان امه لحقت بالمخاض •• أي الحوامل

وان لم تكن حاملا • أو ما حملت أمه • أو حملت الابل التي فيها امه

وان لم تحمل هي *

* بنت المرأة : حصيلة الزوج الاخر *

* بنت الشمس : نوع من التمور العراقية *

* بنت المطر : دويبة حمراء تظهر عند المطر واذا نض الثرى عنها

ماتت • والعرب تضرب بها المثل ، فتقول : أشد حمرة من بنت المطر •

(راجع أيضا : ابنة المطر) *

* بنت الملك : كان لها شأن مع ابراهيم الخواص في حكايات ألف

ليلة وليلة *

* بنت المنية : الحمى • قال عبدالصمد بن المعذل :

وبنت المنية تتابني هدوا وتطرفني سحره

* بنت الموت : الحمى • ولبعضهم :

وبنت الموت بالآلا م والواجع تطرقني

* بنت النارين : المرقة المسخنة • والعجم تقول لمثلها : ذو البخارين •
وكان بعض المترفين يقول : جنبوا مائدتي بنت نارين • (راجع ايضا :
ابنة نارين) •

* بنت الناس : كناية بغدادية عن الزوجة •

* بنت النبي : فاطمة زوجة الامام علي (ع) •

* بنت نجد : الناقة الاصيلة •

* بنت النخل : الحمامة المطوقة (الفاختة) كما هو شائع في مدينتي

الفلوجة والرمادي •

* بنت نخيلة : التمرة •

* بنت النداف : في الامثال البغدادية : (بنت الوزير عالحصير وبنت

النداف عالجتاف) يضرب في تقلبات الدهر ومفارقات أحكامه ، فان بنت
الوزير التي عاشت في احضان النعمة والدلال أصبحت لا تملك غير الحصير
تجلس عليها • واما بنت النداف (وهو الذي يحلج القطن ويخيظ الفرش
والالحفة) فانها أصبحت تحمل على الاكتاف رغم ان أباه من سواد الناس
وممليهم •

* بنت نفاس : جاءت في المثل (جاهلة بنت نفاس) للمرأة التي

تحاول التقليل من عمرها •

* بنت النوخذة : نوع من السمك معروف في الكويت ذو عيون كحيلة •

* بنت الهرررك : في الامثال السامراية : (أخذ بنت الحمولة

ولا تأخذ بنت الهرررك) ، وهي التي لانسب لها •

* بنت الهوا : فرس اصيلة في حيازة الحاج حاتم بن الحاج مجيد

في سامراء •

* بنت الهوا : الطيارة •

* بنت الهوى : المومس • (راجع ايضا : بنات الهوى) •

* بنت الهيق : النعام •

* بنت ودنه : في العامية المصرية تقول : ضربه على بنت ودنه ، وهي بنت الاذن التي تعني الغدة المجاورة للاذن من وراء الصماخ (النكفة) • ويقول أهل تونس : (انها بنت ودنك) حين تصدر منه كلمة ليست لك ، وانما سمعتها من شخص يقف وراءك •

* بنت وردان : وهي التي يقال لها في الجمهورية العربية المتحدة خنفس • (راجع ايضا : بنات وردان) •

* بنت الوزير : (راجع : بنت النداف) •

* بنت يعرة : المعزى •

* بنت اليمن : القهوة •

وبنية تصغير (بنت) ، وهي الطفلة الرقيقة الصغيرة ، ويطلق عليها في المملكة العربية السعودية اسم (البزورة) • وقد ارتدت في العامية البغدادية صيغة (بنية) ، وجمعوها على (بنوات) • واذا أراد أحد أبناء الشعب التنصل من شيء معيب قال : عم اولاد خال بنية !!؟ • • واقتمحت (البنية) امثالنا الشعبية ، فقيل : (الولد تربية أبوه والبنية تربية أمها) ، وقد ضربوه في أن الولد ينهج نهبه ويتابعه في اسلوب حياته ، وان البنت تتابع سلوك امها وتتجه وجهتها • وتربية بمعنى تربية • وقيل : (البنية مزبلة بالعجل تكبر) • • وضربوه لسرعة نمو البنت ، وهو يعكس نظرة الناس القاسية الى الاناث يومئذ • والمزبلة : مكان القمامة • وقيل : (بنية على بنية ولا الكعدة بطية) ، وضربوه للقناعة والرضى بالامور الزهيدة دون الحرمان • ويفهم من هذا المثل شدة كره النساء للعقم • وقيل : (البنية بلية) وفيه تعبير عن الواقع المساوي الذي كان يستغرق البنت • وقيل : (مبغوضة وجابت بنية) • • للزوجة تكون موئل الغضب في بيت الزوجية ، وتلد البنات لتزيد نار الحقد اشتعالا في قلب الزوج •

وفي معنى (البنية) قالوا : (بتناية) ، وصرفوها الى فرخ الدجاجة والى أوتار صوتية يعتقدون بوجودها في الحنجرة ترخم الصوت وترققه • ومن هنا قالوا : (عنده بتناية) اذا سمعوا مغنيا ذا صوت عذب • والبتناية ايضا فسيل النخل كما يسمى في بساتين لواء كربلاء • وأطلقوا (البنية) على الفتى المتخنت •

وبنو بنية - كما هو المشهور - بين النسابين بطن يلتحق بعشيرة الغرير • وبنية أيضا بطن من الشعلان ، ومن المرعضى ، ومن الجمعان ، ومن الروالة ، ومن الجلاس ، ومن مسلم ، ومن عنزة • وبنية باني محل كان يسكنه رئيس عشيرة البواني في لواء الرمادي • وبنية الجربة شيخ من شيوخ شمر جربة في الجزيرة ومن فرسانها المعروفين • وغضبان البنية هو شيخ عشائر بني لام في العراق •

وتجمع (بنية) الفصيحة على (بنيات) ، وهي تدل على جماعة الاطفال الرقاق الصغار • والبنيات ، ايضا ، الأقداح الصغار • وأشارت المناجم العربية الى (بنيات الطريق) اللاتي يتقمصن معنى الترهات او الطرق الصغيرة المتشعبة من الجادة ، او الصعاب والمعاسف ••••• وقديما كتب عمر بن عبدالعزيز الى الوليد بن عبدالمك : (••••• فطلما ركبتم بنيات الطريق) ، كما يقال للرجل اذا وعظ : الزم الجادة ودع بنيات الطريق • وقال محمود الوراق :

تنكب بنيات الطريق وجورها فانك في الدنيا غريب مسافر
ومن الكتابات : دع بنيات الطريق ••••• أي عليك بمعظم الامر وجوهره ،
وجانب الروغان واللف (راجع أيضا : بنات الطريق) •
والى (بنيتة) ذهبت لهجة الموصل العامية في تصغير (بنت) ، وذكرتها
بعض أمثال الموصل ، فقيل : (أقول لبنيتي دتسمع كيتي) •
ذلكم هو مركز البنات في الدائرة الحضارية ، وعسى أن آكون قد
وفقت بعض التوفيق فيما عرضت •

أشرف في وادي السند

في الثلث الاخير من القرن الاول الهجري (اوائل القرن الثامن الميلادي) انطلق المسلمون من وطنهم العربي الى شبه القارة الهندية تجارا • وفي سنة ٩٤هـ-٧١٢م تفأتم خطر القراصنة في البحر العربي على التجارة العربية ، فكان ذلك محفزا لقدم الفتى الشجاع محمد بن القاسم الى منطقة السند تحقيقا لامنها وسلامتها، ولم يمض وقت طويل على استقرار الجماعة الاسلامية في وادي السند حتى خضعت المنطقة كلها للنفوذ الاسلامي •

وفي أيام الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور اختط عمر بن حفص المهلبى مدينة المنصورة ، في السند ، بإشارة من العاهل العباسي لتكون الميناء الذي يستطيع به العرب ان يقتربوا خطوة جديدة من الشرق الأقصى •• وهكذا زرع في الهند مدينة تحمل لقبه لتؤكد وجوده الاسلامي هناك •

وكانت المنصورة ، كما يقول ياقوت الحموي ، قصبه السند ، وهم السعودي حين جعلها من مدن الاقليم الثالث •• بينما هي في الاقليم الثاني كما نص على ذلك المقدسي وسهراب وغيرهما من بلدانيي العرب • ويذكر لنا شيخ الربوة ان موضعها كان غيضة ، وذهب السعودي الى ان طولها من جهة المغرب ٩٣ درجة وعرضها من جهة الجنوب ٢٢ درجة ، وافادنا

المهلبى (عن طريق ياقوت) وابن حوقل والقزويني بأنها محاطة بخليج من نهر مهران ، وهي في وسطه كالجزيرة •• ويأتي مهران من بلد الملتان ، وهي - كما يدعي ابن خردادبة - خلف وسط المشرق بثمانية اجزاء لقرب قبلتها من الحجر الاسود • وحدثنا الاصطخري بأن مقدارها في الطول والعرض نحو ميل في ميل •

وقد أصاب هذه المدينة ، مع الايام ، خراب عظيم محق وجودها الجغرافي ، ويعتقد الاستاذ هـ.م. البيوت ، كما ذكر في كتابه تاريخ الهند ، انها ربما كانت في موضع حيدر آباد على نهر السند الان •

واختلف الجغرافيون العرب في الموقع الذي شيدت عليه المنصورة ، فادعى أبو الفداء ان اسمها القديم هو (يمنهوا) ، وذكر شيخ الربوة انها تسمى بالهندية (تاميران) ، وزعم ياقوت نقلا عن حمزة بن اسمعيل القديم كان (وهمناباد) • اما سبب تسميتها بالمنصورة ، فيقال - حسب رواية ابي الفداء - أن الذي فتحها من المسلمين قال : نصرنا ! • ويزعم شيخ الربوة أن المنصورة بنيت في صدر الاسلام • واختلف البلدانون في تحديد اسم بانيتها • فياقوت - في احدى رواياته - والمسعودي يؤكدان على أن منصور بن جمهور الكلبى هو الذي اختطفها فسميت به ، وهذا الرجل كان عاملا بالسند في آخر أيام بني امية ، وكان قبل ذلك حاكم العراق أربعين يوما ، ولما عزل سار نحو بلاد السند فغلب عليها مدة ، ولما استولى أبو العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م ، وجه لقتاله موسى بن كعب ، فالتقاء ، فانهزم منصور ومات بالمفازة بين السند وسجستان • وفي معجم البلدان لياقوت : ان منصور بن جمهور بنى المنصورة فسميت به ، وكان خرج مخالفا لهارون الرشيد وأقام بالسند ، فاذا طاب لنا ان نصدق هذه الرواية فان ذلك يؤدي بنا الى الاعتقاد بان مدينة المنصورة لا علاقة لها بأبي جعفر المنصور •• ولكننا حين نعلم بان منصور بن جمهور قد توفي في نحو سنة ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م نجد ان ياقوت قد وهم في ما ذكره عن هذا الرجل بصد

خروجه مخالفا لهارون الرشيد •

والذي عليه أكثر البلدانين ان الذي شيدها هو أبو جعفر المنصور ،
أو أنها شيدت في زمنه بإشارة منه ، فالقزويني يقول : ان المنصور بناها
وفيها ينزل الولاية ، ويذهب أبو الفداء الى أن عمر بن حفص المهلبى
المعروف بهزا رمرد بناها في أيام أبي جعفر المنصور العباسي ، وسماها بلقبه •
والى مثل ذلك ذهب ياقوت ، حسب رواية الحسن بن أحمد المهلبى •
ويرى الجاحظ ان العجم كانت تسمى عمر بن حفص هزار مرد (أي
الف رجل) وقد ولي امارة السند في أيام المنصور • وهذا يدل دلالة قاطعة
على أن المنصور هو مؤسس المنصورة في اقليم السند الضارب الان في الاراضي
الباكستانية •

ومرت الايام ، وعاشت المنصورة سعيدة بتجارتها ، شامخة بدينها
الجديد ، عزيزة بسultan قريش عليها •• وهذا هو الاصطخرى يؤكد على
ان ملكها من قريش ، ويقال انه من ولد الهبار بن الاسود ، وقد تغلب
عليها هو وأجداده الا أن الخطبة بها للخليفة • وقريب من ذلك ما ذكره
المقدسي حين قال : عليها سلطان من قريش ، وأهلها يخطبون للخليفة
العباسي وقد كانوا خطبوا على عضد الدولة • ومن المعروف ان هبار بن
الاسود كان شاعرا قرشيا ، من الصحابة ، توفى بعد سنة ١٥ هـ - ٦٣٦ م ،
وهو جد الهباريين ملوك السند توارثوها الى ان انتزعتها منهم محمود بن
سبكتكين صاحب غزنة • ويعتبر عمر بن عبدالعزيز الهبارى المتوفى نحو
سنة ٢٥٠ هـ - ٨٦٤ م أول من ملك السند من بني هبار ، اطاعه أهل
المنصورة وتولى امارة السند أثر قتل المتوكل ، وجعل قاعدته المنصورة
وتوارثت الامارة بنوه الى أن انقطع امرهم كما ذكرت •

وكان أهل المنصورة مسلمين ، كما نص على ذلك ياقوت وأبو الفداء ،
وكانوا أهل مروءة وصلاح ولباقة ودين • ويقول المقدسي : ان للاسلام
عندهم طراوة ، والعلم وأهله كثير ، ولاهلها ذكاء وفطنة ومعروف وصدقة ،

وهم بلغمانيون ، أكثرهم أصحاب حديث ، ورأيت القاضي ابا محمد المنصوري داوديا اماما في مذهبه ، وله تدريس وتصانيف ، وقد صنف كتابا عدة حسنة .

ومن الجدير بالذكر ان الانيكيت العراقي الذي كان يسود الحياة الاجتماعية ايام العباسيين كان هو نفسه الغالب على سلوك اهل المنصورة في حياتهم اليومية . ويقول المقدسي : ان رسومهم تقارب رسوم اهل العراق مع وطاء وحسن أخلاق . وذكر الاصطخري : ان زيهم زي اهل العراق الا ان زي ملوكهم يقارب زي ملوك الهند في الشعور والقراطق (الشعور جمع شعر ، والقراطق ، القباء ذو الطاق الواحد) . . على أن الجدير بالتنويه هو أن أهلها كانوا متفقيين ، كما يقول القزويني ، على مقاطعة البضائع الواردة من الممالك السندية بسبب خيانة غلام سندی وغيرهم .

وللمنصورة علاقات ثقافية وسياسية مع جيرانها ، فقد ذكر بزرك الرام هرمزي في كتابه (عجائب الهند) بأن مهروك بن رائق أحد ملوك الهند كان قد كتب في سنة ٢٧٠هـ الى صاحب المنصورة وهو عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز الهباري يسأله ان يفسر له شريعة الاسلام بالهندية . وذكر ابو الفداء ان (أزور) كانت مدينة كبيرة ، أهلها مسلمون ، وكانت في طاعة صاحب المنصورة .

وسجلت الحياة الاقتصادية في المنصورة اقبالا شديدا على التجارة وهبوطا ملموسا في الاسعار ، فياقوت والمقدسي يشيران الى أن أهلها أهل تجارات ، والتجارات هناك مفيدة واتفق ياقوت مع الاصطخري على أن اسعارهم رخيصة ، وكان لهم دراهم يسمونها القاهريات ، كل درهم نحو خمسة دراهم ، ولهم درهم يقال له الطاطري ، في الدرهم ، كما يدعي ياقوت ، درهم وثلاث ، وكما يدعي الاصطخري ، وزن درهم وثلثين وانفرد الاصطخري عن ياقوت بأنهم كانوا يتعاملون بالدنانير أيضا .

أما مناخها فقد أجمع ياقوت و ابو الفداء والقزويني والمقدسي على أن المنصورة بلدة شديدة الحر ، وتوسع المقدسي وحده في بعض التفاصيل ،

فذكر بان هواءها لين وشتاءها هين وأمطارها كثيرة واضدادها مجتمعة •
وهي كثيرة الخيرات ، وفي ارضها خصب ، كما حدثنا ياقوت
والاصطخري ، وشربها من نهر مهران ، وهذا النهر - كما يقول القزويني ،
عرضه كعرض دجلة أو أكثر يقبل من المشرق آخذاً جهة الجنوب متوجها
الى المغرب حتى يقع في بحر فارس اسفل السند • وقال الجاحظ : أن
تماسيح نهر مهران أصغر حجماً من تماسيح النيل وأقل ضرراً ، وذكر انه
يوجد في هذا النهر سبائك من الذهب •

وانهم ياقوت والقزويني والمقدسي مجتمعين مدينة المنصورة بانها كثيرة
البق •• ولكن المقدسي أشار الى وجود جواميس عظيمة فيها •

وكانت المنصورة تفتقد من الفواكه : العنب والتفاح والكمثري والجوز ،
كما أفادنا ياقوت والاصطخري ، ولكنها كانت كثيرة النخيل (عند أبي
الفداء والاصطخري) وفيها قصب السكر (كما ذكر ياقوت وابو الفداء
والاصطخري) •• ويزعمون ان بها ثمرتين لا توجدان في مدينة غيرها ،
احدهما الليمونة على قدر التفاح حامضة شديدة الحموضة ، وهذا قول
الاصطخري والمقدسي (وهي عند القزويني : الليمو ، وعند أبي الفداء :
الميمونة ، وعند ياقوت : البهلوبة) ، والاخرى تشبه الخوخ تسمى الأبيج
وهي لذينة وطعمها طعم الخوخ •• وعليها نص أكثر البلدانين بلاخلاف •
وكان للمنصورة جامع كبير ، في وسط الاسواق ، مبنى بالحجر
والآجر على سوارى ساج ، واليه اشار ياقوت والمقدسي • وكان أهل
المنصورة يستعملون في بنائهم احشوب والطين • أما المدينة نفسها فقد كان
لها أربعة ابواب ، هي : باب البحر ، وباب طوران ، وباب سندان ، وباب
الملتان (حسبما ذكر المقدسي وحده) ••

والمنصورات في بقاع الدنيا كثيرات ، عرفنا منها منصوره البطائح
في نواحي واسط بالعراق ، والمنصورة التي نهضت على انقاضها خوارزم ،
ومنصورة القيروان ، ومنصورة اليمن ، ومنصورة بلاد الديلم • وفي

الجمهورية العربية المتحدة ، اليوم ، مدينة وقريتان يحملن اسم المنصورة •
وقد خربت اكثر المنصورات • أما منصورة باكستان فقد نص ياقوت (المتوفي
سنة ٦٢٦هـ - ١٢٢٩م) على خرابها ، وتبعه في ذلك ابو الفداء بعد أكثر
من مائة عام • وكانت هذه المنصورة بخير وعافية في سنة ٢٧٠هـ - ٨٨٣م فقد
ذكر بزرگ الرام هرمزي من حكامها في هذه السنة عبدالله بن عمر بن
عبدالعزيز الهباري • وكان أهل المنصورة في حدود سنة ٣٧٠هـ - ٩٨١م
يخطبون لعهد الدولة ، وقد رأى المقدسي سنة ٣٨٠هـ أو قبل ذلك بقليل
رسولا من أهل المنصورة وقد وافى الى ابنه بشيراز حيث كان المقدسي
هناك آنئذ • ومن هنا يبدو أن خراب المنصورة كان في حدود القرن
السادس الهجري او بعده بقليل •

تلك هي حكاية المنصورة ، وتلكم هي أمجادها • ولنا ولباكستان أن
تغنى جميعا بمأثرة أبي جعفر المنصور التي تركت ذكرا حميدا في تاريخ
العلاقات العراقية الباكستانية ، وانتي لارجو - وقد مضى على خراب
المنصورة أكثر من سبعمائة سنة ، أن تخلد باكستان يد المنصور الجميلة
البيضاء التي أمتدت الى اقليم السند بانية معمرة بان تطلق اسمه او اسم
المنصورة على احدى القرى أو المدن الجديدة في منطقة السند ، وليس ذلك
عليها بمستكر وهي تنعم ، اليوم ، تحت ظلال الاسلام •

نُصُوصُ نَفْطِيَّة

للنفظ في الفكر العربي ، ملاحب عديدة استوت شامخة على أكثر من صعيد ، وترامت ظلالها فوق اللغة والفولكلور . وانني في هذا البحث ، سأحاول أن أقيد شوارد النفظ واسجن هوامله . . وفق المدارج اللفظية التي انتهجتها المعجمية المعاصرة تذليلا لما قد يتكاد سليل الباحث عن موطن الكلمة في مطارح السياق المؤبجد . والى القارىء ما عثرت عليه بعد جهد غير يسير :

- (أنْفَطَ) يقال انفطت العنز ببولها : اذا رمت به ، وانفظ العمل يد فلان : جعلها منفوطة (= مقروحة) .
- و (تَنَفَطَت) القدر : رمت ، في غليانها ، بالزبد .
- و (التنايفط) ان يزرع شعر الجلد ، ويلقى في النار ليؤكل ، وذلك في الجذب والمجاعة .
- و (تنفط) الرجل : غضب او احترق غضباً ، وتنفطت اليد : قرحت عملاً .
- و (مُنْفَط) . . . جاء في العامية البغدادية : خبز منقط : وهو الذي فاح برائحة النفظ .
- و(المنفوط) : من كان في يده نفظ .
- و(المنفوطة) : من كان في يدها نفظ ، ويقال كف منفوطة اذا قرحت عملاً .

و(النافطة) : الماعزة أو الشاة ، واليد النافطة : التي قرحت ، ورغوة
نافطة : ذات نفاحات • قال الشاعر : وحلب فيه رغاً نوافط • ويقال في
الامثال : ما له عافطة ولا نافطة ••• أي ما له شيء •

و(النفاط) : مستخرج النفط من معادنه ، أو رامي النفط • وابن
النفاط هو ابو السمع ابراهيم بن طلق المصري : كان يرمي بالنفط والنار
في البحر مع المسلمين اذا غزوا الكفار ، وكان من رواة الحديث عن أبيه •
و (النفاطات) : معادن النفط ، وأدوات تعمل من النحاس يرمى فيها
بالنفط والنار ، وضرب من السُرج يستصبح بها •

و (النَّفَاطة) : منبت النفط ومعدنه ، وموضع في لواء الرمادي يسكنه
فخذ ابو عساف من عشيرة البورديني ، والمنبع الذي يستخرج منه النفط •
و (النفاطة) : جماعة من الرماة بالنفط ، وضرب من سُرج الاضاءة ،
ومنبع النفط ، واداة من نحاس يرمى فيها بالنفط والنار ، ومعدن النفط ،
وجمع نفَاط ، ومصباح الغاز Lamp a petrole وقد اصطلح عليها المجمع
اللغوي المصري • ونفَاطة : لقب اطلق على محمد بن عبدالله بن اسحاق
المهدي الذي اشتهر بأمه الجبسية •

و (النفَاطون) : جمع النفاط ، وهم الذين يرمون النفط لاحراق
حصون الاعداء • عندما تجهز الخليفة المعتصم لحرب عمورية سنة ٢٢٣هـ
أخذ معه من آلة النار والنفط شيئاً عظيماً • واستخدم العرب الحراقات
(= نوع من السفن) في حمل المناجيق التي يرمى بها النفط المشتعل على
الاعداء • وقد أمر الخليفة الامين • فعملت له خمس حراقات في دجلة على
خلقة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس • وأنفق في عملها مالا كثيراً •
وكان رمي مراكب العدو بالقوارير المملوءة بالنفط من اسلحة المعارك
الحربية ، وكانت هذه القوارير تشبه زجاجات مولوتوف المستعملة في الجيوش
الحديثة • والنفط هو السلاح الذي يخشى خطره في البحر لسرعة اشتعاله
في القار الذي كانت تطلّى به السفن ، وكان المحاربون يجتهدون في دفعه

بوسائل عدة منها تعليق اللبود المبللة بالخل والماء حول سفنهم دفعا للحريق
ولعب النفاطون في بغداد ، ايام الفتنة بين الامين والمأمون ، دورا كبيرا ،
فلقد أحرقوا اكثر سجلات الدولة •

و (النفط) و (النفط) •• والاولى افصح : دهن ، او زيت الحجر
(= بترول) ، وهو ثالث الادهان بعد الآجر والبلسان ، يتحلب غليظاً نم
يستقطر او يصعد ، فأول دفعة منه الابيض ثم الاسود ، وقد يعش بدهن
الخزامى ويعرف بتصاعده ونقصه • وعرفه العرب دهناً معدنيا سريع الاحتراق
توقد به النار ، أو حلاية جبل في قعر بشر صالحة للوقود • وقيل انه عامة
القطران ، او انه الكجيل (= أي النفط أو القطران تطلق به الابل) •

وللنفط في تفسير الاحلام العربية مفاهيم طريفة ، فهو - في المنام -
امرأة زانية لآخر فيها ، أو مال حرام ، ومن رأى فيما يرى النائم انه أكل
النفط فسيصيبه مال ، ومن رأى انه صب عليه فسوف تطبق عليه نائبة •
وفي الطب الشعبي كان النفط ترياق كل مرض وهو بارد شربا وطلاء ،
ومن خواصه منع السموم ، واحسنه الابيض المشهور بانه محلل مذب
للسدد والمغص قتال للديدان وملطف للسعة الزنبور • وهو دواء لاوجاع
المفاصل والقوة والقالج وبياض العين ، واذا شرب منه نصف مثقال ارتفع
المغص وهربت الرياح • وتطلق به الابل للجرب والقردان • وهو عند
الاطباء العرب القدامى من الاقفار التي اجمعوا على وضعها لما ينبع من
الارض وابتعد عن الناس منبعه ، واستعمله أهل بغداد مييدا لحشرة الارضة
ومنزفا للاسنان قبل انتشار المعاجين الكيماوية الحديثة • واقتحم النفط
اللغة العامية البغدادية بصيغة (نفط) ، فقالوا : (يذب علنار نفط) كناية لمن
يعزدي أوار الفتنة • واعتاد حملوا بغداد ان يشقوا سيلهم بين المزدحمين في
الشوارع والاسواق بقولهم « هدومك النفط ! » • واطلقوا كلمة « أبو
النفط » على بائع النفط ، وتعارفوا على « ابو النفط » اسما لعائلة بغدادية
معروفة تسكن في جانب الكرخ •

و (نَفَطَ) الرجل : غضب او احترق غضبا ، او اهتز من الغضب ،
 أو عطس ، او تكلم بما لا يفهم • ونفطت العنز : نثرت بانفها او عطست ،
 ونفطت ببولها : رتمته على دفعات • ونفطت القدر : غلت وصارت ترمي
 بمثل السهام • ونفط الظبي : صَوّت • ونفطت الاست : فقعت (= أحمرت) •
 و (النَّفَطُ) : المجل (= أن يكون بين الجلد واللحم ماء من كثرة
 العمل) •

و (النَّفَط) : جمع النفطة وهي البثرة (= خراج يظهر في اليد من
 العمل) • او اعواد الثقاب في رؤوسها مادة كيميائية تشتعل بالحك • او
 الجدري ، وتقول هذيل : بالصبيان والغنم نفط كثير •• أي جدري •
 و (نَفِطَ) •• يقال نفطت اليد اذا قرحت ، والعامّة تقول فقلت وهذه
 البثور هي الفقائل ، ويقال في العراق : فقعت •

و (النَّفِط) : جمع النفطة وهي الجدرى او البثرة •
 و (النَّفِطَات) : جمع النفطة وهي أيضا الجدرى أو البثرة •
 و (النَّفِطَات) تطلق في العامية البغدادية على الكمية القليلة من النفط ،
 وفي الفصحى : جمع النفطة وهي الجدرى او البثرة •
 و (النَّفِطَان) : شبيه بالسعال ، او الانتفاخ من الغضب •
 و (نفطجي زاده) : عائلة معروفة في كركوك •
 و (النَّفِطْخَانَة) : موضع في خاتقين به آبار كانت تستنبطه شركة نفط
 خاتقين ، ويباع في أسواق العراق •
 و (النَّفِطَة) هي (النَّفِطَة) فلتراجع •
 و (النَّفِطَة) : من يغضب سريعا ويحمر وجهه •
 و (نفطة) : مدينة بافريقية من اعمال الزاب الكبير ، واهلها شرارة
 اباضية ووهبية ، وهي تبعد عن مدينة توزر مرحلة •
 و (النَّفِطَة) : الجدرى او بثرة مملوءة ماء تخرج في اليد من العمل ،
 أو هي القطران • قال السفاح بن بكير من قصيدة يرثي بها يحيى بن شداد :

داويته النفطة حتى شفا كأن متنيه اديما صناع

و (نفلويه) : رائحة النفط ، وعرف بهذا اللقب ابراهيم بن حمد بن عرفة الازدي (٢٤٤-٣٢٣هـ) : من احفاد المهلب بن ابي صفرة وكان اماما في النحو ، جالس الملوك والوزراء ، واتقن حفظ السيرة ووفيات العلماء . ولد بواسط ومات ببغداد . كما عرف باللقب نفسه علي بن عبدالرحمن المصري الذي روى عنه الرشيد بن الزبير الاسواني . ومن شعره :

سطا علي بجفنن قد سل منه حسام
وقال من ذا وشى بي حتى يطول الملام

و (النفطي) : لون من الالوان المعروفة . والنفطي أيضا هو ابو القاسم عبدالرحمن بن أحمد المعروف بابن الصائغ ، سمع بالمغرب الفقيه الحسين بن محمد الصافي و ابا عبدالله بن شيرين القاضي . . ورجل الى العراق وسمع ابا الحسن محمد بن مرزوق الزعفراني و ابا بكر محمد بن طرخان التركي ، و اقام بدمشق مدة ثم توجه الى مصر قاصدا لبلده ، وكان هذا الرجل حيا سنة ٥١٨هـ .

و (النفطية) : نوع من المصايح البدائية ، كان فقراء الناس يستعملونها في اضاءة دهاليز البيوت والمراحيض ، وهي على شكل علبة اسطوانية صغيرة يكون في أعلاها انبوب دقيق يوضع فيه الفتيل دون أن تكون عليه زجاجة ، ولذلك يكثر دخانها ويخفت ضوءها ، ويوضع في العلبة شيء من النفط ، وتكون لها عروة جانبية تمسك بها . وتسمى النفطية في جانب الرصافة (ادارة) .

و (النفط) : صوت يخرج من الانف ، او من كان في يده نפט ، او ثير الماعز .

و (النفيطه) : من كان في يدها نפט ، وكف نفيطه : مقروحة .
و (بنفط) : يعطس ، والعامه تقول : ينطف الرجل غضبا اذا اشتد به الغضب وهي مقلوبة من (ينفط) . وجاء في الامثال العربية : لا تنفط فيه

عناق • يضرب في الامر لا يعأ به : أي لا يؤخذ لهذا القتل بثأر • والعناق:
الانثى من أولاد المعز • وفي الامثال أيضا : انه لينفط غضبا : أي يتحرك •
و (ينفط) يطلقها البغداديون على من يتحير في وجهه الدم ، فيقولون :
وجهه ينفط دم •

وما تقدم هو ما وقعت عليه من مشتقات النفط على الصعيدين اللهجوي
والحضاري ، وقد غاب عني منها ما اعجزني الوقوف عليه ، وأني لارجو
ان يتاح لي او لسواي اكمال هذا البحث •

اليَمِينُ الغَمُوسُ فِي مَقَامَاتِ الحِرِّيِّ

ثبتت الايمان (أو الاقسام) في حياة الناس ، مع مشكلاتهم اليومية ، تعزيزا للثقة ، ودعمًا للحقوق المهددة بالضياع ، ودحضا للباطل الذي يريد ان ينتصر بلا دليل • والقسم عادة عربية نهضت - في الماضي والحاضر - على اقامة الحجّة ، وتعزيد اليينة بزيادة التأكيد •• لدحر الخصم او المخالف •

وتناغمت الايمان الصوادق مع الحلف بما يجله الحالف ، ويتحرز به من الحنث عند الحلف به وفقا لاحكام الدين • فاذا كان الحالف - في خبره - كاذبا سميت يمينه بالغموس •• لانها تغمس صاحبها في الانم • ويعتد في الاقسام الشرعية بصيغة الحلف ، وما يحلف به • وقد تكون الصيغة صريحة تستوجب الاتيان بلفظ (الحلف) •• كأحلف بالله ، وأقسم به ، أو الاتيان بحرف من حروف القسم (الواو أو الباء أو التاء) فاذا تقمصت اليمين احدى هذه الصيغ انعقدت ، سواء نوى الحالف يمينه أم لم ينو • اما صيغة الحلف بالكناية فانها تنعقد مع الانتواء والافلا •• كأيم الله ، وعمر الله ، واشهد بالله •

وقد ورد النهى عن القسم بغير الله •• ولكني وجدت ، بين العرب ، من أقسم بمخلوقات الله تأكيدا على القدرة والعظمة اللتين ابدعنا كل شيء •• ومن هنا كان من المحتوم أن يستلزم القسم بالمصنوعات القسم بالصانع سواء

خرج القسم الى التنويه بفضيلة (كالقسم بالبلد الامين) ، أو بمنفعة (كالقسم
بالتين والزيتون) ففي كلا الوجهين يحن القسم الى مضاف محذوف ،
مسبوق بواو القسم قدره النجاة بكلمة (ورب) .. وعندئذ يستكمل القسم
شروطه ، فيقال : ورب البلد •

وفي مقامات الحريري ألوان غريبة من الاقسام تغش القارىء وتسيب
ليه .. لان ظاهرها ، صريحة او كناية ، يدل على صلاحها للانقاد ، في
حين انها أقصر من أن تستوفى شرطا شرعيا واحدا من شروط اليمين
كالصيغة والنية .. وحتى لو انها جاءت مثقلة بتلك الشروط ، كلا أو
بعضا ، فإن ما اخترعه الحريري من ايمان لا يستطيع ان يلزم الحالف
بالاثر القانوني الذي يترتب على الحلف ، لان المقامات نسيج خيال حبس
الحريري في اطاره بعض النوازل الاجتماعية بعبارة فنية رشيقة غادرت
السياق الواقعي الى ظله الذي يتناكر والقناعة المنطقية • وليس على القارىء
حرج في تكذيب اية يمين من ايمان المقامات سواء نطق بها أبو زيد
السروجي أم الحارث بن همام أم سواهما من شخوص الخيال البلاغي ،
فالمسألة اوهى من أن لا تكون قصة لحمتها الوهم وسداها الاختراع ..
بعثت الايمان ، بين سطورها ، بلا وزن ولا تقدير ، وبدون ارادة ولا نية ..
وايمان هذه أبعادها لا بد أن تغمس صاحبها في الاوزار ، وان تكون كاذبة ،
غير ملزمة .. اذ لا جزاء ينصرها ، ولا ثواب ينجدها •

لقد حاول الحريري ان يوهم قراء مقاماته بانه غير هازل في ايمانه ..
ولكن النقد العادل يستطيع ان يفضح الزيف ، ويقطع اللسان الكاذب •
ففي المقامة البكرية يمين صاغها الحريري بكلمة (واقسم ..) ، وهي يمين
بتراء ، كسيحة ، لا تستوجب عقابا ولا ثوابا .. فالرجل ، حقا ، أقسم
.. ولكن بماذا ؟ .. لست أدري !! .. وفي المقامتين التبريزية والحلوانية
ورد القسم بعبارة (وأيم الله ..) وهو قسم يدور مع الكناية ، ولو استغرق
النية لانعقد متمتا بقوة الالزام .. ولكن أين موقع النية في أقصوة يحرك

دماها خيال جوال؟! وفي المقامة الطيبة ارتدى الحلف كلمة (تالله ..) كما ارتدى في المقامة الدمشقية كلمة (والله...)) ، وكلاهما قسم صريح ينعقد غنيا عن النية .. ولكن شخصا كالسروجي أو ابن همام ملفوفاً بالشبهات لا بد ان يكون أعجز من أن يقسم بالله ، فلا غرو اذا لم تنعقد يمينه بالرغم من كمال الصيغة واستيفاء اركانها الشرعية .

وفوق ذلك ، حلف الحريري - في طائفة كبيرة من مقاماته - بصفات الله عز وجل ، ومن حقه أن يحلف بها ، فقد كان أكثر حلف النبي (ص) بقوله : « والذي نفسى بيده .. » ولكن الحريري - في هذا المعرض - اخترع من الايمان ما لم يحلف بها احد من قبله ، ووضعها في أفواه اناس لا نملك الجزم بحقيقة واقعهم الروائي . وهذا يبيح ان اجرد هذه الايمان من جميع الالتزامات التي يمكن أن تترتب عليها .. ومنها أقسامه : بالذي فطر السماء وعلم آدم الاسماء (في المقامة الطيبة) ، وبالذي شرع المناسك للناسك وارشد السالك في الليل الحالك (في المقامة الرملية) ، وبالذي نزل النحو في الكلام منزلة الملح في الطعام وحجبه عن سائر الطعام (في المقامة القطيعية) ، وبالذي سخر البحر اللجج (في المقامة التبريزية) ، وبمن اتار الصبح (في المقامة الوبرية) ، وبالذي انزل المطر من الغمام وأخرج النمر من الاكام ، وبمن أطلعها زهرا وهدى بها السارين طرا ، وبالذي جعله مباركا اينما كان ولم يجعله ممن خان في خان (في المقامة الواسطية) ، وبالذي خلقها طباقا وطبقها اشراقا (في المقامة السورية) ، وبالذي يعلم الاسرار ويفسر الاصرار ، وبمن مرج البحرين ونور القمرين ورفع قدر الحجرين (في المقامة التيسية) ، وبالذي نور الشبية وطيب تربة طيبة (في المقامة الكرجية) ، وبالذي جعلك مفتاحا للحق وفتاحا بين الخلق (في المقامة الصعدية) ، وبالذي زين الجباه بالطرر والعيون بالحوار والحواجب بالبلج والمباسم بالفلج والجفون بالسقم والانوف بالشمم والحدود بالمهب والثغور بالشنب والبنان بالترف والخصور بالهيف

(في المقامة الرجبية) ، وبمن عنده علم الكتاب (في المقامة الكوفية) ، وبالذي
سخر الفلك الدوار والفلك السيار (في المقامة الفراتية) ، وبالذي زين
السماء بالشهب وانزل الماء من السحب ، وبالذي جعل الشعر ديوان العرب
وترجمان الادب (في المقامة الشعرية) ، وبالذي حرم صوغ المين كما حرم
صيد الحرمين (في المقامة الحجرية) ، وبمن أنبت الايك (في المقامة البكرية) ،
وبالذي حرم أكل الربا وأحل أكل اللبا ، وبالذي يحيى ويميت (في
المقامة الفرضية) .

والحريري بعد ذلك ، أقسم بمخلوقات الله ، وهو يعلم جيدا ان ذلك
منهي عنه . وأحسب ان الذي شجعه على سلوك هذا النهج هو ابن دريد
اللغوى البصري الذي أقسم ، في قصيدته المقصورة ، بالابل التي تحمل الناس
الى مكة ، وبالخيل التي تجري الى الحرب بفرسانها ، وبأبناء يعرب ذوي
الامجاد . . فلا عجب اذا رأينا الحريري يقسم بالسمر والقمر والزهر
والزهر في المقامة الكرجية ، وبالطور والكتاب المسطور في المقامة الواسطية ،
وبالسماء ذات الابراج والارض ذات الفجاج والماء الثجاج والسراج الوهاج
والبحر العجاج في المقامة الدمشقية .

وإذا أقسم الله عز وجل بحياة محمد (ص) حين قال : لعمرك انهم
لفي سكرتهم يعمهون ، فليس للحريري أن يقسم بالاشخاص او يوهم
القراء انه أقسم بهم . وانني وجدته في المقامة الرقطاء يقول : وحقك . وفي
المقامة التبريزية يقول : وحق نعمته (أي نعمة الخليفة) التي احلنتني هذا
المحل وملكتني العقد والحل . كما وجدته في المقامة الفرضية يقسم بالاب
والام . . . وهو ، في جميع هذه الاقسام ، اراد ان يخذعنا ويدخل في روعنا
انه صادق . ولكن ابن الاثير ، في حديث الاعرابي الذي جاء يسأل عن
شرائع الاسلام . . فقال له النبي (ص) : افلح وأبيه ان صدق ، عقب على
ذلك بقوله : وهذه كلمة جارية على اللسن العرب تستعملها كثيرا وتريد
بها التأكيد لا القسم (راجع النهاية في غريب الحديث والاثر) . . . ومن

هنا تكشف مزارع الحريري عن تزوير كان مبطناً مئات السنين • وهو
لن يحملنا - بعد اليوم - على تصديق أقسامه الأخرى التي عقد بعضها على
الحلف بقبر الأبوين (كما في المقامة القطيعية) ، وبمكة التي سار يبغي حط
الذنوب لديها (كما في المقامة المكية) ••• ومهما يكن من شيء ، فإنه رحمه
الله أضاف إلى النثر الفنى العربي شيئاً جديداً يثير الإعجاب ويدعو إلى الفجر •

المخلاف بين الجاحظ والكندي

يعقوب بن اسحاق الكندي فيلسوف عراقي مظلوم ، نهش حيا وميتا ، وصفح عنه رجال الفكر والفلسفة - في الشرق والغرب - بلا علة . فقد كاد له ، قديما ، أخوان ماكران من عائلة المنجم المعروفة ، واوغرا عليه صدر الخليفة المتوكل طمعا في خزانة كتبه . . فاستحوذا عليها بعد أن أهين صاحبها وصب عليه الحقد . وشنأه أبو معشر البلخي ، وأذاع عنه - بين العوام - ما يحل الدم ، ويتيح المصادرة . . . ولكن ربنا كان به رحيمًا .

وحين أصبح فيلسوفنا العظيم رهين القبر عضه أبو عثمان الجاحظ ، ورجمه بوصمة البخل ، وبأنه كان ذا هرين ذكرين تزوجا شذوذا . . والجاحظ - هنا - وان كان يصول بسيف من خشب ، ولكنه همس التهمة في الآذان ، ونجح في ذلك نجاحا بارعا . . فقد وجدنا - بعد وفاته - ابن النديم وابن نباتة وابن أبي أصيبعة يتبارون في بث لعنة الجاحظ والتبشير بها عدوانا وتعسفا . . وهم قانعون بأن ناقل الكفر ليس بكافر .

ومرت الايام ، وبزغ - في الافق الفلسفي - عمالقة الفكر العربي والاسلامي : الفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي ، فأقاموا الدنيا ، وشغلوا الناس ، وغزوا المدارس اللاهوتية في أوروبا ، وشقوا مناهجها بالاصلاح ، وحطموا جميع الايديولوجيات القديمة التي حامت حول طبيعة المعرفة ، والانسان ، والكون ، والفساد . . فكان طبيعيا أن يرقد الكندي ،

بسلام ، فوق الرفوف المهملة ، لا تمتد اليه يد ، ولا تثار حوله مسألة
•• ولم لم يقيض الله بعض المنصفين ، وغارفي الحكمة من منابعها العربية
الاولى •• لكان نسيا منسيا ، يعلوه الغبار في خزائن أيا صوفيا والبودليان
والمتحف البريطاني وبرلين •

لقد أهمله العرب والمسلمون ، وتغافلوا عنه ، ولم يقيموا أي وزن
للمصطلح الفلسفي الذي شيده الرجل وصاغ له الاطار العربي الملائم ••
بينما رازت أوروبا ثقله ، واستروحت آراءه ، فشرته وترجمته الى لغتها
اللاتينية الام اعتمادا على أصول قديمة ضاع أكثرها بعد أن جار عليها العطب
وأدرکها الفناء •

لقد احتفى به العلامة الايطالي جيرارد الكريموني Gerard de
Cremona حين نقل بعض رسائله الفلسفية الى اللاتينية ، وحفل به
الاستاذ البينو ناغي Albino Nagy اذ نشر بعض تلك الرسائل بأسلوب
منهجي تطنى عليه المسحة العلمية •• ثم تداركه - بعد ذلك - باندراسات
النافعة كل من پليسنر Plesner ولوث Loth وريتير Ritter
وفيدمان Weidemann ودي بور de Boer وسارتون Sarton
وغيرهم •• واقفى أثرهم - في الوطن العربي - مصطفى عبدالرزاق
والاهواني وأبو ريذة •

ولو لا خوفي من أن يميل بي هذا الاستطراد عن صديدي لكشفت
للقاري مدى فجيعتنا بالفلسفة العربية بعد أن توأصى القدامى والمحدثون
باهمال فيلسوفنا الخالد •• ولكنني أعود الى الجاحظ لارغمه على أن يكشف
الورقة الاخيرة التي تكتم دوافع الكراهية المصبوبة على ما للكندي من
منزلة مغبوظة في الوسط الفلسفي يوم كانت بغداد تغني للعالم •

ان الجاحظ رمى الكندي بالبخل ، وأذاع عنه الروايات الكاذبة في
كتابه « البخلاء » •• ويبدو انه اعتمد رجلا نكرة يدعى « معبد » ذريعة
للتصديق ، ولكن من هو هذا الـ « معبد » المزعوم •• ذلك ما لا يعلمه الا

الجاحظ وحده ، وهو لو كان حيا يرزق ، في يومنا هذا ، لاسحلقناه أنه قال ما قال حقا أم ان الجاحظ كان وراء لسانه ؟ •• فقد زعم الجاحظ رواية عن معبد أن الكندي كان يؤجر داره ، وكان له على المستأجرين شروط منها أن يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار العلوقة وأن لا يلقوا عظما ولا يخرجوا كساحة ، وان يكون له نوى التمر وقشور الرمان والغرفة من كل قدر تطبخ للجبل في بيته • (البخلاء ص ٩٩) •

أهذا حق يا معبد ؟ •• متى كان بيت الكندي مستشفى للولادة حتى يحتج هذا الفيلسوف الفاضل بوجود الجبالى فيه تسويغاً للبخل ؟ •

كأنى بمعبد يصرخ في وجهي قائلا : ذلك أفك ما انزل به سلطانا الا الجاحظ ، وهو حين تواری خلف لساني ، تواری - أيضا - حلف لسان رجل أغمض مني •• دعاه باسم عمرو بن نهوى ، فهو قد روى عن هذا الـ « عمرو » ان الكندي كان يقول للساكن ، وربما قال للجار : أن في الدار امرأة بها حمل ، والوحمى ربما اسقطت من ریح القدر الطيبة ، فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة •• فان النفس يردها السير ، فان لم تفعل ذلك بعد اعلامي اليك ، فكفارتك اذا اسقطت غرة : عبد أو أمة •• ألزمت ذلك نفسك أم آبيت • (البخلاء : ص ٩٨) •

فاذا كان لعمرو هذا وجود حقا فلم روى عنه في (البخلاء) فقط ، ولم يرو عنه في (البيان والتبيين) و (الحيوان) وكتبه ورسائله الاخرى ؟ •• أفليس لهذا الـ « عمرو » غير حديث الكندي ؟ •• أضاحت رحاب الادب العربي حتى ينفرد هذا الرجل - العنقاء بالفيلسوف الكبير يشبعه تجريحا وطعنا ؟ •• ألا أن جبل الكذب لقصير ، وقد كتب أبو عثمان لنفسه الفضيحة حين زعم أن عمرو بن نهوى حدثه قائلا : « تغديت يوما عند الكندي ، فدخل عليه رجل كان له جارا وكان لي صديقا ، فلم يعرض عليه الطعام •• ونحن نأكل •• وكان أبخل من خلق الله • قال : فاستحييت منه ، فقلت : سبحان الله ! لو دنوت ، فأصبت معنا مما نأكل • قال : قد والله فعلت •

فقال الكندي : ما بعد الله شيء ، قال عمرو : فكفته والله ، *

وقبل أن أتم هذه القصة ينبغي أن لا أذود القاريء عن المأرق البائس الذي وقع فيه الجاحظ حين روى هذه الاضحوكة في موضعين من (البخلاء) فأضاف ما شاء إليها ، وأسقط ما شاء منها وهو لا يدري ** بينما الراوي واحد ، معلوم ، والطريق الى الرواية واحد ** واحد ، له قوة التواتر ، لانه يتكفي على السماع المباشر ، لا على « حدثنا فلان ** قال حدثني عمي ** الخ » ، والجاحظ بالرغم من هذا أضاف وأسقط بلا وعي ، وللقاريء ثمالة الحكاية كما جاءت في (ص ٢٤ من البخلاء) : « كفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا وتركه ، ولو مد يده لكان كافرا . أو لكان قد جعل مع الله جل ذكره شيئا * ، وكما جاءت في (ص ٩٨) : « يا أبا عثمان كتفاء ولو أكل لشهد عليه بالكفر ، ولكان عنده قد جعل مع الله شيئا * »

والجاحظ ، فوق ذلك ، وضع على لسان اسماعيل بن غزوان أحد البخلاء المشهورين حكايات مزورة ** انقطعت الى تجريح الكندي ، وترسيخ بخله بما لا يحتمل الريب ** ولكن اسلوب تلك الحكايات فضح أبا عثمان ، واوماً من قريب الى الروح الجاحظي الذي ألهم ابن غزوان تخرصاته المتهاقنة حول الكندي *** فما قاله : لله در الكندي ** ما كان أحكمه ، واحضر حجته ، وانصح جيبه ، وأدوم طريقته !! (انظر البخلاء : ص ١٠٨) ، وقال في موضع آخر : سمعت الكندي يقول : عجبت لمن قلت دراهمه كيف ينام ، ولكن لا يستوي من لم ينم سرورا ومن لم ينم غمأ (البخلاء : ص ١١٠) ، وقال أيضا : وسمعته يقول نعياله وأصحابه : اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله ، وعن باكورات الفاكهة ، فان للنفس عند كل طارف نزوة ، وعند كل هاجم بدوة (البخلاء ص ١١٠) *

أفلا ترى ، معي ، أيها القاريء ** أن الجاحظ - فيما وصع على لسان ابن غزوان - انما استخدم معارف الكندي السيكولوجية والفسيولوجية

والمنطقية في تعليل البواعث وتبرير الدوافع التي تحدد السلوك البشري ازاء موقف ما ؟

ان الكندي - كما هو في جميع كتبه ورسائله - لا يملك زمام البلاغة، ولا يجيد أساليب البيان والبديع ، وهو على رداءة ألفاظه قليل الحلاوة . وهذه الحقيقة تنحر مضلة الجاحظ ، وترميه بأحجاره !.. هذا اذا سلمنا - مع الذين خدعهم الجاحظ - ببخل الكندي ، ولكن الواقع غير ذلك ، فقد أخبرنا ظهير الدين البيهقي بأن مما يؤثر عن الكندي انه قال : « لا تغتر بمال وان كثر » (انظر تمة صوان الحكمة : ص ٢٥-٢٦) ، ولذلك لا يعقل أن تصدر مثل هذه الوصية عن بخيل من بخلاء الجاحظ .

ولربما هناك من يحتج فيقول : ومن أنبأكم ان الجاحظ في بخلائه قد قصد يعقوب بن اسحاق الكندي بالذات ؟.. انه لم يرم الا الى من دعاه بالكندي دون أن يذكر اسمه أو اسم ابيه ، فكيف سوغتم أن نقذفوا في الروع ان هذا الكندي انما هو يعقوب دون غيره من وجوه كنده الذين لا يحصرهم عد ؟

الاحتجاج ، بالرغم من قوته ، مردود .. فالجاحظ في بخلائه اذا رمى بالبخل كنديا مغمورا ، غامضا .. فانه في كتابه « الحيوان » قد مزق القناع عن وجه أبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي بعد أن وضع في منزله هرين ضخمين ذكرين يكوم أحدهما الآخر ، ففي الجزء الثالث من الحيوان (ص ١٨٦) قال : « وكان عند يعقوب بن صباح الأشعشي هران .. الخ » .

أجل ..!.. الأشعشي !.. هكذا لقبه الجاحظ نكايته به واستهزاء بالاشعث بن قيس الكندي ، ولكنه خاف - أخيرا - أن يشير هذا اللقب الى غير ما وضعه له ، فتصرف الاذهان عن صاحبه الفيلسوف ، فاستدرك في الجزء الخامس من كتابه المذكور (ص ٣١٦-٣١٧) مؤكدا على ان في منزل أبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي هرين ذكرين .. الخ » .

فاذا علمنا ان محتوى النصين اللذين سجلهما الجاحظ في المجلدين الثالث والخامس من (الحيوان) واحد ، مع اختلاف يسير في البناء اللفظي . . فمن السهولة بمكان ان يرسخ في النفس لؤم الجاحظ ونواياه السود . ومن هنا يحق لنا أن نتساءل عن الدوافع التي ساقته الى مطاردة الكندي ، والى تطويقه بالثائعات الاليمة : أهى مجرد رغبة طارئة في النهش والعض؟ . . وهل يمكن أن ينفس الجاحظ على الكندي الصرح الفلسفي الشامخ الذي اختالت به بغداد ردحا طويلا من الزمن ؟

ومن المؤسف ان لا يكون في الامر ما يشجع على سيادة مثل هذه الاحتمالات فيما نحن فيه بصدد ، وانما وراء الائمة ما وراءها !

فالجاحظ بصري ، والكندي كوفي . . وقد شهد تاريخنا الادبي جانبا كبيرا من الصراع الفكري بين البصرة والكوفة طيلة قرون عديدة . . ذلك الصراع الذى تبلور شيئا ومذاهب على الصعيدين اللغوي والعقدي ، فلا غرو اذا ناصب الجاحظ صاحبه العدااء ارضاء للعصية الذميمة التي جردت الناس من البر والايثار وزينت لهم التعاون على الائم والعدوان .

ومن زاوية اخرى . . ان الجاحظ من موالي كنانة ، ويعقوب فيلسوفنا كندي أصيل ، وقد توقعنا أن نجد في مؤلفات الجاحظ بعض المفارقات بين كندة وكنانة ، ولكن ذكاء الجاحظ قد أسقطنا في تخبط كبير . . فهو قد سكت تماما ، ولم يسجل أية مباحكة او خصومة أدبية بين القبيلتين المذكورتين تعين على تفسير الدوافع التي من أجلها واقع الكندي ولطخ سمعته بالاوحال . ان مغاليق الجاحظ لا تفتح الا بـ « كلمة سر » مخصوصة ، فكيف السبيل اليها ، وما الحياة ؟

بعد بحث مضمّن ، وغنت وارهاق . . وجدنا لدى المصعب الزبيري في كتابه « نسب قريش » : « ان لكنانة . . اولاد ، أمهم برة بنت مر ، ومن اخوتهم لامهم أسد » . (ص ١٠) . ووجدنا ياقوت الحموي يؤكد في (معجم الادباء) أنه كان بين حكيم بن عياش الكندي وبين الكميث بن ريد

الاسدي مفاخرة (انظر مجلد ١٠ ص ٢٤٧) • فاذا أضفنا هذا العداء بين
أسد وكندة الى موالاته الجاحظ لكنانة (الاب الروحي لاسد) •• وفعنا
على كلمة السر التي تنجد ايماننا بان ثورة الجاحظ على الفيلسوف الكندي
انما هي ثورة أوسع مدى وأشمل واعمق •• لفتح بها كندة جميعها •
لقد آزر الجاحظ أسدا في أغلب مؤلفاته بحكم موالاته الصادقة لكنانة
زوج السيدة برة التي أنجبت أسدا قبل أن يستبعلها ، وخذل كندة تمشيا
مع الخصومة التقليدية التي استحكمت بين الطرفين منذ العصر الجاهلي •
انه أنثى كثيرا على أسد ، وها هو ذا في (الحيوان : مجلد ٢ ، ص ١٦٠)
يقول : وبنو أسد •• أسد الغياض ، وأشبه شيء بالاسد • والدليل على أنهم
أسد ، وفي طباع الاسد •• أنك لو أحصيت جميع القتلى من سادات العرب
ومن فرسانهم •• لوجدت شطرها أو قريبا من شطرها لبني أسد • •
وجاء أيضا في (الحيوان : مجلد ٥ ، ص ٤٨٦) « وبقباب الادم تتفاخر
العرب • وقال عبيد بن الابرص :

فاذهب اليك فاني من بني أسد

أهل القباب واهل الجرد والنادى

وجاء في (كتاب العثمانية : ص ١٢٦) : قال « قال حسان بن ثابت :

لو كنت من هاشم أو من بني أسد

أو عبد شمس أو اصحاب اللوا الصيد

أو في الذوابة من تيم وقعت بهم

أو من بني جمح الخضسر الجلاعيد

أو من سرارة اقوام اولي حسب

لم تصبح اليوم نكسا مائل العود

فالجاحظ قد تسقط - جهده - مآثر أسد ، وأمجادها •• في دواوين

العرب وأخبار الرواة •• ليصفع بها كندة التي كان جزاؤها منه أن يذيع

عنها ما لا تحمد عليه • ففي معرض حديثه عن بعض العادات الجاهلية قال في (الحيوان : مجلد ١ ، ص ١٨) : « وكانوا يقولون في موضع الكفارة والامنية ، كقول الرجل : اذا بلغت ابلي كذا كذا ، وكذلك غنمي •• ذبحت عند الاوثان كذا وكذا عتيرة • والعتائر من الطباء • ولذلك يقول الحارث بن حلزة الشكري :

عنتا باطلا وظلما كما تعتر عن حجرة الربيض الطباء

بعد أن قال :

• أم علينا جناح كندة أن يغم غازيهم ومنا الجزاء •

يشير الى أن كندة كانت غزت تغلب وقتلت فيهم وسبت وغنمت • ولقد بلغ مقت الجاحظ لكندة بحيث تجاهل اشهر قول فاه به عربي في مواجهة الموت • فقد جاء في البيان والتبيين (مجلد ١ ، ص ٢٨٦) : « وقيل لآخر ، وصلى ركعتين ، فأطال فيهما وقد كان أمر بقتله : أجزعت من الموت ؟ فقال : ان اجزع فقد أرى كفنا منشورا وسيفا مشهورا وقبرا محفورا • ويقال ان هذا الكلام تكلم به حجر بن عدي الكندي عند قتله •• وهذه الرواية لا تحتاج الى « وقيل لآخر » ، ولا الى « ويقال ان هذا الكلام •• » ما دام بطلها حجر الكندي قد ولج الادب العربي بكلامه ذلك مدعوما باجماع المؤرخين والادباء القدامى •

وجاء في الحيوان (مجلد ٢ ص ٩٠) : « وقال عبدالمك بن مروان لزفر بن الحارث وقد دخل عليه في رجالات قيس : ألتست امرأ من كندة ؟ قال : وما خير من لا يتقى حسدا ويدعى رغبة » •

وقال في معرض احتيال اليربوع بأبوابه التي يخرج من بعضها اذا ارتاب بالبعض الآخر : « وكذا كانت دار أبي قطنه الخناق بالكوفة في كندة ويزعمون انه كان مولى لهم • وأنشد أبو عبيدة قال أنشدني سفيان بن عيينة :

اذا ما سرك العيش فلا تمرر على كنده

وقد قتل أبو قطنه وصلب : (الحيوان : مجلد ٢ ، ص ٢٧٦ ومجلد ٦
ص ٣٨٩) •

وجاء في الحيوان (مجلد ٢ ، ص ٢٦٦) : « قال حماد الراوية وذكر
المرمين بالخنق من القبائل وكيف يصنع الخناق وسمى بعضهم ، فقال :
إذا ما سرت في عجل فسر في صحابة

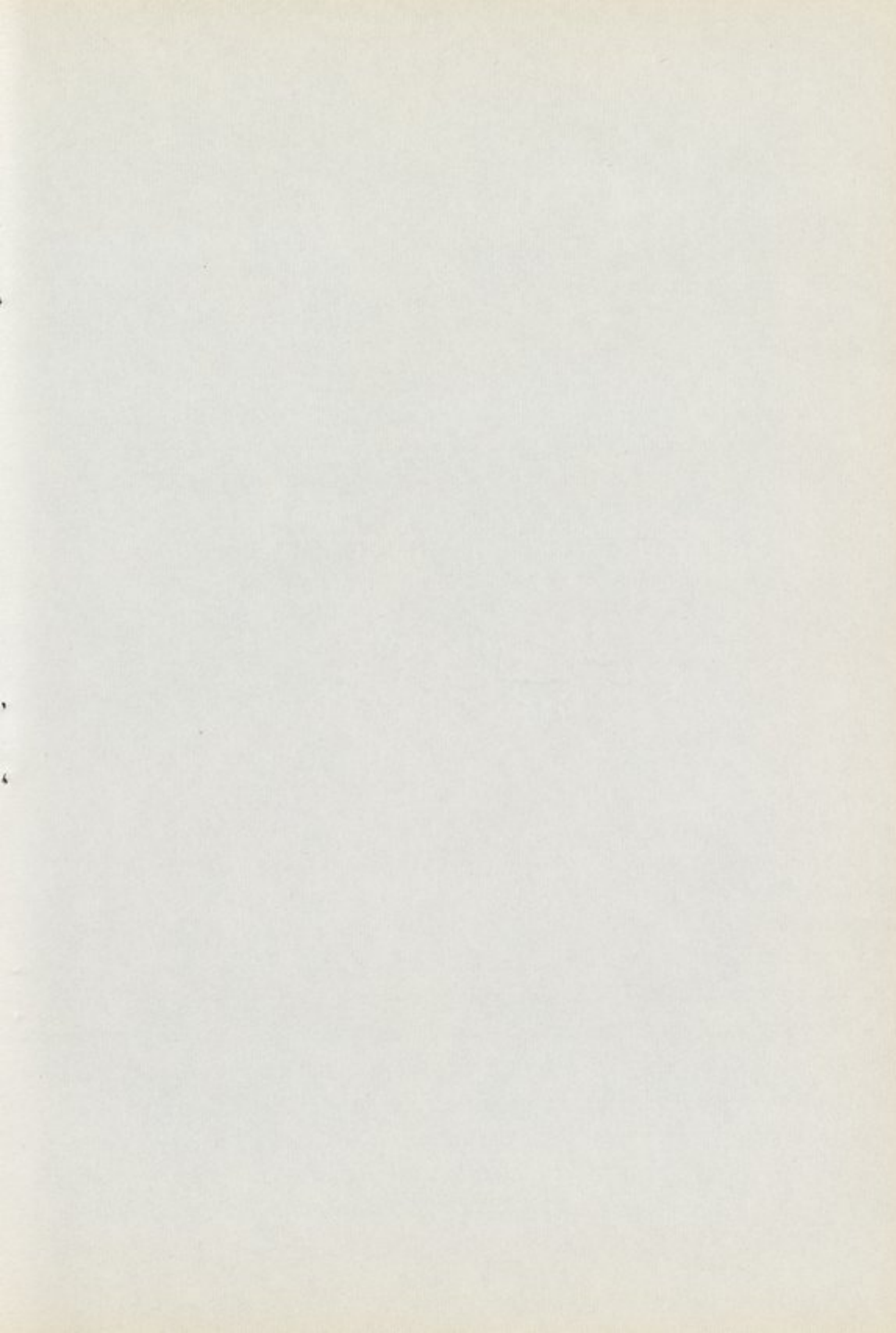
وكندة فاحذرهما حذارك للخسف

وجاء في الحيوان « مجلد ٣ ، ص ٩ » : « وحدثني أبو الجهجاه قال :
أدعى شيخ عندنا أنه من كندة قبل أن ينظر في شيء من نسب كندة ، فقلت
له يوما وهو عندي : ممن أنت يا أبا فلان ؟ قال : من كندة • قلت : من
أيهم أنت ؟ قال : ليس هذا موضع هذا الكلام عافك الله ! » •
فالجاحظ في جميع ما قدم من روايات انما ينضح بالحسد والغضب
والغيرة ، وذلك ان دل فعلى ان الكندي الذي دخل في زمرة بخلاء الجاحظ
•• هو صاحبنا يعقوب بن اسحاق ، وان الجاحظ حين أساء اليه •• أساء
أيضا ، وقبل كل شيء ، الى كندة العريقة في المائر والامجاد •

مصادر البحث :

- ١ - الجاحظ : الحيوان (تحقيق عبدالسلام هارون مطبعة الحلبي ١٣٩٨
٧ مجلدات)
- ٢ - الجاحظ : كتاب العثمانية (تحقيق عبدالسلام هارون - دار الكتاب
العربي - القاهرة ١٩٥٥)
- ٣ - الجاحظ : البيان والتبيين (تحقيق عبدالسلام هارون - مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٨) •
- ٤ - الجاحظ : البخلاء (دار صادر - بيروت ١٩٥٧)
- ٥ - ياقوت الحموي : معجم الادباء (دار المأمون - القاهرة ١٣٥٥) (المجلد
العاشر
- ٦ - المصعب الزبيري : كتاب نسب قريش (تحقيق بروفنسال - دار
المعارف - القاهرة ١٩٥٣) •
- ٧ - ظهير الدين البيهقي : تنمة صوان الحكمة (لاهور ١٣٥١)

مِنْ الْأَدَبِ السِّيَاسِيِّ



جَوْهَرُ الدَّوْلَةِ بَيْنَ الفَوْضَى والنِّظَامِ

ما هي الدولة ، وما كنهها ، ومفهومها ؟ .. هذا ما يجب ان يستوعبه « جوهر » الدولة ، ولكن الفلاسفة والكتاب والفقهاء لم يعقدوا شيئا كما عقدوا جوهر الدولة ، ولم ينثروا من الاقيسة الفاسدة على مسألة ما كانذي نثروه على الدولة ، ولم يسبغوا من المغالطات المحبوكة والتصورات الطائفة على أي كائن ما اسبغوه على الدولة •

وجوهر الدولة اعلق بالعلوم الاجتماعية والتاريخية والفلسفية والسياسية والنفسية منه بعلم القانون الدستوري ، فهذا يفترض وجود الدولة ليشيد الدراسة عليها كمقدمة للنظم السياسية ، ولا يميل الى الاحاطة بجوهرها • ولكنني عندما وجدته يستغرق الفكرة القانونية السائدة في مضماره .. رأيتني مكرها على استجلائه ، ليكون في الوسع تشخيص الوعي الانساني الضارب في اعناق الفكرة القانونية ، فالفلسفة وعلم النفس والانثروبولوجي ، وغير ذلك من العلوم الانسانية ليست - في مذهبي - سوى ادوات الزينة لعروس يقال لها « الفكرة القانونية » !

وانني حين وجدت فقهاء القانون الدستوري واساتذته يتناولون - في آثارهم - جوهر الدولة أشلاء موزعة على مختلف المذاهب الواقعية والمثالية وعلى شتى النظريات الباحثة في أصل الدولة ^(١) .. وجدت المبرر المقبول

(١) وهي : نظرية القوة أو التغلب ، والتفويض الالهي والعقد الاجتماعي والتطور التاريخي .. وقد بحث في هذه النظريات الدكتور =

لان ابحت جوهر الدولة مستقلا ، ومن بابه العريض • فهذا أجدى من التطلع - خلال النواخذ - على جميع النظريات المتنازعة •

يقول امرسون : « ان كل الناس يتهجون حين يتوجون » ، وقد احتفل الحكام بولادة الدولة ، وتبرع الفلاسفة والفقهاء لتبرير وجودها بشتي المذاهب والنظريات ، وليس هناك سوى القليل من الانظمة التي حظيت من الثناء والاطراء بأكثر مما حظيت به الدولة باعتبارها نظاما سياسيا •• حتى ان هيغل صرخ في معاصريه : « ان الدولة هي افكرة المقدسة التي تعين فوق الارض » (٢) •

وهيغل هذا قد شيد للدولة كيانا فلسفيا مثاليا على أساس ان الواقع الملموس مظهر من مظاهر الفكر ، وان الوعي هو الذي يحدد الحياة •• فلا غرو اذا كانت الدولة عنده تجسيدا خارجيا للفكرة المطلقة ، وسلطة غير محدودة مفروضة من الخارج على المجتمع ، وواقعا للعقل ، وتحقيقا لمملكة الله على الارض •• فالدولة تشيء نظاما متعقلا في المجتمع وفي الحياة السياسية ، وهي تحافظ على النظام لانها اسمى من الناس الخاضعين لها •• والمجتمع لا تتبع اصوله الا منها (٣) •

وعلى النقيض من هيغل كان ماركس وزميله انجلز ووارثهما لينين ، فهؤلاء يذهبون الى ان الواقع هو الذي يلد الفكر ، وان الدولة ليست واقع

= مصطفى كامل (شرح القانون الدستوري بغداد ١٩٤٧-١٩٤٨) والدكتور عثمان خليل عثمان (القانون الدستوري بغداد ١٩٣٩ - ١٩٤٠ والقاهرة ١٩٥٦) وغيرهما •••

(٢) هارولد لاسكي : الدولة نظريا وعمليا (الترجمة العربية ، القاهرة ، بلا تاريخ) ١ : ١١ - ١٢

(٣) هنري لوفافر : كارل ماركس (ترجمة محمد عيتاني ، بيروت ١٩٥٩) ص ٩٥ و ٩٧ فريدريك انجلز : أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (ترجمة الدكتور فؤاد أيوب ، دمشق ١٩٥٨) ص ٢٦١ هنري رافون : هذه هي الفوضوية (ترجمة محمد عيتاني بيروت ١٩٥٣) ص ٢١ لينين : الدولة والثورة (ترجمة فؤاد أيوب ، دمشق ١٩٥٥) ص ٩٩ مجلة الثقافة الجديدة (البيروقراطية والدولة - بقلم باحث) العدد الاول ١٩٥٣ • ١٩ •

العقل • وانما هي أحد منتجات المجتمع في مرحلة معينة من التطور ••
بل انها الاعتراف بأن هذا المجتمع قد أصبح يتخبط في تناقض عصي على
الحل مع نفسه وانه انشطر الى تضادات لا يمكن التوفيق بينها^(٤) •

بينما يرى وليم غودوين الفوضوي الانكليزي أن المجتمع نشأ من
حاجات الانسان ، وان الدولة نشأت من شروءه وسوء أعماله ، فالمجتمع
خير والدولة شر لا بد منه في بعض الاحيان • والى مثل هذا اندفع ميشال
باكونين الفوضوي الروسي •• فالدولة - عنده - تؤلف حلقة ضرورية في
السلسلة التي تقيد حيوانية الانسان بانسانيته ، وهي ليست شيئا أزليا نهائيا
مطلقا ، وانما هي مؤسسة تاريخية انتقالية ، وشكل عابر من أشكال المجتمع ،
وهي أبدا مثقلة بجميع الشرور المترتبة على الانحطاط ، فهي تجرد الانسان
من الاخلاق وتفسد طبائع الحاكمين^(٥) •

وللدولة أنصار من الفقهاء والفلاسفة ما انفكوا يشبثون بمغزاها
الاخلاقي • وقد يما دلل ارسطو على أن للدولة قيمة خلقية كامنة في ثناياها
وانها ليست مجرد فرض ارادة غاشمة ، فالحياة فيها تظهر ما هو كامن في
الطبيعة البشرية ، وجاء بيرك يحدد ويوضح ما قال ارسطو جاعلا معنى
الدولة ينبع من واقع كونها شركة في جميع العلوم والفنون^(٦) ، وفي كل
نواحي الفضيلة^(٧) •

وقال هنري ارفون : ان الدولة هي نطاق الغيرية الجميدة ، وفيها
تنسجم غايات الفرد متناغمة مع غايات الجماعة^(٨) • وقد برر ول ديورانت
وجود الدولة بالشعبية التي يجب أن تتمتع بها ، وعنده أن رئيس الدولة هو
رئيس خدم الشعب •

(٤) أصل العائلة : ٢٦١ •

(٥) هذه هي الفوضوية : ٣٥ و ٦٧ - ٦٨ •

(٦) جورج سباين : تطور الفكر السياسي (ترجمة حسن جلال

العروسي القاهرة ١٩٥٤) ١ : ١٤٩ و ١٥٢ و ١٥٣ •

(٧) الدولة نظريا وعمليا ١ : ١٤

(٨) هذه هي الفوضوية : ١٢

بقي علينا الان ان نستقصر من الاراء الحائمة حول أصل الدولة وحول مشروعية سلطتها ما يصلح لتشكيل جوهرها الحقيقي ، النظيف من أي وهم ميتافيزيكي .

ان الدولة - في مذهب خصومها - لم تكن وليدة العقد الاجتماعي ، ولا ابنة التطور العالمي أو حصيصة التفويض الالهي كما يحلو لبعض الفقهاء أن يتصور . . وانما هي الواجهة الامامية الداكنة للعنف والاستئثار اللذين حملتا رسالة الدفاع عن مصالح الجميع تفريرا وبهتاناً ، فالدولة أمها الملكية وأبؤها القتال^(٩) . . وما العقد الاجتماعي ، والتفويض الالهي ، والتطور العائلي الا نسيج خيال منافق حاول تبرير السلطة الالزامية التي تستخدم ذوي النفوذ الاقتصادي ، فهناك شبه اجماع انعقد بين الجماعات المتطرفة والمحافظين والفاشين على أن نظرية العنف والتغلب هي المنظار الصالح الذي يشخص جوهر الدولة ، وقد دافع عنها كتاب كثيرون لا يحصرهم عد ، واقترنت منها اراء ديكي وبارتلمي في تفسيرهما لسيادة الدولة . فالحرب هي التي تخلق الدول . . وهذه بدورها تخلق الحرب ، فهي ليست صلة انسان بانسان ، وانما صلة دولة بدولة^(١٠) ، وهي - فوق ذلك - الاداة المختارة للانتخاب الطبيعي بين الدول ، وقد ساهمت في تشكيل دول فومية ثلاث في أوربا سنة ١٥٠٠ م . ويمكننا ان نتبين ، بوضوح سافر ، جوهر الدولة خلال رحلة مائة بضجة مفكرين ذوي وزن قالوا في الدولة ما طرحها على الارض منزوفة . . فهذا نيتشه يقول : « ان جماعة من الوحوش الكواسير ، شقراء البشرة . . جماعة من الغزاة السادة بكل ما لها من انظمة حربية وقوة منظمة تنقض بمخالبها المخيفة على طائفة كبيرة من الناس ربما فاقها من حيث العدد الى حد كبير ، ولكنها لم تتخذ بعد نظاما يحدد اوضاعها

(٩) ول ديورانت : قصة الحضارة (ترجمة الدكتور زكي نجيب

محمود القاهرة ١٩٤٩) الجزء الاول المجلد الاول ، ص ٤٣ .

(١٠) قصة الحضارة ١/١ : ٤١ جان جاك روسو : العقد الاجتماعي

(ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٤) ص ٣٨ .

•• ذلك هو أصل الدولة ••

وهذا ليستر وارد يقول : « تبدأ الدولة باعتبارها مختلفة عن النظام القبلي بان يغزو جنس من الناس جنسا اخر » •
والى نفس المعنى ذهب اوبن هايمر بقوله : « انك لترى ايما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعدي على حدود قبيلة اخرى اقل منها استعدادا للقتال ثم تستقر في أرضها مكونة جماعة الاشراف ومؤسسة لها الدولة » •
وذهب ريتسنهوفر الى « ان العنف هو الاداة التي خلقت الدولة » ، وأيده غامبلافكس قائلا : « ان الدولة نتيجة الغزو ، وهي قيام الظافرين طبقة حاكمة على المهزومين » (١١) • وفي هذا المعرض نفسه قال سامتر : « ان الدولة نتيجة القوة ، وهي تظل قائمة بسند من القوة » ، وقال ول ديورانت : « الدولة سلام في الداخل استعدادا للحرب في الخارج » (١٢) ، وقال اشينجلر : « ان الدولة هي الهجوم بمعناه الحقيقي » (١٣) •• وقد صرح هذا الكاتب النازي في عدة مناسبات قائلا : « ان الحرب ينبوع لكل عظيم ونبيل ، وان الدم هو صانع التاريخ الحقيقي » (١٤) •

فالدولة - في عقيدة مفكري الطليعة النازية - هي تجسيد للتوفيق بين العقل والقوة ، ولذلك رأوا أن للدولة الحق في أن تثبت وجودها ، وان تظهر قوتها الى حيز الوجود بالشكل الذي تراه •• وما الحرب الا ضرورة من ضرورات وجود الدولة •• ومن هنا بادر هتلر الى انشاء دولة عرقية سندها الفوضى اللادستورية • ولم اجد مثيلا لهتلر بين مؤسسي الدول في تقييمه لجوهر الدولة عاريا كما خلقته الرغبة في التعسف والاستئثار •
اما لينين فقد قال : « الدولة تؤول بالضغط الى جهاز الحكم الذي ينفصل عن المجتمع البشري •• وعندما يظهر فريق من الناس لا عمل له غير الحكم ،

(١١) قصة الحضارة ١/١ : ٤٣ •

(١٢) نفس المصدر •

(١٣) ادمون فرمي : مفكرو الثورة الالمانية الكبرى (ترجمة خيرت

فخري ، دمشق ١٩٥٢) ص ٧٣ •

(١٤) المصدر السابق : ٧٢ و ٧٤ •

ويحتاج لاجل الحكم .. لاجل اخضاع الاخرين بالعنف الى جهاز خاص
للقسر والسجون .. الخ .. عندئذ تظهر الدولة « (١٥) » و « ما البرلمان
والانتخابات الادمى وبيادق » (١٦) .

ولينين ، في هذه الراء ، انما يستقي من ماركس الذي كانت الدولة
عنده جهازا طبقيًا للسيطرة أو خلق نظام يعطي الاضطهاد صفة
المشروعية (١٧) ، ومن انجلز الذي كان ينظر الى الدولة من نفس الزاوية ،
فهي عنده أيضا مؤسسة مؤقتة تستخدم في اضطهاد الخصوم بالقوة (١٨) .
ولم ينفرد لينين واستاذاه بما قالوا في صدد الدولة ، فقد سبقهم الى
ذلك العلامة ابن خلدون بقوله : « ان الملك انما يحصل بالتغلب » (١٩) و « ان
الدولة آلة لجدع الانوف » (٢٠) .

اما الفوضيون ، فقد رفع لواءهم المفكر الالماني ماكس ستيرنر الذي
أرسل صيخته المشهورة : « ليس للدولة الا غاية واحدة هي تحديد الفرد
واخضاعه واستعباده » (٢١) .

فجوهر الدولة ، في مذاهب من مر ذكرهم ، لحمته الحرب والعنف ،
وسداه الملكية .. واعتقد ان ما سجلته عن اللحمة أكثر من اللازم ، وعلي
الآن ان اعالج السدى :

(١٥) لينين : الدولة (موسكو ، بلا تاريخ) ص ٨٠٠ وقد ردد لينين
ما قال في عدة مواضع من هذا الكتاب : ان كنه الدولة جهاز يتكون من
فصائل الجنود المسلحين والسجون وغير ذلك من وسائل الاخضاع ..
والدولة جهاز خاص لاستعمال العنف بصورة منظمة ولاخضاع الناس
بالعنف (ص ٧) والدولة آلة لصيانة سيادة طبقة على اخرى (ص ١١)
والدولة آلة لظلم طبقة من قبل طبقة اخرى (ص ١٣) .

(١٦) الدولة : ٢١ .

(١٧) الدولة والثورة : ١١

(١٨) من رسالته الى بيبل المؤرخة في ١٨-٢٨ آذار ١٨٧٥ (الدولة

والثورة : ٧٧) .

(١٩) مقدمة ابن خلدون (بيروت بلا تاريخ) : ١٥٧

(٢٠) المصدر السابق : ١٧٥ .

(٢١) هذه هي الفوضوية : ١١٢ .

كتب البروفيسور جيز يقول : حين تسيطر اية طبقة اجتماعية على السلطة السياسية فانها تسارع بامتغالها لخدمة مصالحها الخاصة ، ولا شك انها تفعل ذلك بنية حسنة ، ومن أجل هذا تعتقد ان مصالح طبقتها هي في الواقع مصالح المجتمع العامة (٢٢) .

وقال الشيوعيون : ما كتبه جيز انما ينبع من التعاليم التي تحوط الدولة بالرعاية والحنان ، وتبرز الاستثمار والاميازات الاجتماعية تحت ستار النية الحسنة . فالدولة قد اعلنت - منذ خلق الله العصا - « نحن نصون الملكية الخاصة كاملة » . . . وليس بوسع انسان أن يحترم جميع الالهام القديمة القائلة : ان الدولة هي المساواة العامة . فما ذلك غير خداع ، فالمساواة تستحيل ما بقي الاستثمار (٢٣) .

فالملكية الخاصة - كما يرى هنرى ارفون - هي القاعدة الطبيعية للدولة (٢٤) . . . وقديما قال روسو : « القوانين نافعة دائما لمن يملك ، مضره لمن لا يملك » (٢٥) .

وأيا كان الامر ، فالدولة شيء ما خارق ، وانها قوة ما عاشت بها البشرية ، وانها تعطي الناس ما يتوقون اليه . . . واذا استبعدنا الفوضوي المتفلسف ، والنازي الحاقد ، والشيوعي المناوى ، وجدنا الناس يملكون اعترافا عاما بضرورة وجود سلطة الزامية تحدد لوائح السلوك الاجتماعي التي يمكن السماح بوجودها . . . ولعل هذه السلطة لا تكون ضرورية الا في ظل النظام الديمقراطي التابع من صميم سلوكنا .

(٢٢) الدولة نظريا وعمليا ٢ : ١٣١-١٣٢ .

(٢٣) الدولة : ٢١ .

(٢٤) هذه هي الفوضوية : ٦٩ .

(٢٥) ول ديورانت : مباحث الفلسفة (ترجمة الدكتور أحمد فؤاد

الامرواني القاهرة ١٩٥٦) ١ : ١١٩ .

المحافظ والشعوبية

الشعوبية نعمة خبيثة حمقاء ، ركبت رؤوس الاوغاد من حَسالات الامم ، وحرضتهم على تفتيت المجد العربي . ليتسنى لهم بناء الفردوس المشبوه الذي صممه الاستقراطية الآرية بوعي وادراك .

وهي نسبة تمردت على القياس لترتمي في احضان الشعوب . فكان الشعوبية اول النازعين الى انكار ما للعرب من فضل على تراث الانسانية ، وأول المتنافسين في الحط من السؤدد العربي . ولقد سلكت الشعوبية ، بادئ الامر ، نهج الاعتداء السياسي على الدولة العربية الاولى . . . حتى اذا اجهزت عليها لاحت في وجهها تبشير الفساد والنسر ، واعتمدت الشك أداة للهدم والتخريب . . . فأطلقت صرخاتها ، بتحفظ ، في مرصد البصرة حيث بزغ التفاضل - لأول مرة - بين العرب وغير الغرب من أمم الدنيا ، ثم اندلعت احلامها جريئة تريد ان تدمر المجتمع العربي وقد تزاومت في ضميرها المجرم ألوان متناصرة من الضغائن والأحقاد ، هاتفة بوقاحة :

فلست بتارك ايوان كسرى لتوضح أو لحومل فالدخول

فلا غرو - بعد ذلك - اذا استقام كفاح الموالي الدخلاء شعوبية مسعورة . . . تسعى ، غير مشكورة ، نحو التعصب الذميم للانساب الاعجمية ، وتجرد منكرها في شتم العروبة على صفحات كتب المثالب ، وتفرها الاماني الخلب في بث الآزاد مردية والتعالم المزدكية ، وتهيم على وجهها تحطم

دعائم الاسلام ، وتغذي - جاهدة - فكرة التسوية بين العربي والشعوبي ، وتشجع خلف الاحمر على اذاعة الشعر المنحول ، وتحت البرامكة على دعم وبائها بالمال والسلطان .. ليتاح لها - من وراء ذلك - ارتهان اللفظة العربية في صرح لهجوي مرقع بالعامية ، مزخرف بالسريانية والفارسية ، تمهيدا لدفن التراث العربي الخالد تحت ركاب هائل من القيم الاجنبية . ومن هنا أراد الشعوبيون مجتمعا نظيفا من أغاني الحياة ، زاخرا بكآبة الليلي ، لا مكان فيه للشعراء ، ولا مأوى لفحولة الرجز .. ولكن أني لهم ذلك وقد خضبت الكبرياء في صميم القومية العربية ؟ ..

ان الشعوبية آفة سياسية همت بأن تنازل الكيان العربي بضربات ماحقة انتصارا للمجد الغريب الذي ساخت به أرض العربوة ، وقآته بعيدا عن مراضها .. ولقد استيقظ أبو عثمان الجاحظ على خطرها اندامه ، فكان ألمع مفكر عربي قمع مقولاتها ، وفطن لأحاييلها .

هال هذا الرجل الحر أن يرى التكتيك الشعوبي ينبج الخطابة العربية متبرما بتقاليدها الجميلة ، وأفزعه هجوم الأوباش على الاطار البدوي الذي احتضن الاصجاز العربي ثرا وشعرا .. فنافح دون ترائه العظيم بسالة خلدته أقدر مناويء على تجريم الشعوبية في تاريخ الادب العربي . انه رأى اشعوبيين يثلبون خطباء العرب وشعراءهم ويعيبونهم على التفاهم الضاخب وبأيديهم العصي أو المقارع أو القضبان ، يأخذون عليهم مساجلة الخصوم بالشعر والثر ، والارجاز عند الاستسقاء من أعلى البئر ، والجلوس على الركبتين للخصومة ، والاسجاع عند المفاخرة بالعزة والعدد ، واستعمال المنثور في خطب الدية يحملها قوم عن قوم وعند الصلح وتطهير النفوس من أحقادها ، وفي القول عند المعاهدة والميثاق ، وترك اللفظ يجري على سجيته حتى يخرج غير مصنوع .

ورآهم أيضا يشجبون اشارة خطبائنا القدامى بالعصي واعتمادهم عليها أثناء الكلام ، ولزومهم العمائم أيام الجموع وجلوسهم في خطب النكاح ،

وقيامهم عند توكيد حرمة الجوار ، ومصافتهم بالاكف ، وتعاقدهم
على الملح •

وهؤلاء بدعواهم انما استمروا هذا النقد الظالم ليعزروه بذرائع
واهية حسبوها تنجد مثلهم بالذبوع •• ولكن الجاحظ فد باطلهم ،
وأشهر افلاسهم بلا هوادة •• بعد أن نقد حججهم نقدا عادلا •

انه استمع اليهم يقولون : « ليس بين الكلام وبين العصا سبب ، وليس
في حملها ما يشحذ الذهن ، ولا في الاشارة بها ما يجلب اللفظ • وحمل
العصا بأخلاق جفاة الصوت والكلام أشبه وهو أشكل بجفاء العرب •
وسمعهم أيضا يقولون : « الخطابة شيء في جميع الامم ، فالزنج مع
حماتهم وغبوتهم لتطيل الخطب • وان الفرس أخطب الناس ، وان أهل
فارس أخطب الفرس ، وان أهل مرو أعذبهم كلاما ، وأما أفصحهم
بالفهلوية فأهل قصبه الاهواز • ووقف على وصاياهم وأساليبهم في ترويح
بضاعتهم ، فآله أن يسمع : « من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة فليقرأ
كتاب كاروند ، ومن احتاج الى العقل والادب فلينظر في سير الملوك •
فالفرس بالالفاظ والمعاني واليونان بالفلسفة والهند بالاسرار والعلل •

كل ذلك قالوه ليصرخوا بعدئذ : « فلماذا لم يشر هؤلاء بالقنا والعصي
والقضبان والقسي ؟ ••• كلا ••• ولكنكم كنتم رعاة الابل والغنم ، فحملتم
القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر وحملتموها في السلم
بفضل عادتكم لحملها في الحرب ••

وتمادى هؤلاء الاوغاد في الاهانة ، فادعوا بأن العرب لا يعرفون قتال
الليل ولا أساليب التعبئة واستشهدوا - لاثبات ذلك - بقول الشاعر المخضرم
امية بن الاسكر الكناني والشاعر الجاهلي خداش بن زهير العامري ،
والحارث بن ضرار •

ترى •• هل يطول سكوت الجاحظ ؟ •• انها الشعوبية تذر قرنها في
محيطنا العربي !! تكلم يا أبا عثمان •

انه يتكلم .. فلنستمع اليه : « لا ... ليس فيما ذكروا من هذه
الاشعار دليل على ان العرب لا تقاتل بالليل ، وقد يقاتل بالليل والنهار من
تحول دون ماله المدن وهول الليل » ثم دلل على صحة رأيه بأقوال الشعراء :
سعد بن مالك الفارس الجاهلي ، وبشر بن أبي حازم ، وعياض الصبي
واوس بن حجر ، وغيرهم . وأكد لنا بأن العرب « كانوا اذا أجمعوا
للحرب دخنوا بالنهار وأوقدوا بالليل . » وماذا بعد يا أبا عثمان ؟

نعم .. لقد « زعم رجال من مشيختنا انه لم يقم أحد من ولد العباس
بالمك الا وهو جامع لاسباب الفروسية » .

ولكنك - يا أبا عثمان - اقتصرت ، في الرد ، على ما للعرب من باع
في الحرب .. واهملت ما يجب أن نعرفه عن تقاليد الخطابة عند العرب ،
فهلا ألقمت الشعوبية حجرا جديدا ؟

أجل ..! .. « انا لا نعرف الخطب الا للعرب والفرس ، فأما الهند
فانما لهم معان مدونة وكتب مخلدة ، لا تضاف الى رجل معروف ، ولا الى
عالم موصوف .. وانما هي كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة
مذكورة . ولليونانيين فلسفة وصناعة ومنطق ، وكان صاحب المنطق بكلي
اللسان ، غير موصوف بالبيان .. مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه
وبخصائصه ، وهم يزعمون ان جالينوس كان أنطق الناس ، ولم يذكره
بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة . وفي الفرس خطباء ، الا ان كل
كلام للفرس ، وكل معنى للمعجم ، فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد
رأي وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة
الكتب ، وحكاية الثاني علم الاول ، وزيادة الثالث في علم الثاني .. حتى
اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم . وكل شيء للعرب فانما هو بديهية
وارتجال وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكر ولا
استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام أو
حين يمتح على رأس بشر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة أو المناقلة أو عند

صراع أو في حرب ، فما هو الا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنتال عليه الالفاظ انشالا ، ثم لا يقيد على نفسه ، ولا يدرسه أحدا من ولده .. وكانوا اميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلمون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر ، وله أقهر ... وان شيئا هذا الذي في أيدينا جزء منه ، بلالمقدار الذي لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الله الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

ونحن - أبقاك الله - اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المثور والاسجاع ، فمعنا العلم ان ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب والسبك والنحت الذي لايسطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك الا في السير .

ونحن لا نستطيع أن نعلم ان الرسائل التي بأيدي الناس لنفرس انها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة .. اذ كان ابن المقفع وسهل بن هارون وأبو عبيدالله وعبد الحميد وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير . وانك متى أخذت بيد الشعبي ، فأدخلته بلاد الاعراب الخالص ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع .. علم ان الذي قلت هو الحق . فهذا فرق ما بيننا وبينهم * * *

أبا عثمان * ! .. اننا نحمد الله فيك ، ونحمده في أنفسنا ، فقد ددت - بصدق - عن معقل العروبة ... ولكني أسألك : ما كنه الشعبي ؟ .. وهل يستطيع العطار أن يصلحه ؟ وما مدى خطره على الكيان العربي ؟

« تفهم عني - فهمك الله - ما أنا قائل في هذا ، ثم اعلم انك لم تر قوما أشقى من هؤلاء الشعبيية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشآن في

قلوبهم ، وغليان تلك المراحل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطربة •
ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة • وزبي أهل كل لغة ، وعللهم على
اختلاف شاراتهم وآلانهم وشمائلهم وهيئاتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ،
ولم اجتلبوه ، ولم تكلفوه •• لأراحوا أنفسهم ولقل شعبهم ولخفت مؤونهم
على من خالطهم •

تلکم هي الشعوبية في ميزان الجاحظ ، كما دونها في كتابه البيان
والتيين ، وهي أعجز من أن تتصدى لمواكب الزحف العربي •

المحتوى

٤- ٣	المقدمة
٢٢- ٥	دراسات قرآنية
٧	النمو التاريخي للمصحف الشريف
١٤	ضوء على ترجمات القرآن الكريم
١٩	محاولات مشبوهة في تصوير القرآن
٤٨- ٢٣	مع الصحافة
٢٥	مجلة الرياحين البغدادية
٣٥	الصحافة العربية وتولستوي
٦٦- ٤٩	الاستشراق
٥١	مفهوم الاستشراق
٥٦	معالم الاستشراق السوفيتي
١١٢- ٦٧	عالم الكتب
٦٩	النشاط الفهرسي في العراق
٧٥	الموسوعة العربية الراهنة
٨٠	المطبوعات العربية في حيدر أباد
١٠٩	المفاضلة في تاريخنا الادبي
٢٧٨-١١٣	عطر وحب
١١٥	مجمة حرمل
١٣١	المعلم في مجرى التاريخ
١٥٧	مع الحمام
١٩٦	من الادب الدبلوماسي
٢١٤	رائد كبير
٢٢٣	دفاع عن فنان كبير
٢٢٨	ضوء على الشحادة
٢٦١	الزوجات والكتب

٣٧٤-٢٧٩	في الحضارة والتاريخ
٢٨١	بغداد قبل مائة سنة
٢٨٧	من تراثنا الجغرافي
٢٩٤	حديث الغراب
٣٠٢	في ربوع البلغار
٣٠٧	وشائج هندو - عراقية
٣١٤	ألفاظ البنات
٣٤٩	أثر في وادي السند
٣٥٥	نصوص نفطية
٣٦١	اليمن الغموس في مقامات الحريري
٣٦٦	الخلاف بين الجاحظ والكندي
٣٨٩-٣٧٥	من الادب السياسي
٣٧٧	جوهر الدولة بين الفوضى والنظام
٣٨٤	الجاحظ والشعبية

وزارة الثقافة والارشاد مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والارشاد المطبوعات
التالية :

- الثلث
فلس دينار
- اولا - سلسلة كتب التراث
- ١ - الدر النقي في علم الموسيقى : للمقادري الرفاعي الموصلي
وتحقيق الشيخ جلال الحنفي - ٥٠ -
 - ٢ - ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد
محمد عبد الجبار المعبيد - ٣٠٠ -
 - ٣ - مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء
لياسين بن خير الله العمري - تحقيق السيد رجا
السامرائي - ٣٠٠ -
 - ٤ - اصحاب بدر : منظومة الشيخ حسين الغلامي
تحقيق وشرح الاستاذ محمد رؤوف الغلامي - ٣٥٠ -
 - ٥ - ديوان ليلى الاخيلية : عني بجمعه وتحقيقه
خليل وجيل العطية - ٢٠٠ -
 - ٦ - الدر المنتثر في أعيان القرن الثاني عشر والثالث عشر
للحاج علي علاء الدين الالوسي ، وتحقيق الاستاذين
جمال الدين الالوسي وعبدالله الجبوري «سيصدر قريبا»

ثانيا - سلسلة الكتب المترجمة

- ١ - الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ. كاظم
نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي
ملحق -١- المستدرک على الاصطلاحات الموسيقية :
للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي - ١٠٠ -

الشمس
فلس دينار

- ٢ - رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر
نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين
قدم له وعلق عليه السيد سالم الآلوسي
- ٢٠٠

ثالثا - سلسلة الكتب الحديثة

- ١ - رائد الموسيقى العربية : تأليف عبدالحميد العلوجي ٢٠٠
٢ - معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتور حسين علي محفوظ ٢٠٠
٣ - جولة في علوم الموسيقى العربية : تأليف الاستاذ ميخائيل
خليل الله ويردي ٥٠
٤ - الحرية : تأليف الاستاذ ابراهيم الخال ١٠٠
٥ - موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي ٥٠
٦ - موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي ٥٠
٧ - النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون
العراقي : تأليف الاستاذ حامد مصطفى ٣٥٠
٨ - علي محمود طه ٠٠٠ الشاعر والانسان :
تأليف المرحوم الاستاذ أنور المعداوي ٢٠٠
٩ - مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوجي ٢٥٠
١٠ - أبو تمام الطائي : تأليف الاستاذ خضر الطائي ١٥٠
١١ - من شعرائنا المنسيين : تأليف الاستاذ عبدالله الجبوري ٢٠٠
١٢ - محمد كرد علي : تأليف الاستاذ جمال الدين الآلوسي ٣٠٠
١٣ - أدباء المؤتمر : للاستاذ عبدالرزاق الهلالي ٢٠٠
١٤ - بدر شاكر السياب : للاستاذ عبدالجبار داود البصري ١٥٠
١٥ - الواقعية في الادب : تأليف الاستاذ عباس خضر ٢٠٠
١٦ - شعراء الواحدة : للاستاذ نعمان ماهر الكنعاني ١٥٠
١٧ - لقاء عند بوابة مندلبوم : للاستاذ احمد فوزي ٢٠٠
١٨ - خسرها معركة ٠٠ فلنربحها حربا :
للاستاذ فيصل حسون ٢٠٠
١٩ - عطر وحبر : تأليف عبدالحميد العلوجي ٣٥٠
٢٠ - الدبلوماسية في النظرية والتطبيق : تأليف الدكتور
فاضل زكي محمد (يصدر قريبا) ٠٠٠

رابعا - سلسلة الثقافة العامة

- ١ - المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبدالحميد العلوجي ١٠٠
٢ - الادباء العراقيون المعاصرون ونتاجهم :
تأليف السيد سعدون الرئيس ٥٠

الشمع
فلس دينار

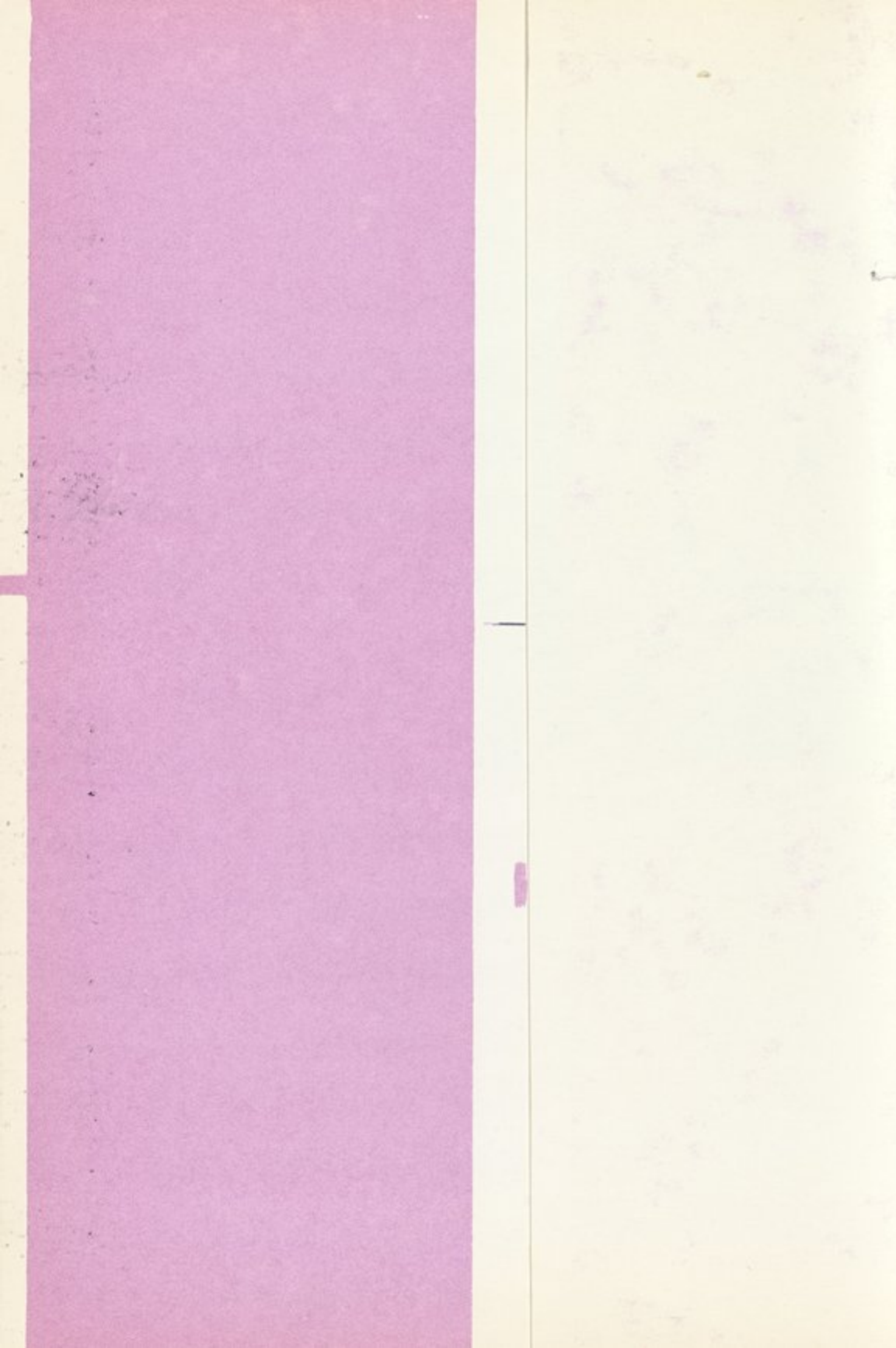
- ٣ - تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى
الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري
(نفذت نسخته)
- ٥٠
- ٥٠

خامسا - سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث

- ١ - اللهب الملقى - شعر حافظ جميل
٢ - غفران - شعر محمد جميل شلش
- ٣٥٠
- ٢٥٠

سادسا - سلسلة القصة والمسرحية

- ١ - الظامنون : للاستاذ عبدالرزاق المطلبي
٢ - عمان لن تموت : للاستاذ عبدالوهاب النعيمي
٣ - من مناهل الحياة : للاستاذ الياس قنصل
٤ - رماد الليل : للاستاذ عامر رشيد السامرائي
٥ - الهارب : للاستاذ شاكر جابر
- ٢٥٠
- ١٠٠
- ١٠٠
- ١٥٠
- ١٠٠



دار الجمهورية - بغداد
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

الثنى ٣٥٠ فلساً